جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العباسي الأول

Alienation in the poetry of AL_ sa'liik and Robbers till the end of Abbasi first Era

بإشراف

الأستاذ الدكتور

محمود درابسة

إعداد الطالب : فتحي إرشيد محمد شديفات

الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العباسي الأول

Alienation in the poetry of AL_ sa'liik and Robbers till the end of Abbasi first Era

إعداد الطالب :

فتحي إرشيد محمد شديفات

بكالوريوس لغة عربية ، جامعة اليرموك ، 1980 م

ماجستير أدب ونقد ، جامعة آل البيت ، 2000 م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في تخصص الأدب والنقد في جامعة اليرموك ، اربد – الأردن .

وقد وافق عليها

الأستاذ الدكتور : محمود محمد حسن درابسة .... مشرفاً رئيساً

أستاذ في النقد الأدبي / جامعة اليرموك .

الأستاذ الدكتور : عفيف عبد الرحمن .... عضواً

أستاذ الأدب الجاهلي / جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور : موسى ربابعة .... عضواً

أستاذ الأدب الجاهلي / جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور : ماجد الجعافرة .... عضواً

أستاذ الأدب العباسي / جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور : يحيى وهيب الجبوري .... عضواً

أستاذ الأدب الجاهلي / اربد الأهلية

تاريخ مناقشة الأطروحة

2006 / 8 / 9

الإهداء

إلى روح والديّ العزيزين .

وإلى أفراد أسرتي .

ممثلاً بالزوجة والأبناء والبنات .

لصبرهم وتحملهم البقاء إلى جانبي .

وإلى جميع من قدم لي يد العون .

من أخوة وأخوات وزملاء في ميدان العمل .

أقدم لهم هذا العمل المتواضع .

شكر وتقدير

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين والصلاةُ والسلامُ على سيّد المرسلين وبعد :

يسرني وأنا أقفُ في هذا الصرح العلمي الكبير، بين نخبةٍ من أساتذتي الأفاضلِ الذين كان لهم الفضلُ الأكبرُ في توجيهي وإرشادي للوصول إلى نهاية هذا العملِ وقبل ثلاثين عاماً كنت طالباً بين هذه النخبةِ التي ما بخلتْ يوماً بالعطاء ، والتي كان لها شرفُ صقلِ المواهبِ، وتقديمِ الخبراتِ والتجاربِ ، وعرفاناً مني بما أسدوه لي من النصحِ، وما قدموه لي من علمٍ ومعرفة ، فإنني أعودُ ثانية لأتواصلَ مع أهل العلم والمعرفة وأنهلُ من معين معرفتهم وخبرتهم وتجاربهم ، ولهم مني كل محبةٍ وتقدير . فإذا أخفقت في بعض الجوانب فبسبب تقصيري ، وإذا أصبتُ فمن نصحهم وإرشادهم .

بداية فأنني أتقدمُ بالشكر والتقدير لأساتذتي الأفاضلِ كل من الأستاذ الدكتور محمود درابسة المشرف على رسالتي والذي كان له الفضل في توجيهي لدراسة هذا الموضوع (الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العباسي الأول) لما في هذا الموضوعِ من أهميةٍ للعودة إلى تراثنا والبحث في مظانه عن جواهره ودرره ، و الذي كان له الدور البارز في اختيار الموضوع ليتلاءم مع موضوع رسالة الماجستير في الأدب والنقد القديم .

كما واشكر الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن أستاذي وأستاذ الأدب الجاهلي ، فقد تتلمذتُ على يديه ودرست عدة مساقات تتعلق بموضوع دراستي مما دفعني إلى الاستمرار في هذا النهج للوقوف على الجوانب التي تتعلق بالحياة الجاهلية والظروف التي دفعت هذه الفئةَ إلى التمردِ والثورة .

واثني بالشكر والتقدير على الأستاذ الدكتور ماجد جعافرة الذي كان مثالا في مناقشته والإشارة إلى أهمية العناية بالتراث والبحث في مصادره ، والوقوف على إيجابياته . فالقديم هو المصدرُ والنبعُ ، والحداثة والمعاصرة امتداد للمنابع السابقة ولا تغني عن جواهر التراث . كما وأتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ موسى ربابعة الذي كان له مؤلفاتٌ ثرةٌ في هذا

المجال قد أفدت منها في دراستي وأنارت لي بعض الجوانب الأسلوبية والبلاغية التي أثرت رسالتي .

وأرحب بالأستاذ الدكتور يحيى الجبوري ضيفاً من جامعة اربد الأهلية في رحاب جامعة اليرموك ، الذي ما توانى يوماً عن نصح أو توجيه وقد كان أستاذي في جامعة آل البيت في المرحلة الدراسية السابقة . وقد تكلف دراسةَ هذه الرسالة والحضور لمناقشة الباحث .

اشكر أساتذتي الكرام ممثلين بالمشرف على رسالتي بالأستاذ الدكتور محمود درابسة المشرف على رسالتي . والأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن ، والأستاذ الدكتور ماجد الجعافرة ، والأستاذ الدكتور موسى ربابعة ، والأستاذ الدكتور يحيى الجبوري . الذين كان لهم شرفُ المساهمة في دراسة هذا العمل وتقويمه للوقوف على جوانب الخلل وتصويبها ، وإخراجه إلى حيز الوجود بالشكل المناسب ، وإيماناً مني بأهمية ملاحظات أساتذتي الأفاضل فإنني سآخذ كلاً منها وأضعها موضع التنفيذ .

فإن أصبت فبتوفيق من الله وإذا أخطأت فأملي وثقتي كبيرة بأساتذتي في وضع الأمور في نصابها وإرشادي إن ضللت .

المحتوى

الملخص

كانت حياة الصعاليك واللصوص مضطربة قلقة ؛ لأنهم عاشوا حياتين قبل الصعلكة وفترة الصعلكة ، وعاشوا في مجتمعين : مجتمع القبيلة ومجتمع الدولة والسلطة . كذلك كانت حياة الصعاليك واللصوص بين المواجهة والتحدي والتمرد ، وبين الخضوع والاستسلام . يعيش بين الحرية وبين مصادرتها ، و تسليم الحرية لتأمين العيش الكريم وتوفير الأمن والاستقرار . و بدأ التمردُ و الثورةُ على القيم والأعراف والتقاليد والقوانين المتحجرة المتمثلة بنظام القبيلة أو الدولة عند خيبة الأمل في تحقيق هذه الطموحات ، وعندما حاول استرداد الحرية تأبّت عليه ، فكان لا مجال إلا التمرد والخروج ، فكان هناك ثلاث مراحل قد مروا بها . المرحلة الأولى تسليم الحرية والحياة الطبيعية ، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الطغيان والاستبداد والظلم ، والمرحلة الثالثة استرداد الحرية[1]. وإزاء التنازل عن الحرية كان هناك شعور بالعجز عن التكيف ، و انقسم الصعاليك واللصوص بين رافض للنظام والرتابة والتقاليد والأعراف ، وخاضع ضعيف يقيم على الذل والهوان .

فالفئات المتمردة كان منهم الخلعاء الذين تبرأت منهم قبائلهم لسوء تصرفاتهم وكثرة جناياتهم ، ومنهم الفارون من وجه العدالة ؛ خوفا من السلطة أو الدولة ، وكثيرا ما كانت تطاردهم القبائل أو الدول ، فيكون مصيرهم القتل أو السجن . وكذلك منهم فئة الفقراء الذين خرجوا على قبائلهم بسبب الظلم والفقر والجوع الذي وقع نتيجة التفرقة والتمييز والطبقية . يضاف لهم الفئات الخاملة التي ارتضت بحياة الذل والعبودية ، و هم أسرى الحروب ، وأبناء العبيد و الموالى وأبناء الإماء أو الأغربة و الهجناء الذين لحق بهم السواد من أمهاتهم . واختلفت أهداف الصعاليك وأساليبهم بين أهداف شخصية كالشنفرى ، وأهداف إنسانية كعروة ابن الورد ، وطموحات سياسية كابن الحر الجعفي[2] .

---

[1] رجب ، محمود ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، دار المعارف ، ط 4 ، 1993 ، ص 57 .

[2] عطوان ، حسين ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، دار المعارف – مصر ، ص 78 .

كما اختلفت وسائلهم لتحقيق طموحاتهم بين السطو والسلب و النهب ، والإغارة والشدة والعنف ، وبين اللجوء إلى الشكوى والتظلم ، أو اللجوء إلى المدح إرضاءً للممدوح ، الذي تحول إلى الهجاء والتشهير به عند فقدان الأمل بالعطاء[1] . ومما دفعهم للغربة ظروف خارجة عن إرادتهم ولا حول لهم بدفعها . فالفقر والجوع بسبب الطبقية والنظرة الدونية لمكانتهم الاجتماعية . وعقدة اللون التي كانت تلازمهم حتى وان كان آباؤهم أحرارا، فالعبد عبد منذ الولادة وبالوراثة ، والسيد سيد بالوراثة ، وخلع القبائل لهم بسبب كثرة جناياتهم وسوء تصرفاتهم .

وكانت الغربة بسبب عدم الانتماء أو الانسجام والتكيف مع المجتمع . غربة قسرية فرضتها الظروف الاقتصادية والاجتماعية و السياسية ، والغربة بسبب المرأة التي سخرت من سواد لونه وفقره ، فاغترب لتحقيق التواصل ، ولتلبية رغباته في الحصول على الغنى . وكانت غربة المعارضة لتحقيق التغيير أو الإصلاح أو رغبة في المشاركة في بناء الدولة ، والحصول على المناصب السياسية أو المساهمة في الفتوحات ، أو البحث عن مصادر للرزق .

و أما الاغتراب فكان اغترابا اختياريا للعجز عن التكيف فهو اغتراب طوعي ، وعند عدم الانسجام والانتماء وكان الاغتراب تفضيل الوحدة والعزلة والانكفاء على الذات .وفيه شعور بالقلق و الاضطراب والتناقض الذي يعيش فيه الصعاليك واللصوص ؛ بسبب التعارض بين الواقع المظلم والطموح ، والتعارض بين الداخل والخارج ، بين الوجود الأصيل والوجود الزائف ، وبين الانتماء وبين عدم الانتماء[2] . فكانت حياتهم كمن يعيش في مجتمعين ، مجتمع القبيلة الذي لا يجد معه التوافق والانسجام ، ومجتمع الصعاليك واللصوص الذي حاول أن يكون طرفاً فاعلاً في بنائه، ووضع قراراته والذي يحقق طموحاته وأماله ويمنحه الحرية للتعبير عن آرائه وأفكاره .

ويرفض الصعاليك و اللصوص المجتمع الذي يملي عليه قوانينه ويسلب إرادته ، فبدلاً من التنازل عن الحرية لصالح المجتمع ليحقق له الأمن والاستقرار ، سلبت هذه الحرية وعندما

---

[1] عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 75 .

[2] رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 102 .

حاول استردادها اعتبر خارجاً على قوانين المجتمع وتقاليده وأعرافه ، ومثال ذلك فقد سبيت أم الشنفرى وأخوه الأصغر وعمل في رعاية الغنم ، وعندما حاول النظر إلى ابنة مولاه رُفض ولطم . فالأعراف القبلية حدود وحواجز لا يسمح له تخطيها ، وُقتل والده وسبيت أمه ولم يستطع المطالبة بثأر والده لأنه ليس له حق المطالبة ؛ لأنه من أبناء الإماء فقط . وكان سواد لونه سبة أو عاراً و المطالبة بحقوق الطبقة الفقيرة تعدٍ وتجاوزٌ على كل الأعراف والقواعد والقوانين التي استعبدته ، إذ أصبحت المطالبة بحقوقه تمرداً وخروجاً على المجتمع فهناك من تمرد بالأفعال والسلوك . وطائفة أخرى من الصعاليك واللصوص مارست التمرد بالشكوى والاحتجاج قولاً لا عملاً ، تطلب النصرة فلم تُنصر على عدوها ، ومثال ذلك قول محرز المكعبر للذين لجأ إليهم يعرض ببني عدي الذين لم يردوا إبله كما فعل المازنيون فقال فيهم[1] :

وانّي لراجيكم على بُطءِ سَعيكم	كما في بُطونِ الحاملاتِ رَجاءُ
فَهَلا سَعيتُم سَعيَ عُصبةِ مازنٍ	وَهَل كُفَلائي في الوفاءِ سَواءُ

ومنهم ذو نزعة إنسانية يرى أن عليهم حقاً في إنصاف الفقراء كما هو الحال عند عروة ابن الورد حيث يقول [2] :

أليسَ عَظيماً أن تُلِم مُلمةٌ	وليسَ عَلينا في الحقوقِ مُعَوّلُ

---

[1] المرزوقي ، أبو علي احمد بن محمد بن الحسن (ت 421 هـ) ، **شرح ديوان الحماسة** ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1991 ، 1455/4 .

[2] المصدر نفسه ، 1169/4 .

محرز بن المكعبر : كان جاراً لبني عدي بن جندب ، فأغار بنو عمرو بن كلاب على إبله فذهبوا بها ، فطلب إليهم أن يسعوا له فوعدوه أن يفعلوا ، فلما طال ذلك عليه ، ورآهم لا يصنعون شيئاً ، أتى المخارق والمساحق المازنيين وهما من بني خزاعة وسعيا له بإبله فرداها عليه (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1455/2 ، عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، دار العلوم للطباعة والنشر 1983 ، رقم الترجمة 582) .

ونجد التناقض في سلوكهم بين نفس ثائرة متمردة على كل القيود والأعراف حتى سموا بشعراء الرفض ، ونفس رقيقة العواطف والمشاعر تجاه المرأة ، وكيف يتماسك ويكظم ما به من وجد ، وما أحس من ألم الفراق ، خوفاً من أن يراه صاحباه ولكن عبراته سرعان ما خانته فهاهي تسيل على خديه ، وتكشف عن خلجات نفسه قال عطارد بن قران[1] :

ولما رأيتُ البِشْرَ أعرضَ وانثنتْ	لأعرافِهمْ من دون نجدٍ مواكبُ
كتمتُ الهَوى من رهبةٍ أن يَلومُني	رَفيقاي وانهلتْ دموعٌ سَواكِبُ

فهناك من يرى نفسه فرداً أو جزءا من القبيلة توفر له الأمن والحماية ، فهو فرد في الجماعة ولا يعرف إلا من خلالها ، كمن ينسب إلى مولاه من أبناء الإماء، فهو شخصية زائفة تتخلى عن المسؤولية الملقاة على عاتقها ، وتهرب من واجباتها ؛ لتضع اللوم على القبيلة أو الجماعة التي تنتمي إليها ، يرى أن المجتمع مجتمع تعاوني لا تصارعي أي أن التصارع والتعارض سببه الملكية الفردية . وسبيل إعادة التوازن للمجتمع إلغاء الملكية و الفردية . في حين يرى آخرون أن الملكية عمل إيجابي وليس سلبياً ؛ لأنه يدعو إلى التنافس .

وكما يشكو الشعراء العذريون البعد والفراق ، وعدم التواصل واللقاء خوف الوشاة وخوف الرقيب والقمع الاجتماعي ؛ فإن الشعراء الصعاليك قد تعرضوا للتشرد والمطاردة فزاد الحنين إلى الاستقرار،حتى صار الغزل بالزوجة بدل الغزل بالمحبوبة ، فكلا الطرفين الزوج والزوجة من الصعاليك واللصوص يعاني من البعد والفراق، لكن العذريين اختاروا فنا أدبيا وابتكروا الغزل العذري ، فكانت العلاقة مع مجتمعهم تميل إلى المصالحة والعمل الايجابي، وكتمان المشاعر والقبول بالعزلة والوحدة، التي فيها الخضوع والاستسلام والقبول بالأمر الواقع ، ورغبوا عن المواجهة والتحدي .

أما الشعراء الصعاليك فقد اختاروا جانب العنف والتمرد ، ورفضوا حياة الذل والعبودية ، لا من أجل الرفض بل من أجل المحافظة على الكرامة ، فاغترب عن المرأة

---

[1] الملوحي ، عبد المعين ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، دار الحضارة الجديدة – بيروت ، ط2 ، 1993 ، ص 103 .

وانظر عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 89 .

عطارد بن قران : هو أحد بني صدي بن مالك كان يهاجي جريرا وهو شاعر أموي حبس مرارا بنجران وفي حجر وشعره قليل (عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 17) .

لرفضها الاقتران به لفقره ولسواد لونه ، وسوء نظرة المجتمع إليه . وشعر بهوان منزلته وغربته ، فشكا البعد وألم الفراق عن القبيلة ، التي تمثل الأمن والاستقرار ، وساءت علاقته بالمرأة نتيجة سوء علاقته بالقبيلة .

فالمرأة تمثل الجانب المتمم بالنسبة إليه وإن أكثرت من لومه أو أعرضت عنه ، وإن حال بينه وبينها قمع المجتمع ، فلن يستطيع منع طيفها فجعفر بن علبة يصف لهفته على زوجته وإخلاصه لها وصبره على بُعدها بسبب بُعده بَعد أن حال بينهما السجن فقال[1] :

هَوايَ مع الرَّكبِ اليمانينَ مُصْعِد	حبيبٌ وجُثمَاني بمكةَ مُـــــوثقُ
فَلا تحسَبي أنّي تخشّعتُ بَعدَكمْ	لشيءٍ ولا أنّي مـــن الموتِ أفــرَقُ
وَلا أنّ نفسي يَزدَهيها وعيدُكُــمْ	ولا أنّـــني بالمَشي في القيدِ أخرَقُ
ولكنْ عَرَتني من هواكِ صَبابــةٌ	كما كنتُ ألقى منك إذ أنا مُطلـــقُ

---

[1] انظر، المرزوقي ، شرح الحماسة ، 54/1 .
عطوان ، الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، ص 365.

المقدمة

أما عن موضوع رسالتي فتعود بنا إلى أدب التراث ومناهل المعرفة في الأدب الجاهلي وقبل الإسلام وتطور هذه الفئات خلال العصر الإسلامي والأموي والعباسي جاءت هذه الدراسة في أربعة فصول تناول الفصل الأول ظاهرة الغربة والاغتراب ، فالغربة كانت بدوافع اجتماعية واقتصادية ، كالطبقية والفقر والجوع والظلم والتمييز بين أبناء الأماء وأبناء الصرحاء ، ورفض للقيود والقوانين والأعراف أو خلع القبيلة لمن تمرد على قوانينها وجورها . أما الاغتراب فكان نتيجة الشعور بالظلم والعجز عن التكيف مع المجتمع أو التغيير فيه ، فكانت الغربة قسرية لا يد للإنسان فيها ، بينما كان الاغتراب أمرا طوعياً بإرادة الإنسان واختياره .

الفصل الأول يتناول مفهوم الغربة والاغتراب التي فرضت على الإنســان ، ولا يد للإنسان في صنعها، كالفقر والجوع والخلع والموت . وانعدام الناصر بالدلالة الاجتماعية وخذلان الأصدقاء . وكان الاغتراب بسبب سوء الظروف والانفصال عن مجتمع ؛ بسب الظلم والاضطهاد بحثاً عن الرزق أو طلباً للنصرة أو أخذاً بالثأر، وكذلك سوء النظرة لمكانته الاجتماعية. كما تناولت مفهوم الصعلكة واللصوصية والشطار والعيارين وهي ظاهرة التمرد والثورة على المجتمعات منذ الجاهلية وحتى العصر العباسي ، فاختلفت التسميات والأساليب والأهداف باختلاف العصور ، فالصعلكة كانت بدافع الفقر والجوع والشعور بالظلم، وكانت اللصوصية في العصر الأموي استمراراً للتمييز والطبقية في العصر الجاهلي بعد اختفاء اللصوصية في الإسلام لمعالجة أسباب التمرد . وتمثلت - إضافة لذلك - بالمعارضة والخروج على النظام والسطو على بيت المال ، والطموح بالمشاركة السياسية . فأنشئت السجون و زج اللصوص و المعارضون في غياهبها . واختلفت هذه الحركات فكان المجتمع العباسي أكثر تحضراً واستقراراً إلا أن التعاون بدا واضحاً بين فئات الشعب ولم تعمد فئات العيارين والشطار إلى النهب والسلب بشكل عام بل لجأت إلى الحيلة والخداع والتكسب بالشعر وزيارة القصور والمشاركة في القتال فاعتمدت على الأساليب الذهنية كما اعتمدت على القوة الجسدية .

والفصل الثاني يتناول أنواع الاغتراب كالاغتراب الاجتماعي وما يتفرع عنه من عقدة اللون ، والطرد ، والخلع ، والنفي ، والثأر، والخروج على القبائل ، ولا ننسى دور المرأة وموقفها من الفقر ولومها للزوج. والاغتراب الاقتصادي الذي يناقش الاختلال الاقتصادي بين الغنى والفقر، وأسباب الطبقية والإقطاع ، والطبيعة الجغرافية القاسية ، والثنائية الضدية بين خصب وجدب وبين الثراء والجوع . والاغتراب هو البعد والرحيل والتنقل حين انقسم الصعاليك واللصوص بين من رضي بالذل وعاش حياة الذل والعبودية وأقام في قبيلته، وبين من تمرد على الأعراف والتقاليد وناصب القبيلة العداء. واختفاء هذه الظاهرة في العصر الإسلامي عندما عالج الأسباب التي دعت لظهورهم ، ثم ما لبثت أن طفت على السطح من جديد ،فتمرد الكثيرون وامتنعوا عن دفع الزكاة أو الضرائب ؛ لسوء القائمين عليها عند التحصيل وعند التوزيع .

واستمرت المعاناة في العصر الأموي والعباسي، حيث تركزت الثروة في أيدي بعض الفئات وحرمت الفئات الأخرى . وزاد الخارجون على النظام، وتشكلت جماعات منظمة أخذت تغير على بيوت المال، وأصبحت تهدد السلطة والنظام . وظهر نتيجة لذلك الاغتراب السياسي كفئات معارضة وأحزاب وطوائف، وزاد التعدي على رموز الخلافة ، أو أصحاب النفوذ . وحدثت أحداث كان الموالي أسبابها ووقودها ، بعد فقدان العدالة والمساواة والمطالبة بالحقوق .

وكرد فعل على العصبية القبلية ظهر ما يسمي بحركة الشعوبية، التي تعتز بقوميتها وتقلل من شأن العرب . ونتيجة لذلك زاد التدخل الأجنبي من العناصر غير العربية، وانضم إليها كل خارج على القانون ، فزادت هذه الفئات قوة وصلابة وتنظيماً، وأعدت السجون للخارجين على النظام . فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من تعرض لأشكال التعذيب المختلفة ، فيقيد بالسلاسل والأغلال ، وقد يواجه أسدا جائعاً ، أو يقتل سجانه فيقتص منه ، أو تدفع الدولة أموالا لمن يقبض عليه . وتساعد القبائل في القبض على الخارجين ، وقد يسجن أقاربه ليسلم نفسه . فكان اللون الآخر هو الاغتراب الثقافي نتيجة زيادة الوعي واختلاط العناصر العربية وغير العربية. والمطالبة بالحقوق ونشر العدل ؛ نتيجة زيادة الظلم والاضطهاد ، ورفض سواد الناس تسلط أصحاب الجاه والثراء ، وضعف الوازع الديني ، لفساد الأسرة وكثرة القيان .

وأما الفصل الثالث فكان الظواهر الفنية في شعر الصعاليك واللصوص التي تتمثل في غياب المقدمة الطللية والنسيب ، لذا كان شعرهم مقطوعات تعالج موضوعاً واحداً مستقلاً ولا

وقت للفن عندهم إلا ما كان قبل الصعلكة ؛ لانشغالهم بكسب الرزق والمطاردة .وخفوت الصنعة الفنية ؛ لغياب التنقيح والتجويد ، وبروز الروح القصصية، فكانت مقطوعاتهم تتعلق بمناسبة أو حادثة تتعلق بمذكراته الشخصية، يثبت فيها ذاته ويظهر بطولته .

وكثيراً ما تحتاج قصائدهم إلى معجم شعري؛ فلغتهم لغة الفطرة ، ولغة الاحتجاج، ولا يندرج هذا الحكم على طوائف الصعاليك ، فهناك عروة بن الورد زعيم الصعاليك الذي كانت لغته أقرب إلى التواصل والشعبية فهو صاحب مذهب ، والداعية يريد التواصل مع الآخرين لا الانفصال عنهم . وإذا خرج الصعاليك و اللصوص على قبائلهم أو خلعتهم قبائلهم، فإنهم لم يخرجوا على البناء اللغوي العروضي . فالتزموا بالبحور الشعرية والقوافي والأوزان، ومالوا إلى الرجز والأوزان الخفيفة التي تناسب الحداء . و موضوعاتهم تعالج الواقع وتتصل بحياتهم اليومية ، فلم يكن الخيال إلا في قصائدهم التي تتحدث عن حيوانات الصحراء والغول والسعلاة والجن، أما بقية الموضوعات فكانت في ما يمس حياتهم من جوع وفقر وظلم واضطهاد وغياب العدالة والمساواة ، فالغربة في الطبقية بين الأغنياء والفقراء ، والعنصرية بين أبناء الإماء وأبناء الصرحاء . والظلم الاجتماعي من عدم إلحاق الابن بوالده إن كانت أمه من الإماء . وكثير منهم نسب إلى أمه كالسليك بن السلكة وخفاف بن ندبة ، وقيس بن الحدادية.

ودرست في الفصل الرابع ثلاث قصائد كنماذج تطبيقية لألوان الاغتراب. فكانت مقطوعات القتال الكلابي تمثل الاغتراب المكاني والنفسي والاجتماعي بعد كثرة جناياته وتماديه في القتل وزيادة جرائمه . وكان اغتراب أبي خراش اغترابا اجتماعيا إذ يجرد من زوجته محاوراً وتنشطر الذات بين مخاطِب ومخاطَبَ يقدم ما يدل على صدق رأيه وصواب نظرته . أما النص الثالث فهو يمثل مواجهة الاغتراب المكاني والنفسي إذ يواجه جحدر الأسد الجائع ويشترط علية الحجاج ذلك لإطلاق سراحة ، فكان بين الأمل بالحرية والقضاء على الأسد وبين اليأس من الخروج من السجن ألا بمنٍ من الحجاج .

فكان أسباب اغتراب الصعاليك واللصوص البحث عن التوازن الاقتصادي والاجتماعي، والبحث عن العدالــة ، ونيل الحرية بعد مصادرتها ، ويعد الاغتراب اعتداداً بالنفس وبالذات والتحلل من النظام القبلي ، الذي لم يعد يلبي الآمال والطموحات ، ولم يكن خروجهم تمرداً وانحرافاً بل أن الظروف المحيطة هي التي أجبرتهم على الخروج ، كما أن هناك من كانت طبيعتهم شريرة ، وهناك من قبل العبودية والذل .

ويمكن أن نضيف فئة أخرى جمعت بين الشر والنزعة الإنسانية بدلاً من العبودية، كعروة بن الورد الذي كان يقوم على رعاية أصحاب الكنيف ، ويؤثرهم على نفسه ،وعبيد الله ابن الحر الجعفي الذي كانت له طموحات سياسية، إذ جمع حوله الثائرين وأخذ يغير على بيوت المال وليس على القبائل والأسواق ، و يقسّم غنائمه على رفاقه . وهذه النماذج لم تكن بحاجة إلى المال بل كانت تؤثر غيرها على نفسها، وتعويضاً عما أصابها من جور بسبب حرمانها من المساواة خرجت على مجتمعاتها ؛ لسوء نظرة المجتمع لها ، وعدم إنصافها ، وعدم توافقها مع مجتمعاتها فكراً وسلوكاً .

واختلفت النظرة إلى هذه الفئات بين من يراها جماعات ثورية متمردة على النظام والقانون ؛لتغلب مصالحها الفردية الضيقة على مصالح الآخرين بنظر السلطة التاريخية، وبين النظرة إليها كفئات معارضة تطالب بحقوق الآخرين وحقوقها بعد أن صادرتها السلطة وطغت وتجبرت ، فالعامة و دعاة التحرر ترى فيهم قوة محررة ، مطالبة بالمساواة والعدالة ، وإلغاء الفوارق الطبقية والعرقية . وهناك من يرى أنه جزء من القبيلة وخروجه لا يحقق توافقاً أو انسجاما، وإنما يحاول أن ينبه لمواطن الخلل والتباين . و يبقى جزءاً من القبيلة التي تؤمن له الحماية والرعاية الفردية مقابل التنازل عن حريته وحياته ،فالعلاقة مع القبيلة علاقة تعاونية لا صراعية .

والطرف الآخر يرى انه فرد يقابل القبيلة يتميز بذكائه وتفوقه ولا يتنازل عن حريته ، وإنما يحقق ذاته بمفرده ، فليس هو ترساً في آلة ، أو فرداً في جماعة ، وليست ثورته لتلبية حاجات عضوية ، أو بتوجيه من أحد ، ليكون طرفاً فاعلاً مؤثراً في صنع القرار وتوجيه الأحداث . لا فرداً خاملاً يوجه وينفذ تحت وطأة الحاجة . فلا أعلو على الغير ولا اترك الغير يعلو عليّ أو تؤمن بالقول " إذا لم تكن معي فأنت ضدي ، بل إذا لم تكن معي فأنت لا تعمل ضدي". فهو ينتقد جميع الأعراف والقواعد والقوانين والنظام القبلي ، وينعتها بالقوانين المتحجرة ، ويعجز عن أن يصوغ قانوناً أو نظاماً يحقق العدالة والمساواة ويرضي البشرية . وهناك من يرى الحل بالحب أو الاشتراكية أو إلغاء الملكية أو التنازل عن الحرية ،وهذه الحلول مؤقتة ولا يمكن أن ترضى فئات المجتمع، بل الحل بإلغاء الظلم وقيام العدالة ، وإلغاء أسباب التفاوت الطبقي والتباين .

الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العباسي الأول

تمهيد :

تعد ظاهرة الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص من الظواهر التي لها جذور تاريخية منذ الجاهلية ، كما أن لها امتدادا حضارياً إلى نهاية العصر العباسي الأول، والشعراء الصعاليك هم الذين خرجوا على قبائلهم طوعا ، أو طردتهم وخلعتهم قبائلهم قسرا ، وانقسموا إلى طوائف عاملة رضيت بالمطاردة والتشرد واختاروا الجوع واللجوء إلى الصحراء مع المحافظة على الكرامة . واتصفت حياتهم بالشدة والسطو والسرعة والاغتراب عن قيم وتقاليد وأعراف مجتمعاتهم . والقسم الآخر الطائفة الخاملة التي رضيت بالحياة الذليلة في أكناف البيوت .

وعاش هؤلاء الصعاليك فترتين فترة الانتماء إلى القبيلة قبل الصعلكة ، وفترة الخروج على القبيلة والتصعلك . ولا تقتصر الصعلكة على العصر الجاهلي . فهي لا تختص بعصر أو بقوم بل أن حركة الصعلكة مستمرة ومتجددة في أسبابها وأهدافها وغاياتها وأساليبها ، وتطورت تسمية الصعلكة إلى لصوص وفتاك ثم عيّارين وشطار ، فكانت تقتصر على طبقة الفقراء والخلعاء و الأغربة أو الهجناء وأبناء الإماء وتطورت في العصر الأموي من حركة فردية إلى حركة أو حركات جماعية أو تكتلات منظمة تشكل أحزابا[1] . واختلفت الأسباب التي كانت وراء ظهور الصعلكة في الجاهلية سواء الفقر والجوع ، أو الطرد والخلع ، أو بسبب الشذوذ والانحراف و كثرة الجنايات والسطو والنهب والقتل، وكذلك الظلم والجور الذي لحق بهذه الفئات .

بينما كانت فئة الصعاليك واللصوص في العصر الإسلامي و الأموي تطمح إلى مناصب سياسية أو تغيير النظام أو الخلافة ، أو محاولة إصلاحها إذا تعذر التغيير . وكان تدخل الموالي- الذين شعروا بالظلم - في كل فتنة ، وراء الثورات وهم وقودها وخصوصا في العصر الأموي ، ونشأت حركة الشعوبية رداً على العصبية القبلية التي تمثلت باعتماد الدولة الأموية على العنصر العربي[2] وهذه الحركات كان خطرها وحقدها يتمثل بقتل الخلفاء كأبي لؤلؤة المجوسي الذي

---

[1] عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 75 .

[2] المرجع نفسه ، ص 78 .

اغتال الخليفة عمر بن الخطاب الذي قضى على الرمز الفارسي ومجدهم في فتوحاته ، واستمرت هذه الفتن بقتل الخليفة عثمـــــان وما حدث من انقسامات حول المطالبة بالخلافة و التدخلات في شؤون الدولة الإسلامية . وما يتبعها من صراع على الخلافة بين الأمويين أنفسهم أو بين الأمويين والعباسيين . وكان لهم دورهم في القضاء على الخلافة الأموية ومناصرة الخلافة العباسية التي دعت إلى المساواة [1] .

واتخذت حركة الصعلكة في العصر الأموي أساليب جديدة كالإغارة على بيت المال ، والمطالبة بمناصب سياسية ، أو المشاركة في الحكم، والدعوة للمساواة والعدالة الاجتماعية . فكان من أسباب استمرار حركة الصعلكة بالرغم من سطوة الدولة وقوتها اختلال النظام الاقتصادي ليس لقلة الموارد بل لسوء توزيعها على المؤيدين والحاشية والجيش والقضاء على المتمردين ، وزادت الضرائب والخراج حتى على الفئات المعفاة واستخدمت القوة في تحصيلها . والسبب الأخر اختلال النظام الاجتماعي الذي يعتمد على الطبقية والإقطاع والتميز العنصري بين طبقة فقيرة وطبقة غنية ، كطبقة الخلفاء والولاة والقادة والتجار، وطبقة العبيد من رعاة وفلاحين وحراس القوافل وكذلك بين من لا يملك ويسعى للإنفاق ، وبين من يملك ويمنع الإنفاق وأيضا بين أبناء الصرحاء وبين أبناء الإماء والعبيد والأسرى . ففقدت الدولة المساواة والإنصاف بين أبناء الرعية[2] . وكانت الفتن والثورات من أسباب الاضطراب السياسي والاجتماعي والاقتصادي نتيجة سوء الأوضاع الاقتصاديـــة والاجتماعية والسياسية . فالمجتمع قائم على الطبقية بين السادة والعبيد ، وكذلك بين الظلم والاستبداد، وبين الخضوع والاستسلام . ففئات الصعاليك أشبه ما تكون بالعصابات المنظمة فكان عبيد الله بن الحر الجعفي زعيم هذه الجماعات كعروة بن الورد ينظم صفوفهم ويغير معهم على بيوت المال ويوزع الغنائم على من شارك معه أو لم يشارك وعندما اشتدت سطوته تتبعته جيوش الأمويين إلى أن مات غرقا [3].

---

[1] انظر عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 78 .

عروة بن الورد : هو عروة بن الورد بن زيد بن عبدالله من بني عبس من الشعراء الصعاليك بل هو أبو الصعاليك وكان من أسباب خروجه اضطهاد أبيه له ، وتفضيل أخيه الأكبر عليه واحتقار قومه له لدنو منزلة أمه في نسبها . (عبد الرحمن ، عفيف ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، دار العلوم للطباعة والنشر ، 1983 رقم الترجمة 317 ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، ابو الفرج ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، دار الثقافة بيروت ، 1960 ، 73/3) .

[2] المرجع نفسه ، ص 80 .

[3] المرجع نفسه ، ص 80 .

وتعود أسباب غربة الصعاليك و اللصوص في مختلف العصور إلى الظلم وغياب العدالة والمساواة ، إضافة إلى كثرة الجنايات والجرائم ، وذلك بسبب السطو والنهب والثأر والكر و الفر والخلع . كما أن عقدة اللون من العوامل النفسية التي زادت من انحرافهم لما وقع عليهم من ظلم ، أو على أمهاتهم . وقضايا اجتماعية واقتصادية وسياسية .

وكانت ردة الفعل عنيفة إما بالتمرد وقطع الطرق واللصوصية ، أو بالشذوذ والانحراف والمطاردة ، وانتهى بعضهم إلى السجن أو القتل [1] . ولم يكن الفقر هو السبب في تمردهم وانحرافهم لولا الاستعداد والتهيؤ النفسي للشر والتمرد . كما لم تكن صفة التمرد غالبة عليهم فهناك من كان ذا نزعة إنسانية كعروة بن الورد الذي آثر غيره على نفسه ، وأعجب به خلفاء بني أمية ." فقال عبد الملك:" من زعم أن حاتما أكرم الناس فقد ظلم عروة " وقال معاوية :" لو كان لعروة ولد لأحببت أن أتزوج إليهم "[2] . فالناحية النفسية التي كان يعاني منها إضافة إلى النقص الذي كان يشعر به وراء الدوافع لإيثاره الآخرين ، والقيام على خدمة أصحاب الكنيف ، فالشعور بالنقص للهنات في أخواله نهد، وزواجه من سليمى وليلى وهن من الإماء ، وعدم وجود عقب له ، وكراهية قومه لوالده لدوره في حرب عبس و ذبيان ، ومما زاد في شعورهم بالتمرد نظرة الازدراء لهم ولأمهاتهم من المجتمع والاحتقار لآبائهم .

فيُقتل ولا يؤخذ بثأره ولا تدفع له دية ولا يزوج من الحرائر ؛ ونتيجة التحلل من الشخصية القبلية فلا يقيم وزنا لعلاقته بالقبيلة أو الدولة ولا يشعر بأنه جزء منها ، بل هو مقابل للقبيلة ويتعالى أن يصبح فرداً في منها [3] . والمبادئ والفلسفة التي يؤمن بها الصعاليك تضخيم الأنا الفردية مقابل ضمير نحن الجماعية القبلية أو الاعتزاز بالذات الفردية ، ولم تكن هذه المبادئ عامة عند شعراء الصعاليك ، فهناك من سلم حريته وإرادته للقبيلة مقابل حمايتها وشعوره بالأمن والاستقرار، ورضي بالذل والهوان وعاش الانتماء للقبيلة قبل الصعلكة وبعدها .

---

(1) عبده ، بدوي ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1973 ، ص 107 .

(2) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 74/3 .

(3) رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 54 .

ولم تكن الصعلكة و اللصوصية دفعا للجوع وطلباً للغنى أو لكسب عاجل ، وإنما كانت هناك دوافع لرفع الظلم والمطالبة بالعدالة والإنصاف والتوافق الاجتماعي والتوازن الاقتصادي[1] .

كذلك ساهمت الظروف الطبيعية بخلق الاغتراب عند الصعاليك واللصوص ، إلا أن التفاوت الاقتصادي كان من أسبابه التضاد الجغرافي بين بيئة خصبة وفيرة المياه والأمطار ، وقفار صحراوية تشكو الجفاف و انحباس الأمطار، مما ألحق الجدب بالناس وانعدم المرعى ونفقت الحيوانات فجعل أصحابها يصارعون أسباب الحياة . وكان الإيمان بحتمية الموت الذي يتساوى فيه الأغنياء والفقراء وراء حرصهم على البذل والعطاء . والاستمتاع بمتع الحياة قبل انقضاء الحياة .

وكان للتقاليد القبلية أثرٌ في تغريب أبناء القبيلة ، فنشأت طبقات الصعاليك واللصوص ممن طردتهم قبائلهم لكثرة جناياتهم ، أو خرجوا عليها منكرين العادات والتقاليد والأعراف التي تخضع إليها، فكان اغترابهم بسبب التناقض الذي يعيشون فيه سواء بين الوجود الحقيقي وبين الوجود المزيف ، أو لتعدد الاختلافات في وجهات النظر أو الأفكار ، كما أن هناك أسباباً مختلفة لحياة الغربة التي عاشوها منها ما كان على مستوى شخصي ، ومنها ما كان على مستوى جماعي كغربة القهر نتيجة الظروف المحيطة والمحبطة، وغربة الذات وهي عجز الأفراد عن التكيف مع مجتمعاتهم . والإنسان مدنيٌ بطبعه ، ويستحيل عليه أن يعيش بغير علاقةٍ مع آخر، لذا لا يمكن له أن يعيش معزولاً في غربةٍ عن الآخرين وهو يسعى للتوافق مع مجتمعه أو خارج مجتمعه .

---

[1] خليف ، يوسف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، دار المعارف ، ط 4 ، 1986 ، ص 41 .

الفصل الأول

الغربة والاغتراب أسبابها ودوافعها

تمهيد

أولاً : الفرق بين الغربة و الاغتراب .

ثانياً : أسباب الغربة و الاغتراب .

ثالثاً : مظاهر الغربة و الاغتراب .

رابعاً : تطور مفهوم الصعلكة واللصوصية .

خامساً : حركات العيارين والشطار .

الغربة والاغتراب أسبابها ودوافعها

تمهيد :

الغربة : هي البعد والتنحي عن الناس لأسباب قاهرة ، بينما الاغتراب هو افتعال الغربة ، والخروج على القيم والأعراف والتقاليد التي يؤمن بها المجتمع ، و كذلك فهو عجز عن التأثير في المجتمع وصنع قراراته[1] . ويقع الاغتراب بإرادة الإنسان واختياره طوعاً لا كرهاً ، لكن هناك أسباب متعددة للاغتراب فرضتها ظروف قسرية أدت إلى الغربة عن المجتمع ، لان الغربة تقع تحت تأثير أسباب ودوافع لا يد للإنسان في دفعها ، فإذا كان الاغتراب طوعاً فأن الغربة تفرض قسراً [2].

وهناك من الصعاليك من اغترب فراراً من سلطة القبيلة أو الدولة ؛ لاحتراف الصعلكة واللصوصية وقطع السبل ، أو السطو والإغارة على الآمنين من المواطنين واستلاب أبلهم وأنعامهم . وفي عهد السلطة والدولة كان بيت المال عرضة للنهب والسلب من اللصوص ، فإن لم يكن من اللصوص فمن القائمين عليه إما بزيادة نسبة ما يجبى من الناس، أو جباية الأموال من الفئات المعفاة [3] ، وكثير من فئات الصعاليك واللصوص عاشوا معاناة الغربة ، كالفقراء الذين هربوا من الجوع بحثاً عن الرزق ، أو الخلعاء الذين أبعدتهم قبائلهم لسوء تصرفاتهم وإساءة جوارهم ، ومنهم الأغربة و الهجناء الذين ثاروا لكرامتهم مطالبين بالعدل والمساواة ، وبعضهم من رضي بالذل والعبودية والإقامة في خدمة البيوت ، وهناك الفارون من وجه العدالة الذين احترفوا مهنة الصعلكة واللصوصية ولم يكتفوا بالاعتداء على الأموال بل بقتل الأنفس البريئة .

---

(1) انظر ، خشروم ، عبد الرزاق ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1982، ص 12 .

(2) المرجع نفسه ، ص 13 .

(3) انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 55 .

فكانت الدولة والسلطة تلاحقهم بمساعدة قبائلهم وتجزل العطاء والمكافأة لمن ألقى القبض عليهم ، ومنهم من هرب أو لجأ إلى الصحراء والجبال فرارا من عذاب السجن وقيود السجان .
أما الصعلكة فتعني احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم[1] ، فليس كل فقير صعلوك ، وليس كل من سعى للمغنم صعلوك ، فالحرب ليست احترافاً وقد تهدف إلى المغنم ، والسبي ليس من أجل المغنم وقد يكون كذلك ولكن بطريق غير مباشر، والهجاء سلوك عدواني ولا يهدف إلى المغنم ، فإذا صارت الصعلكة خلقا وسلوكاً مستمراً ، يهدف للثراء والتجرد للغارة أو تجرد من المال واتخذ أساليب الشر والاستعداد له صار عدوانيا[2] .

واتخذت اللصوصية أساليب ووسائل غير السطو والإغارة للحصول على الثراء ، بالاعتماد على الخداع والحيل والتسول والتكسب بالمدح[3] ، فإذا كانت الصعلكة تعتمد على الفتك والسطو والقتل والقوة الجسدية والسرعة في الغارة والتنفيذ، فإن اللصوصية اعتمدت على القوة الذهنية التي تعتمد على العقل في الكسب واغتنام الفرصة المناسبة .

---

[1] انظر ، حفني ، عبد الحليم ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1987 ، ص38 .

[2] المرجع نفسه ، ص 22 .

[3] انظر ، عطوان ، حسين ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، دار الجيل ، بيروت ، ط 4 ، 1997 ، ص 96 .

أولاً : الفرق بين الغربة والاغتراب

الغُربةُ بمعنى النوى والبُعد . الغَرْبُ الذهاب والتنحي عن الناس ، وقد غَرَبَ عنّا يَغْرِبُ غَرْبَاً وغرّب وأغرَب وغَرّبَه وأغْرَبَه نحّاه قسراً . والتغْريب : النفي عن البلد ، وغرُّب في الأرض وأغرب إذا أمعن . والغرب هو البعد . والنوى: المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك. وغرب أي بعد . وأغْرُبْ عني : أي تباعد . وأغربته وغربته : أي نحيّته وأبعدته [1].

وأغرَب الرجل : صار غريباً، ورجل غريب : ليس من القوم . والغرباء هم الأباعد ، والغريب الغامض . والغَرب : حد كل شيء . وأغرب الرجل : إذا اشتد وجعه من مرض أو غيره . والمُغرب: المبعد في البلاد. وسيف غَرْب : قاطع ، وفي لسانه غرب : أي حده . وسهم َغرب وغرْب : إذ لم يعرف مصدره . والغربة : البعد . والغربة : بالمعنى الاصطلاحي هي التي لا يد للإنسان فيها ولا في أسبابها ، وأسباب الغربة ما يتعرض له الإنسان من جوع وخوفٍ وفقر ، أو ما يصيبه من المجتمع من ظلم وعدوان ، وتمييز أو تقسيم على مستوى طبقي[2] .

الاغتراب لغة : افتعال من الغربة ويكون طوعياً ، واغترب الرجل نكح من الغرائب وتزوج إلى غير أقاربه، والاغتراب: التغريب كذلك، وتغرب واغترب إذا غربه الدهر ، ويكون الاغتراب اصطلاحاً: هو اختيار الاغتراب دون إكراه أو إجبار إما لعدم الانسجام والعجز عن الانتماء للمجتمع وتقاليده؛ كالمخالفة في الرأي والفكر والمعتقد، أو اغتراب بسبب التميز والإبداع والتعالي على المجتمع ويكون الاغتراب طوعياً [3].

---

[1] ابن منظور ، جمال الدين بن مكرم الأنصاري ، (ت 711) ، **لسان العرب** ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، مادة غرب .

[2] المصدر نفسه ، مادة غرب .

[3] المصدر نفسه ، مادة غرب .

ورجلٌ غريب: بعيد عن وطنه ، والجمع غرباء ، والأنثى غريبة. و الغرباء :هم الأباعد . واغترب فلان: تزوج إلى غير أقاربه ، ومنه - قوله صلى الله عليه وسلم - " اغتربوا لا تضووا"[1] . وفي الحديث الشريف أيضاً : " بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء "[2] : بمعنى أن المجتمع الجاهلي كان قائماً على الضلال ، وسيعود غريباً لانتشار الفساد والانحلال .

والتغريبُ: هو النفي عن البلد، والنزوح عن الوطن، والبُعد أو الانفصال عن الآخر[3]. وغربة بمعنى Alienation [4] في الإنجليزية ، وفي الفرنسية Alienation ، أما في الألمانية فتعني Entfremdung ويقابلها الانتماء والحريّة . والاغتراب بمعنى "التهميش" وعدم التكيف أو التوافق والانسجام ومنه الأغربة .

و الأغربة[5] هم أبناء الحبشيات ممن لحقهم السواد من أمهاتهم ، ونبذهم قومهم لسوادهم ، ولم يلحُقهم آباؤهم بنسبهم ، وإن تميّزوا بالخصال الحميدة ، كالشجاعة والقوة والبأس ، ولم تغن عنهم شجاعتهم أو نسب آبائهم ، إذ لم ترتفع مكانتهم بالرغم مما عملوا ، سواءً في الغزو والسطو ، أو في توزيع الغنائم ، وكفالة المحتاجين كعروة بن الورد .

و الأغربة سموا أيضاً بالهجناء لاختلاف أجناسهم الذين جُلبوا من الأمم الأخرى[6] ، كالأحابيش "الرقيق الأسود" ، أو أسرى الحروب ، ويقومون بالأعمال الشاقة كالحروب وحراسة القوافل والرعي والزراعة ، وهم أقل مكانة من "الموالي" الذين يعيشون في كنف القبيلة

---

(1) الإمام ابن الأثير ، مجد الدين ، **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، حرف الضاد .

(2) مسلم ، **صحيح مسلم** ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً ، دار التحرير ، القاهرة ، 1383 ، 90/1 .

(3) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، (711 هـ) **لسان العرب** ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، طبعة بولاق ، مادة غرب ، 130/1.

(4) انظر ، خليفة ، عبد اللطيف محمد ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص 21-30 .

(5) انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، دار غريب ، ص 320 .

(6) انظر ، الخطيب ، عبدالله ، **الحضارة والاغتراب** ، الينبوع للطباعة والنشر ، بيروت ، ص 53 - 64.

لحمايتهم ، حتى أصبحوا فيما بعد قوةً فاعلة ومؤثرة في المجتمع ، بعد أن دعت إلى مساواتها بالعناصر العربية ، وكان لها دورٌ بارزٌ في مساعدة العباسيين على القضاء على بني أمية .

فالاغتراب له معنيان سلبي وإيجابي ، إذ يحمل معنى التباعد والانفصال الطوعي الاختياري ، وهو عجز وشعور بالقلق عند مغادرة الوطن والأهل إضافة إلى الانفصال والبعد عن المجتمع والانسلاخ عنه والانعزال عن التلاؤم ، كما إنه إخفاق في التكيف وعدم الشعور بالانتماء ، مما ينتج عنه فتور العلاقة الحميمة مع الأوضاع والأشخاص المحيطين[1] ، أو المجتمع ككل ، ويتعدى الاغتراب إلى انهيار العلاقات الاجتماعية ، والشعور بالوحدة وانعدام علاقات المحبة مع الآخرين[2] .

لذلك فالاغتراب شعور بالعجز وخيبة الأمل في إمكانيّة التأثير في القوى المسيطرة عليه[3] ، وشعور باللاحول له واللاقوة ، ولا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يواجهها أو التأثير في مجرى الأحداث ، أو صنع القرارات .

ونتيجة لذلك فالمغترب يشعر بالوحدة والفراغ النفسيّ ، كما يشعر بافتقاده إلى الأمن وسوء العلاقات الاجتماعيّة ، والبعد عن الآخرين حتى وإن وُجد بينهم ، كما قد يصاحب العزلة الشعور بالنقص والانعزال عن المجتمع وثقافته ، لضآلة الدفء العاطفي[4] . مما ينجم عن الاغتراب حالات التمرد والعصيان والخروج على الأعراف والقيم ، ورفض الهوية الثقافيّة والنظام القيمّي للمجتمع ، كما تظهر سلوكيات غير مألوفة كالانسحاب وعدم المشاركة في المسؤولية الاجتماعيّة والتمركز حول الذات ، إضافة إلى ذلك الانغلاق حول الأهداف والمصالح الشخصية ، وفي الاغتراب رفض القوانين والمعايير الاجتماعية ، فيلازمه شعور بالقلق والاضطراب وعدم التوافق الاجتماعي ، ويدعو الشعور بالعجز والعزلة والرفض والكراهية إلى التوتر والنفور واختلال الشعور بالطمأنينة .

---

[1] انظر ، خليفة ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، ص 30 - 48 .

[2] المرجع نفسه ، ص 45 .

[3] المرجع نفسه ، ص 140 .

[4] المرجع نفسه ، ص 141 -144 .

وانظر ، عبد الرحمن ، عفيف ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، 1985 ، ص 236 - 244 .

فكانت حياة الصعاليك واللصوص مزيجاً من هذه المعاني ، التي ذكرها هدبة بن الخشرم الذي لم يكن صعلوكاً ،بل قتل ابن عمه و في هذا خروجٌ على المجتمع أو طردٌ منه ، كما أن فيها معاني الخنوع والضعف ومعاني التمرد والثورة .ومثالاً عليه قول هدبة بن الخشرم في ديوانه[1] :

يُجدّ النايُ ذِكْرُك في فؤادي	إذا ذَهَلتْ عن الناي القلوبُ
فيأمنُ خائفٌ ويفكُّ عـــانٍ	ويأتي أهْلَهُ النائي الغريـبُ
يُخبّرنا الغرابُ بأن ستنأى	حَبائبنا فقدتُك يـــا غُرابُ

وقال يزيد بن مفرغ الحميري[2] :

_ ودهورٍ لقيننا مُوْجِـــــعاتٍ	وزمانٍ يُكسّرُ الجلمُـــــودا
_ يا بُردُ ما مسّنا دهرٌ أضرُّ بنا	من قَبلِ هذا ولا بِعْنا لهُ ولدا

و لا يقتصر الاغتراب على طلب الرزق ومحاربة الفقر والجوع ، بل فيه معاناة نفسيه للبـــعد عن الأهل والوطن ، سواءً أكانت الأسباب طوعيه أو قسرية ، أو اختيارية أو إجبارية فقد

---

(1) الجبوري ، يحيى ، **شعر هدبة بن الخشرم العذري ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي** ، 1976 ، ص 50 .

هدبة بن الخشرم العذري : شاعر إسلامي من بادية الحجاز ، وقتل في شبابه ، بعد أن قتل ابن عم له نهاه عن الكلام مع أخته - وهو زيادة بن زيد العذري - في أيام معاوية ، وشخص عبد الرحمن أخو زيادة لمعاوية ، واقتيد لمعاوية وجرى بينهما حوار ، واعترف بجرمه ، وبعث به للسجن ، حتى يبلغ ابن زيادة الحلم ليأخذ بالقصاص من قاتل والده ، وحاول كثير من الخلفاء التدخل ودفع عشر ديّات فلم يقبل إلا بتنفيذ القصاص ، وكان ممن تبرعوا بالديات معاوية نفسه (الأصفهاني ، **الأغاني** ، 21 /277) .

(2) سلوم ، داوود ، **شعر ابن مفرغ الحميري** ، نشر وتوزيع مكتبة الأندلس ، شارع المتنبي بغداد ، مطبعة الإيمان ، بغداد ، 1968 ، ص 36 .

يزيد بن مفرغ 69 هـ : هو يزيد بن زياد بن ربيعة شاعر غزل وضع سيرة تُبّع وأشعاره وفد على مروان بن الحكم فأكرمه وسجنه عبّاد مدة ثم رقّ له وأخرجه فأتى إلى البصرة وانتقل إلى الشام بعد أن هجاه فقبض عليه عبيد الله بن زياد في البصرة وحبسه وأراد أن يقتله فلم يأذن له معاوية ، وقيل كان يكتب هجاءه لعبّاد على الجدران فلما ظفر به عبيد الله ألزمه محوه بأظفاره (البغدادي ، عبد القادر بن عمر (1093 هـ) ، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** ، طبع مطبعة بولاق ، 212/2 ، ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد ، (681 هـ) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، 1948 ، 289/2 ، الزركلي ، خير الديـن ، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب والمستعربة والمستشرقين** ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط14 ، 1999 ، 138/8) .

يكون اغتراباً معنوياً لاختلاف الآراء والأفكار أو المعتقدات ، أو يكون لطلب الثأر أو التأييد والنصرة ، يقول عبيد الله بن الحُرّ [1] :

وَقد كانَ في الأرضِ العريضةِ مذهبٌ وايُّ امرئٍ ضاقتْ عليهِ مَذاهِبُـهُ

وَفي الدّهرِ والأيامِ للمـــرءِ عِبرةٌ وَفِي ما مضى إنْ نابَ يَوماً نوائبـــهُ

و يقول[2] :

أرَى الدهرَ لي يَومين : يوماً مُطرَّدا شَريداً وَيَوماً في المُلوكِ مُتَوجّاً

ولم تكن الغربة في البيئة العربية قديماً وحديثاً بعيدةً عن هذه المعاني ، لذلك تعددت واختلفت مجالاتها وتطورت أشكالها ، و من أسباب الضياع والاغتراب التفاوت الطبقي وبناء المجتمع وتركيبته ،يضاف إلى ذلك تعدد العناصر واختلاف الأجناس ، ونشأت روابط مذهبية وعصبية ، وتباينت المصالح الفردية الذاتية مع مصالح المجتمع ، وكانت "الأحزاب" والصراع السياسي على السلطة والخلافة من أسباب الاغتراب ، كما كان للموقع الجغرافي دوره في ذلك .

ولا علاج للاغتراب عند العلماء ، إلا بالعودة إلى الحب الحقيقي[3] بين أفراد المجتمع ، وتجاوز الفردية والأنانية إلى التوافق الاجتماعي ، يقول عبيد الله بن الحر [4]:

فإن يِئْتَ عني أو تُرِدْ لي إهانةً أجِدْ عَنْكَ في الأرضِ العَريضَةِ مَذْهَبَـا

---

(1) الملوحي ، عبد المعين ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، دار الحضارة الجديدة ، بيروت ، ط 3 ، 1993 ، 1-252/2 .

وانظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 75 .

(2) المرجع نفسه ، 1-257/2.

(3) انظر، خليفة ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، ص 141.

وانظر ، سلامي ، سميرة ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، دار الينابيع ، ط1 ، 2000 ، ص 45 .

(4) الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، 1- 2 /255 .

عبيد الله بن الحر الجعفي : له تاريخٌ بارزٌ حيث شهد القادسية وأبلى فيها ، وابى ان يسلم قيادته للأمراء والخلفاء ، عندما استعان به معاوية وعلي بن الحسين ، وبقي مستقلاً بخمسين فارساً من المتمردين وقطاع الطرق واللصوص ، فيغير على القوافل والقرى ، وكنيته ابو الأشوس ، فاراد بالتمادي في مظهر القوة أن يُعوض عن النقص الاجتماعي ، وسببت أمه ، وهدد بسبي الحرائر ، ومات طريد الأمراء ، وبعث له أمير الكوفة بستمائة فارس وكان مع عشرين من أتباعه ، وعندما يأس من الانتصار القى بنفسه وبالنبطي في النهر . (الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، **البيان والتبيين** ، شرحه عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ص 21/1 ، الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ،1-236/2) .

فلا تحسَبنَّ الأرضَ بَاباً سددتهُ　　　　　عليَّ ولا المِصْرين أمّـــا ولا أبـــا

يتبين من خلال ذلك أن هناك انفصالاً أو قطيعة بين تيارين أو ثقافتين واتجاهين متضادين ، بين طرف مسيطر وآخر تابع ، وهناك ما يدعو للغربة وما يدعو للانتماء . و تفضي الغربة إلى نقيضها التحرر ، و الانتقال من مرحلة الغربة إلى مرحلة الألفة كالذي يترك أرضا إلى غيرها لعله يجد بغيته التي افتقدها في الأرض التي هاجر منها ، حيث يقول عبيد بن ايوب عندما رغب عن مجتمعه واختار الوحوش بديلا عنه[1] :

وخَفّتْ خليليَّ ذَا الصّفاءِ وَرَابَنِي　　　　　وَقيلَ:فلانٌ أو فُلانةُ فاحْـــذَرِ

فلا يقيم في دار أهين بها ، وليس سهلاً على المرء أن يرتحل عن موطنه الذي نشأ به ليحل في موطن آخر لا يجد فيه العيش الكريم . والأبيُّ هو الذي يعتبر وطنه الوطن الذي يُكرم به ويحتفظ بإبائه وأنفته ، ويفخر بمن يأنفون الذل والهوان ، وإذا ما لحقهم ضيمٌ وعجزوا عن دفعه، بادروا إلى الارتحال إلى حيثُ يشعرون بعزتهم وكرامتهم .

---

[1] ، الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص 221 .
وانظر ، المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، 93/1 .
وانظر ، ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ص 532 .
عبيد بن أيوب العنبري : نسبه إلى بني العنبر ، تحدث في شعره عن الأوهام والخرافات كالغيلان و السعالي والجن ، هرب من السلطان وعاش في متاهات الصحراء وخُيّل له هذه الأوهام ، وعرف طريق الأمن بالرجوع إلى الله والتوبة إليه (ابن قتيبة ، أبو عبد الله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، دار إحياء العلوم بيروت ص 532، الملوحي ، أشعار اللصوص و أخبارهم ، ص 204).

الاغتراب أنواعٌ مختلفة ، وهو بمعنى افتعال الغربة : كالاغتراب عن الوطن ، والاغتراب داخل الوطن ، والاغتراب عن المجتمع ، والاغتراب عن الذات[1] ، فالاغتراب عن الوطن قاس لأن الإنسان يفارق أرضه وأهله وأصدقاءه فيشعر بالوحشة والمرارة . والاغتراب داخل الوطن أشد أنواع الاغتراب قسوةً ، فماذا يعني اغتراب الإنسان في الوطن وعن مجتمعه؟ إنه يعني الفقر والعوز والحرمان ، فقد وصف الإمام علي : " أن الفقر في الوطن غربة ، والغنى في الغربة وطن "[2] ، كما أن الغربة سوء الحظ والإهمال من المجتمع والشعور بالظلم والكراهية . والاغتراب عن الذات وعن العالم كاغتراب المتصوفة ويتصل روحياً بالله تعالى ، فيعتزل الحياة والناس ويهرب من المواجهة وكل ما في الوجود حتى نفسه ،اغترابٌ في الظاهر ولقاءٌ ووحدةٌ مع المحبوب ، فالناس في الدنيا غرباء لأنها ليست بدار مقام ، وهي أول دار انتقال إلى دار البقاء ، ويرى بعض الفقهاء أن الدنيا قسمان من تمسك بها واغترّ بها ، فهؤلاء هي منزلهم ، وهم لا يشعرون بالغربة ويستوحشون من تركها ، فهم غرباء عن الآخرة .

أما القسم الآخر فقد اغترب عن الدنيا من آمن بالله حق الإيمان ، فيعيشون مشاعر الاغتراب عن القبيلة و عن الوطن الأم ، فهو كالغريب الذي يمر ولا يستقر ، ويشتاق إلى بلده ويحن إلى الرجوع إليه ، والتزود بما يوصله إليه ، وهو لا يجزع من العقبات التي تعترضه ، ويحن إلى وطنه الذي أُخرج منه ، فيغترب حين يحن إلى الماضي والذكريات ويعجز عن التآلف مع واقعه[3] ، فيهرب من الواقع المظلم إلى الماضـــي بما فيه من ذكرياتٍ وتكيُّف مع واقع مجتمعه ، وتوافقٍ وانسجام مع مجتمعه وأهله وناسه ، وحين يرفض قيم المجتمع الروحية فكانت الأوثان والأصنام الآلهة المعبودة ، وجاء الإسلام ونقل الناس من تعدد الآلهة إلى إله واحد، ومن مجتمع منغلق لا يدرك معنى العبادة أو يميز بين خالقٍ ومخلوق إلى مجتمع منفتح يميِّز بين الظواهر وخالقها .

فالاغتراب محاولة للإنعتاق من وطأة الحاضر. لأن الذكرياتُ تشعره بنوع من الاطمئنان ، فينفصل عن حاضره ويتصلُ بالماضي بحثاً عن ملجأ له وليخلق توازناً في ذاته ، فالمغترب من الصعاليك واللصوص يهرب من واقعه لعدم قدرته على التآلف مع القبيلة ويعيشُ الاغتراب حين

[1] انظـــــر ، سلامي ، سميرة ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، دار السينابيع ، ط1 ، 2000 ، ص 228 .

[2] عبده ، محمد ، **نهج البلاغة** ، اختاره الشريف الرضي ، دار المعرفة ، بيروت ، 4 /14 .

[3] انظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 241 .

يتحول من فارس يملأ الأرض حيوية إلى شيخ هرم يدبُ على العصا[1] ، وينوء بحمله فضلاً عن أعباء الحياة فترفضه المرأة ويعقه البنون لأنهم لم يعودوا بحاجةٍ إليه ، ويثقل على نفسه فيتمنى الموت هرباً من آلام الشيخوخة ، ولم يقتصر العقوق على الأب بل تعدى ذلك إلى عقوق الأم حين تحول الزوجة بين الابن وأمه ولا تملك الدعاء عليه ، بل تدعو له، فقالت أم ثوّاب في ابن لها عقها[2] :

أنْشَا يمزّقُ أثوابي ويضربُنـي	أبعدَ ستينَ عندي يَبتغِـي الأدبَا
قالتْ له عرسُهُ يوماً لِتُسْمِعَني	رفقاً فإن لنا في أُمِّنا أرَبَــا
ولـــو رأتني في نار ٍمُسعَـرةٍ	من الجحيمِ لزادتْ فوقها حَطباً

ولا تختلف الصورة عند تنكر أصحاب الكنيف لعروة ، الذي قام على خدمتهم وآثرهم على نفسه وقسَّم غنيمة الغزو عليهم ، فجعل عقوقهم كعقوق الأبناء بأمهم فصورَّهم بهذه الأبيات[3] :

فإنّي وإياكُمْ كذي الأمِّ أرْهَنَتْ	له ماءَ عينيها تُفدِّي وتحمِلُ
فلما ترجّتْ نفعَه وشبابَــــه	أتتْ دونها أخرى جديدٌ تَكحّلُ

فالاغتراب عن الذات حين تنقطع الروابط التي تربط الإنسان بمجتمعه وتمنحه الأمان ، وحين يواجه العالم الخارجي كذاتية منفصلة عنه انفصالاً تاماً ، فإنه قد قهر هذه الحالة التي لا تطاق ، حالة الإحساس بالوحدة والغربة والعجز، ويستطيع أن يتجاوز واقعه وأن يتمسك بحريته فيخلق لنفسه عالماً جديداً. يقوم على أسس ومبادئ إنسانية من قدراته العاطفية والحسيّةِ والعقلية فيستعيد وحدته دون أن يتنازل عن ذاته الأصلية ، أما الإنسان الذي لا يستطيع أن يتحمل العيش وحيداً ، فيحاول قهر وحدته بالتكيف مع مجتمعه عن طريق استئصال الهوة الناشئة بين نفسه

---

[1] انظر، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 263 .

[2] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1-2/ 756 .

أم ثواب : امرأةٌ من بني هزان بن صباح بن عتيك بن اسلم بن عنزة بن أسد بن ربيعة الفرس بن معد بن عدنان وهي شاعرة من شواعر العرب قالت هذه الأبيات في ابن لها وقد عقها . (المرزوقي ، شرح الحماسة ، 756/2 ، كحالة ، عمر رضا ، **أعلام النساء في عالمي العرب و الإسلام** ، مؤسسة الرسالة ، 186/1) .

[3] عروة بن ورد العبسي ، **الديوان** ، صنعة أبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت 244هـ ، تحقيق محمد فؤاد نعناع ، مكتبة دار العودة ، الكويت ، ومكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط1 ، 1995 ص 60 .

الفردية والمجتمع[1] ، وذلك بالاستسلام والخضوع التام لسلطة المجتمع سياسيةً كانت أم سلطة العادات والتقاليد والأخلاق والقيم السائدة فيه .

فاغترب الكثيرون عن ذواتهم الإنسانية الأصيلة، وتجلى في خضوع الشعراء وامتثالهم للحس النقدي، وتجلى انهيار عالم القيم الحقيقية عندهم ،وتخليهم عن كل القيم الجميلة حين باعوا أنفسهم وتخلوا عن كرامتهم من أجل المال، وحين باعوها من أجل الشهوات والملذات وتنازل هؤلاء الشعراء عن ملكية أنفسهم التي أصبحت ملكاً للحاكم ، يوجهها ويستخدمها كما يشاء في تحقيق مآربه الخاصة[2] ، إنه يعاني صراعاً نفسياً ويعبر عن سخطه على ما يلاقيه من بؤس وقلةٍ في الرزق ، ومن ذلةٍ وإهانة وتشرد واغتراب ، وهو يشكو قسوة مجتمعه وظلمه ويسجل احتجاجه على أنظمتها الظالمة ، إنه ينقم على ما هو قائمٌ في مجتمعه من تفاوت اقتصادي كبير بين أبنائه حيث الغنى الفاحش والفقر المدقع .

فهل كانت الفاقة هي السبب الوحيد الذي دفع هؤلاء الشعراء إلى التمرد أو التزلف ؟ قد تكون الفاقة والفقر سبباً ، ولكن البخل والجشع وحب كنز المال هو سبب هام ، فقد وجد لذة الكسب دون جهد أو تعب ، فأمعن في الطلب أي طلب المال أو الملكية حتى خسر الكرامة[3] ، فالاغتراب هو الانفصال وفقدان الحرية وعدم الانسجام مع محيطهم الاجتماعي ، فاغترب الصعاليك واللصوص حين كثرت جناياتهم بالتمرد على القبيلة أو السلطة والخروج على كل القيم والأعراف ، فغرّبتهم قبائلهم بالخلع والطرد بعد أن ساء سلوكهم الخلقي ، ورفعت القبيلة عنهم حمايتها فاغتربوا عند فقدان التوازن بينهم وبين مجتمعهم، وعند العجز عن إيجاد معادلٍ موضوعي يقابل الانحراف و الخروج عن المألوف .

---

[1] انظر ، خليفة ، عبد اللطيف ، **سيكولوجية الاغتراب** ، ص 25 .

[2] انظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 23 .

[3] المرجع نفسه ، ص 26 .

فالنظام السياسي اعتمد أساليب القتل والتعذيب والقسوة في مواجهة المعارضين، وزيادة حدة اغترابهم ومعاناتهم ، ولن يحققوا إلا راحة وهمية ومؤقتة فمن الصعاليك واللصوص من لجأ إلى الخمرة يلتمسون تبديد اغترابهم ونسيان ما يعانون منه من هموم وأوجاع[1] ، ويعللون انهزامهم وانسحابهم من مواجهة واقعهم بعدم جدوى الحياة ، فالمغتربون عن ذواتهم يتخلون عن كل القيم الدينية والخلقية والروحية الجميلة ، نتيجة انتشار بيوت اللهو والشرب ومواطن الفسق والفجور ، وغصّت الأماكن بطلاب المتعة واللذة وعكفوا على الملذات ولم يتورعوا عن الشراب أو عدم الخضوع لأحكام الدين وسخروا من كل قيد أو تقليد ، ومن كل الأعراف والقيم الأخلاقية التي تستنكر انحرافهم .

اغترب الصعاليك واللصوص عن ذواتهم وأرادوا أن يصبحوا مثل الأشياء ، لقد تخلوا عن كل الصفات الإنسانية فنعمة العقل التي ميَّزه الله بها عن سائر المخلوقات يأبى إلا أن ينزع عن نفسه هذه النعمة ، ويرتدي قناعاً من الأشياء لا وعي ولا حياة فيها[2] ، فكف شعراء الصعاليك واللصوص عن استخدام قدراتهم الإنسانية في التفكير والشعور والإرادة ، وخاصة من رضوا بالذل والإهانة فتلاشت فرديتهم وحلّت محلها ذاتٌ زائفة .

إن درجة الحرية تحدد بما يمكن اختياره وما هو مختارٌ من الفرد بالذات ، وهذه الحرية لا تعني شيئاً إلا إذا كان الإنسان قادراً على أن تكون له آراؤه وأفكاره الخاصة به، والتي ليست من صنع الآخرين ، أو أن الأفكار ليست أفكاره بل أوحي بها له من الخارج، ومن سلطة مجهولة هي سلطة المجتمع وعاداته وتقاليده وأخلاقياته[3] ، وإن تطابق في أفكاره تلك مع أفكار الآخرين و توقعاتهم مساقاً بالخوف من العزلة ، وأصبحت أفعاله وأفكاره زائفة وأصبح مجرّد أداة . والإحلال للأفعال الزائفة محل الأفعال الأصيلةِ للتفكير والشعور والإرادة يفضي لإحلال نفسٌ زائفة محل النفس الأصيلة[4] ، والنفس الزائفة لا تملك إرادتها بل توجه من الآخرين كالقبيلة أو السلطة وهذا الهرب من الحرية وهذا الفقدان للنفس الأصيلة أفضى إلى التشيؤ ، وبالتشيوء ينفصل الإنسان عن الإنسان وعن نفسه ، فيكون الاغتراب عن كل ما تميل إليه النفس من شهوات . واغتراب النفس عن هواها ، واغترابٌ عن الدنيا وملذاتها ، واغترب عن ذاته فاكتسب ذاتاً زائفة متشيأة .

---

[1] انظر، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 321 .

[2] انظر، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 47 .

[3] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 68 .

[4] المرجع نفسه ، ص 68 .

ثانياً : أسباب الغربة والاغتراب

تعود أسباب الغربة في النظام القبلي وفي نظام الدولة إلى عدة أمور كالاختلال الاقتصادي والتناقض الاجتماعي وكثرة الفتن والاضطرابات ، وليست وليدة رغبة شاعر بل هي غربة قسرية . يضاف إلى ذلك أن في الغربة حب الذات وحب التميز[1] ، والغربة شعور بالفقر والإحساس بالظلم لسوء توزيع الثروة ، فالفقر كان بسبب ثراء البعض ، ويرى الصعاليك واللصوص في المــوت إحساس بالبعد والفراق الذي لا عودة فيه ، وكان من أسباب تمردهم ، وهذا لا يخلو من نظرة فلسفية فليأخذ من متع الحياة ما دام نهايتها الموت ، قال طرفة بن العبد[2] :

فإنْ كُنْتَ لا تَسْطيعُ دَفْعَ مَنِيَّتي   فَدَعْني أُبادِرها بِما مَلَكَت يَدِي

وعاش الصعاليك واللصوص في اغتراب عندما وجدوا عقبات بين الواقع الذي يعيشونه ، والمثال الذي يحلمون به ، وعند مصادرة الحرية التي ينشدها كل منهم ، ووجدوا هوة بين ما يتعلمونه ، وما يحاولون تطبيقه عمليا ، فعاشوا في تناقض وقلق واضطراب ، مما جعلهم ينفصلون عن ذواتهم ، وينفصلون عما صنعوه ، وعما يؤمنون به من مبادئ وقيم،وينفصل المغترب عن قواه الإبداعية كأنه مسلوب الإرادة ، يعمل من أجل الكل ولا يعمل الكل من أجله ، ويشعر بأنه عبد للقبيلة مسخرٌ لخدمتها وليست القبيلة مسخرة لخدمتـه ، فأصبحت العلاقة علاقة بين أشياء لا عــلاقة بين أفراد[3] ، وتزداد حدة الصدام بازدياد التمايز في حياة الإنسان الاجتماعية . وكان من أسباب غربتهم التنافس بين القبائل على أسباب الحياة ، مما دفعهم إلى الرحيل . وما هجرة الأماكن إلا لأسباب اقتصاديــة ، وكذلك كان ترك الأوطان والنزوح والبعد عنها لكسب الرزق ، كذلك أصبح التعدي وتجاوز القانون لامتلاك الثروة والسيطرة على الممتلكات[4] دافعاً للاغتراب .

---

[1] انظر ، زيدان ، عبد القادر عبد الحميد ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط1 ، 2003 ، ص 188 .

[2] ابن العبد

ابن العبد ، طرفة ، **الديوان** ، شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق دريّة الخطيب ، لطفي الصقال ، ط75 ، ص 32.

طرفة بن العبد : هو عمرو بن عبد بن سفيان كان مولده في البحرين ، نشأ يتيما وكفله أعمامه ، اشتهر بالفروسية واللهو والمتعة وعده ابن سلام من الطبقة الرابعة من الجاهليين (عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 269) .

[3] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 109 - 137.

[4] انظر، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 47 .

والاغتراب خروج على المألوف والسائد ، وهو النقيض بين الوجود الأصيل والوجود الزائف[1] ، كما أنه انفصال عن الحال الطبيعية التي وجد عليها الإنسان ، إلى حالة الاجتماع البشري ، وشروط قيام المجتمع المدني والسياسي تخلي الأفراد وتنازلهم بشكل طوعي عما يمتلكون من حق طبيعي عن الحرية وعن الحياة وعن الملكية ونقلها إلى المجتمع . والعقد الاجتماعي يمثل جانب الحياة الإيجابي ، وجانبها السلبي ، وزادت التناقضات والتبعية والظلم والقهر والأزمات المتتالية في المجتمع ، نتيجة التباين بين التنازل طوعاً ، وبين الاستيلاء ووضع اليد ، وبين حرية الإرادة وحرية القهر .

فالفرد في القبيلة يتنازل طوعا وبإرادته ، ويتخلى عن فرديته من أجل القبيلة ، وهي التي بدورها لها السلطة والسيادة وصون الكرامة ، والدفاع عن أفرادها وأخذ الحق لهم . ولا يكون التنازل والتخلي والنقل لفرد من القبيلة ، بل للقبيلة أو السلطة[2] ، فليس هو المسؤول عن أمنه وحياته وليس هو من يقتص ممن اعتدى عليه بل قبيلته ، ولا يتم الانفصال أو التخلي عن القبيلة دون مشاعر نفسية تسيطر عليه كالخوف والقلق والحنين ، لأنه يعيش ويحيا في كنف القبيلة وينتمي إليها ولا يعرف إلا من خلالها .

و الاغتراب نقل إرادي حر، وتضحية من أجل منفعة [3] ومن أجل هدف نبيل و بناء مجتمع جديد . ويستحيل وجود الغربة دون شكوى أو تذمر ، فكيف يمكن دفع الناس الأحرار إلى صنع أغلالهم وقيودهم بالتنازل عن حريتهم إلا من أجل هدف سامٍ ؟ فالتوافق مع المجتمع لا يكون إلا عندما يلبي الحاجات الطبيعية للإنسان ، فيشعر فيه بأنه عضوٌ فاعلٌ يؤدي دوره الذي أوكل إليه ، ويكون الخروج على المجتمع إذا وجد أن المجتمع يحول بينه وبين حريته ، فيصبحُ غير قادرٍ على التأثير ، ولا يجدُ ما يلبي طموحاته .

فالفرد يحاول أن يكون له تميزه وإبداعه ، ويملك حريته الفردية التي لا يصادرها المجتمع ، ويجد أن حريته مصادره إذا كان يسير وفق ما يفرضه المجتمع ، ويكون حراً إذا فرض

---

[1] انظر، خليفة ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، ص 21 - 30 .

[2] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 320 .

[3] انظر، خليف ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، مكتبة غريب - القاهرة ، ص 174 .

ما يريده على المجتمع ، فيلبي مصالحه الفردية من خلال مصالح المجتمع وليس منفصلاً عنه ، ومتى تتطابق مصالحه مع مصالح المجتمع ، كان ذا تأثير في صنع قراراته [1] .

فالتقسيمات الثنائية : أغنياء وفقراء ، وسادة وعبيد ، وأقوياء وضعفاء هي الحواجز والمسافات بين الإنسان وأخيه الإنسان وفي مثل هذه الأوضاع يمتنع التعاطف إلا القليل وتنعدم المشاركة الوجدانية ، وتكاد تتلاشى ، فالسيد سيد بالوراثة ، والعبد عبد لأن مكانته ومجتمعه لا يسمح له بالتجاوز وتخطي الحواجز التي يصنعها المجتمع[2] . وكأن المجتمعات قوالب جامـــدة ،تتبع ما جرت عليه العادة، ولا تتبع حالته الطبيعية فحركاتهم ونشاطهم يمتاز بالتكرارية ، ويثير الملل لأنها حركات من غير أهداف في تحقيق الوجود الأصيل للإنسان والمجتمع .

فالصعاليك واللصوص ضد أن يكون احدهم ممثلاً يؤدي ما رسم له من أدوار ، وينفصل عن العالم بما فيه من قهر وعشوائية ، ويلجأ لداخل النفس ينشد السكينة والطمأنينة ؛لينقذ نفسه من الضياع ، وينفصل عن نفسه وذاته للتناقض الذي يشعر به بين الباطن والظاهر ،ويرى أن الواقع ما هو إلا زيف وقناع وخداع [3] . فاللامساواة هي السبب في اغترابهم الذاتي عند مصادرة كل حرية طبيعية بلا رحمة ، وعند سيطرة المادية والثروة والمال على حياة الناس ، ليتحول المجتمع إلى سوق وتتحول العلاقات الإنسانية إلى علاقات بين أشياء لا علاقات بين أفراد[4] ، أو علاقات سوق بما فيه من بيع وشراء وربح وخسارة، ويتحول الناس فيها إلى وحوش و السلطة للأقوى يأكل قويهم ضعيفهم ، ويتحول الناس إلى سلع قابلة للبيع والتنازل وحقوق الفرد هي الأقل .

[1] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص41.

[2] المرجع نفسه ، ص 41.

[3] انظر ، سلامي ، **الاغتراب في العصر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 38 - 41 .

[4] انظر، خليفة ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، ص21 - 30.

فالاغتراب بمعنى البيع والخضوع دلالة سلبية ، والعلاقات الإنسانية تقاس بالمادة[1] فهل يعني الهرب من المجتمع والتخلص منه تخلص من الاغتراب ؟ إن الهروب من المجتمع هو محاولة لقهر الاغتراب ، ليكون فرداً يقابل المجتمع ، وليس جزءاً منه [2] ، وهذا الشعور يتولد إذا كان الفردُ يشعرُ بالعزلةِ والوحدة عن مجتمعه ، كما أنه يعجز عن التوافق والانسجام مع المجتمع الذي يعيش فيه ، ويشعر أنه جزءٌ من المجتمع إذا كان يقوم بما يملى عليه ولا يكون له حُرّية في صنع هذا الدور .

فالفارق كبير بين أن يقوم بدور يوكل إليه ، ولا يكون له رأي في صياغته ، أو أن يكون له دورٌ مؤثرٌ في سير المجتمع ولا يكون دائماً متلقياً ، فالانفصال عن المجتمع بحثٌ عن الذات وتعزيزٌ للفرديّة، فهناك ذات فردية وذاتٌ اجتماعيّة ، فالذات الفردية تتمحور حول نفسها ، بينما الذات الجماعية تحاول الانخراط في المحيط الاجتماعي أو البناء الاجتماعي الذي يحيط بها ، وتكون ذا تأثير في بنيته [3] . وهناك أنواع من الاغتراب ، كالاغتراب الاجتماعي حيث يكون بانعدام التوافق والانسجام بين القبيلة والخارجين عليها من صعاليك ولصوص ، وعدم التكيف معها لكثرة جناياتهم [4]، وهناك اغتراب سياسي لمعارضتهم للدولة والسلطة ونظام الحكم ، وكذلك هناك من غُرِّب ونفي بالسجن ؛ نتيجة الانضمام لفئات خارجة عن نظام القبيلة أو الحكم ، ومعارضة لنفوذ الدولة والولاة ، أو اغتراب اقتصادي لطلب الرزق ، وتأمين العيش الكريم .

والاغتراب داخل الوطن هو شعور بالنقص ، أو العجز عن التكيُّف مع المجتمع ، وهو اغتراب الإنسان عن مجتمعه لسوء الحظ والإهمال[5] ، كما يعني الظلم والقهر والإكراه . مما يضطره إلى الإغضاء عن كل عيـب يجده في مجتمعه ، وإلى السكوت عن قول الحق ومحاولـة

---

[1] انظر ، خليفة ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، ص 38-41 .

[2] انظر ، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، 1985 ، ص 288 - 290 .

[3] المرجع نفسه ، ص 290 .

[4] انظر ، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 50 .

[5] انظر ، سلامي ، **الاغتراب في العصر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 40 .

الإصلاح ، ولا يخفى ما في ذلك من إحساس بالتمزق وما يعانيه من اغتراب وحزن وأسى ولوعة وحرقة ولهفة ، وما يشعر به من وحشة وعزلة وذل وهوان ، قال عبيد بن أيوب[1] :

فإنّي وبُغْضِي الإنسَ منْ بعدِ حُبِّهِم	وَنَأيِيَ مِمَّن كُنْتُ ما إنْ أزَايِلُـــــــهْ
لكالصَّقر جَلّيَ بَعدمـا صَاد قَـنْيَةً	قديراً وَمَشْوِيّاً تُرِفُ خَرادِلُـــــــهْ
أهابُوا به فازْدادَ بُعداً وَهَاجَـــــه	على النأي يَوْماً طَلّ دُجْنٍ ووابلُـــــهْ
أزاهدةٌ فيّ الأخـــــلاءُ أنْ رَأتْ	فتى مُطَرَداً قد أسلمتْه قبائلُـــــهْ

فأشد أنواع الاغتراب إيلاماً هو الاغتراب في الوطن ؛ لأن الإنسان ينشد الأمن والحماية والحياة الكريمة في وطنه وبين أهله ، فإن أخفق في توقعاته ، وظلمه أهله وأبناء قومه تمرد عليهم وعلى ما يؤمنون به من قيم وعادات وتقاليد وأعراف ، وثار على كلّ عُرف وتقليد ، وانشق عن مجتمعه وأعلن تحديه للنظام والقوانين ، فهو كالصقر الذي يحلق فوق الروابي الشاهقة وتنسحق نفسه في هاوية الجفاء الإنساني ، فيضمّ إلى جانبه كل طريد وخليع ليشكل تكتلا أو عصبة معارضة، تجمعها الظروف والأهداف والغايات، لتنتصف لنفسها ممن ظلمها وتأخذ حقها بيدها دون اللجوء إلى القبيلة أو السلطة، حتى صارت هذه التجمعات أو العصابات قوة يحسب لها حسابها[2] .

فهذا التناقض في الرؤية بين أن يكون جزءاً من المجتمع ، وبين أن يـكون منفصلاً عنه ، فكأنه يعيش في مجتمعين مجتمع ضده يسلب حريته وإرادته، ويكون عاجزاً عن التأثير فيه ، وبين مجتمع يحاول أن يبنيه مع آخرين تتشابه ظروفهم وغاياتهم وأهدافهم، بحيث يكون هذا المجتمع نداً للمجتمع الآخر لا جزءاً منه[3] . فما الفرق بين المجتمعين، بُنية اجتماعية جاهزة، وبنية اجتماعية يحاول بناءَها ؟ البنية الأولى انفصل عنها لأنها لا تلبي طموحه وليس هو جزءا مؤثرا فيها، بينما يحاول بناء وحدةٍ جديدة يكون هو الطرف الفعال فيها .

---

[1] الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 227 .
وانظر ، خشـروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 129- 135 .
الخُرْدُولة : العضو الوافر من اللحم . (**اللسان** ، مادة خردل) .

[2] انظر ، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 39 .

[3] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 11 .

فالغربة تطلق على الأشياء كما تطلق على الأشخاص ، والغربة والاغتراب بين الأفراد يكون ماديًا في البعد عن الوطن والقوم والعشيرة . وقد يكون روحياً أو فكرياً ويتجلى في مفارقة الأفكار والمبادئ السائدة في المجتمع ، والخروج على الأعراف والتقاليد التي يتمسّكُ بها أكثر الناس تسمى اغترابا [1] .

والغربة عند الصعاليك واللصوص في عصورهم المختلفة ، إما غربة عن العشيرة لأنها الوطن بالنسبة لهم ، وغربة داخل القبيلة لأنها المجتمع بالنسبة لهم ، وغربة عن الذات لأنه يعيش بين عالمين عالمه الخاص الفردي ، وعالم عام هو القبيلة ، فالغربة عن القبيلة أو الوطن قاسية ، لأن الإنسان فيه يفارق أرضه وأهله وأصدقاءه ، فيشعر بالوحشة والمرارة . والوطن بالنسبة لهم القبيلة والأرض التي تعيش فيها ، والمرأة والأهل والأصدقاء الذين يأنس بهم . وغربة الوطن الإبعاد والنفي لظروف قاهرة ، فهناك من غُرّب لتمرده وثورته على القبيلة والعادات والتقاليد ، وهناك من خلع وطرد لعدم توافقه مع قبيلته [2] .

لعل الذي يشكل الغربة عند الصعاليك واللصوص خوف الفقر ، وأحياناً أخرى سوء المعاملة ، فهذا سحيم لا يأسف على الحياة وإنما يخشى قسوة الحياة على بناته، فهو لم يخرج على القبيلة وعاش كعبدٍ بينها يقول[3] :

لقد زادَ الحياة إليّ حُبّـــــاً	بَناتِي إنّهن من الضّعِـــافِ
مخافَـةَ أنْ يَذقنَ البُؤسَ بَعْدَي	وَأن يَشْرَبِنَ رنقاً بعْد صافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ إن كسِيَ الجواري	فَتنبُوُ العينُ عَنْ كَرَم عجافِ

---

[1] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 11 - 15 .

[2] انظر ، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 42- 45 .

[3] سحيم عبد بني الحسحاس ، **الديوان** ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط1، 1950 ، ص 57 .

سحيم : هو عبد لبني الحسحاس كان أسود اللون صعلوكا منتميا للقبيلة لا يخرج عليها ، ولم تخلعه القبيلة ولم يقطع الطريق وارتضى بالعبودية ورعي الإبل ، أكثر من الغزل وأسماء النساء كسمية وأم معبد وذكر الأطلال والرحيل والفراق وافتخر بمآثر القبيلة (الأصفهاني ، **الأغاني** ، 331/22 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 215) .

رنق : الرَّنق تراب في الماء من القذى ونحوه ، رنق عيشه كدر (**اللسان** ، مادة رنق)

وما كانت القبيلة إلا أسرة اتسعت وتشعبت بطونها وعشائرها ، ورابطة الدم والعصبية هي الأساس بين أفرادها تناصره إذا كان ظالماً أو مظلوماً ، كقول دريد بن الصمة [1] :

وَمَا أنا إلا منْ غَزيّةٍ إن غوَتْ غوَيتُ، وإن ترْشُد غزيَّة ُ ارْشُدِ

وهذا ما ردده الشاعر هدبة بن الخشرم ، حتى في العصر الأموي[2] :

إنّي مِن قُضَاعَة منَ يَكدْهــــا أكدهُ وهيَ مني في أمــــان

سَأهجو مَن هَجَاهُم مَن سِواهم وأعرِضُ منهم عمَّن هَجَاني

وكذلك قوله عليه السلام : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " [3] لا لتكف يده بل لتأخذ عليها في الحق والباطل . وتعتز القبيلة إذا ولد لها غُلام وإذا نتجت فرس ، وإذا نبغ شاعر[4] ، فالغلام فارسُها وحامي ذمــارها ، والخيول عُدة القتال وأدوات الحرب ، والشاعرُ وسيلةُ إعلامها في مآثرها وأمجادها . فكانت حركات التمرد والانشقاق عن القبائل، من الذين رفضوا الأوضاع الذليلة في النظـام الاقتصادي والنظام الاجتماعي . فكان التكتل لهم في جماعات مذهبية تجمعهم الأهداف المشتركة والفكر الثوري المتمرد، وانطلقوا إلى الصحراء التي لا ترد لاجئاً ،والتي لا ينافسهم في ظروفها منافس ، يقول عُبيد بن أيوب حين هاجر إلى الصحراء[5] :

_ يَظلُّ وما يَبدو لشيء نهارُه ولكنّما يَنْباعُ والليلُ دامِــــسُ

_ أزلُ وسعلاة ٌوغولٌ بقفَـرةٍ إذا الليلَ وَارى الجِنَّ فيه ِ أرنّـتِ

فكانت ثورتهم ثورة لكرامتهم ، وطلباً للمساواة بغيرهم ، ورفضاً أن يكونوا أقل من غيرهم شأناً ومكانةً، يبحثون عن العدالة والحرية بعدما تنازلوا وتخلوا عنها ، كحقوق فردية

---

[1] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1- 2 /815 .

[2] الجبوري ، شعر هدبة بن الخشرم ، ص 134 .

[3] مسلم ، صحيح مسلم ، 90/1 .

[4] القيرواني ، ابن رشيق ، أبو علي الحسن ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، ط2 ، ص 110.

[5] ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 532 .

وانظر ، الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص 214 – 222 .

دريد بن الصمة بن الحارث : فارس مشهور وشاعر فحل أحد الشجعان المشهورين وذوي الرأي ، أدرك الإسلام ولم يسلم اشترك في حنين ضد المسلمين ، عفيف عبد الرحمن ، معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، رقم الترجمة 177) .

لتصونها القبيلة وترعاها ، فالفردُ كان جزءاً من القبيلة، والقبيلة راعيةٌ للفرد وحقوقه ، فعندما تـــخلعه فهي توجه عقوبة قاسية له بترك حماها ، وتسحب الاعتراف به ، أو تسقط هويته وانتماءه . قال خفاف بن ندبة [1] :

أراني كلّما قاربتُ قومـــــــي	**نأوا عنّي وقطعُهم شديدُ**
سَئمتُ عتابَهم فصفحتُ عنهم	**وقلتُ لعلّ حِلـمَهمُ يعودُ**
مَتى أبعدْ فشرُّهمُ قريـــــــبٌ	**وإنْ أقربْ فوُدهُـــمُ بعيدُ**

فحتى القبائل كانت تسعى لإقامة الأحلاف طلباً للأمن ، ودفعاً للعدوان ، وإيثاراً للعافية، وحماية للقوافل وطرق التجارة .فالأفراد لعدم توافقهم الاجتماعي ؛ انفصلوا عن مجتمعاتهم أو قبائلهم التي تربطهم بها رابطة الدم أو العصبية القبلية ، وأقاموا مجتمعاتٍ مذهبية تحقق غاياتهم و يؤثرون فيها ، ويشعرون أنها جزءٌ من ذواتهم .فالانفصال عن المجتمع إلى مجتمع جديد يعود لأسباب تتعلق بنفسية الإنسان، وتحقيق رغباته والقدرة على الاتصال أو الانفصال عن المجتمع ، وربما كان الخروج أحياناً إلى أسباب طارئة يعود بَعدها الفردُ إلى بنيته الاجتماعيّة [2] . وما انفصاله إلا للقلق أو الاضطراب أو سوء المعاملة أو اختلاف في الآراء والأفكار .

فالغربة ليست هي البعد المكاني أو البعد عن الوطن ، بل الغريب في القوم من لا يعرف نسبه، فهناك معنى مادي يعني البعد والتنحي ، ومعنى معنوي يتجلى في الخروج على مبادئ الناس وتقاليدهم وأعرافهم[3] . وهناك نوعان أيضاً من الغربة ، غربة القهر : نتيجة للظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والطبيعية ، وهي الغربة التي ليس للإنسان سلطة فيها ، والتي اصطلحت مجموعة العوامل على خلقها ، وغربة الذات غربة لدواع ودوافع معينة، كالاغتراب الذي يتجلى في الحنين إلى الماضي ، وتغيُّر الدهر على الإنسان ، وخروجه على القبيلة وعلى القيم الدينية والروحية التي كان يؤمن بها المجتمع ، وسميت اغتراباً لأنها افتعال بإرادته وحريته وليست تحت دوافع قاهرةٍ فرضت عليه .

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 18 / 35 .

[2] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 175 - 179 .

[3] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 12 .

خُفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي : وأمه نُدبة سوداء وإليها ينسب وهو أحد غربان العرب كعنترة و السليك ، وهو ابن عم الخنساء ، ويكنى أبا خراشة ، وقد أسلم وبقي إلى عهد عمر (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 627/1 ، عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 168) .

فالاغتراب بسبب القلق الذي يسيطر على الإنسان لظروف يعجز عن التكيف معها، أو لغياب سلطة مركزية . وكل غربة حصلت طوعاً سميت اغترابا [1] ، فالاغتراب هو الانفصال وفقدان الحرية وعدم الانسجام ، واغترب الصعاليك حيث كثرت جنايتهم بالتمرد على القبيلة والخروج على كل القيم والأعراف والتقاليد ، فلم يرعوا عهداً ، ولم يحافظوا على جوار ، وصار الفقر ملازماً للقتل والثأر بسبب كثرة الغارات والسلب أو الخلع ، فغرّبتهم قبائلهم بالخلع والطرد، بعد أن ساء سلوكهم الخُلقي ورفعت القبيلة حمايتها عنهم ، وحين يفر إلى الصحراء يتحرر من الروابط القبلية والقيم والعادات ، فيصبح الحرام حلالاً ، والممنوع مباحاً ، فالسطو والنهب والإغارة على القبائل وتحدي السلطة والدولة ، وتعريض وحدتها إلى الفوضى والانحلال اغتراب لإعادة التوازن ، وإيجاد معادلٍ موضوعي يقابل الانحراف والخروج عن المألوف .

فعند التعدي على رموزها وسيادتها ، ومحاولة الاعتداء على بيوت المال والاستحواذ على ما بها من أموال ، كل هذا يندرج تحت العمل بإرادة وحرية فهو اغتراب للخروج على الأعراف والتقاليد والقيم ، ولم تأت هذه الأعمال من فراغ، وإنما نتيجة ردّة فعل بعد الشعور باليأس والحرمان والإصابة بالقنوط ، فالفرد تنازل عن حريته وحياته وملكيته الخاصة، مقابل أمنه واطمئنانه واستقراره ، وللحفاظ على الوحدة والبعد عن الانحراف والشذوذ ، إلا أن التنازل والتخلي عن الهوية الفردية مقابل أن يحقق المجتمع أو القبيلة أو السلطة الطموحات التي يسعى إليها الفرد، لكن خابت الآمال والظنون فكانت ردّة الفعل التمرد والثورة والانحراف[2] .

فهم يشقون طريقهم بأسلوبهم وعاشوا عيشة صعبة لا أحد يساعدهم أو يؤويهم خشية أن ينزل بهم أذى ، فتكتلوا مشكلين مجتمعاً خاصاً بهم[3] ، وقد يعمد الخليع منهم للثأر ممن خلعه ، أو كان سبباً في خلعه ، فعدم الانسجام مع قبائلهم أدى إلى اغترابهم وإلى نفورهم وخروجهم على طاعة مجتمعهم وهربهم منه ، معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياتهم ، ويحصلون على أقواتهم بحد الحسام ، وكونوا جماعاتٍ وحدها الهدف ، فكان فيهم الحر الثائر والخليع وابن الأمة، وشذاذ القبائل وكل مظلوم في مجتمعه .

---

[1] انظر، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 69 .

[2] انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 37 .

[3] المرجع نفسه ، ص 37 .

جمع قيس بن منقذ شذاذاً من العرب وفتاكاً وأغار على بني قمير بن حبيشه ، وقتل منهم رجلاً يقال له ابن عش واستاق أموالهم فلحقه سيد من قومه يقال له ابن محرّق ، فأقسم عليه أن يرد ما استاقه ، فقال : " أما ما كان لي ولقومي فقد أبررت قسمك فيه ، وأما ما اعتورته أيدي هذه الصعاليك ، فلا حيلة لي فيه " ، وقال في ذلك[1] :

فأقسم لولا أسهُمُ ابنُ محــــرِّقِ	**مع اللهِ ما أكثرتُ عدّ الأقـــــــاربِ**
تركتُ ابن عشٍ يرفعون برأسهِ	**ينوءُ بساقٍ كعبُها غيرُ راتــــــــب**
وانهاهُم خُلعي على غيرِ ميرةٍ	**من اللحم حتى غيبوا في الغوائبِ**

فكانت الصلة بمجتمعاتهم صلة سلوك صراعي لا سلوك أخلاقي أو سلوك انتماء[2] صورة الفردية الناقمة التي لم يلب المجتمع طموحاتها ، والتي تشعر مهانة الفقر ، وتخلخل النظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي والتفاوت بالأرزاق والظلم ، فحمل لواء التمرد لأنه يعاني صراعاً نفسياً ويعبر عن سخطه على ما يلاقيه من بؤس وقلةٍ في الرزق، ومذلةٍ وإهانة وتشرُّد واغتراب ، وهو يشكو قسوة مجتمعه وظلمه ، ويسجل احتجاجه على أنظمته الظالمة ، إنه ينقم على ما هو قائمٌ في مجتمعه من تفاوت اقتصادي كبير بين أبنائه، حيث الغنى الفاحش والفقر المدقع .

و ينتمي العربي إلى القبيلة ويدافع عنها ، إلا أن الانتماء لا يمنع التمرد والقلق ، فالغربة تعبيرٌ عن تجربةٍ حيةٍ كابدها الشاعر إلى حد التمزق[3] ، ويمضي عمره مغترباً ويعتبر غربته عن الآخرة في هذه الدنيا حيث هبط منها ، والغريب والغرباء عند أهل التصوف والفلسفة من يجتنب ما يشيع في مجتمعه من معتقدات، وينفصل عن العامة والناس، ويعبّر عن ضياع ذاته الأصيلة ، وينفصل عن مجتمعه، ويتميز عن الآخرين بأفكاره الفريدة ويخرج في سلوكه وتفكيره عن المألوف الشائع ، كما أن الغريب من انحرف في سلوكه النفسي والاجتماعي ، غريب الأطوار لشذوذه ومرضه، وعلى سبيل الشكوى من بؤس طال. و تدل غريب على معنى سلبي مستهجن وإيجابي مقبول ، فالغربة ليس عن القوة الحاكمة بل صورة من صور السقوط في أسر الذات، واعتذار عن فقدان الإرادة السياسية [4] .

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 138/14 .

[2] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 238 .

و انظر ، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 12 .

[3] المرجع نفسه ، ص 71 .

[4] المرجع نفسه ، ص 71 .

والعصبية القبيلة تقوم على نظرية الخضوع أو العبودية ، بل هي نظامُ تعاونيُ مشترك بين الأفراد جميعاً ، يطبق القانون على أبناء القبيلة ، وإن كان هناك سوء في التطبيق فلا يعود ذلك إلى سوء النظام ، فالمجتمع القبلي يقوم على التعاون والترابط والولاء والانتماء ، والقوانين أنظمة وأعراف وتقاليد لا تضعها فئة لتطبق على بعض الأفراد دون الطبقة التي وضعتها ، بل نظام عام للجميع فهناك من يخالف هذا النظام فتقع عليه العقوبة إما بالطرد أو الخلع ، أو معاقبته على الجرم الذي ارتكبه، ومن يطبق النظام ويحافظ على وحدة القبيلة فله حق الحماية والأمن والدفاع عنه ونصرته[1] ، فلا يوازن بين نظام القبيلة ونظام الكنيسة كما لا يوازن بين القانون الوضعي والقانون الإلهي .

فالقبيلة تمثل السلطة وتمثل قمة اغتراب أبنائها ، فحين ينضم الفرد للقبيلة بالانتماء والولاء لها ، وينقل لها حريته وحياته وملكيته الخاصة في الاستحواذ والتفكير ، وينقل حريته وهويته إلى الجماعة التـــي تتولى حمايته ، ويسلم مقاليد أمره لها لتصل إلى مرحلة التفكير عنه[2] ؛ لأنه لا يستطيع معارضتها ، وإذا رفض سلوكاً أو خُلقاً أو عابه تخلت عنه وحرمته من حمايتها . ومن يدخل في نظام القبيلة أو الدولة ويتنازل أو يتخلى عن حريته كحق قانوني له ،لا يستطيع استرداد هذا الحق أو قهر الاغتراب ، لأن نقل الحرية والملكية يسلم بواجب الخضوع لكل ما تقول ، وتجري الأمور حسب العقد الاجتماعي ، وما تقرره الجماعة بمعزل عن قناعته والخضوع لأغلبية الأصوات ، حتى وإن كان هذا الخضوع يثير شعوراً بالقهر .

---

(1) انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 287 .

(2) المرجع نفسه ، ص 239 .

فحرية العقل في إتباع قوانينه الخاصة بنفسه ولنفسه[1] ، وما تفرضه القبيلة أو الدولة أو ما تؤمن به ، تفرضه قسراً على الأفراد لتحقيق وحدتها وأهدافها ، وللأفراد حق الانتماء والدخول في طاعة القبيلة ، وليس لهم حرية الخروج على القبيلة ، فالعقد الاجتماعي يمثل الطغيان والاستبداد ؛ لأنه له حق الدخول في القبيلة والانتماء إليها ، وليس له حق الخروج عليها أو الاعتراض على ما تقوم به أو تفرضه على الأفراد .

فالقانون الخلقي لم ينبع من داخل الفرد ، وإنما هو مفروض عليه من الخارج وما اصطلح عليه الناس ، ويصبح كأنه شيء جامد بلا روح ، وما يفرض عليه يتنافى مع حقوق العقل . ويؤدي نقل الملكية إلى فقدان الحرية وإلى فقدان الوجود والحياة ، ويرى الاستقلال العقلي حق من حقوق الإنسان التي لا يستطيع التنازل عنها دون أن يتنازل عن إنسانيته[2] ، وعند الخضوع لسلطه خارجه غير سلطة العقل يؤدي بالإنسان للتوقف بين الحرية والوضعية . فالوضعية هي الاغتراب أو مظهر من مظاهر الاغتراب عند نقل الصفات أو الحقوق التي يمتلكها الإنسان إلى سلطة أخرى ، و تتكون بفعل إرادي وتعاقد حُر بين أفراده يقوم على التراضي غير سلطة الخضوع بين العبد والسيد . فالفرد يتنازل ويتخلى بسبب العقد عن حقه في أن يحكم لإنسان آخـــر ، كسلطة أو مجلس أو لحاكم وهي فكرة الاغتراب القانوني انتزاع من الأنا للآخر ، ليكون أمر قيام المجتمع أمراً ممكناً .

وتقوّض الجرائم بنيان المجتمع ولا يسمح لها بالظهور ؛ لأن قوة الدولة قوة مطلقه في العقد الاجتماعي[3] ، ولكي يحمي أفراد مجتمعه لا بد من القوة المطلقة ، وتركيز السلطة بيدها واستئصال لحقوق الفرد وانتقاص منها ، وإلغاء الفردية والشخصية ، ولا يريد انسحاق الشخصية تماماً ، وعند انسحاق شخصيته يقضي حياته كما لو كان آلة ، فحلت الطاعة والعادة محل العقل ، والخضوع السلبي ، و يصاحب الخضوع عدم الرضي والتذمر، وينقسم المجتمع إلى ثنائية خاضعة ومتمردة فقراء وأغنياء ، ومن رضوا بالعبودية رضوا بتسليم حريتهم وإنكار فرديتهم ، فهم آلات لا يملكون الاستقلال ، والفئة المتمردة تعتزل العالم الخارجي وما فيه من ضياع وقهر وعشوائية ، ويلجأ إلى داخل النفس حيث السكينة والطمأنينة ، ومن يرضى بالعبودية لا يحقق

---

[1] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 288 .

[2] انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 55 .

[3] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 54 .

وجوده ولا يعبر عن ذاته . والإنسان قناعٌ وزيف مع نفسه ومع الآخرين ويجتنب مصارحة الآخرين .

وتخضع العلاقة بين الفرد والقبيلة أو الدولة لمعيار المصلحة والفائدة . قال مالك بن الريب [1] :

لو كُنتمُ تُنكرونَ الغدرَ قُلتُ لكـمْ	يا آلَ مروانَ جاري منكمُ الحكمُ
لا كنتُ أحدِثُ سوءاً في إمارَتِكمْ	ولا الذي كانَ منّي قبلَ يَنتقِـــم
نحنُ الذين إذا خِفتم مُجلّلـــــة	قُلتم لنا إننا منكمْ لتعتصِمـــوا
حتى إذا انفرجتْ عَنكمْ دُجَنتُهـا	صِرتُم كجرمٍ فلا إلٌ ولا رَحِـــمُ

حافظ الشاعر الصعلوك أو اللص على فرديته كالشنفرى وعروة وغيرهم من الصعاليك واللصوص ، وعدم التنازل عن الذات والإسراف في عشقها[2] ، وتولدت الصعلكة نتيجة ذلك التغريب ، الذي مارسته الحياة والظروف على الفرد ، فبادر إلى استخدام السلاح غازياً من شدة الجوع والظلم ، ومدافعاً عن كرامته وفرديته الخاصة ؛ لأن القبيلة لا تؤمّن له تطلعاته وآماله وطموحاته . وعبر الشعراء الصعاليك واللصوص عن حالة اللا تكيف مع الحياة والعجز عن التغيير أو الإصلاح بالتمرُّد[3] ، وتبرز هذه الظاهرة في شعر أكثر من شاعر كالشنفرى في لاميته حيث تطرح الذات في وجه المجتمع ، متمردةً نزّاعة إلى الهدم والخروج على كل الأعراف

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 158/13 .

[2] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 243 .

[3] انظر، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 21/ 134 .

انظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 219 .

مالك بن الريب : بن حوط بن فرط من مازن من تميم كان شاعراً فاتكاً لصاً ، نشأ في بادية بني تميم في البصرة من شعراء الإسلام في أول أيام بني أمية وكان من أجمل الناس وجهاً كان يقطع الطريق مع شظاظ وأبي حردبة انطلق مع سعيد بن عثمان إلى خراسان وقيل لدغته أفعى ولم تكتب له العودة إلى وطنه (الأصفهاني ، **الأغاني** ، 304/22) .

الشنفرى : اختلف المؤرخون في اسمه ، و الشنفرى كنيته وتعني غليظ الشفتين ، وعاش بين فهم و سلامان من أشهر عدائي العرب ، وسبي مع امه وأخيه صغيراً ، وقتل قاتل والده في نمنى في موسم الحج ، وأضمر الشر لقومه ، وأقسم على أن يقتل منهم مئة بسبب استعبادهم له ،وسبي أمه وقتل والده ، وصنع نبله من قرون الحيوانات وعظامها ، وقال لاميته ، وهي قصيدة طويلة شكك بعض المؤرخين في نسبتها إليه (عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 252 ، المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1- 2 /487) .

والتقاليد وحتى القيم، يغير على القبائل التي انتمى إليها قبل الصعلكة، لأنها استعبدته وسلبته حريته وحتى كرامته .

فهو عبدٌ وابن أمةٍ وراعٍ عند الناس ، ويذهب دم والده دون أن يسانده أحد أو ينتصر لــه ، فسلَّ سيفه تارةً ينتقم لكرامته وكرامة أمه ، وأخرى يثأر لوالده بعد أن ُقتل على مرأى ومسمع من القبائل، ولم يثأر له وحتى الدية- وهي عارٌ عند قبولها- لم تقدم له[1] ، واسُتعبد ورهن كالمتاع فعاش حياة البؤس والحرمان بين القبائل ، فالقبيلة التي تخلى وتنازل عن ملكيته وحريته وهويته لها لم تناصره أو تدفع عنه الضيم ، وهذا التنازل من الأشخاص يقابله تأمين الأمن والاستقرار كمصلحة متبادلة مع القبيلة ، فعاش بين نار القبيلة التي لم تنصفه وعذاب الضمير ، وعاش أيام الصبا التي أمضاها راعياً يصارع القلق والاضطراب النفسي بين الانتماء و اللاانتماء ، وبين التوافق والانسجــام ، وبين الخروج على حياة العبودية والطاعة العمياء يبحث عن الذات أو يريد تحقيقها .

شق الشنفرى عصا الطاعة عند اليأس من التكيف أو مجاراة الواقع القبلي ، داعياً غيره إلى تقليده والسير على نهجه ، فلا التنازل يحقق له الحرية أو يلبي حاجاته ، ولا مجتمع الصعاليك و اللصوص أو المجتمع الجديد الذي بناه أو ساهم في بنائه[2] . فكل ما عجزت عنه القبيلة من نصرةٍ وثأر ورفع للظلم فهو قد تحمل تبعات ذلك . فأقسم أن يقتل مئة من القوم بسبب إذلالهم لــه ، وتجرَّد للغارات وصنع سلاحه ونبله بيده ، واستمرت غاراته معتمداً على سرعته وخفة حركته ، ولم يكتف بكل ما عمله ، حتى ثأر لوالده في منى وفي موسم الحج تمردا على كل الأعراف.

وتحس الفردية الناقمة بتخلخل البنية القبلية ، التي تستشعر مهانة الفقر والمكانة الاجتماعية ، كما تعاني الفردية الناقمة التفاوت في الأرزاق ، وسوء المعاملــة ، وجور القوانين كالخلع والثأر والأسر والسجن[3] . فالتباين واضحٌ سواء في الاختلال الاقتصادي أو الاجتماعي . مما أوجد التطرف والتمرد والإحباط واليأس ، و زاد فقدان العدالة والمساواة من النقمة

---

[1] انظر ، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 248 .

[2] المرجع نفسه ، ص 238 .

[3] المرجع نفسه ، ص 238 .

والانحـلال ، وانتشر الفساد وغاب العلاج أو الإصلاح أو التغيير ، مما أثــار موجات السخط سواء داخل القبيلة أو المجتمعات .

وحين ننظر ونوازن بين مجتمع القبيلة والمجتمع الإسلامي الذي جاء لإقامة العدل، نرى أن حدة التمرد والتطرف قد خفتت أو اختفت وتلاشت ، ولعل أسباب اختفائها هي انتفاء أسباب الكبت بسبب الطبقية لتحل محلها قيم وعدالة الإسلام ، وتحقيق الأمل المنشود في قيام مجتمع حضاري في بنائه وأنظمته ومقاييسه ، فعالج أسباب الخروج والتمرد ولم يعالج الظواهر ، وعالج الفقر والجوع والحرمان، بالعدل والمساواة والهبات و الأعطيات من بيت المال وفتح أبواب الجهاد ، وتم توزيع الزكاة والخراج والغنائم بشكل عادل[1] ، وعالج أشكال التمييز بالمساواة بين الأبيض والأسود والسيد والعبد ، وعالج الثأر بالقصاص أو الدية ، وألغى الرق والعبودية كوسيلة للتكفير عن الذنوب . فكيف نعيش في مجتمع إنساني أو نطالب ببناء مجتمع إنساني ونحن نحتكم إلى قانون الغاب ؟ ولماذا نخرج على المجتمع الإنساني الذي تمثله القبيلة أو الدولة لنعيش في مجتمع آخر أقل مستوى وتحضرا كالمجتمع الحيواني؟ الذي فضله الصعاليك واللصوص على المجتمع الإنساني ،هل كان الصعاليك ينتمون إلى فئات غير متحضرة أم أن المجتمعين تبادلا الأنظمة والقوانين بحيث تساوى المجتمع الإنساني مع المجتمع الحيواني ؟ .

لم تكن ثورة الصعاليك واللصوص لتحقيق منافع وأهداف شخصية ، ولو كانت أهدافهم أنانية ضيقة للتغلب على الجوع أو الفقر لغنموا في غارةٍ واحدة ما يجعلهم في صفوف الأغنياء ، بل كانت ثورتهم وتمردهم من أجل رفع الظلم عن أنفسهم وعن غيرهم ، فضحّوا بأنفسهم من أجل سعادة الآخرين ، وتشردوا لا جبناً أو خوفا ، بل رفضاً لكل القيم والأعراف التي تنادي بالتمييز والطبقية . فالشعر الجاهلي انبساطٌ للنزعة الفردية في تضخماتها واعتدالاتها من حيث هي رد الفعل النفسي على الشعور باللا أمن ، وهي صيحة أصيلة تبغي التحرر والمساواة ، وقلما تغيب الفردية [2]، بينما النزعة العشائرية قابلة للاختفاء بعد ظهور النزعة المذهبية ، فتظهر الخصوصية بديلاً عن الاندماج في الكلية أو الاندماج في الجماعة ، شريطة أن لا يتعارض هذا الاندماج مع الهوية الفردية النزاعة نحو التحقيق .

---

[1] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 16 .

[2] انظر ، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 251 .

فالإنسان وإن حاول أن ينعزل أو ينفصل عن محيطه الاجتماعي، فلن يعيش وحيداً ولن يستطيع مـهما بلغ به الأمر ، فإنه يبحث عن إلفٍ سواء جماعة مذهبية يعيش بينهـا ، أو يلجأ إلى قبيلة يطلب جوارها ، أو يختار مجتمعاً غير مجتمعه البشري كما فعل أكثر من شاعر كالشنفرى وعبيد بن أيوب و الأحيمر السعدي[1] ، فوجدوا مجتمعاً بديلاً عن مجتمعهم الذي فقدوا التآلف معه ، فلا هو يحقق طموحاتهم ولا يحقق مصالحه ، فيصبح المجتمع في نظر الصعاليك واللصوص مجتمع هدم لا مجتمع بناء ، ويصبح الصعاليك واللصوص أكثر انتماء بعد انفصالهم عن المجتمعات التي سامتهم ألوان العذاب .

يبتغي الإنسان في وجوده البشري التواصل والتكامل والانسجام بدلاً من التشرد والطرد والخلع ، فإن سلبت القبيلة شخصيته وحريته وملكيته ، فهي لا تلغي ذاته وتميزه وإبداعه ، فهناك فرقٌ بين الانسجام والتوافق مع القبيلة كإطار وغطاء ،مع المحافظة على الذات والتميز والحرية في ضوء العقل والاختيار ، وبين إلقاء الطاعة والخضوع والإيمان بكل ما تأتي به أكان صائباً أم خاطئاً ، فكان الصعاليك واللصوص بين فئتين فئة ترى خروجها عن الانتماء يحقق لها ذاتها ، وفئة ترى ذاتها من خلال الانقياد والخضوع لرأي القبيلة وسادتها[2] . فالفئة الأولى عبرت عن حاجات مادية لا تستطيع تحقيقها في ظل القبيلة ، فأخذ الشاعر الجاهلي يبحث عن التوازن بين انكفاء قسري إلى حياة القبيلة وبين تطلع سياسي واجتماعي وصراع متوازن ومتداخل ضد الحياة القبلية ،دون التفريط بها لانعدام البديل [3] ، تحاول الفردية أن تدفعه إلى رفع كل ضغط ، وتثبيت الحقوق الدائمة للأنا الذاتية تجاه الحقوق الجماعية ، و يؤمن اتجاه آخر بوحدة الجماعة بصورة عميقة ، وذاتية تصل إلى حد التضحية بالـنفس .

---

[1] انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 70 .

و انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 251 .

الأحيمر السعدي : من خلعاء بني سعد ، وطارده السلطان فعاش في الصحراء وتحدث بغرائب وحدته ، فأنست به الوحوش ، وهدّد قوافل التجار ، وقال :

تُعيرني الإعدامَ والبدوُ معْرِضٌ وسيفي بأموال التجار زَعيمُ

وتاب عن نزعة التصعلك وكان مترددا بين الرجوع إلى الله والحنين إلى أموال التجار . (ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص534) .

[2] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 290 .

[3] المرجع نفسه ، ص 239 .

ودعت الحاجة إلى التطور بالمفهوم القبلي للوحدة بمعنى أشمل ، و تسوس الناس بحيث لا يتضامن أفرادها مع ما يخالف الضمير والعقل ، وله حرية الفكر والرأي وموقف شخصي يعبر فيه عن ذاته ، ولا يمثل الخروج على القبيلة الانفصال عنها فقط ، بل هو سعي نحو مجتمع أكثر تقدماً ورقياً [1]، يمثل إنسانية القبيلة وما فيها من سجايا ، وحضارة الدول وما فيها من رفاه ومتع ، ورفض كل أشكال التمييز والتباين بين الطبقة الغنية والفقيرة ، وتمركز الثروة في أيدي المتنفذين على حساب المحرومين ، ورفض التقاليد التي تجعل ابن الأمة دون غيره من الـــناس .

و يبدأ الحوار بين التيارات المختلفة حين تصل الأمور إلى فرض الرأي دون اعتبار لناحية إنسانية ، مما يضطر الصعاليك واللصوص إلى التمرد والخروج على قبائلهم لا من أجل الانفصال والعزلة ، بل سعي لطرح المشكلة والإيمان بأهمية اعتماد معايير ومقاييس تلبي حاجات المجتمع ، وليس تعديل أو تغيير نظمه لتوافق إنسانية المرء[2] ، بل كل ما تسعى إليه الفئات الخارجة من الصعاليك واللصوص، هو تمرد على نظام القبيلة وأعرافها وتقاليدها ، لإقامة مجتمع حضاري في رؤيته وفكره وتشريعاته ، ليقاس المرء بمزاياه وصفاته لا بنسبه ولونه وغناه أو فقره وعدد أفراد قبيلته . وتحمل الغربة المعنوية معاني مخالفة الرأي والقيم والأفكار والمعتقد ومخالفة المألوف[3] ، علماً بأن عدم الانسجام أو التوافق مع الواقع الاجتماعي أو الســياسي أو الاقتصادي أو الثقافي ، فيه معنى التمزق والتشرد والمعاناة ، والقلق والاضطراب واليأس والشقاء وفقدان الوحدة . و يتمرد بعض الغرباء على واقعهم طلباً للحرية ، في حين يسلك غيرهم طريقاً آخر راضين بذلهم وعبوديتهم ، وغربة ذاتية تعبر عن موقف متفرد إذا اعتبرنا الخروج عن العصبية خروجاً على الذات الاجتماعية .

يعد الخروج على العصبية القبلية هروباً من مواجهة الواقع وانصرافاً عن واجباتها ، أو استهتاراً بقيمها ، لذلك فإن العجز عن تبديل الواقع أو تحويره أو تـــطويره اغتراب سلبي ، فلا يجد أمامه إلا عدم الانتماء ، ويؤمن بغير قيم مجتمعه ، ويخلص إلى التصدي لمنطق القبيلة والخروج عليه ، ويقع بين أمرين قبول بمنطق القبيلة والتمسك بالعصبية ، أو الانتصار للمنطق الفردي ، فالخروج على مـــنطق القبيلة معارضة لقومه إن قبلوا صلحاً وديّات ولم يثأروا

---

[1] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 239 .

[2] المرجع نفسه ، ص 238 .

[3] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 156 .

لقتلاهم[1] ، و حين يصبح القتل والثأر في القبيلة الواحدة فيكون بذلك تحدياً لقانون العصبية خارجاً عليها، ويشعر بغربة قاسية حين تفضل القبيلة رجلاً غريباً عليه على الرغم من انتمائه إليها .

فهذا محرز بن المكعبر الضبي كان جاراً لبني عدي بن جندب ، فأغار بنو عمرو بن كلاب على إبله وذهبوا بها ، فطلب إلى بني عدي أن يسعوا له فوعدوه أن يفعلوا ، فلما طال ذلك عليه ورآهم لا يصنعون شيئاً أتى المخارق والمساحق ابني شهاب المازنيين ، وهما من بني خزاعة فسعيا له فردا عليه إبله ، فقال[2] :

أبلغْ عَدِيّاً حيثُ صارتْ بها النَّوى	وليسَ لدهرِ الطالبين فنـــــــاءُ
وإنّي لراجيكُمْ على بُطءِ سَــعيكمْ	كما في بطونِ الحاملاتِ رجــاءُ
فهلاّ سَعيتُمْ سَعيَ عُصبةِ مــازنٍ	وهل كُفَلائي في الوفاءِ ســـواءُ
لهم أذرعٌ بادٍ نواشِرُ لحمِهـــا	وبعضُ الرجالِ في الحروبِ غُثـاءُ

فيصفهم بالكسل وقلة النشاط ؛لأنه طلب منهم النصر فلم ينصروه على أعدائه ، وغيرهم رد إبله ولم يفعلوا له كما فعل المازنيون ، فهو يمدح بني مازن ويعرّض ببني عدي . وعندما كان القتل والثأر في القبيلة الواحدة فيضطر بعض القوم إلى الانتقال والبعد والتنحي عن عشيرتهم ، مخافة أن يلحق بهم الأذى ، فالشيظم بن الحارث الغساني قتل رجلاً من قومه ، وكان المقتـــول ذا

[1] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي** ، ص 243 .
و انظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 219 .
[2] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 3-1455/4 .
النواشر : عروق باطن الذراع .(**اللسان** ، مادة نشر) .
تلاحَوْا تنازعوا وقولهم لحَاهُ الله أي قبحه ولعنه .(**اللسان** ، مادة لحى) .

أسرةٍ فخافهم فلحق بالعراق فكان يتكفف الناس نهاره ، ويأوي إلى خرابة ليلاً وفي أثناء تطوافه سمع قائلاً يقول[1] :

لحَى اللهُ صعلوكاً إذا نالَ مُذقـةً ... توسَّد إحدى ساعديه فهوّمـا

مُقيماً بدار الهُون غيرُ مُناكـر ... إذا ضيم أغضى جَفنَه ثم برشـما

يَضنُّ بنفسٍ كدّرَ البؤسُ عيشَها ... وجودٌ بها لو صانها كانَ أحزَمـا

فذاكَ الذي إن عـاشَ عاشَ بذلـةٍ ... وإن ماتَ لم يَشهدْ له الناسُ مأتمـا

بأرضِك فاعْرُكْ جِلدَ جَنبِك إنني ... رأيتُ غريبَ القوم لحماً مُوَضّمَـا

وبعد أن سمع هذه الأبيات ارتحل إلى الشام ،واستجار بالخليفة وأذن له، ثم بعث إلى أولياء المقتول فأرضاهم عن صاحبهم ، ويعود الثأر إلى كثرة الغزو والإغارة والنهب والسطو وغياب قانون للثأر بين المتخاصمين ، وشدة التنافس والصراع على موارد الماء والكلأ،والحقُّ لصاحب القوة والسلطان ، وحين جاء الإسلام وضع معايير وتشريعاً للقصاص ، والعقوبات لسائر الجرائم كشرب الخمر والرق والقتل العمد والقتل الخطأ .

والتجأ أبو الطمحان القيني إلى فزارة وطلبه السلطان إثر جنايةٍ جناها ، فنزل على رجلٍ منهم يقال له مالك بن سعد أحد بني شمخ ، وبعد أن أمضى زمناً قال لمالك :" لولا أن يدي تقصر عن دية جنايتي لعدت إلى أهلي ، فقال له : هذه إبلي فخذ منها دية جنايتك وأردد ما شئت "[2] ، فلما أصبح ندم على ما قاله ، وكره مفارقة موضعه ، فأتى مالكاً فأنشده [3] :

سأمدحُ مالكاً في كلِّ ركـبٍ ... لقيتُهم وأتركُ كـلَّ رَذلِ

وقد عَرفتْ كِلابُهُم ثِيابـي ... كأنّي مِنكمُ ونسيتُ أهـلي

نَمَتْ بكَ من بني شمخ زنـادٌ ... لها ما شئتَ من فرع وأصل

---

(1) القالي ، أبو علي إسماعيل البغدادي ، **ذيل الأمالي والنوادر** ، دار الجيل بيروت ، ط2 ، 1987 ، 1/ 178 .
مذق المذيق اللبن المموزوج بالماء ، مذق اللبن يمذقه مذقاً فهو ممذوق . (**اللسان** ، مادة مذق) .

(2) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 23/7 .

(3) المصدر نفسه ، 23/7 .

أبو الطمحان القيني : هو حنظلة بن الشرقي من قضاعة ، من مخضرمي الجاهلية والإسلام ، أدرك الإسلام ولم ير النبي عليه السلام ، وكان معروفاً بالفسق وقيل أنه عمّر مائتي عام ، خبيث الدين ، كثير التنقل ، كان يفخر بخيانة المرأة التي آوته ، (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1266/1 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 146) .

و يحدث القتل في القبائل عاراً لها حتى تثأر لقتيلها ، ولا يكون الثأر من القاتل أحياناً بل من أشراف قبيلته[1] ، ولا يكتفى بقتل قتيلٍ بل هي حربٌ مستمرة ، وَهمّ أفراد القبيلة رفع رايتها وإرهاب أعدائها ، وتحقيق الأمن لأفرادها ، فجعلوا الثأر وسيلة لتحقيق الأمن لا ضيقاً في التفكير، ووسيلة لكسب العيش ، فإذا قعدت عن إدراك ثأرها فإنها ستصبح مستضعفة غير مهابة من القبائل الأخرى ، وكثيراً ما يكون القتل ناتجاً عن سلوك عدواني ، أو كردّة فعل لحادثة معينة . فالشنفرى ثأر لوالده في موسم الحج الذي يحرم الجاهليون فيه القتال ، و هدبة بن الخشرم قتل ابن عمه واقتص منه ، والقتال الكلابي قتل سجّانه حين ضيّق الخناق عليه وأساء معاملته ، ويعز على الشاعر أن يقبل قومه الدية بدلاً من الثأر لقتلاهم ، ويعيّرون بالإبل التي أخذوها دية للقتيل ، لأن في قبولها ذلاً وعاراً ومظهراً من مظاهر الذلة ، فهم كمن دفع الإتاوات مقابل الحماية والأمن والاستقرار ، كذلك لا يأمن الضعيف في ظل الصحراء المظلمة على نفسه وأهله ، فمنطق القوة هو السائد ولا وجود لضعيفٍ متخاذل .

فكما أن ثمة دوافع للولاء للقبيلة فإن هناك دوافع للخروج عليها ، حيث يلجأ الفرد للقبيلة ليعزز كيانه ويسمو به . و يكسبه شعوره بالانتماء ثقة بالنفس ، لأنه ينتمي إلى جماعةٍ تحقق فيها ذاته ويصل إلى طموحه وتشعره بالأمن، مما يتهدده من أخطار، وانتمى الإنسان منذ بدء خلقه إلى جمــاعات صغيرة سرعان ما اتسعت لتشكل مجتمعات كبيرة ، وأول جماعةٍ انتمى إليها هي الأسرة . ولا يعيش الإنسان بطبعه منعزلاً عن مجتمعه ، و تعد البيئة المادية هي الإطار الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان ، فالعلاقات الإنسانية مع بقية أفراد مجتمعه هي علاقة أخذ وعطاء ، ويحتاج إلى من يشد أزره ويضمن حاجاته الأساسية ، و ينتسب أفراد القبيلة إلى جد مشترك ، وانتماؤهم إلى القبيلة وولاؤهم لها ؛لأن الفرد يعتمد في حياته المادية و المعنوية عليها ، حتى في خروج الصعاليك واللصوص على قبائلهم كانوا يبحثون عن تكتلاتٍ جديدة[2] ، فالبيئة القاسية دفعت العربي إلى الانتماء للقبيلة ، فهم رحلٌ وفقراء ثروتهم في كثرة ماشيتهم . والارتحال سمةٌ بارزةٌ أمــلاً في توفير أسباب الحياة ، وفي رحلته يتعرض لمخاطر كثيرة لا يقدر على دفعها وحده .

[1] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 261 .

[2] انظر، خليف ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، ص 187 .

ولكي يعزز شعوره بالقوة والأمن كان لا بد له من الانتماء إلى جماعةٍ قويةٍ ليحقق غاياتٍ أخرى كحب السيطرة والظهور والتفوق وعاطفة احترام الذات ، والحديث عن البطولة ، يضاف إلى ذلك تلبية حاجات الإنسان الفطرية إلى العطف والحنان ، وإشباع هذه العاطفة يؤدي إلى استقراره وتميزه عن غيره من المخلوقات[1] ، فهو يسعى للانتماء إلى القبيلة ليحقق مصالح مشتركة من تلبية حاجاته النفسية والفطرية ورغباته المعيشية ، و يسعى إلى إشباع هذه الحاجات ، ويتطلب ذلك قبول الفرد للجماعة وقبول الجماعة للفرد ، إذ تحقق وحدتها من خلاله.

فالعصبية القبلية هي بمثابة أفكار الأفراد ومعتقداتهم ، كما أنها أساس دستور القبيلة. وكل من يشذ عن دستورها ويخالف قوانينها وأعرافها و لا يمتثل لنظمها الأخلاقية ، فإنه يخضع للعقاب ، ويكون بالطرد والخلع لصعوبة حياة الفرد منعزلاً . فيطبق الخلع والطرد على الفرد إذا ارتكب خطيئة أو جرماً أو ساء تصرفه ، فلا تسمح له القبيلة بتعريض وحدتها للانقسام ، حتى وإن كان ما يؤمن به من أفكار لصالح القبيلة [2] ، ويعتبر خليعاً إذا عارض برأيه وفكره توجهات القبيلة ، فإذا دعا للثأر دعت القبيلة للمهادنة والصلح وأخذ الديات ، وإذا دعا لنصرته تغافلت عنه أو تناسته ، وإذا طلب التأييد والنصرة تخاذلت عن ذلك جبناً أو لا مبالاةً ، وقد تستجيب لنصرة غير أبنائها ، إذا أصابه جورٌ ، مما يؤثر في نفسية وسلوك أبنائها، فيكون سبباً للتمرد والمعارضة والاغتراب عن قبائلهم .

ويشعر الصعلوك أو اللص بالغربة حين يحل أحدهم بين قومٍ لا يمت لهم بصلة ، فيعيش عيشة الرق والعبودية ، وقد يجمع بين غربة المكان والغربة النفسية كمالك بن الريب حين حانت وفاته في خراسان ، ويألم لسواد لونه أو خلعه أو فقره وشعوره بتدني منزلته[3] . وعاش الغربة التي لا يستطيع تحاشيها أو البعد عنها . فأبو خرّاش أيضاً شكا الدهر حين حاول العودة لماضيه بحثاً عن ملجأ فيه ، وبكى شبابه حين أدركته آلام الشيخوخة ، وغابت معالم الطريق الذي يسلكه ، فيعيش الانفصال عن الواقع الذي عجز عن التكيف معه أو التأثير فيه ، ويزداد الإحساس بالغربة حين يعصى من قومه ، وحين يعقه أولاده كفرعان بن الأعرف ، فلم يكتف هؤلاء بما فعل الزمن بذويهم ، فيضيفون لآلامهم آلاماً ، وتزداد الشكوى من الدهر وتقلباته وتهمة الحظ ومغالبة الزمن ، حيث يسير الركب إلى النهاية التي أشغلت الإنسان . وحاول الهرب

---

[1] انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 188 .

[2] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 132 .

[3] المرجع نفسه ، ص 12- 15 .

والبحث عن الخلود أمام الوحدة والانعزال في القبر بعد الموت ، يبحث في حياته عن المساواة فلا يجدها إلا بالموت .

وقد آمن الصعاليك واللصوص بحتمية الموت مما جعلهم لا يحرصون على المال ، وجعلهم يسرفون في الإنفاق وقد هوّن العرب من شأن المال لأنه سوف ينتهي إلى الوارث ، فليس للإنسان من ماله إلا ما أنفقه في حياته وتمتع به قبل مماته[1] ، والكريم عندهم من يتقي ذم نفسه من خلال إيثاره وكرمه ، لأن هذا طريق كل من يريد الذكر الحسن ، والمكانة الرفيعة بين قومه ، فالبخل والشح مذمة لمن يسعى إلى الحمد ويهين ماله في سبيل ذلك ، ومن مظاهر كرمهم إرضاء الضيف وإيثاره بكل ما لديه ، ليتبوأ المكانة السامية بين قومه ، ويحرص على أن يغادره ضيفه راضياً مادحاً ، فعندما لدغت الأفعى خرّاشاً ، وكان يقيم على خدمة ضيوفه ، وتحامل على نفسه حتى قضى نحبه ، فعندما علم الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أمر واليه أن يدفع ضيوفه ديته .

وقد يصاب ابن القبيلة الكريم في ماله عندما تصاب قطعانه بوباء ، أو تتعرض لسرقه أو تتعرض القبيلة لغزو ، فإذا جاع أو افتقر فإنه يضطر إلى الغزو و الصعلكة واللصوصية ، وقد تراق فيها الدماء لجلب المال[2] ، ومما زاد إحساساً بفقره وجود المناطق الخصبة بجانب صحرائه . فكانت الحياة الاجتماعية تتأثر بعوامل مختلفة كجغرافية البلاد، والعوامل الاقتصادية كطرق التجارة ، والأسواق وتوزيع الثروات ومكانة القبيلة ، فالطبيعة حرمتهم من الماء وجادت عليهم برمال تلفح الوجوه، وبرياح السموم وبحرارة شديدة، وهي بالمقابل الملاذ الآمن من السلطة والقيود والخلع[3] ، وكانت صفة الجفاف هي الغالبة في المجتمع العربي ، مما أدى إلى قلة السكان وعدم وجود تجمعات حضارية إلا في أماكن الخصب ، أو المراكز التجارية في المدن ، فالتضاد الجغرافي ولّد تضاداً نفسياً في حياة ابن الصحراء .

كما وجد الصعاليك واللصوص أنفسهم في سجن كبير، وظلّ الموت يطاردهم إما الموت بسبب الجوع ، وإما الموت بسبب التشرد والمطاردة ، ورأى سكان البادية في القوافل التجارية وما تحمل من بضائع وثروات اختلالاً اقتصادياً ، فوقفوا موقفاً معادياً للملكية الجائرة ، والفقر

---

[1] انظر ، خليف ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، ص 195 .

[2] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 82 .

[3] انظر ، خفاجي ، **الشعر الجاهلي** ، ص 303 .

الذي يعانون منه . فتربصوا بالقوافل الصغيرة فهي أقل خفارةً وأيسر منالاً وأضمن عادية[1] ، ومهما اختلفت أسباب النهب والسطو والإغارة فغالباً ما تعود لأسباب اقتصادية ، أو اختلالٌ في التوازن الاقتصادي وسوء توزيع الثروة ، وكان من أصناف هذه التجارة بيع الرقيق ، وقد يتعدى ذلك لبيع الأولاد خشية الفقر .

ويصور يزيد بن مفرغ معاناته النفسية كما صوّر معاناته الجسدية في أكثر من موقع ، فباع أقرب الناس إلى نفسه غلامه برداً وجاريته الأراكه ولم يكن لصاً أو صعلوكاً وإنما كان معارضاً لبني أمية ، وقال[2] :

يا ُبردُ ما مَسّنا دهرٌ أضرٌ بـــنا	من قبلِ هذا ولا بِعنا له َولداً
أما الأراكُ فكانتْ من محارِمنا	عَيشاً لذيذاً وكانتْ جنةً رغداً

وهناك من كان يتمنى لأولاده أو من يعيلهم الموت بعد أن رأى سوء الأوضاع الاقتصادية بسبب الجوع والفقر ، مما اضطر بعضهم لأكل الجيف وجذور النباتات ، وحتى عند قيام الدول لم يكن اختلال الأسباب اقتصادياً يعود إلى قلة الأموال التي ترد إلى بيت المال ، وإنما إلى تعدد السبل التي كان ينفق فيها على الترف والقصور والأعوان والجيوش ، وتجهيزها للقضاء على الخارجين والثائرين عليهم ، إضافة إلى استرضاء أنصارهم ، فكانت الأعطيات تحدد حسب الموقف السياسي . وجاء راع إلى عبد الملك ورفع بلسان قومه تظلمهم من بطش السعاة وعسفهم فقــال الراعي النميري [3] :

أخليفةَ الرحمنِ إنّا مَعشــــــرٌ	حُنفاءُ نَسجدُ بكرةً وأصيـــــلاً
عربٌ نَرى للهِ في أموالِنـــــــا	حقَّ الزكاةِ مُنزّلاً تنزيــــــلاً
إن السّعاةَ عَصَوكَ يومَ أمرتَهم	وأتوا دواهي لو عَلمتَ وغُولاً
فادفعْ مَظالمَ عَيلتْ أبناءَنـــــا	عنّا وأنقذْ شِلوَنا المأكـــــولا

---

[1] انظر ، عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ، ص37 .

[2] سلوم ، شعر ابن مفرغ الحميري ، ص 74 .

[3] الراعي النميري ، ديوانه ، تحقيق رينهارت فايبرت ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية بيروت ـ1980، ص 229 _ 236 .

الشلوُ العضو من أعضاء اللحم . (اللسان ، مادة شلو) .

وكلما اشتد البغي على عامة الناس زاد التمرد ، وعرف عن بعض القبائل عدم إذعانها للسلطان والانصياع للنظام ، فضيّق عليها الأمويون مادياً ، كما حرموها من العطاء . وعلاقة الأفراد بالدولة علاقة مصالح فردية لا مصالح جماعية ، فتقرب من كان مؤيداً ، وتنحّي من كان معارضاً ، ولو كانوا من بيت واحدٍ ، وينظر الصعاليك واللصوص إلى المجتمع فإذا هو مجتمع ظالمٌ ، وتوزيع الثروة فيه توزيعٌ جائر ، فليس من العدل أن تتراكم الثروة في أيدي فئة قليلة وغيرهم محرومٌ منها ، وليس من الإنصاف أن يمنع الموسرون عطاءهم عن المحتاجين لأن لهم نصيباً في أموال الأغنياء ، إذا كان المقصود من الغارات على الأغنياء البخلاء هو إنصاف الفقراء [1] .

والهوة بين هاتين الفئتين فئة الأغنياء وفئة المعدمين هي التي دفعت الفئة المعدمة للخروج إلى الصحراء واغتصاب رزقهم لأنفسهم ولغيرهم ، ولم يطلب هؤلاء الغنى لأنفسهم بل لكي لا يروا فضلاً لأحدٍ عليهم ، وألا يقصروا في تأدية واجب ، بالرغم من معاناتهم وما حملت نفوسهم من الحقد والكراهية والنقمة على المجتمع وأفراده الأغنياء ، إلا أن بعضهم كعروة بن الورد ، وعبيد الله بن الحر الجعفي كانا ذا نزعة إنسانية وهدفا نبيلاً لتحقيق التوازن الاقتصادي والعدالة الاجتماعية ، وغدت هذه الأهداف النبيلة سبباً من أسباب التمرد والثورة على القيم والأعراف ، وأحدثت انقساما بين المرء وزوجته اللائمة العاذلة ، التي حاولت منع زوجها من المخاطرة بنفسه خوف تأيُّمها أو أن ييتم أولادها ، كما أنها تكثر من لومه على الإنفاق والإسراف خشية الفقر، لشدة ما أصابها من الفقر والجوع [2]، فالإحساس بالفقر كعقدة نفسية دفعت بعض هؤلاء الصعاليك واللصوص إلى التعويض عن فقره لإثبات ذاته إما بالبذل أو العطاء أو الفروسية ، وهذه العقدة يخلفها الفقر في نفس الفقير حين يشعر بهوان منزلته الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع له .

---

(1) انظر، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 73/3 .

(2) انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 106 .

جعفر بن علبة وقيل بن علية : جعفر بن علبة بن ربيعة الحارثي أبو عارم شاعر غزل مقل من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كان فارساً مذكوراً في قومه وهو من شعراء الحماسة لأبي تمام كانت إقامته بنجران وحبس متهماً بالاشتراك في قتل رجل من بني عقيل اسمه خشينة ثم قتله عقيل السري الهاشمي عامل المنصور على مكة قصاصاً (البغدادي ، **الخزانة** ، 4/ 322 ، الزركلي ، **الأعلام** ، 125/2) .

فالمفارقات الصارخة بين الصعاليك واللصوص وبين الأغنياء هالتهم وأفزعتهم ، ونتيجة لكبريائهم وأنفتهم أبوا أن يَظلموا أو يُظلموا أو يحرموا ويَذلوا للأغنياء الأشحاء ، واحتجوا على التفاوت الطبقي كالأحيمر السعدي وجعفر بن علبة و المرّار بن سعيد الأسدي ، وأخذوا ينادون بالتكافل الاجتماعي ، فالصعلكة واللصوصية لا بسبب فسادهم وانحرافهم بل لرفضهم قيم المجتمع وتباين الحظوظ بين الناس وقسمة الثروة قسمة ظالمة، وضن الأغنياء عليهم فأخذوا يغصبون قوتهم اغتصابا ، ويرون أن ما يملك الأغنياء من قطعان الإبل، إنما هو مال الله لهم حقٌ فيه ، فهو في أعماله لا يرتكب جُرماً بل يحقق لنفسه وجودها ، وينصب نفسه مدافعاً عن حقوق الفقراء ، ويصبر على الجوع ويؤثر غيره على نفسه ، قال المرّار بن سعيد [1] :

إذا افتقرَ المرّارُ لم يُرَ فقرَه	وإن أيسرَ المرّارُ أيسرَ صاحبُه

وقد اغترب الصعاليك واللصوص عن قبائلهم طالبين منها أن لا تستكين للضيم ،أو تستسيغ الهوان وتستسلم للعمال الغاشمين ، ويستصرخونها أن تستجيب لنصائحهم وأن تنتصر لهم ظالمين أو مظلومين، فكان اغترابهم عن قبائلهم لعدم إصغائها لهم في نصائحهم بعدم الإذعان للذل والهوان. وتكاد تكون هموم الصعاليك واللصوص واحدة من تشرد وفقر وبعد عن الأهل، وخروج على النظام والقانون، والقضاء قتلاً أو بالحبس ، وعبّروا عن ضيعتهم بالسجون والقيود والحُرّاس وتعشقهم للحرية. مدح أبو الطمحان القيني بجير بن أوس بن حارثة ، وكان أسيراً في يده ، وقال[2] :

إذا قِيل أيُ الناسِ خيرُ قـــــبيلةٍ	وأصبرُ يوماً لا تُوارى كواكبُه
فإنّ بني لأم بن عمرو أرومـــــة	علتْ فوقَ صَعْبٍ لا تُنالُ مراقبُه
أضاءتْ لهم احسابهم ووجوهُهم	دجى الليلِ حتى نظّمَ الجزعَ ثاقبُه
لهم مَجلسٌ لا يَحصرون عن النّدى	إذا مطلبُ المعروفِ أجدبَ راكبُه

---

[1] انظر ، القيسي ، شعراء أمويون ، ص 453 .

المرار بن سعيد الفقعسي : كان هو وأخوه لصين محترفين أخذت بهم الفاقة وكانا ضالعين بسرقة الإبل ويبيعانها في أسواق بعيدة وكثر ترددهما على السجون بنجد والحجاز وحبس في اليمامة ثم أفلت ومات أخوة تحت التعذيب . (الأصفاني ، **الأغاني** ، 153/9 . عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 587) .

[2] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 28/3 .

فالغربة بسب اللون كأن يُولد الإنسان لأمةٍ سوداء من أسباب تمردهم ،ويظل عار اللون يلاحقه وتساء معاملته ويميّز بينه وبين أخيه بحسب ألوانهم كعروة بن الورد وأخيه، ويضطهد عرار بن عمرو بن شاس وكثير من أبناء الإماء، الذين ظلموا بسبب ألوانهم كخُفاف بن ندبة الذي يشعر أنه لا يساوي عنزاً جرباء[1] ، والشنفرى الذي يرهن كالمتاع ، وتأبط شراً الذي رفضته النساء ، و السليك الذي يرى خالاته وعماته يعذبن ولا يملك ما يدفع الضيم عنهن . فهذه الفئة من الصعاليك السود لا يحسنون التملق والمدح ولا يتقنون سبل الوصول إلى الطبقة العليا في المجتمع ، ولا يرتادون القصور ، لأنهم غير مقبولين اجتماعياً ، فحين يطلب من أحدهم أن يَنشد،طلب أن يكون إنشاده من وراء ستار وهو يُقرُّ في نفسه بأنه أقل مـكانة من غيره، وقال أحدهم : "ما يصنعن بي ؟ يرين جلدةً سوداء وشعراً أبيض"[2].

فأبن الأمة من غير العرب لا يحسن الإنشاد أو يغير بعض الحروف للكنة في لسانه ، ويعيشون عند الناس لا بينهم ، كما يعيشون في عالمين عالم باعتبارهم من الرعايا ، وعالم باعتبارهم من السود يتعانقان في ظل الإسلام ويتباعدان في ظل القبيلة، وفي فترات التعصب القبلي والاستبداد والطغيان في الدول ، وانقسموا فئتين فئة في خدمة البيوت والرعي كسحيم عبد بني الحسحاس ، وفئة تمردت على مجتمعاتها بحثاً عن العدالة والإنصاف كخفاف وغيره[3] ، وهناك من لم يلحق بنسب والده لسواد لونه ولأنه ابن أمه فكانت غربتهم بسبب ألوانهم .

---

[1] انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 70 .

عمرو بن شاس : كثير الشعر في الجاهلية والإسلام ، وأسلم وشهد القادسية وهو أبو عرار وهو مخضرم أدرك الإسلام وهو شيخ كبير ، وكانت له امرأة من قومه وابن من أمةٍ سوداء يقال له عرار ، فكانت تعيره إياه وتؤذيه ويؤذى بها ، فأنكر عمرو أذاها له ،المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 280/1 ، عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 393) .

[2] عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 130 .

انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 22 / 339 .

[3] عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 78 .

تأبط شراً : هو ثابت بن جابر بن سفيان سمي تأبط شراً لأنه تأبط سيفاً وخرج هو أحد لصوص العرب المغيرين وصعاليكهم ، ومن العدائين المشهورين حاول زوج أمه أبو كبير الهذلي قتله عدة مرات لكنه كان يقظاً ولهذا أصبح عدواً لبني هذيل (عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 70) .

وكان شعور الموالي بالغربة وراء استجابتهم السريعة للإسلام والمطالبة المبكرة بالعدل الاجتماعي ، كما كان الشعور بالغربة وراء التحول من ضمير الجمع القبلي إلى ضمير الفرد الإنساني[1] ، وهم من روّاد الواقعية حيث عبروا عن قلقهم وفقرهم وبؤسهم وظلم المجتمع لهم ، حتى ظهروا كفريق من العصاة المتمردين ، ولا يقدمون النسيب في مفتتح قصائدهم ، وحين ينظرون خارج دائرتهم الاجتماعية يقتلون ، فالشنفرى لطم من الفتاة التي أحبها ، وعروة فُرّق بينه وبين زوجه لسوء معاملة نساء الحي لها ، فالموت والحياة عندهم سيّان ، و يحسون دائماً أنهم في خطر ، والإحساس بالموت لا يمكن فصله عن الحياة البائسة ، فغربة اللون والجوع والفقر والظلم وغياب العدالة كلها موت ، و مقطوعاتهم الشعرية تعبيرٌ عن معاناتهم ، والتعبير عن قضايا الإنسان الأسود بعامة هي عملية استشفاء لعلاقته بمحيطه الاجتماعي وبيئته ، فعبروا عن واقعهم وروحهم الشعبية بعيداً عن الغموض والقصائد الطويلة . والروح الشعبية في شعرهم جعلتهم القادة في التيار الشعبي ، ووراء الاتجاه إلى التبسيط وإلى القرب من بكارة اللغة ، واقترب من المذهب القصصي الذي كان عاماً في شعر الصعاليك واللصوص ، وليس الشعراء السود فقط ، وحرصوا على الأوزان والقوافي والتكرار والتقسيم والتصريع[2] .

وسمي أبناء الإماء بالأغربة نتيجة لسواد ألوانهم ، وعبيد الله بن الحر كان ابن أمه وعُيِّر بذلك وكان يحاول التعويض عن ذلك بجمع الصعاليك واللصوص والشذاذ حوله ، وكان لا يغير على الأفراد بل يغير على بيوت مال الدولة، ويستولي على ما بها ويوزعها على أفراد جيشه ويحمل على ظلم المجتمع ويشير إلى سياستهم العادلة والإنصاف المطلق والتساوي في الحظوظ ، ويقول[3] :

إذا ما غَنِمنا مَغنماً كانَ قسمة	ولم نتبعْ رأيِ الشحيحِ المـــتاركِ
أقولُ لهم كيلوا بكمةٍ بعضِكمْ	ولا تُجعلوني فيَ الندى كابنِ مالكِ

وقد اختفت بعض طوائف الصعاليك ولكن طائفة السود لم تختف . ويمكن حصر أسباب الغربة برفع الظلم عن كواهلهم بالغزو والإغارة والسطو والنهب ، وتخلصوا من العصبية القبلية وشقوا طريقهم في الحياة ، فكانوا يرون في القبيلة نظاماً استبدادياً ظالما ، يضع العراقيل والحواجز في طريق حريتهم وسعادتهم . ورأوا التمرد على النظام القبلي رفضاً لكل القيود

---

[1] انظر، فهمي ، **المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي الأول** ، ص 180 .

[2] انظر، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 15 .

[3] الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، 276/1.

والأعراف والتقاليد ، التي تكبل حرية الفرد وتمنعه من الانطلاق والتحرر. ففي كل نظام قيد للحرية سواءً النظام القبلي أو السلطة أو الدولة ، وكان الرومانسية وحب الانطلاق والطبيعة قد أثر فيهم قبل غيرهم ، فالإنسان ولد حُراً لا عبداً، والإنسانية ترفض العبودية والذل والإقامة على الضيم ، فالنظام هو الذي يكرس الجمود فالسيدُ سيدٌ بالوراثة والعبدُ عبدٌ بالوراثة [1] ، والغنى والفقر بالوراثة فهذه الطبقية البغيضة كـرسها النظام القبلي والأنظمة المستبدة .

فكان الإحساس بالظلم وراء تمردهم لأنهم يفتقدون إلى العدل والمساواة والإنصاف ، وظهروا كأنهم عاجزون عن إصلاح المجتمع لسوء تطبيق العدل والمساواة ، أو إصلاح ما أفسد سادة المجتمع ، وبغياب العدالة لا يستطيعون أن يتكيفوا مع مجتمعاتهم ، ولن يكون بمقدورهم مجاراة الطبقية والتمييز ونظرة الازدراء[2] ، فهم بشرٌ كبقية البشر لم يناصبوا القبائل العداء إلا بعد التمادي والطغيان ، فانقسموا فئتين فئة خاملة قبلت بالعيش في أكناف القبيلة وخلف أدبار البيوت ، وفـئة أبت على نفسها أن تعيش على الكفاف ، فكان التمرد وسيلة وغاية .

يُلقى المجتمع أو السلطة اللوم على الصعاليك واللصوص عند خروجهم لكن هناك ظروفٌ جعلت منهم صعاليك ولـصوص ، ظروف الطبيعة بين خصبٍ وجدب وبين بداوة واستقرار ، وبين ثراء وفقر ، وظروف اقتصادية وظروف اجتماعية وسياسية. يضاف إلى ذلك ظروف ثقافية كالوعي والشعور بالتفاوت في المعاملة وفي الثروة الحرية ، فخلق فيهم التمرُّد إثباتاً لوجودهم ودفعاً للظلم عن أنفسهم[3] ، فهم ليس بأقل من غيرهم مكانة ، وإذا كانت مقاييس أو معايير المجتمع بنيت على أسس خاطئة فلا يمكن قيامُ مجتمع سوي ، بل يبقى يفتقر إلى التوازن ويقوم على الاختلال والتفاوت ، ومن أسباب غربتهم المرأة إما في محاولة اللحاق بها والوصول إليها ، أو عند محاولة التفريق بينهما لأسباب اقتصادية أو اجتماعية ، لائمة عاذلة عند الإسراف وعند التبذير، وعاذلة عند الفقر وعند الجوع ، ومخلصة في التعُّلق بزوجها عند الغياب أو الدخول

---

[1] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 89 ، 320 .

[2] المرجع نفسه ، ص 236 .

[3] المرجع نفسه ، ص 148 .

في السجن ، يقول أبو خرّاش في وصف سرعته التي أنقذته في مواطن كثيرة ، ولولا هذه الصفة لأمت حليلته ، ويقول في ذلك[1] :

ولولا دِراكُ الشدِّ قاظتْ حليلتي   تخيَّرُ من خُطابها وهي أيِّمُ

فتقعدُ أو تَرضى مَكاني خليفة   وكادَ خراشٌ يوم ذلك ييتمي

وخير مثال للإخلاص في العلاقة امرأة هدبة بن الخشرم التي رفضت أن تتزوج غيره حين حكم عليه بالقصاص ، وذهبت إلى قصّابٍ وجدعت أنفها وقالت له : "المثل هذه حاجة بالرجال "[2] . والعبودية وضعٌ اجتماعيٌ خاطئ حين لا يعترف المجتمع بأبنائه العبيد ، ولأن الله لم يخلق الناس عبيداً ، ولكن الأوضاع الظالمة وضعت هذا التقسيم مخالفة للوضع الإلهي ، ونشأت الشعوبية كحركة مضادة للعصبية القبلية أو التعصب القبلي ، [3] " والشعوبية " : هي التي تُصغّر أو تحط مـن شأن العرب وترفع من شأن الأجناس الأخرى ولا ترى أن للعرب فضلاً على غيرهم ، وكان الموالي والأجناس غير العربية قد ظلّت حاقدةً على العرب حتى في العصر الأموي لاعتماده على العنصر العربي ، وكانت مناصرةً لأي ثورةٍ أو تمرد مهما كانت دوافعه للنيل من سلطة الدولة والمطالبة بالمساواة مع العرب ، وهذه الحركات كانت وراء نجاح الدعوة العباسية والمطالبة بالخلافة و بالعدل والمساواة بين جميع العناصر .

بينما كانت الدولة الأموية امتداداً للنظام القبلي القائم على التعصب للعنصر العربي، وحدث أن مولى تزوج عربية ، فلما علم الوالي فرّق بينهما ، وجلد المولى مائتي جلدة وحلق له حاجبيـه ، وكانوا يقدمون في صفوف القتال ويمنعون من العطاء ، حتى تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فأمر بصرف العطاء لهم . ومن أسباب الغربة الرّق ، فالإنسان لا يدين إلا بالقوة ، وكان الاسترقاق نظاماً اجتماعياً شائعاً ، تستوي فيه الأمم والجماعات [4] ، ومنزلة الرقيق كمنزلة

---

[1] المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، المكتبة التجارية القاهرة ، ط 1965 ، 1/ 347 .

[2] المرجع نفسه ، 357/1 .

أبو خرّاش الهذلي : كان له أحد عشر أخاً كلهم عداؤون ، اسلم وهو كبير ، أعدّ الوليد بن المغيرة فرسين فإن سبقهما فهما له فسبقهما ،غزا ابنه خراش بجيش عمر بن الخطاب فتوسّل إلى الخليفة ابنه وحيد ابويه فامر الا يغزو وحيد أبويه إلا بإذنهما . (**الكامل في اللغة والأدب** ، 1/ 310 ، عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 157) .

[3] ابن عبد ربه ، احمد بن محمد ، **العقد الفريد** ، تحقيق احمد امين ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1982، 413/3 .

انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 33 .

[4] المصدر نفسه ، 413/3 .

المتاع وكانت له أسواقٌ تعرف بأسواق النخاسة يباع ويشترى فيها العبيد ، ويرهن ويعاقب بالجلد والعرب يسترقون من يأسرونهم ، ويشترون الرقيق من الأمم الأخرى ، وقد أبطل الإسلام ذلك وجعل كفارة بعض الجرائم والذنوب إعتاق الأرقاء .

ويضطر الغريب في وطنه إلى الإغضاء عن كل عيبٍ يجده في مجتمعه في سبيل الحصول على الرزق ، وإلى السكوت عن قول الحق ، ومحاولة الإصلاح ، ولا يخفى ما في ذلك من إحساس بالتمزق وحزن ولوعةٍ وأسى ، وما فيها من وحشةٍ وعزلة وذلة وهوان ، فهو من عاش غريباً في وطنه أو فارق وطنه أملاً في حياةٍ فضلى ، وتنقّل في البلدان فعرف معنى البعد عن الوطن لأن الإنسان يتوقع الأمن والحماية والحياة الكريمة في وطنه وبين أهله ، فإن أخفق ووجد غير ذلك وظلمه أهله وأبناء قومه كان وقع ذلك في نفسه مراً كما وصفه طرفه بن العبد بقوله[1] :

وظُلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً ... على المرءِ من وقعِ الحسامِ المهندِ

وهناك من كانت غربته بسبب الفقر فكل الصعاليك واللصوص فقراء حتى زعيمهم عروة ، " والله لئن قبلت ما أعطوك لا تفتقر أبداً "[2] فعندما طلبت سلمى الفراق منه وطلب أهلها فداءها قال له ابن عمه وأخوه أنه سيودع حياة الفقر ، فإذا كان زعيم الصعاليك فقيراً فكيف بأصحاب الكنيف الذين كان يؤويهم ويقوم على خدمتهم ؟ فهذه العقد النفسية التي سماها علماء النفس عقدة الفقر أو عقدة اللون كانت نتيجة الإحساس بالفقر ، وتدني المنزلة الاجتماعية كما كانت من أسباب غربتهم ، وهناك محاولاتٌ للتعويض عن الشعور بالنقص بسبب الفقر ، والشكوى من هوان منزلتهم وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة ، لا لأنهم عاجزون وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم وحرمهم من العدالة الاجتماعية ، وجرّدهم من كل الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة .

فهناك من يؤمن بأن التطرف والتمرد والثورة كان بدافع حب التملك والحيازة والاستحـواذ ، وعندما كانت الأمور مشاعاً يتساوى فيها أبناء المجتمع فقيرهم و غنيهم يؤمنون

---

[1] طرفة بن العبد ، **الديوان** ، ص 40 .

[2] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 3/ 73 .

و انظر ، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 70 .

باقتسام الثروة والكلأ والماء ، يؤثر أحدهم أخاه على نفسه و يضحي من أجله ، كان الجميع ينعم بالسعادة والأمن والاستقرار، وعندما زاد التنافس على التملك ، زاد الصراع والاستغلال فكان الغنى على حساب جوع الفقراء ، وكان الأشراف وأصحاب الثروة من دماء وعبودية الفقراء [1].

ونتيجة للطبقية والتفاوت بين أبناء المجتمع فقراً وغنى ، ظهر هناك تمييزٌ بين صرحاء وأغرباء ، وسادةٍ وعبيد فنشأ في المجتمع اختلالٌ في التوازن الاقتصادي وفي الحياة الاجتماعية وحتى في الطبيعة الجغرافية ، فكانت تتراوح سبل قهر الاغتراب بين الاستسلام والتحدي ، وبين الانسحاب والمواجهة ، وحتى الشخص الواحد يلجأ إلى أكثر من شكل لمواجهة الاغتراب ، فبعضهم لجأ إلى أسلوب الاستسلام والمداراة ، وسمي بالعنصر الخامل كسحيم عبد بني الحسحاس الذي عاش عند الناس وليس بينهم ، وابتعد عن أي شكل من أشكال المواجهة .

لشعوره بأنه عاجزٌ عن الحصول على القوت ، كما أنه عاجزٌ عن المخاطرة بالنفس في سبيل الكرامة[2] ، ورضي بما هو فيه من ذل وهوان دون أن تتحرك مشاعر الأنفة والحمية في نفسه ، وبرّر أن اللجوء إلى الإذعان والاستسلام كحل للاغتراب لأن المواجهة والتحدي مزيد من الضرر والأذى والحسرة والندم .

---

[1] عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 12 .

[2] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 236 .

ثالثاً : مظاهر الغربة و الاغتراب

لجأ بعضهم إلى الخمرة لتبديد اغترابهم كما لجأ بعضهم إلى الطبيعة التي كانت ملجأ للمغتربين من مجتمعاتهم[1] ، يرتمون في أحضانها فيبتعدون عن عالمهم الظالم ، والطبيعة كانت مهد الحالة الطبيعية للإنسان، الذي ألف حيوانها وقاسى الظروف الطبيعية في صيفها وشتائها وهناك الخيال الذي لجأ إليه آخرون، واحتمى به الشعراء الذين شعروا بحاجة إلى الفرار من بيئتهم فعاشوا فيها بأرواحهم وحلقوا فيها بخيالهم .

ونجد نوعاً آخر من الانسحاب أو الهرب من مواجهة الواقع لجأ إليه المغتربون الذين فقدوا كل أمل لهم بالإصلاح ، ورأوا أن مجتمعهم الفاسد لن يجدي فيه إلا الرحيل والهجرة ، ومعالجة الانفصال لا تكون إلا بالرحيل[2] ، لقد فرَّ هؤلاء إلى بلاد غير بلادهم وعالجوا اغترابهم باغتراب ، وهناك من لجأ إلى الزهد ، ووجد فيه ملاذاً للراحة النفسية والاطمئنان فرضوا بالكفاف والانسلاخ عن الدنيا وتركها لأصحابها ، والزهد نوعٌ من أنواع العزلة والانفراد، والعجز عن مواجهة الحياة ، والأنس بالوحدة والوحشة من الجماعة ، ووجد في العزلة راحة نفسية ، ففي الزهد والعزلة يبني لنفسه عالماً أرضياً مُقدّساً ، كما أنهما حلان مؤقتان لأزمة الاغتراب . أسر رجلان من طيء أبا الطمحان القيني ، واشتراه بجير بن أوس بن حارثة لما بلغه قوله[3] :

أرقتُ وآبتني الهمومُ الطــوارقُ	ولم يلقَ ما لاقيتُ قبليَ عاشــقُ
إليكم بني لأمٍ تَخَبُّ هجانُـها	بكـلِّ طـريـقٍ صـادَفَـتْـه شَبَارِقُ
لكمْ نائلٌ غمرٌ وأحلامُ ســـادةٍ	وألسنة يوم الخطابِ مســالقُ
ولم يدعُ داعٍ مثلكُمْ لعظيـــمــةٍ	إذا وزمتْ بالساعدين السوارقُ

---

[1] انظر، عبده ، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، ص 147 .

[2] انظر، سلامي ، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري ، ص 123 .

[3] الأصفهاني ، الأغاني ، 11/23 .

سلقه بالكلام سَلقاً إذا أذاه. (اللسان ، مادة سلق).

وزم : وزمه بفيه وزماً عضه و الوزم جمع الشيء القليل إلى مثله (اللسان ، مادة وزم) .

وحن الصعاليك واللصوص إلى الموت كبديل للخلاص من القهر والظلم بعد خلع قبائلهم لهم وعند تساوي الحياة مع الموت ، فالموت لا يعني الفناء بل هو بداية لحياةٍ أخرى ، حياةٌ خالدةٌ في عالمٍ مثالي خالٍ من الشرور والآثام ، حياةٌ يستعيد فيها وحدته مع الآخرين التي افتقدها في العالم الأرضي ، يشتاق إلى الناس وإلى الأهل والأصدقاء ويشتهي الموت [1] ، ونزع إلى حياةٍ أخرى يستطيع فيها الاندماج مع البشر على أساسٍ من النقاء والصفاء والمحبة والطهر ، فوجد أبو الطمحان القيني في الموت كما وجد غيره أقسى صور الاغتراب فوجدوا فيه الوحشة والفناء والعدم ، فبكوا الراحلين وجزعوا لفراقهم وتحدثوا عن وحشة القبر ومظهره الخارجي كالبعير الجاثم على الأرض ، ووجدوا في الموت وحدةً قاسية ووحدةً موجعة وخصـوصـاً عند البعد عن الأهل والديار فلا أنيس ولا جليس ولا زائر .

وهناك من لم يفقدوا الأمل في إمكانية تغيير الواقع الإنساني المنهار، وعلى الرغم مما يشعر به هؤلاء من اغترابٍ وضياعٍ ووحدة فقد رفضوا الانصياع والخضوع أو الهرب والانهزام أمام منطق العصر ، الذي طغت عليه المادة وخنقت كل المشاعر والقيم الإنسانية النبيلة ، فصمموا على التغيير والثورة [2] ، وهذا الموقف يمثل موقفاً إيجابياً لأنه أقدر على تجاوز الواقع وأكثر قدرةً على تحريك الناس ، وحمل راية الثورة والتمرد ضد القيم السائدة والمجتمع الفاسد ، ولا مجال للخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء إلا بالمقاومةِ واللجوء إلى القوة للتغير والإصلاح ، وكسب قوتهم ورفع الظلم عن أنفسهم ، وفئةٌ لم تغادر موطنها بل ذاقت الاغتراب داخله ومزّقها إحساسها بعنف مفارقته وتناقضاته . فكان اغترابها النفسي أمراً قاسياً وقد يكون أشد قسوةً من الاغتراب المكاني .

---

[1] انظر ، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 293 .

[2] انظر ، عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ، ص 37 .

قـــال عبيد بن أيوب بعد أن رغـــب عن مـجتمعه وعاش في الفيافي بين جموع الحيوانات [1] :

أزاهدةٌ فيّ الأخـــــــــلاءُ أنْ رأتْ	فتى مُطْرَداً قـــــــد أسلمتهُ قبائلــه
فلا تُعترضْ في الأمر تُكفي شؤونَه	ولا تَنصـــــــحنْ إلا لِمن هو قابِلـه
ولا تُخذِل المولى إذا ما مُلمـــــــة	ألمّتْ ونازلْ في الوغى مَن يُنازلــه
ولا تُحرِمْ المرءَ الكريمَ فـــــــإنّه	أخـــــــوكَ ولا تدري لعلكَ سائلــه

وهناك بعض الصعاليك واللصوص بقوا متأثرين بحياة الصعلكة فارين من وجه العدالة ، يحبون على الرعي ، ويؤثرون التنقل والترحال في الصحراء على الاستيطان والاستقرار ، فالخطيم العكلي يشكو سوء معاملة قبيلته له حتى يصمها بالجور والتقصير، وقد تساعد الدولة بإلقاء القبض عليه لتأديبه ، ويقول[2] :

بَني ظالم لا تَظلموني فإنَنـــــي	إلى َصالح الأقوام غيُر بغيضِ
بني ظالمٍ إنْ َتمنعوا فضلَ مالِكم	فإنّ بساطي في البلادِ عريضُ

فعندما يشعر بالعجز عن القيام بأي عملٍ إزاء ما يراه من فسادٍ، سواءً على مستوى القبيلة أو ساسة عصره ، فيلزم بيته ويُعبّر عن ألمه لهذا العجز ، فلم يعرفوا العدل الإنصاف والواجب حين جمعوا الثروة وعرفوا بالبطش والقسوة والإكراه، ولم يتورعوا عن قتلٍ أو سجنٍ أو تعذيب أي إنسان ، وفي التعبير عن عدم انسجامهم مع تلك الحياة واغترابهم السياسي، اتهموا جميع أصحاب الثروة والسياسيين بالجور والمكر يطلقون الشعارات ويعدون برفع الظلم واستعادة حقوق المضطهدين والضعفاء ، لكنهم ما أن يصلوا إلى مراكز القيادة حتى تنقلب الآية،ويـــــصبحوا هم

[1] الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، 224/1 .

[2] المرجع نفسه ، ص 55 .

الظلمة والمضطهـدين لغيرهم ، فهناك فساد خلقي وتحلل من المعايير والقيم الإنسانية وجور للرعية وقسوةٌ وظلمٌ ، فلم يكونوا هم القدوة بل صاروا مصدر بؤس وشقاء [1].

و تتكون السلطةُ من التعاقد بين الفرد ومجتمعه ، الذي يقوم على التراضي غير سلطة الخضوع بين العبد والسيد ، و يتنازلُ الفرد ويتخلى عن حريته بسبب العقد في أن يحكم نفسه لإنسان آخر ، وهو ما يسمى بالاغتراب القانوني[2] لتوفير الأمن والحماية للفرد والوحدة والتماسك بالنسبة للقبيلة أو المجتمع ، لأن حاجات الأفراد كحاجات الدول تنشأ من ازدياد الرغبات في تحقيق الطموحات ، ويقوم التحرر من الاغتراب في المجتمع على اللامساواة وبسبب الملكية الخاصة فهنا لا بد من الانفصال عن المجتمع ومؤسساته وقوانينه .

فهل الحل هو الهرب من المجتمع والتخلص منه أو العودة للطبيعة والتلقائية ؟ إن جعل استقلال الفرد أمرٌ واقعٌ هو الاغتراب للخلاص من ألوان العبودية والتسلط المفروض وهو بهذا المعنى إخفاءٌ للعجز، وتبريرٌ للقصور، وهربٌ من المواجهة، ورفضٌ لما هو شائع ومعارضة له[3] ، و لم ينبع القانون الخلقي من داخل الفرد ، وإنما هو مفروضٌ عليه من الخارج ، ويصبح كأنه شيءٌ جامد بلا روح ، وما يفرض عليه يتنافى مع حقوق العقل ، ويؤدي نقل الملكية إلى فقدان الحرية ، وإلى فقدان الوجود والحياة ، كما أن الاستقلال العقلي حقٌ من حقوق الإنسان التي لا يستطيع التنازل عنها ، دون أن يتنازل عن إنسانيته .

---

[1] انظر الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص 37 .

[2] المرجع نفسه ، ص 57 .

[3] المرجع نفسه ، ص 46 .

ولا يكون الخضوع لسلطة خارجة غير سلطة العقل لأن ذلك يؤدي بالإنسان للتوقف بين الحرية والوضعية . والوضعية هي الاغتراب أو مظهر من مظاهر الاغتراب[1] ، وما تفرضه السلطة فرضاً مما يحول بين الفرد ووجوده الأصيل ، فكيف فقد الناس الحرية ؟ ومتى ذلك ؟ فهناك مراحلُ للاغتراب و المرحلة الأولى هي الحرية التي يسعى الإنسان إلى إدراكها ، والمرحلة الثانية تتمثلُ بالقهر والظلم والاستبداد ، والمرحلة الثالثة تتمثل بمحاولة استرداد الحرية ، فالشعب الذي يسلم حريته مختاراً ، عندما يصطدم بالواقع يصاب بخيبة الأمل، ويبغي من وراء ذلك تحقيق رغباته وطموحاته بالعدل والمساواة والإنصاف ، ورفع الظلم وتحقيق حياةٍ كريمةٍ ، وهو يظن أنه حسب العقد الاجتماعي قادرٌ على سحب الثقة واستردادهــا .

بعد ذلك يتبين له أن الحرية سلبت منه وأنه عاجزٌ عن استردادها من أيدي الذين سلمها ونقلها إليهم طواعية واختياراً، وتعالى السادةُ والحكام عليه ومارسوا الظلم والاستبداد فلا يجد مفراً من التمرد لاسترداد حريته[2] ، فصار لا يهتم بالقبيلة ولا الوطن ولا المصلحة العامة ، وبدلاً من التضحية من أجل القبيلة أو الدولة والمصلحة العامة أصبح يخاف على نفسه من هذه السلطة ، و ينشأ الاغتراب عن أوضاع تاريخيةٍ تتميز بالتمزق والشقاء والعبودية ، وعندما تتصارع قوة العقل وقوة الهوى يرى أن العقل قادرٌ على كبح جماح النفس وهواها ، ولكنه لا يؤدي إلى استئصال الصراع والتنافر ، فكان الحرص على إيجاد التوازن والتكامل بين القوتين ليحفظ الإنسان وحدته أو كليته .

والاجتماع سببٌ في التنافس و التصارع ؛ لأن الأفراد كترس في ساعة في علاقته مع الآخرين ، وهم في خطرٍ دائم في انفرادهم والخروج من الحالة الطبيعية . خروجٌ من الخوف إلى الطمأنينة ليجدوا الحماية في نظام المجتمع الآمن والمستقر[3] ، والطبيعة البشرية لديها ميلٌ لتكوين جماعةٍ هي المجتمع ذاته بالرغبة والفطرة والغريزة وبالعقل ، وهو القانون الطبيعي لتحقيق المنفعة ، وحفظ الذات بالفطرة والعقل ، فالمصلحة ُمتبادلةٌ بين الفرد والجماعة وفي الحالة الطبيعية يعمل بمفرده لإشباع حاجاته الذاتية بالعمل ، والحرية ُ ليست حكراً على فردٍ دون فرد

---

(1) انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 94 .

(2) المرجع نفسه ، ص 54 .

(3) المرجع نفسه ، ص 49 .

ويظهر انعدام الأمن والحاجة إلى سلطة كدافع اجتماعي, مما يحصل للفرد بعد التنازل عن الحرية والملكية قيام المجتمع استعاضة ومقايضة بحقوق مدنية .

يصبح الاغتراب ضرورياً لقيام المجتمع عند انفصال الملكية عن صاحبها خلال عملية النقل أو البيع ، و يعد الاغتراب عمليات تنازل طوعي ونقل الحقوق الطبيعية والحرية الأصلية ، والتنازل عنها إلى المجتمع عن طريق فعل التعاقد فيصبح الاغتراب ضرورياً لقيام المجتمع[1] ، وهو يدرك الآلام و الإحباطات وألوان القلق في عصره. وكل أزمةٍ تتعلقّ بعلاقة الفرد والمجتمع 'تحلُّ المعتقدات محل الشكوك في مرحلة النضج ، فكان المواطنون يطيعون القوانين التي صنعوها بأيديهم ، ويطيعون الحكام والقادة الذين اختاروهم ، وخضعوا للدساتير التي من وضعهم ، فيخضعون لقوانين هي قوانينه ، ودولة هي دولته ليكون الإنسان واحداً مع نفسه في حياته العامة أو حياه الخاصة .

والاتحاد الحقيقي هو تجاوز الفردية وبناء علاقة الفرد بالآخر ، وارتباط بالعالم الاجتماعي ورفض الفردية حين تذوب شخصية الفرد بالكل فيكتسب ثراءً وخصوبة تفتقر إليها عند الانفصال والانعزال[2] ، فالفردية في الحياة لا من حيث أنها شيء منفصل ومنعزل عن الآخرين ، بل من حيث هي متحدة مع آخر، واستعادة الإنسان الوحدة التي كانت قائمة بينه وبين الآخرين والعالم ثم فقدها لن يتم إلا عن طريق الحب والبعد عن الأنانية وحب التملك .

وأما الاغتراب الذاتي .فمصدره الإنسان بسبب التناقض بين الداخل والخارج[3] فكيف يستردون أنفسهم ويحققون ذواتهم ؟ الإنسان يستمد أساسه من الدور الاجتماعي الذي يقوم به ، والتحديد المسبق للدور يقضي على قدرة الفـــرد ، فهل كانت الطبقات الدنيا بمنجاةٍ عن الاغتراب الذاتي ؟ فالبيئة لها دورها في تحديد الدور السلبي إذ إن بيئة الخصب والاستقرار غير بيئة الفقر والارتحال ، والخضوع بسبب النظام الاجتماعي يجعل الإنسان مسلوب الإرادة ، والطبقة المستعبدة أبعد ما تكون عن الثورة ، وهم الذين رضوا بالعبودية وتسليم حريتهم وإنكار فرديتهم .

---

[1] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 102- 103 .

[2] المرجع نفسه ، ص 105 .

[3] المرجع نفسه ، ص 105 .

والاغتراب حالة ثابتة لارتباطها بالطبيعة الإنسانية ، بينما ينشأ الوضع البشري تحت ظروف القهر ويزول بزوالها[1] ، والعلاقاتُ الإنسانية تقوم على البساطة والحرية والمساواة ، ولا تقوم على القهر والتسلط والكبت ، فظهرت الملكية الخاصة وقام الصراع والاستغلال حين أحاط قطعة الأرض بأسواره وامتلكها فباتت المجتمعات التي ينشئوها هي التي تستعبد الإنسان . والمتمدن يعيش في عبودية ويموت فيها ، وقيَّدت الفقير بأغلالٍ جديدة وأعطت الغني قوةً جديدة وحطمت كل حريةٍ طبيعية ، وثبتت قانون الملكية و اللامساواة وأحالت قانون الملكية والتسلط غير قابلٍ للتنازل أو النقل .

ويتحول المجتمع المدني إلى سوقٍ والإنسان إلى سلعةٍ وحقوق الإنسان هي الأقل وحسب دوره تكون مكانته [2]. فالاغتراب بمعنى البيع دلالة سلبية ، وبمعنى التسليم أو التنازل عن وعي وإرادة واختيار دلالة إيجابية ، فحين يبيع نفسه كالسلعة يصبح مرتزقاً، وعندما يقدم نفسه لهدفٍ نبيلٍ محمودٍ فهو يتنازل طوعاً، وقوانين السوق لا تطبق في هذه الحالة لأنها لا تصلح للإنسان وعلاقاتُ الفرد بغيره إلا إذا تحول الإنسان إلى أشياءٍ ماديةٍ جامدة .

ويمكن اعتبار الحاجات العضوية ويقصد بها الحاجات الإنسانية الضرورية للإنسان كالطعام والشراب ، وتأمين الأمن والاستقرار والبعد عن الفقر والخوف ، هي من أسباب الاغتراب [3]. كما أن الأنانية والشره سببٌ آخر من أسباب الاغتراب ، وهما نتيجتان للمجتمع المدني الذي ينتج تحت وطأة الحاجة والظروف ، والقضاء عليهما لا يكون إلا بعد إجراء تغيير شامل للنظام الاقتصادي والقضاء على الملكية الخاصة ، كما أن حب التملك والسيطرة من أسباب الاغتراب ، فكثيرٌ من الصعاليك كعروة بن الورد ، كان يميل إلى الغزو والنهب من الأغنياء البخلاء ويوزّع غنائمه على الفقراء ، وكان باستطاعته أن يعيش غنياً كبقية الأغنياء من غارةٍ واحدةٍ .

وتحت هذه الضغوط النفسية واجه الصعاليك واللصوص الصراع مع السلطة ، إما بالخنوع والعودة صاغرين لتنفيذ العقوبات ، وإما بالتمرد واستمرار الثورة والتهديد ، فسعد بن

---

[1] انظر ، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 64 .

[2] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 58 .

[3] انظر، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي** ، ص 34 .

ناشب أحد شياطين العرب ، روّع المسلمين في البصرة وأعيا الولاة في طلبه فما كان منهم إلا هدموا داره ، وانطلق لسانه بالتوعد والمواجهةِ[1] :

سأغسِلُ عنّي العارَ بالسّيفِ جالِباً	عليَّ قضاءَ اللهِ ما كان جالبـــاً
وأذهلُ عن داري وأجعلُ هدْمَهـــا	لعِرضِي من باقي المذمةِ حاجِباً
ويصغُرُ في عيني تلادي إذا انثنتْ	يميني بإدراكِ الذي كُنتُ طـالِباً
فإن تهدِموا بالغدر داري فإنّهـــا	تراثُ كريمٍ لا يُبالي العواقبـــا

وبعض الصعاليك واللصوص كان باستطاعته العيش في مجتمعه من غير حاجة إلى غزو أو نهب ، ولم يعرف عنه التهيؤ للشر أو أنه فطر على الشر ، إلا أن طموحاته ومطامعه سواءً كانت سياسة أو اجتماعية زادت من اغترابه ، إضافةً إلى بحثه عن مكانة مرموقة في قومه ، أو عن مركز اجتماعي ، فكان عبيد الله بن الحر الجعفي يجمع حوله الشُّذاذ والخلعاء ، ويغير على الدولة وبيوت المال[2] وليس على المواطنين فكان يبحث عن ذاته لتحقيق أهدافه وطموحه في منصب سياسي ، ومن خلال صفاته وأخلاقه لم يعرف عنه اللصوصية أو قطع الطريق ، بل عرف بصلاحه وتقواه ولعل هناك سبباً آخر يعود إلى سبي أمه ، فلم تكن من الحرائر لهذا كان يهدد بسبي الحرائر انتقاماً لما أصاب أمه ، وإثباتاً لذاته ، وتعويضاً عن تجاهل المجتمع له ، ورغبة في تحصيل مكانةٍ اجتماعيةٍ أو سياسيةٍ في المجتمع الأموي .

فالوجود الأصيل لا يكون إلا بالحرية والاختيار والإرادة ، الذي لا تقره علاقاتُ المرء بالآخرين ، وأن الذات قائمة بنفسها مسؤولة عن ذاتها ، و يميل الإنسان إلى التهرب من حريته ، والتنصل من مسؤوليته[3] ، بغية التخلص من القلق الناجم عن المسؤولية ، ولتصبح حياته صورة من صور المجموع ، ويستحيل وجوده الذاتي إلى وجود زائف . والوجود الأصيل اغترابٌ عن

---

[1] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 67/1 .

وانظر ، السويدي ، فاطمة محمد حميد ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، مدبولي ، ط1- 1997 ، ص 112 .

[2] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 107 .

[3] انظر ، زيدان ، **التمرد والرغبة في الشعر الجاهلي** ، ص 50 .

سعد بن ناشب بن مازن بن عمرو بن تميم : شاعر إسلامي من شياطين العرب ، وهو صاحب يوم الوقيط فقد أصاب دماً فهدم الوالي داره ، وناشب أي ذو نشب ، ومعنى نشب علق فيه ، اتخذ من البصرة موطناً ، وزاول صعلكته وجناياته ، وصور قوة عزيمته ، ولم يستشر في رأيه غير نفسه (**المرزوقي ، شرح الحماسة** ، 67/1).

المجتمع وقيمه ومقاييسه والابتعاد عن الاندماج مع الناس ، والارتماء في أحضان الآخرين ، فهناك من يرى هذا الاندماج وجوداً متحجراً لتمسكه بالعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية ، ولكنه لا يكون إنساناً حراً إلا إذا اغترب عن هذه القوالب المتمثلة بالعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية أو السنن السائدة [1] ، ويصرُ أن يكون منفصلاً عن الأشياء والمادة ، وكل شيء يتم بصورةٍ آليةٍ أو تحت توجيه أو خضوع لسلطة ، أو تحت ظروف الحاجة .

وجوهر الصراع هو التحرر من سلطان الغير والبحث عن الحرية والفردية والاستقلال ، فالوحدة مع الآخرين غير قابلةٍ للتحقق بسبب الملكية والتنافس ، فإما هو علوّ على الغير أو علو الغير عليك ، إلا أن الانفصال والصراع لا يكون عاماً وشاملاً بين البشر ، ولا يمكن أن ينسي أي اتصال بين الذوات إذا كان الآخر لا يعمل ضدي بل يعمل إلى جانبي فالمشاركة ممكنة بين البشر وهناك من يرى أن الإلغاء الإيجابي للملكية[2] هو الحل الحقيقي بين الإنسان والإنسان ، ويكون ذلك من خلال التعاون والمشاركة .

تؤثر الملكية الفردية القائمة على العدالة والمساواة على تكوين العلاقات التعاونية لتصبح ليست تصارعيه بمعنى يعمل إلى جانبي ولا يعمل ضدي[3] ، وقد يكون في الاشتراكية فردية عندما يخضع للحاجات الضرورية وحاجات الأنانية والشره ، أو عندما يعمل ضمن توجيه معين ، فلا يعمل من أجل النوع الإنساني بل من أجل مصالح فردية ضيقة ، و يشعر أنه دائماً في حاجةٍ إلى الآخرين ، وأنه وحده ليس بموجودٍ ، وحياة المجموع هي تنازلٌ عن الوجود الحقيقي ولهذا ثار عليها ، فهو لا يثور على حياة المجموع بل يمجِّد الوحدة[4] . والوجود الحقيقي هو الاغــتراب عن العالم وعن أحكامه وعن قيمه وأفكاره لتحقيق التفرد والوحدة ، وعن كل ما هو قائم ، فلا ينجرف بالحياة القطعانية ، فإذا لم يحتفظ بوحدته فقد أصــالته ووجوده وفقد الشعور بالمخاطرة ،

---

(1) انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 79 .

(2) المرجع نفسه ، ص 105 .

(3) المرجع نفسه ، ص 105 .

(4) المرجع نفسه ، ص 105 .

القتال الكلابي : اسمه عبد الله بن المجيب بن المضرحي بن عامر ، وهو شاعر إسلامي يروى أنه كان يتحدث مع ابنة عم له ، ولها أخ غائب . فلما قدم رآه يتحدث إلى أخته ونهاه ورآه ثانية فخرج من عنده هارباً ، وخرج في اثره ، فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم فلم يلتفت له ، وتبعه حتى وجد رمحاً مركوزاً عند بيت ، فأخذه القتال ثم عطف عليه فقتله وندم على فعلته (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 201/1) .

وهو شعورٌ أساسي لتحقيق معنى الوجود . مر القتال الكلابي بابنة عم له تدعى زينب متنحية عن الماء وأصحاب القتيل يطلبونه ، فألقت عليه ثيابها وألبسته برقعها ، فلحق بعماية وعماية جبل فاستتر فيه ، وقال[1] :

فمنْ مبلغٌ فتيانَ قـــومي أنني	تسميتُ لما شبّتْ الحربُ زينبا
وارَخيتُ جلبابي على نبتِ لحيتي	وأبَديتُ للناس البنانَ المخضبا

وقال أيضاً[2] :

جزَى اللهُ عنّا والجزاءُ بكفّـــهِ	عماية خيراً أمّ كلّ طريـــدِ
فما يزدهيها القومُ إن نزلوا بها	وإنْ أرسلَ السلطانُ كلَّ بريدِ
حَمتني منها كلُّ عنقاءَ عَيطـلٍ	وكلّ صفاءٍ جمٌّ القلات كؤود

فهل الصعاليك واللصوص كانوا سابقي عصرهم بمحاولة الانفصال عن المجتمع لتحقيق وجودهم الأصيل؟ وهل كان وجودهم الزائف مع المجتمع لا يحقق لهم ملكية أو حاجاتٍ عضوية أو أنانية ؟ لذا كان اغترابهم يجمع الوجود الحقيقي عندما ينفصل عن مجتمعه لأنه يرى نفسه يعلو على مجتمعه أو يعارضه أو يتميز عنه بأفكاره وقيمه التي يؤمن بها[3] ، وعندما يصبو إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أو إصلاحها فيكون قد تمرَّد باختياره ، وليس تحت حاجةٍ عضويةٍ أو أنانيةٍ أو شره ، وعند التمرد تحت أي ظرفٍ من الظروف فإنه يتخذ التمرد وسيلة لغاية الخلاص من الجوع أو الفقر أو الظلم أو العبودية، أو الازدراء من منزلته الاجتماعية أو سواد لونه ، ففي هذا محاولة لإزالة العقبات التي تحول دون مساواته بأفراد مجتمعه فيتخذ التمرد وسيلة لغاية . فهناك من تمرد على مجتمعه لتحقيق وجوده الأصيل ؛ لأن المجتمع لا يلبي طموحاته ويرفض قيم المجتمع وقوانينه وأنظمته وتقاليده ، ويرى فيها قيداً لحريته فيصبح فرداً لا يستطيع الاعتماد على نفسه دون غيره ، أو يصبح آلةً تخضع لسلطة العرض والطلب[4]

---

(1) القتال الكلابي ، **الديوان** ، حققه إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ، ط 1989 ، ص 45 .

(2) المرجع نفسه ، ص 45 .

وانظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 322/11 .

(3) انظر ، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 79 .

(4) المصدر نفسه ، ص 63 .

القلات : جمع قَلْت وهي النقرة في الجبل تمسك الماء (**اللسان** ، مادة قلل) . كؤود : صعب المرتقى .

وحين يرتكب أحد الصعاليك أو اللصوص خطيئة يخلع ويطرد من القبيلة وقد يقتتل مع القبيلة ، كأن يُقتل قريب له فيرفض أن يأخذ ديته ، وترفض القبيلة أن يقاد من الفاعل وقد يقتل لقاء معارضته أو تثور ثائرته ويفارق ديار القبيلة مضمراً العداوة والبغضاء ، ويحاول الانتقام منها ، فالفرد لا يتبرأ من القبيلة بل يتمرد عليها ، وهي التي تتبرأ من بعض أفرادها ، إذا كانوا غير جديريـن بالانتساب إليها ، والإنسان بطبعه اجتماعي يأبى العزلة والانفراد طلباً للأمان والاستقرار ، لتكون له عصبة تقف إلى جانبه وتحميه وتدفع عنه غوائل الأيام .

فكان القتال الكلابي قد أصاب دماً ، فطلب به فهرب إلى جبل عماية وكان يأوي إلى ذلك الشعب نمراً فتآلفا ، وكان إذا ورد القتال الماء قام عليه النمر حتى يشرب ثم ينتحي القتال ، ويرد النمر فيقوم عليه القتال حتى يشرب ، فقال القتال في ذلك[1] :

ولي صاحبٌ في الغار يَعدِلُ صاحِباً ... أبا الجون إلا أنه لا يُـــعَلِّلُ

كلانا عدوٌ لا يَرى في عـــــدُوِهِ ... مَهَزّاً وكلٌ في العداوةِ مُجـمِلُ

إذا ما التقينا كانَ إنسُ حديثِنـــا ... صَمَاتاً وطرفٌ كالمعابلِ أطحلُ

وقد يُؤسر في أحد الغزوات كما أسر السليك في غارةٍ من غاراته فأيقن إنه مقتول ، فبدلاً من رثاء نفســه فإنه أمعن بالشماتة من الأعداء وعيّرهم بفتكه بهم[2] ، فقد سلب الإبل ، وأيَّم النساء ، وفكَّ الـعاني ، وغزا القوم في عقر دارهم . كما أن قيس بن الحدادية طلب منه أن يستأ سر ، وقال لأسريه ما ينفعكم أسري ؟ وألحّوا عليه في ذلك ، فقال : " نفسي علي أكرم من ذلك فقاتلهم حتى قتل "[3] .والأسر يأتي نتيجة للغزو للحصول على الغنائم ، وأصبح الأسير عبداً لأسره وقد يتعرض للقتل حين يكون للقبيلة ثار عند قبيلة الأسير ،فغربة الأسر تضاف إلى غربة البعد عن الأهل والوطن ، وغربة سوء المعاملة ، أو غربة الخوف من القتل ، وغربة الحنين إلى الحريـة . والغربــة في جوار قبيلة قوية لن يجدي لأن ذل القبيلة أهون من نظرة الازدراء والغربة[4] .

---

[1] القتال الكلابي ، **الديوان** ، ص 77 .

و انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 323/23 .

[2] انظر ، المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، 310/1 .

وانظر ، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 130 .

[3] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 9 / 120 .

[4] المصدر نفسه ، 21 / 134 .

أو يسجن نتيجة جرم ارتكبه كالقتل أو الثأر أو الغزو ، كالقتال الكلابيّ الذي أمعن في القتل فقتل ابن عمه وقتل هبّار بن إسماعيل السجّان الذي أساء معاملته ، كما قتل الأمة التي أراد عمه الزواج منها ، وسجن هدبة بن الخشرم واقتص منه بعد أن رفض ابن القتيل العفو عنه بالرغم من عرض ديّات كثيرة عليه ، ولكه أصرّ على تنفيذ الحكم [1] .

الاغتراب هو ردة فعلٍ على القوانين التعسفيّة التي اصطلحت عليها القبائل من أعراف وتقاليد وقيم ، كما أنه افتعال للغربة والقيام به بإرادة الإنسان لأسبابٍ تتعلق بالفرد والقبيلة أو المجتمع فهو خروج على العصبية القبلية وانصراف عن واجباتها ، يضاف إلى ذلك انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم لذا تتعدد ولاءاتهم وانتماءاتهم فينتصر للمنطق الفردي لعجزه عن التكيُّف أو تبديل الواقع أو تحويره أو تــطويره .

ويغترب الإنسان حين يؤمن بقيمٍ غير قيم مجتمعه ، وعند الإحساس برتابة حياة القبيلة ويحاول الانصراف عن تقاليدها الثقيلة ورفض ما كان الناس يؤمنون به [2] ، ومظاهر الاغتراب متعددة ولا تقتصر على فردٍ دون آخر فلا يجد توافقاً مع مجتمعه ، سواء توافقه مع الأشخاص ، أو التوافق مع القوانين والأنظمة والتقاليد ، إضافة إلى البيئة والظروف والمناخ ، ويطلق الاغتراب على من خرج على المألوف أو ما اعتاد عليه الناس ، فالحنين إلى الماضي الذي يمثل الذكريات والوطن المهجور ومكان المحبوبة فيه انفصال عن لحظته الحاضرة إلى ماضيه ليخلق توازناً بين الحاضر والماضي . والشيخوخة هي اغتراب عن الحاضر إلى الماضي والحنين إلى أيام الصبا . وتزداد قسوة الاغتراب عند فقدان الصديق أو الرفيق المماثل له في العمر ، ويزداد ألــم الاغتراب عند عقوق الأبناء ، فيعيش بين مجتمعين مجتمع مضى يحن إليه ، ومجتمع يعيش

---

[1] انظر، المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، ص 34 .

[2] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 130 .

فيه ويعجز عن التكيُّف معه . فعندما أسن عبده بن الطبيب ورابه بصره جمع بنيه يوصيهم بالتماسك ويحذرهم من العقوق وأن الموت غاية كل حي ، وقال في ذلك[1] :

أبنِي إنّي قد كَبِرتُ ورابني	بَصري وفيّ لمُصلح مُستمتَــــسعُ
إنّ الكبيرَ إذا عصاهُ أهلُــه	ضاقتْ يداهُ بأمرهِ ما يَصنــــــَــعُ
إنّ الذينَ ترونَهم إخوانُكــم	يَشفي غليلَ صُدورهم أن تُصرعُوا

فالاغتراب أساسه العجز عن التكيُّف والتباعد الفكري بين تيارات مختلفة الآراء والأفكـــار ، كما أن الاغتراب يطلق على من تزوج من غير أقاربه رجالاً أم نساءً ، وشكا الرجال الاغتراب كما شكت منه النساء ، وخير مثالٍ على ذلك ميسون بنت بحدل التي زاد حنينها إلى الصـــــــــحراء ، وقد أحاطها الخليفة معاوية بكلّ أنواع الرفاهية ، ولم تحد الرفاهية من مشاعر الاغتراب فالإنسان دائم الحنين إلى الوطن الأم ، والمرأة أكثر إحساساً بالاغتراب ، فقالت هذه الأبيات [2] :

لبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيــه	أحبُّ إليّ من قصر منيــفـ ِ
وأصواتُ الرياح بكلِّ فــجٍ	أسرُّ إليّ من نقر الدفـــوفِ
وبكر يتبع الأظعان صعبٌ	أحبُّ إليّ من بغلٍ زفـــوفِ
وكلبٌ ينبحُ الطُرّاق عنــي	أحبُّ إليّ من قطٍ ألــــــوفِ
للبسُ عباءةٍ وتقرُّ عينــي	أحبُّ إليّ من لبس الشفوفِ

فالاغتراب نتيجة طبيعية لليأس من الواقع ، فمالك بن الريب لا يستطيع التكيُّف مع الظروف المناخية في البلاد التي فتحها المسلمون نتيجة شدّة بردها وقساوة مناخها ، فهو يحث سعيد بن عثمان بن عفان للعودة إلى الوطن قبل حلول الشتاء، بعد إن حققوا الهدف من غزوتهم ،

---

[1] الضبي ، المفضل بن محمد بــن يعلى ، **المفضليات** ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمــد هارون ، ط 6 ، بيروت لبنان ، 148/1 .

عبده بن الطبيب : والطبيب اسمه يزيد بن جشم بن عبد شمس من تميم ، شاعر مُجيد ليس بالمكثر وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم ، وكان في جيش النعمان بن مقرن ، وكان عبده أسود ، وهو من لصوص الربـاب ، وقد رثـى قيس بـن عاصـم ، قيل فيـه أنـه لا يحسـن الهجـاء فقـال خالـد بـن صـفوان ، بل إنـه كـان يترفـع عنـه (الضـبي ، **المفضليات** ، 134) .

أزف : يأزف ازفا كل شيء اقترب أي دنا .(اللسان ، مادة ازف) .

[2] ابـن الشـجري ، أبـو السـعادات هبـة الله علـي بـن حمـزة ، (512) هـ ، **الحماسـة** ، مطبعـة دائـرة المعـارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، 1345 هـ ، ص 166 .

فالبلاد غير بلادهم لشدة بردها وكثرة ثلوجها ، فالبرد عدو لا قدرة لهم على قتاله ويصف هذه الأوضاع فيقول[1] :

هبّتْ شِمالُ خريق أسقطتْ وَرَقاً | واصفرّ بالقاع بعدَ الخضرة الشّيحُ
فارحلْ هُديتَ ولا تجعلْ غنيمَتنا | ثلجاً يُصَفّقهُ بالترمذِ الريـــــحُ
إنّ الشّتاءَ عَدوٌ ما نُقاتِلـــــهُ | فاقفلْ هُديتَ وثوب الدِفء مطروحُ

فمن يغترب فإنه يشعر بفقدان المساواة والعدالة ، كما يجد نفسه في موقف الرافض لقيم المجتمع ، وعدم الانسجام مع القبيلة أو المجتمع الذي يعيش فيه، مما يؤدي إلى نفوره وخروجه على مجتمعه وهروبه منه .

وأما الغربة فليست وليدة رغبة شاعر، بل هي غربة قسرية فرضها واقعٌ وطبيعة جغرافية معينة[2] ، والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه لا يستطيع مقاومته أو تغـييره ، ولا يملك حق الاعتراض ، وإذا خرج من مجتمعه غريباً أو مغترباً فيتحول إلى وطن القلق والخوف والهموم، يقاسي فيه لوعة الفراق ومرارة الغربة، وتتمثل مظاهر الغربة في البيئة الطبيعية ، والعامل الجغرافي ، والاختلال الاقتصادي ، وفقدان المساواة والعدالة ، أو ما تسمى غربة القهر التي هي خارجة عن إرادة الإنسان ، فيغترب إذا صادف ما يخالف فكره أو ما اعتاد عليه من قيم وأخلاق ، يقول قيس بن الخطيم[3] :

وما بعضُ الإقامةِ في ديارٍ | يُهانُ بها الفتى إلا بـــلاءُ
وبعضُ خَلائِق الأقوامِ داءٌ | كداءِ البطنِ ليسَ لهُ دَواءُ

---

(1) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 22/ 304 - 323 .

ترمِذ ، بكسر التاء والميم: البلد المعروف بخراسان. (**اللسان** ، مادة ترمذ) .

(2) انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 15 - 28 .

(3) قيس بن الخطيم ، **الديوان** ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، ص 153 .

قيس بن الخطيم : بن عدي من الأزد وكنيته أبو يزيد واسم الخطيم ثابت وقد قتل أبوه وهو صغير كما قتل جده قبيل ذلك عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام ولكنه لم يسلم وقتله الخزرج قبل الهجرة (عبد الرحمن ، **الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية** ، رقم الترجمة 508) .

رابعاً : تطور مفهوم الصعلكة واللصوصية

الصعلوك : هو الفقير الذي لا مال له واتصف بعضهم بالسلوك العدواني .
وتصعلك : بمعنى افتقر .
وتصعلكت الابل : خرجت أوبارها أو طرحتها .
ومصعلك الرأس : مدوره وصغيرُه .
وصعاليك العرب : أي ذؤبانها ، وعروة الصعاليك هو عروة بن الورد .
و الصعلكة : الضمور و الانجراد .
فالإبل طرحت أوبارها وانجردت .
والخيل دقت وطار عفاؤها عنها .
ويتصعلك : يتجرد من ماله .[1]

والفقر يجرد الإنسان من ماله ويظهره ضامراً وهزيلاً ويدفعه للغارة والسطو أي يتجرد للغارة ويتهيأ لها[2] . فلا مال له يستعين به على أعباء الحياة ، وجردته الحياة من وسائل العيش. والتصعلك : الفقر المقترن بالشر[3] ؛ وليس كل صعلوك فقيراً .

فالصعلكة : بغي وظلم وتجاوز واعتداء على الآخرين لسوء تصرفاتهم واستعداد نفسي وتهيؤ للعداوة والاعتداء على الآخرين ، وشعور بالظلم والقهر والحرمان ، وسوء المعاملة، والفقر هو التجرد. فالفقير ليس صعلوكاً إذا لم يمتهن هذا السلوك العدواني حرفة ، من أجل المغنم[4] .

---

[1] ابن منظور، **لسان العرب** ، مادة صعلك .

[2] انظر، ابن منظور، **لسان العرب** ، مادة صعلك .

[3] انظر ، زيدان **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص11 .

[4] انظر ، خليف ،**الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص231 .

والحرفةُ والاحتراف سلوك مستمر وليس طارئاً ، وتطور المعنى ليدل على من يتجرد للغارة وقطع الطريق ، ويتجرد من المال[1] وأخذت تدل على الفتاك واللصوص و الأغربة و" الخلعاء " [2] ، وفي العصور التالية أخذت معاني جديدة خصوصاً في العصر العباسي واختلفت أساليبهم فاعتمدوا الحيلة والخداع والتسول والكدية ، وكان من طوائفهم العيارون ، والشطار ، والطفيليون[3] ، وهي فئات خارجة على المجتمع أو فقيرة أو معارضة .

فالفتك بمعنى السطو وقطع الطريق إضافة إلى الجرأة والشجاعة . وقال الفراء : الرجل يفتك بالرجل ، أي يقتله مجاهرةً . وقال أبو منصور: كل من هجم على الأمور العظام فاتكا[4] . وفي القاموس المحيط ذؤبان العرب: هم لصوصهم وصعاليكهم وشطارهم ، ويقالُ هم كالذؤبان [5] . وهناك تشابه بين الصعاليك وبين الذئاب ، في الصبر على التحمل ، والاستعداد للغارة، وتحقيق الهدف مع القوة والشراسة . و الصعلكة تقابل الغنى ، والتصعلك بمعنى الفقر ، والصعلوك الفقير . و الصعلكة سلوك عدواني دائم ، وسيلته العدوان ، فيقطع الطريق ويسطو ويغزو ، ويفتك حين تتاح له الفرصة[6] .

---

[1] انظر ، حنفي ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 18-21 .

[2] المرجع نفسه ، ص 18-21 .

الخلعاء : هم الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم وجناياتهم ، ويعلن ذلك على الملأ وفي الأسواق والمواسم بقولهم: (إنا خلعنا فلاناً فلا نأخذ أحداً بجنايةٍ يجنيها أو نؤاخذ بما يجني على نفسه)، ومنهم حاجز الأسدي وقيس بن الحادية وأبو الطمحان القيني ، (**اللسان** ، مادة خلع) .

[3] عطوان ، حسين ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، دار الجيل بيروت ، ط4 ، ص 160.

طفيل : شاعر معروف كان يأتي الولائم دون أن يدعى إليها ، وهو رجل من أهل الكوفة من بني غطفان ، كان يأتي الولائم دون أن يدعى إليها ، ورجل طفيلي من تدخل فيما لا يعنيه ، وهو منسوب إلى طفيل المذكور يقـــول : " وددت أن الكوفة كلها بركة فلا يخفى على منها شيء " ورجل طفيل يدخل مع القوم فيأكل طعامهم من .(**اللسان** ، مادة طفل) . قال طفيل بن زلال ناصحاً رفاقه :

واطرح حيائك إنما ... وجه المُطفل من حديد

انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي** ، ص160 .

[4] انظر، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه و خصائصه** ، ص 18-21

[5] المرجع نفسه ، ص 21 .

[6] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص231 .

فالصعاليك في المعنى اللغوي هم الفقراء، وفي الدلالة الاجتماعية تتصل بالمكانة والوضع الاجتماعي[1] . لذا فإن الصعلوك فقير تعرض للجوع والعوز والحاجة ، مع سوء المعاملة والاحتقار والعبودية، فأصبحوا قطاع طرق مشردين ، دمهم يطل عند القبائل ، ويخلعون لكثرة جناياتهم. لهم فلسفتهم ومبادئهم التي لأجلها يتمردون ، وتهدف الصعلكة إلى إقامة العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادي بين الناس ، ولا يؤمنون إلا بالإغارة والغزو والسطو والنهب والسلب[2].

فالفقر والتشرد وقطع الطريق اقترنت بقلة النوم ، فالجوع وقلة النوم لا يفترقان ، كما أن قطع الطريق والتربص والحذر من أسباب قلة النوم[3] . إذا كان الصعاليك هم الفقراء الذين اقترن فقرهم بالشر ، فكيف صار إيثار الغير من الفقراء و المحتاجين والمرضى على أنفسهم في حالة الغنى ؟ فمنهم من خرج على المجتمع ، ومنهم من قبل بالحياة داخل مجتمعه ، إنهم يحاولون أن يثبتوا ذواتهم بأنهم ليسوا أقل شأناً من أصحاب الفضل ، ولديهم الكفاءة والقدرة أن يكونوا مساهمين في إسعاد الآخرين كما يساهمون في رفع المعاناة عن أنفسهم[4] . أنهم لا يرون لأحدٍ فضلاً عليهم ، فيؤمنون قوتهم بحد الحسام ، ولا يستجدون قوتهم كالفئة الخاملة التي تعيشُ في أكناف البيوت وعند الناس لا بينهم .

ففقد الصعاليك الإحساس بالعصبية القبلية ، أو الانتماء القبلي الذي هو قوام المجتمع الجاهلي ، وتـطورت إلى عصـبية مذهبية ، فكفروا بعصبيتهم القبيلة وسُحِبت منهم هويتهم بالخلع ، وأصبحت صلتهم بقبائلهم صلة عداوة كما فعل قيس بن الحدادية وغيره. فكان الصعاليك يؤمنون " أن الغزو أدرَّ للقاح ، وأحدُّ للسلاح " [5] أي أن الغزو يحقق الغنى والحقُ للأقوى فبقدر التناصر كان التخاصم بين القبائل في سبيل الشرف والرياسة ، والماء والكلأ ، والمال والعيش

---

[1] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص232 .

[2] انظر، مروة ، محمد رضا ، **الصعاليك في العصر الجاهلي أخبارهم وأشعارهم** ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط 1 ، 1990 ، ص 27- 38 .

[3] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 15 .

[4] المرجع نفسه ، ص 11 .

[5] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي** ، ص 117 .

ومناطق النفوذ وطرق التجارة . وعمل القبائل عمل جماعي منظم ، وعمل الصعاليك فردي لا نظام له معتمدين على عدوهم وسرعتهم .

وارتبطت الصعلكة بالفقر والشر ولا نعتبره سبباً وحيداً ، أو هو السبب المباشر فالمجتمعات كلها تتعرض للفقر حتى في أيامنا، ولم يترتب عليها ظهور حركة الصعلكة ، إلا إذا ضعف الجانب السياسي ، فالفقر وحده لم يكن هو الدافع الوحيد ، وكذلك قطع الطريق ، والفتك ، واللصوصية ، والإغارة والسلب ليس وقفا على الصعاليك . فلفظ الصعاليك غير جامع ، لأن الـــغزو والإغارة لا يشملان الصعلكة كاللصوصية وهي مرادفة للصعلكة وألفاظ يبعدها لفظ الغزو ، ولفظ الإغارة كقطع الطريق الذي يُعتبر من أبرز أساليب الصعلكة ، ولم يكن الثأر من أبرز أساليب الصعلكة ، بل هدفاً من الغارات . وسادة العرب زاولوا السلب والنهب وبعض وسائل الصعلكة كالثأر والانتقام فلا نعدّهم صعاليك لأن الغرض من الصعلكة المغنم [1].

ويمكن اعتبار سبي النساء يحقق هدف المغنم بطريق غير مباشر " فالصعلكة هي : احتراف الأسلوب العدواني بقصد المغنم"[2] والاحتراف ملازمة العمل من حيث استمراره والمورد الأساسي لمعيشته ورزقه . يقول النهشلي[3] :

مُتْ مُعدَماً أو عِشْ كَريماً فإنني ... أرَى الموتَ لا ينجُو من الموتِ هَاربُه
فللموتُ خيْرٌ للفتَى من قعُــودِهِ ... فقيراً وَمنْ مَولى تَدبُّ عقاربُـــــــــه

وقال أيضاً محذراً من الضعف وقبول العبوديّة[4] :

وفي اللّيْنِ ضَعفٌ والشرَّاسةُ هَيبَةٌ ... ومَن لم يهبْ يُحمل عَلى مركبٍ وعر

فكان من يقبل الذل والعبودية قليل منهم، وهم يفخرون بإباء أنفسهم وحصولهم على قوتهم ومغانمهم بحدّ سيوفهم بغير منّة ولا عبوديّة . ومزاولة بعض السادة لأعمال الصعلكة ، كعمرو بن معدي كرب ، ودريد بن الصمة ، والنابغة الذبياني ، فهذه الأعمال ليست سلوكاً مستمراً وإنما هـــــو طارئ لأسباب ودوافع معينة، والهجاء سلوك عدواني ، ولكنه ليس كالتسول الذي لا يعتبر

[1] انظر ، حفني ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، ص 37 .

[2] المرجع نفسه ، ص 38 .

[3] المرزوقي ، شرح الحماسة ، ص 318 .

[4] المصدر نفسه ، 665/2 .

عدوانيا [1] و الحروب بين القبائل العربية سلوك عدواني ولكن ليس مستمراً ولا يهدف للمغنم المقصود ، ومن زاول الحرب لا يعتبر صعلوكاً وإن كسب منها غنيمة ، فالغنيمة نتيجة وليست قصداً [2].

فالصعلكة سلوك وليست عارضة ، ولا يمكن حصرها بزمن أو عصر أو أفراد ، بل لها أسبابها ودوافعها ، فهناك بعض القبائل مارست أسلوب الصعلكة لكثرة أفرادها الصعاليك بشكل عام كقبيلتي فهم وهُذيل[3] ، ومنهم الأعلم الهُذلي ، وصخر الهُذلي ، وأبي كبير الهُذلي ، وأبي خراش الهُذلي .

فالصعلكة فقر ارتبط بالشر وبالسلوك العدوانيّ ،وصار السلوك احترافاً مستمراً ، ويهدف مباشرةً إلى المغنم ، فإذا اجتمعت هذه العناصر صارت الصعلكة فقراً وشراً ويهدف للحصول على المغنم ، فليس هو كالحرب وليس موازياً للتسول وليس هو معادلاً للثأر[4] . وكان الترف يستحثهم إلى السرقة ، والاستكثار من زخارف الحياة بسبب تكاليف الملذات عندما نشأت الدول، بينما كانوا في الجاهلية يسعون إلى الغنى حتى لا يكونوا أقل مكانة من غيرهم ، فالظروف التي اختلفت لم يستطع السيطرة عليها و على رغباته المكبوتة وتناسي مسؤوليته ، فإذا كان الخلع

---

(1) انظر، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 30-39 .

(2) المرجع نفسه ، ص 35 .

(3) انظر، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 37 .

الأعلم الهذلي : هو حبيب بن عبدالله بن هذيل أخو صخر الهذلي ، أقوى ن صخر في الصعلكة ، وصخر أقوى منه في الشاعريّة وكان من العدائين البارزين ، اشتهر بالوصف للصحراء وحيواناتها . (الأصفهاني ، **الأغاني** ، 268/23) .

صخر الغي الهذلي : هو أخ الأعلم ، ولقب بالغي لخلاعته وكثرة شره مات بنهشة أفعى ، رثاه أبو المثلم بقوله :

ربّاءُ مرقبةٍ منّاع مغلبةٍ ركّابُ سلهبةٍ قطّاعُ أقران

(عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 256) .

أبو كبير الهذلي : واسمه عامر أو عويمر ابن الجليس وهو مخضرم تزوج أم تأبّط شراً ، وحاول الإيقاع بتأبّط شراً للتخلص منه بالإتفاق مع أم تأبط شراً ، ووجهه لبعض الأعداء وتمكن من الفتك بهم . المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 85/1 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 521) .

(4) المرجع نفسه ، ص 37 .

علاجاً لأفراد القبائل ، فقد كان السجن رادعاً كعقوبة للخارجين على الدولة ، فهل كانت الدولة عاجزةً عـن تلبية حاجاتهم ؟ .

لعل السبب يعود إلى الاختلال في التوازن الاقتصادي والاجتماعي ، وكثرة الاضطرابات والفتن ، وضعف سلطة الدولة أحياناً على المناطق البعيدة عن سلطة الخلافة ، أو حتى مركز الخلافة عند الصراع على الخلافة والسلطة ، وهناك بعض الفئات الاجتماعية من اتخذت التسول والكدية حرفة ، وألقت باللوم على الدولة لعدم توفير سبل الحياة ،فهي تهوى المتع والفراغ والمجون ، وتعجز عن القيام بأيّ نشاطٍ يوفر لها سبل الحياة الكريمة ، فآثرت الراحة والدعة والتردد إلى قصور الخلفاء والشكوى من سوء الأوضاع .

خامساً : حركات العيارين والشطار

العيّار[1] لغةً الذكيُّ الكثير الذهاب والمجيء في الأرض النشيط في المعاصي ، يتصف بالفطنة والقوة والنشاط ، وكثرة التطواف والحركة ، وهم أيضاً من الأحابيش والأزارقة جُلبوا للخدمة في القصور والمزارع ، وعُوملوا معاملة قاسية يستهينون بالموت في سبيل حياة كريمة ، ونظموا صفوفهم وأصبحوا قوةً معارضة وسيلتهم السلب والنهب والتلصص، والهدف استحواذ المال والمتاع ؛ لأن أجسادهم عارية ، لا يسترون إلا بعض أجسادهم فكانوا لصوصاً من أهل السجون .

والفئة الأخرى هم الشُطّار . والشُطّار[2] جمع شاطر : وهو من شَطَرَ عن أهله شطورةً وشطارة إذا نزح عنهم وتركهم مراغماً أو مُخالفاً وأعياهُم خُبثاً ، والشاطِرُ مـن تباعد عن الاستواء . وهم فئة من الصعاليك الفقراء اللصوص الذين هجروا مجتمعهم ثائرين على قوانينه مما جعلهم مصدر قلق وشغب ، ولم يكونوا فُسّاقاً أو منحرفين ، بل معوزين وفقراء ومنهم ابن الطبيب ، وإسحاق بن خلف الحنفي . و الطائفةُ الأخيرةُ هم الطفيليون[3] نسبة للطفيل بن زلاّم والطفيلي : هو الداخل على القوم من غير أن يُدعى ، مأخوذٌ من إقبال الليل على النهار بظلمته .

---

(1) ابن منظور ، **اللسان** ، مادة عير .

وانظر ، عطوان ، **الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص 140 - 152 .

(2) ابن منظور ، **اللسان** ، مادة شطر .

وانظر ، عطوان ، **الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص152 .

(3) المرجع نفسه ، ص160 .

وكان طُفيل بن غطفان يأتي الولائم من غير أن يُدعى إليها ويُقال طُفيل الأعراس والولائم والمناسبات . واختلفت في العصر العباسي الوسائل والأساليب والتسميات فكان الطفيليون كالفئة التي رضيت الذل والهوان في العصر الجاهلي التي تحصل على قوتها بالتذلل والهوان ، فهي التي تدخل المناسبات دون استئذان ، وتأتي الولائم في كل مكان ، لا تخشى لوماً ولا تحسب حساباً لكرامة ، فليس هناك ارتباطٌ لا بقبيلةٍ ولا جماعةٍ تلجأ إليها عند الحاجة ، وإنما هي تتصرف تصرفاً فردياً لا تخشى سقوط الهمة ، ولا يضيرها التردد على أماكن المناسبات[1] .

الشاطر لغوياً من أعيا أهله خبثاً، وشطر على أهله بمعنى نزح عنهم وترك موافقتهم ، والشطارة الانفصال والابتعاد. والشاطر من عصا أباه أو وليّ أمره ، ومن اتصف بالحيلة والخبث والذكاء[2] . وتعددت التسميات لهذه الطوائف ، ومن الأسماء الصعاليك والشطار والعيار والقيان والزعار والدعار والعياق والحرافيش وأصحاب المهن ، وكانوا من أصحاب المهن والفقراء والجياع والعاطلين عن العمل وممن أعجزتهم البطالة .

بسبب سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن مصالح العيار وانهماكهم في الملذات. والعيار لغويا الكثير التجوال . الذي يتردد بلا عمل . والمعار الفرس الذي يحيد عن الطريق . والعيار الكثير الذهاب والمجيء : والزعار وزعر الرجل قل خيره . والزعرة طائــــر لا يرى إلا قلقاً . والأزعر جمعها زعران وهو اللص الخاطف المارد ، والزعارة شراسة الخلق . ورجل زعرور سيء الخلق و زيعر قليل المال . والعياق لغوياً عاق يعوق صرف وثبط وأخر عنه ، وعاق المجتمع والبطولة خارج القانون[3] .

---

(1) انظر ، عطوان ، **الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص152 .

(2) ابن منظور ، **اللسان** ، مادة شطر .

(3) المصدر نفسه ، مادة عير وزعر وعوق .

فهم في حالة صراع مع المجتمع وتمردوا عليه ، بالرغم من عدم تكافؤ كفتي الصراع . ثورة وإدانة للعصر، وعلى من استأثر بالسلطة والمال. أو ثورة على الهيئتين الاجتماعية والسياسية وموقف رافض متمرد. ولقيت هذه الفئات مقاومة عنيفة حيناً من السلاطين ، وحيناً عملوا تحت أمرتهم . وهم جماعات مشاغبة تتحدى القانون والسلطة الشرعية [1] ونالوا إعجاب العامة يتسترون عليهم ويشيدون بأفعالهم .

وفي فلسفتهم أن" اللص أحسن حالا من حاكم مرتش "[2] . وعرفت أشعارهم وقصصهم وحكاياتهم و بطولاتهم بأدب اللصوص " أو حكايات الشطار . و الأدب هو الوسيلة للتعبير الفني الرافض للواقع الاجتماعي والسياسي بشكل جماعي يهدد النظام ، وظلت الطوائف مقترنة بظهور القلاقل السياسية و الصراعات المذهبية ، وظهرت الشعوبية والأزمات الاقتصادية والفتن الداخلية لغياب العدل .

والهدف من وراء تمرد هذه الفئات رفع الظلم وإقامة الشرع .وهو مطلب شرعي من حاكم غير شرعي . تزعمها الشطار والعيار ون ، وظلوا يعيشوا على هامش المجتمع وهم متمردون وأصحاب قضية، ولم يجدوا غير اللصوصية والشطارة والعيارة وقطع الطريق للتعبير عن أنفسهم ، واتخذوا الأساليب غير القانونية لذلك . وهذه الفئات لا تزدهر إلا في ظل التصدع والتفكك والانحطاط وضعف السلطة والتدهور[3]. وانتشروا في الجبال فكانوا يقطعون الطريق وعلى كثرتهم لا يهددون أصحاب الثروة، كما أن السطو على النساء ليس من شيمهم ، بل مصدر خطر يتهدد سلطة الدولة أو مركز الخلافة . وكانوا مصدر إعجاب لعامة الشعب لمطالبتهم بالعدالة ، والإنصاف للفئات المحرومة ، وإرغام السلطة على الاستجابة لمطالبهم .

فأعداد العيارين والشطار في تزايد مستمر، ولا يمكن أن يكون العدد الضخم كلهم لصوص وشطار، وبمقدورهم مجابهة جيش والانتصار عليه . وكونوا حزبا معارضاً لا يقتصر

---

(1) انظـر ، النجار ، محمد رجب ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، عالم المعرفة ، 1981 ، ص 9 .

(2) المرجع نفسه ، ص 11 .

(3) المرجع نفسه ، ص 15 .

دوره على النهب والسلب، بل القتال في صفوف وجماعات منظمة تحت سلطة القادة أو الوزراء والولاة الخارجين . وإذا ما هزموا فإنهم يعيدون صفوفهم في أول فتنة أو تمرد على السلطة . والوجه الايجابي لهؤلاء العيارين والشطار موقفهم الرافض للنفوذ الفارسي[1] . ولم يستطع أحد أن يسلبهم الجانب البطولي في هذه الانتفاضات الشعبية . وطوائفهم من أهل الحرف وأهل السجون، والمقامرين والعاطلين. ووصف عثمان الخياط - وكان ممن احترفوا هذا الفن – أخلاقهم ، فقال ما سرقت جاراً وان كان عدواً، ولا كريماً ولا كافأت غادرا بغدر[2] .

وقال لصاحبه : " اضمنوا لي ثلاثا اضمن لكم السلامة " لا تسرقوا الجيران واتقوا الحرم ولا تكونوا أكثر من شريك مناصف ، وان كنتم أولى بما في أيديهم لكذبهم وغُشبهم وتركهم إخراج الزكاة. وقال أيضاً ما خنت ولا كذبت منذ اكتفيت[3]. إن وراء هذا السلوك موقف سياسي يكشف عن فساد السلطة ، وسوء الإدارة وضياع هيبة الحكم .

هم نوع من اللصوص لا يقطع الطريق أو يكبس البيوت بقوة سيفه أو سيوف أتباعه ، أو يعلن عن تمرده الاجتماعي أو السياسي ، أو يقود العامة لمثل ذلك ، وإنما يتوسل بالحيلة والمخاتلة والدهاء . يعتمد في ذلك على قوة العقل وثبات الجنان ، ومهارة الكيد وغرابة الحيلة وبعد النظر . ظهرت هذه الطوائف نتيجة الصراع المذهبي والعقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي . وحين صار الخلفاء ألعوبة في يد الجند[4] ، كما كان هناك دوافع أخرى للتمرد كغلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب ، وانهماك السلطان في القصف والعزف ، و إعراضه عن المصالح الدينية والخبرات السياسية .

وأشهر العيارين ابن كبروية وأبو الدود وأبو الذباب وابن الأرض .وهي كنى وألقاب كثيرة لا يعرف أصحابها على وجه التحديد ، وزادت سلطتهم لضعف الدولة وكثرة الاضطرابات والثورات الداخلية بقيادة هؤلاء العيارين والثائرين، الذين تمردوا على المجتمع والدولة[5] . وكانت السلطة تخرج إليهم الجيوش للقضاء عليهم . وعُظم شأنهم وقوي نفوذهم بعد عملهم تحت إمرة

---

(1) انظر ، عبد المولى ، محمد احمد ، **العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي** ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1986 ، ص 82 .

(2) انظر، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 41 .

(3) المرجع نفسه ، ص 49 .

(4) المرجع نفسه ، ص 79 .

(5) انظر ، امين أحمد ، **الصعلكة والفتوة في الإسلام** ، دار المعارف ، مصر ، 1952 ، ص 30 .

عدد من الوزراء وأبناء الخلفاء ، فيسكتون عنهم ويقاسمونهم ما يصيبون من غاراتهم وسلبهم ونهبهم [1] ، ويتميزون بزي خاص ، وأعجب بهم العامة لسطوتهم على بيوت الوزراء والقواد ورجال القضاء والشرطة وكبار التجار، كما أعجبوا بهم لمحاولتهم القضاء على الظلم والتوزيع غير العادل للثروة ولو بطرق غير مشروعة ، وكانت حركات مرفوضة من الناحية القانونية والسلطانية ومقبولة عند الفئات المحرومة ،وهم يرون أنهم يمثلون ثورة الفقراء على الأغنياء . اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا .

فالعيارون والشطار حركات سياسية شعبية ذات طابع اقتصادي ، وهناك اختلاف بين حركة الصعلكة وحركة العيارين والشطار . فالأخيرة لا تزدهر إلا في الحواضر السياسية والاقتصادية ، ومنها تمتد إلى الأطراف والمدن الكبرى البعيدة نسبيا عن مركز السلطة[2] . وكانوا يتخذون من الأسواق مواضع للتعبير عن سخطهم ومعارضتهم وتنظيم صفوفهم . وهي حركة تأتي نتيجة طبيعية لما تنتهي إلية الحضارات من تناقضات تاريخية ، من جراء التمايز الطبقي والتباين الاقتصادي . حيث السلاطين والولاة وقواد الجند والأمراء والأثرياء يعيشون في نعيم وترف ، والطرف المقابل من العاطلين وأصحاب الحرف يعيشون في أقسى درجات الحرمان من جراء الصراع المذهبي والتسلل الشعوبي والتمزق السياسي ، وبسبب الخلل الاقتصادي واستئثار الجند بالسلطة دون الخلفاء نشأت هذه الفئات.ينعمون على حساب حرمان عامة الشعب . و هم اللصوص الحقيقيون ، لصوص الشعب بالمعنى السياسي والقانوني والأخلاقي والاجتماعي .

وممن يجعلون السلطة مرتعا للفوضى والاضطرابات والقلاقل والفتن، فهؤلاء يقتلون ويخطفون ويسبون ويسرقون عامة الشعب ، بينما هم أي " العياورن " والشطار لا يعتدون إلا على أصحاب الثروة ، الذين يمنعون حق غيرهم من الزكاة . إلا أنهم لصوص شرفاء أرادوا أن يحققوا العدالة الاجتماعية فنهبوا الزكاة بطرق غير مشروعة وتحت الإكراه[3] ، وكأنهم هم السلطة المرادفة للسلطة الحقيقية ، وكان العامة أول من يدفع ثمن هذه الأوضاع السياسية المتردية، فكان تكديس الثروة عند فئة محدودة ، وبرز الانقسام الطبقي ولم تحاول السلطة الحد من التفاوت في الملكية ، كما أسقطت الفرائض الشرعية الواجبة عليهم تجاه الفقراء . فامتنعوا عن دفع الزكاة

---

[1] انظر، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 82 .

[2] المرجع نفسه ، ص 26 .

[3] انظر ، عبد المولى ، **العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي** ، ص 64 .

طوعا ؛ لأن الزكاة فريضة واجبة تؤخذ من الأغنياء المسلمين، وتصرف على فقرائهم . فكانت دعوتهم سبيلاً غير مشروع لحق مشروع[1] .

فالفجوة الواسعة بين أصحاب الثراء والفقراء ، والتناقض الاجتماعي بين أصحاب القصور الفخمة ، والولائم الكبيرة ومجالس المنادمة وجواري الغناء والفقراء مدعاة لليأس والاغتراب ، كما هي مدعاة ايجابية للتمرد ، و أعجب العامة بمبادئهم لمحاولة إنصافهم . فبرزت حركة العيارين والشطار في دلالاتها المختلفة وقيمتها الفنية ، وتساوى في العقاب المفكرون والعيار ون والشطار، فأصبح الخليفة مهددا لتعاطف العامة معهم وصدق دعواتهم[2] . فكانت حركة العيارين والشطار حركة شعبية تضم الكثيرين في صفوفها . إلا إنها تفتقد إلى التنظيم والتخطيط ، وشكلت هذه الحركات تكتلاً لزيادة التباين الطبقي وسوء الوضع المعيشي ، لانتشار الفوضى والكساد والبطالة والازدراء الاجتماعي ، والصراع المذهبي والقومي . وتشكل احتجاجا على ما يمر به عصرهم من فتن و اضطرا بات ضد عجز الدولة .

إن كل الشطار والعيارين أبطال شرفاء في نظر الكثيرين، وحركاتهم انتفاضات ثورية واعية وذات غايات نبيلة ، إلا أن ما من انتفاضة شعبية إلا وقد أندس فيها كثير من المشبوهين . فكان العيارون والشطار يعملون لحساب جماعات معارضة ، كما كانوا سببأ لكل فتنة ووقوداً لها .فهم فئة مطحونة جمعت بين الصعلكة والدروشة ظهرت في أواخر القرن الثاني الهجري وكانت هذه الجماعات بمثابة مليشيات شعبية مجاهدة أو ناهبة ، والدراويش (Daravesh) كلمة فارسية وهو الفقير المسكين من المتصوفة ، وشكل العيارون والشطار فريقاً معارضاً في أوقات ضعف الحكومة القائمة [3] .

---

[1] انظر ، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 87 .

[2] المرجع نفسه ، ص 92 .

[3] انظر ، عبد المولى ، **العيارون والشطار والبغاددة في التاريخ العباسي** ، ص37 .

فعند احتدام النزاع بين الأمين والمأمون نسب القتل وسفك الدماء والهدم والتخريب لهم ، وإن قام به الآخرون ، والطوائف الخارجة عن كل قانون بسبب سوء أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تسعى للحصول على مكاسب اقتصادية أو إرضاء أصحاب النفوذ أو من يعملون تحت إمرتهم . وتتولى هزائم قادة جيش المأمون وبخاصة عبدالله بن الوضاح، والقائد هرثمة على يد هؤلاء العيارين، حتى ليصفهم بعض أصحاب هرثمة فيقول متعجبا[1] :

َيفنَى الزّمانُ وما َيفنَى قتالُـــهمُ	والدوُر تُهدمُ والأموالُ تُنتَقصُ
والناسُ لا َيستطيعُون الذي َطلبوا	لا َيدفعوَن الرّدى عَنهم وانْ حَرصوا
َيأتُوننا بحديثٍ لا ضِيـــــــــاءَ لهُ	في كلّ يوم ٍلأولادِ الزّنا قِصصُ

فكانوا جماعات ونهّابة يقاتلون جيشاً منظما ًبوسائلهم البدائية .ويعذبون قتلاً وحرقا وغرقا وأحيانا بالسجن .فثورتهم ثورة شعبية تلصق بهم التهم والمثالب[2] ، وحين تغيرت موازين القوى لصالح المأمون جاءوا يبايعون المأمون، ويطلبون تجهيزهم بالسلاح لفتح أبواب بغداد التي لم تفتح.وعرفوا بتلونهم السياسي إذا كانوا يشايعون الأمين ويرفضون النفوذ الفارسي في هذه الفتنة . وكانت وصايا عثمان الخياط بمثابة دستور لهم، كما كان بمثابة زعيم اللصوص الفكري ، وسمي خياطاً لأنه نقب عن أحذق الناس وعرف مهاراتهم وحيلهم في التلصص وأخذ ما في بيته وخرج ، وسد النقب كأنه خاطه فسمي بذلك .

[1] انظر ، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 27 .

[2] انظر ، ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، دار صادر ، بيروت ، 1966 ، ص 120 .

ويرى أبو نواس أن طريق الغنى إما بزيارة القصور أو قطع الطريق . وعُرف عن العيارين والشطار بعدهم عن القصور لسوء مكانتهم الاجتماعية . فاختاروا السبيل الآخر للحصول على الثروة . يقول[1] :

سَأبغِي الغِنى إمّا نديمَ خليفةٍ   يُقيمُ سَواءً ، أو مُخيفَ سَبيل
لتُخمِسَ مالَ اللهِ مِن كلِّ فاجرٍ   وذي بطنةٍ للــــطيّباتِ أكولِ

وكان عثمان الخياط قد ذكر هذه الأبيات بشيء من التحريف ليجعلها دستوراً للعيارين والشطار :

وأسرقُ مَالَ اللهِ مِن كُلِّ فاجرٍ   وذي بطنةٍ للطيِّبات أكوُلُ

ويرى أن سرقة الأموال من الآخرين أو من الأغنياء استعادة لمال الله من الفجرة وإعادة توزيعه على مستحقيه ، فهم يجعلون أعمالهم غير مشروعة في سبيل مشروع ، ففلسفتهم ودوافعهم الكامنة وراء شطارتهم صبغ سلوكهم بالشرعية للحصول على التأييد من العامة، والمباركة من بعض الوزراء وأبناء الخلفاء ،فكل واحد منهم يرى نفسه صاحب حق شرعي مغتصب ،ويجعلون غطاء أعمالهم وتفسير سلوكهم تفسيرا دينيا [2]، وتقع عليهم مسؤولية إنصاف الفقراء وإعادة العدالة والتوازن في المجتمع ، ويتحدون السلطة التي لم تنصفهم . ويعتمدون في تنفيذ سياستهم على قوة العقل والذكاء الشديد فيعتمدون الحجة والإقناع وتبرير أعمالهم وإصدار الفتوى بإقامة العدالة وإنصاف الرعية.

وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم ،كما كان السلطان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه ، وإضافة لذلك كانوا يخيفون المارة

---

[1] أبــو نــواس الحسن بن هانئ ، الديوان ، حققه وقدم لـه فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، لبنان ، بيروت ، ص 145 .

[2] النجار ، **حكايات الشطار والعيارين** ، ص 73 .

أبو نواس : هو الحسن بن هاني شاعر الخمريات ولد عام 762 م في الأهواز من ابوين فارسيين من سلالة زنجية تنتمي إلى مولى من اليمن وانتقلت إلى البصرة بعد وفاة والده وعاش في كنف امه وحيداً وغلب التخنث أو كاد وكان داعياً للتجديد وعرّض بالشعراء العرب الذين أطالوا البكاء والاستبكاء (ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 543 ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 3/20) .

في الطريق وفي السفن ويأخذون الأجور على خفارة المساكن . وأعمالهم بطولات خارج القانون ووصفت فروسيتهم بالفروسية المتمردة تعبر عن موقف فروسي نبيل . وإحساس مرير بالقهر الاجتماعي فهي نزعة إنسانية نبيلة ويطلقون على أنفسهم الفتوة بالمعنى الفني الدال على النبالة والفروسية والشجاعة[1] ، فكان منهم نوعان متمرد جامد ذو نزعة أنانية شريرة ، والآخر فريق متمرد ذو نزعة غيرية خيرة ،غايته رفع الظلم وحماية المستضعفين وتحقيق العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي .

فكان أدب العيارين والشطار أدب فروسي وأدب شعبي بأسلوب فصيح . وتأخذ مغامراتهم و بطولاتهم في أشعارهم وأخبارهم شكل مادة قصصية خصبة للرواة وتصلح للسمر باعتبارها جزءا من تراثها الأدبي ، وتعكس حلما جماعيا من أحلام الفقراء في العدالة الاجتماعية والسياسية . وكان منهم التوابون وهم شيوخ اللصوص الذين كبروا وتابوا فإذا جرت حادثة علموا من فعلها فدلوا عليه إذا شاءوا . وربما يقاسمون اللصوص ما سرقوه ، وصار أمرهم يتفاقم كلما ضعفت الدولة . "والعرب تمدح بالعيار وتذم به "[2] .

ومن حكايات العيارين والشطار الطريفة التي تكشف عن ذكاء هؤلاء العيارين والشطار أن الخليفة أباح أموال الأمير" قطب الدين قايماز" في بغداد، ودخل ممن دخل بينهم أحد الصعاليك من العيارين فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير ، وكان الأقوياء منهم قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به العامة عنوة ، فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس قصد المطبخ ، فاخذ منه قدرا مملوءا طعاما وألقى الأكياس فيها ، والناس يضحكون عليه ظنا منهم أنه ساذج لم يحمل إلا طعاما فيقول أنا أريد شيئا أطعمه عيالي فنجا بما معه فاستغنى بعد ذلك [3].

---

[1] انظر، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 113 .

[2] المرجع نفسه ، ص136 .

[3] المرجع نفسه ، ص 137 .

أنواع الفتوات :

فتوّة الفتيان : فتوّة في اللغة صفة الفتى الدال على جماع الفضائل الخلقية[1] من مروءة وشجاعة وكرم وضيافة ونكران الذات وروح التضحية وإغاثة الملهوف ونصرة صاحب الحق .

فتوة عسكرية "المُطوعة ": وهم الفتيان المرابطون المجاهدون في مناطق الثغور، الذين تطوعوا للدفاع عن مناطق الثغور ولعبوا دوراً فروسياً.

والفتوة الصوفية: وتضم جماعات الفتيان المتصوفة الزاهدة.

أما الفتوة اللاهية : فهي التي انقلبت فيها الشجاعة إلى شطارة وعياره في فتوة مزيفة تمثل بالشراب والألعاب والغناء والتشطر والإرهاب، ولها أتباع أكثرهم من الثائرين على المجتمع والدولة ، وتجمع أسباب خروج هذه الطوائف بين القهر الاجتماعي وسوء الوضع الاقتصادي . وتجمع بين عاطفة الحب الشديد للذات والميل إلى الإجرام وبين نزعة خيّرة غيرية ، وبين نزعة دموية شريرة[2] . وتخلى الفتيان عما عرفوا به من لزوم الجهاد دفاعاً عن دولة الإسلام ضد العدو الخارجي ، وانكفأ معظمهم عائداً إلى وطنه في حالة قنوط بعد التخاذل السياسي لخلفائه، وما وصلوا إلية من عبث وهوان وصراع على السلطة وفتن داخلية مدمرة . وانصرافهم إلى القصف والعزف .فكان انصراف المتطوعين إلى الزهد في الدنيا وانغمس في تيار صوفي متقشف له تقاليده وطقوسه وطوائفه المتعددة ، وانصرف آخرون للجهاد الداخلي ضد السلطة والحكومة وصار الفتى بمعنى الخارج على القانون ، وصارت فتوتهم مستندة إلى أصل ديني ،ولقيت الفتوة الشاطرة والعيارة مقاومة شديدة لان السياسة كانت صارمة قاسية ، ولقيت الفتوة الصوفية تشجيعاً كاملاً من الدولة لاستقطاب هذه القوى الشعبية المعارضة .

فتوة الجهال: وهي الحركة المعارضة الرافضة المتمردة على وضعها السياسي والاجتماعي والاقتصادي . وأخذت تحتمي كل جماعة منهم بأمير ويأتون ببدع تخالف أحكام الشريعة. وهم كالصعاليك واللصوص في رفضهم لتقاليد المجتمع وفروسيتهم المقترنة بالشر .

---

[1] ابن منظور ، **اللسان** ، مادة فتي .

[2] انظر، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 137- 157 .

الفتوة الرسمية : هي التي توجه بالقدر الذي لا تتشكل معه خطورة منهم على سلطة الـــدولة وهيبتها . وأخذت هذه الطوائف تعبر بشكل أو بأخر عن رفضها للقوى الخارجية الطامعة ، وعن إرادتها الذاتية عن التغيير والإصلاح مما دعا البرجوازية المحلية للانفصال عنها والتآمر عليها والذي أتاح لهؤلاء العيارين أن يلعبوا دورا سياسيا أكثر وضوحا. وأخذت هذه الفئات طابعا ً سياسيا ً واقتصاديا ً واجتماعيا ً . طابع سياسي لاحتوائها ضمن طاعة أصحاب النفوذ. وطابع اقتصادي لمطالبتها بأنصاف الفقراء والمعدمين في توزيع الثروة، وطابع اجتماعي لأنها تمثل عامة الشعب والسواد الأعظم منهم . وذات طابع ثوري شعبي[1] . وظهرت طائفة **الزعار** وتعني لغوياً : المقاتلة الذين يظهرون ويختفون فجأة ،ويرتبط ظهورهم بظهور الأزمات والفتن في فترة متأخرة في الدولة العباسية وهي امتداد لحركة العيارين والشطار .

وكثير ممن اضطرتهم الحاجة للطعام واللباس إلى احتراف اللصوصية ،من لصوص الحكم والمال الذين َشنقوا أو صلبوا نفرا من العوام سرق ثوبا ًيستتر به ،أو طعاما لأولاده الجياع . ومما علق ابن تغري والمقريزي وغيرهم على ذلك بقوله :

رعاةُ الشاةِ تَحمي الذئبَ منها　　　فكيفَ إذا الرعاةُ هي الذئابُ

وكلها طوائف فقيرة قاومت اللصوص الحقيقيين الذين حرموهم ليشبعوا ، وصار بيت المال يتولاه شرار الناس . والشطار نوع من لصوص القوة الجسدية والعقلية ، ووصفوهم بالدهاء والخداع وأنواع الحيل ، وأطلق صفة الشطار على نوع من المصارعين الذين يتسمون بقوة جسدية يلفتون نظر أهل الحكم فيستخدمونهم لحمايتهم[2] . واستخدم لفظ الشطار بمعنى الحرامية ، والعياق و السراق بمعنى عائق الطريق وقاطعة و العربان أو الأعراب : هم الذين يغيرون على المدن والقرى وتقطع الطريق على الحاكم والعامة، وصاروا من المقربين من السلطة، مما ساعد على نفور العامة منهم ،وكانت غاراتهم على قوافل الحجيج دون مراعاة لحرمة [3].

---

[1] انظر، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 162 – 170 .

[2] المرجع نفسه ، ص 198 .

[3] انظر ، عبد المولى ، **العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي** ، ص65 .

ويطلقون على اللصوص كلمة الصعاليك حيث الجذور الأولى لظاهرة اللصوصية المتمردة في التراث العربي ، وكانت وجهاً من وجوه المقاومة الشعبية للظلم والاضطهاد[1] ، وتوسل بعض الناس باللصوصية وقطع الطريق . إذا جمعوا بين السلب والنهب وقطع الطريق ، وإرهاب الناس من ناحية. وبين صفات المروءة والشهامة والنجدة والوفاء من ناحية أخرى . فكانت حكاياتهم متعة السامرين ،وأرزاقهم بين الناس .وأخذت تشكل ظواهر اجتماعية ملموسة مع بداية التصدع الحضـاري ، وظلت تتهدد سلطة الدولة والطبقات الغنية على شكل قوى فردية محلية وفقدت دورها الايجابي المتمرد والثائر .

والشاطر : اللص الذكي وتطلق في مجال الإعجاب والإطراء ، لما فيه من صفات النباهة وبراعة التصرف والقدرة على التخلص من المواقف الحرجة ، ولم تعد تدل على الانحراف عن الجادة والخروج على القانون ، أو قطع الطريق أو التعرض للغير، أو العصيان السياسي . وإنما الفتوات تقابل الأشقياء اصطلاحاً ومعنى وانقطعوا لحماية من استجار بهم . وهناك من يرى في أبطالها تعبيرا عن موقف الشعب من التجار والحكام ،وموقف الشخصية القومية في مقابل الدخلاء الذين زاحموه في الحكم أو الرزق . وتقول سهير القلماوي لم يضع القاص أعمالهم في ميزان الأخلاق أو نظام الدولة ، وإنما وضعها في ميزان الألعاب البهلوانية التي تسلي وتلذ، وذهب آخرون إلى غايات جمالية غايتها التطهير النفسي ، ويرى غيرهم أنهم محتالون لكن شرفاء مثل علي الراعي ، وهذه القصص ترى منهم غير ما يرى الحكام المترفون، فهم أولئك الذين يتحكمون برقاب الناس ويسلبونهم قوتهم ، ويديرون ظهورهم للقانون والعدل[2] .

اللصوص هي الفئة المتمردة التي خرجت على القانون، واحتجبت بالجبال والقلاع والحصون ، وراحت تقطع الطرق وتضفي على البطولة والأبطال طابعاً دينياً، وارتباط الثغور بالبعد الديني الصوفي[3] . و البطولات تزعمها العيارون واللصوص وقطاع الطرق، فريق يخرج على الدولة لرفع الظلم أو القهر الاجتماعي عن كواهلهم وكواهل العامة من المعدمين والعاطلين . لأسباب اقتصادية واجتماعية وهذا الفريق يؤازره البطل ، والفريق الأخر خرج على طاعة الخليفة لأسباب مذهبية أو أدبية .

---

[1] انظر ، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 225 .

[2] المرجع نفسه ، ص262 .

[3] انظر ، عبد المولى ، **العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي** ، ص 35 .

والــبطـل الفردي مهما بلغ من عنف صاحبه وإزعاجه للسلطات ، فلن يغير من الواقع شيئا [1] ، ويقع في يد السلطات عاجلاً أم آجلاً، ومحكوم علية بالإعدام باعتباره خارجا على القانون ، وعندما يضع المتمردون أيديهم بأيدي البطل ، وكان متمردا ارتقى تمردهم إلى مستوى البطولة أو التمرد الجمعي .وتحقيق المجتمع المثالي الذي لا قهر فيه ولا ظلم . والتمرد رد فعل لواقع اجتماعي جائر، وفي شقها السياسي رد فعل لواقع سياسي ممزق، وعلى السيرة أن تعيد بناء الواقع الاجتماعي والسياسي .

السير والثورات :

المزواجة بين الواقع ببؤسه من فقر وجوع وتشرد ومطاردة ، والخيال وخصوبته وما فيه من مثال أو أنموذج يسعى إليه . وأبطال هذه المغامرات أبطال تاريخيون حقيقيون لهم وجودهم التاريخي . فأما أن تمثل الكره والحيلة والكيد والشطارة ، وُضرب بها المثل . واستطاع العيارون والشطار أن يحضروا أسماءهم في ذاكرة التاريخ . ويشتهر هذا في بيئة أو طبقة أو عصر . ويرى فيه المثال أو النموذج ويجعل من نفسه بطلاً يتحدى المجتمع الذي عاش فيه لمخالفته في الفكر والرأي والهوى[2] .

تبدأ السيرة بإشادة ذكية ذات مغزى سياسي تحكّم العَجم في أمر الخلافة الإسلامية. و يرى دارسو هذه المغامرات والسطو والنهب وما تعرضه من صور مجتمعية ترسم صورة فساد في النظام القائم، وضياعا لمعاني الأمن والاستقرار في حياة الشعب واختفاء العدالة والحزم ، واعتصام الشعب بالعيارين والشطار. وهم من الخارجين على القانون في نظر السلطة و سببه أنه لم يكن راضيا عن القانون ولا عمن وضعوه أو نفذوه . ويرى في كل هذا احتجاجا ً على الظلم والظالمين . وكل ما يدور تعريض حقيقي بالحالة الاجتماعية، ونقد للفساد الذي استشرى في أجهزة الحكم، وهجوم مباشر على أصحاب السلطة، وهي ثورة على النظام الفاسد [3] .

---

[1] انظر، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 302 .

[2] المرجع نفسه ، ص 320 .

[3] المرجع نفسه ، ص 347 .

ترسمها مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق ، ومن وصلوا إلى السلطان وصلوا عن طريق التفوق في السرقة والإمعان في البطش والغدر والمهارة في اللصوصية، وتعكس الصراع على السلطة والأوضاع المضطربة .

ومقطوعاتهم عمل أدبي ثوري يخفي حقيقة ثورته على النفس والمجتمع والقبيلة والأوضاع [1]. والقضية الإنسانية موقف الإنسان الفرد أمام مجتمعة الذي يحس أنه لا يملك شيئا ، لاختلال القيم واهتزاز المثل وتفسخ المجتمع . ولا تحل إلا بعوامل التصدي لعوامل الفساد . وعكست فردية بطولة الجماهير المقهورة ، ويرى المثالية في فرديته فيدمغ المجتمع بالفساد ، والنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بالخلل والانهيار، لأنه قائم على السلب والنهب وانعدام الأمانة والضمير، وسميت نزعة الشعب الديمقراطية .

لم يكن ثمة تناقض بين الأدب والتاريخ في تجسيد الأهداف والغايات الرافضة للواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. فالرواية الأدبية متعاطفة مع هؤلاء الفقراء، والتاريخية متعالية على المتمردين العصاة الخارجين على القانون [2]. فلم تر فيهم إلا حركات غوغائية يقودها السفلة من الحثالة ممن سموهم بالعيارين واللصوص والشطار والصعاليك ، مما جعل هذه الآداب وثيقة فنية لها دلالتها،ومصدراً من مصادر المعرفة التاريخية والاجتماعية وتهدف إلى التحرر السياسي والاجتماعي من ظلم إقطاعي مستبد .

والتاريخ الرسمي أو السلطوي أطلق عليهم العصاة والمجرمين وأرباب الشر والفساد ، الذين اضطروا إلى العيش على هامش المجتمع، والتمرد على قوانينه، والخروج على أصحاب الشرعية . وموقف آخر شعبي يرى في الشطار والعيارين أبطالا ثائرين، في حين لم ير في مغتصبي السلطة والسيادة والثروة إلا لصوصا آثمين [3] ، وبحث عن مقومات الحياة الفطرية فلما افتقدها آثر أن يستردها اغتصاباً من مغتصبيها، فعاشوا في صراع دائم مع مجتمعهم ، فاحترفوا اللصوصية سبيلاً غير مشروع لنيل حق مشروع ووسيلة مبررة للتمرد . وتقابل بالبطش والعنف وسفك الدماء وتجتر الفقر والازدراء ، وانطوت نفوسهم على إحساس مرير بالقهر والظلم ، ولا يمكن أن يكون العدد مئة إلف أو مائتين وخمسين ألفا من العيارين كلهم لصوص ، لولا وجود

---

[1] انظر، النجار ، **حكايات الشطار والعيّارين في التراث العربي** ، ص 349 .

[2] المرجع نفسه ، ص 389 .

[3] المرجع نفسه ، ص 390 .

دوافع لخروجهم على مجتمعاتهم لكن لم يعتمدوا على السطو كما كان الشعراء الصعاليك واللصوص يفعلون ،فاللصوص اعتمدوا أساليب ووسائل الحيلة والخداع والتسول والتكسب بالمدح، بينما اعتمد الصعاليك على قوتهم البدنية والسرعة في السطو والنهب ويصور عمر بن براق ويقول [1] :

ألمَ تَعلمِي أنّ الصّعاليكَ نومهُمُ　　　قليلٌ إذا نامَ الخَليُّ المُسالِمُ

وذكر تأبط شرا أن الليل هو الوقت المناسب للغزو والإغارة والسلب والنهب، ويمكن التخفي فيه والحصول على الغنائم، وتحقيق الهدف سـواء غنائم أو سَلبا أو تحقيق ثأر وقال[2] :

قليلُ غِرارِ النّومِ أكبرُ هَمّهِ　　　دَمُ الثأرِ أوَ يَلقى كَميّا مُقّنعا

والثأر هَمٌّ من الهموم التي تذهب النوم، لأن عدم المطالبة بالثأر أو قبول الدية يعتبر عارا، ولا يغسل الدّم إلا بالدّم، وكانت هذه عادة جاهلية يحرّم فيه الفتى على نفسه الخمر والطيب والنساء حتى يأخذ بثأره. قال الهجال ابن أخت السليك في المطالبة بثأرة [3].

يَنامُ بإحدى مُقْلتيه ويتّقي　　　بأخرى المَنايا فهو يقظانُ هاجِعُ

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 199/21 .

عمرو بن براق : نسب إلى أمه ، واسمه عمر بن منبه ، كان رفيقا للشنفرى وتأبّط شرا ، وعده ابن عبد ربه من فرسان الجاهلية المعدودين ، وتمثل الجاحظ ببعض شعره :

ومَن يطلبِ المَال المُمنّع بالقِنا　　　يعشْ ذا يسارٍ أو تخترمهُ المَخارمُ

(انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 198/21- 200 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 356) .

[2] تأبّط شرا ، **ديوان تأبّط شراً وأخباره** ، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر ، دار الغـرب الإسلامي ، ط 1 ، 1984 ، ص 113.

انظر ، المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1-2 /492.

[3] السليك بن السلكة ، **الديوان** ، قدم له وشرحه سعيد الضناوي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1994، ص50 .

كمي : والكَميّ الشجاع المقدام الجريء (**اللسان** ، مادة كمى) .

كما يقول السليك في المعنى ذاته[1] :

يَنامُ بإحدى مُقْلتَيه ويَتَّقِي	بأخرى المنايا مِنْ خَلال المَسالِكِ

فالثأر يستوجب الحذر واليقظة، فهو فارس اليوم قتيل الغد، فلا يتخلى عن ثأره وإن ضحّى بنفسه من أجل ذلك. ويقول عمرو بن براق أيضاً في الموضوع نفسه[2] :

وَكُنتُ إذا قومٌ غَزَوْني غَزوتُهم	فَهل أنا في ذا يا لهمدان ظالـــمُ
فَلا صُلحَ حَتى تعْثُرَ الخَيْل بالقَنا	وَتُضْربَ بالبيض الرُّقاق الجَماجِمُ

وتـأبط شرا يُصرٌ على الأخذ بثأر أخيه ، فإن لم يمت بطلب الثأر فسوف يموت كمداً وحقداً يقول[3] :

وَحَرَّمتُ السِّباءَ وإنْ أحِلّتْ	بِشَور أو بمِزْج أو لِصَابِ
أظنِي مَيِّتاً كَمَداً وَلمَّـــــا	أطالِـعْ طلعة أهْلَ الـكِرَابِ

والخليع يبحث عن الأمن والاستقرار بحسن الجوار مع قبيلة أخرى ، أو عصابة يلتجئ إليها ، فإذا تخلـــى عن الجوار أو الحلف يعلن ذلك على الملأ، وإذا أجاره أحد يعلن ذلك

---

[1] السليك بن السلكة ، **الديوان** ، ص 45 .

وانظر ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 235 .

[2] الأصفهاني ، **الأغاني** ، ص 177/21.

شارَ العسل اجتناها (**اللسان** ، مادة شور) .

لصيب : يلصب لصباً لزق به الهزال . (**اللسان** ، مادة لصب) .

المزج : خلط الشيء بغيره (**اللسان** ، مادة مزج) .

[3] تأبط شرا ، **الديوان** ، ص 68 - 70.

السليك : نســـب إلى أمه لأنه من أغربة العرب ، وأمه أمة سوداء ، واحد العدائين الأربعة ، وأحد الغربان السود ، وأحد الخمسة الذين وصفهم الجاحظ بأسد الرجال ، واشتهر بالسليك المقانب (جماعة الخيل) فصار في موضع الهيبة والتقدير والإعجاب (**ابن قتيبة** ، **الشعر والشعراء** ، ص 235 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 232) .

أمام الناس ، ويقال دخل في وجهه ، أو في جواره فلا يلحق به أذى ، فإذا اعتدي عليه وهو في جواره فإن قبيلة المجير هي التي تقتصُ من الذي اعتدى عليه [1] .

و يعلنون بين القبائل أننا حالفنا بني فلان فيصبح العدوان على حلفائهم عدواناً عليهم ، فما الذي دفع العرب إلى التمسك بالجماعة والانتماء إليها ؟ هناك أسبابٌ متعددة إلى التحالف والجوار لتلبية العطف والحنان وإشباع هذه العاطفة ، وهذا يؤدي إلى استــقراره وتميزه عن غيره من المخلوقات ، ويعتبر حبُ الإنسان للسيطرة والنفوذ والتفوق من مقومات الشخصية الإنسانية التي تعتز بعاطفة احترام الذات فقد أسرف في مدح ذاته والحديث عن بطولاته[2] .

ولا يستطيع الإنسان في البيئة القاسيةُ أن يعيش بمعزل عن الجماعة و مواجهتها منفرداً ، ولكي يتعزز شعوره بالقوة والأمن كان لا بد له من الانتماء إلى جماعةٍ قوية يوحِّد نفسه بها وولاؤه لها ، وهي حاجة نفسية واجتماعيّة لأنه يعتمد في حياته المادية والمعنوية على الأخرين ، وهو بحاجة إلى من يشدُ أزرهُ ، ولا سيما وهو يواجه الطبيعة الصحراوية سواء كان طريداً أو كان يعمل في رعاية المواشي التي يأنف العرب العمل ببعض الأعمال التي توكل إلى العبيد[3] ، فكانت العصبية القبلية بمثابة أفكار ومعتقدات وهي أساس دستور القبيلة. يقول تأبط شرا[4] :

وَلَستُ بِتِرعيٍّ طويلٍ عَشَاؤُه   يُؤَنِّفُهَا مُستأنَفَ النبتِ مُبهِلُ

فالذي يجيد الرعي هو الذي يختار المرعى المناسب ليصلح من شأن أنعامه ، ويبعدها عن مواطن الهلاك ، سواء اللصوص أو الحيوانات الضارية، وكذلك يُعرفُ بفضل تجربته أماكن تجمع المياه في الأودية جراء السيول أو منابع الماء. وكثيرا ما

---

(1) انظر، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 37 .

(2) المرجع نفسه ، ص 78 .

(3) انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 73 .

(4) تأبط شرا ، **الديوان** ، ص176.

رعى : ترعية مشددة الياء و ترعاية صناعته وصناعة آبائه الرعاية (**اللسان** ، مادة رعى) .

مُبْـهِل المُبْـهَـل المُهمَل وقيل الإبهال هو الإهمال .

يُؤنِـــفها : و المُؤْنَفَة من الإبل التي يُتبعُ بها أنف المرعى ، وأنف الشيء أوله و الاستئناف الإبتداء .

يفتخر الشاعر بشجاعته وحكمته وحسن تصرفه ، في تجنب مواطن الخطر يقول الشاعر تأبط شرا[1] :

وَوَادٍ كَجَوفِ العيرِ قَفْرٍ قطعْتُهُ   به الذِئبُ يَعوي كالخَلِيعِ المُعَيِّلِ

ومع أن الحياة الجاهلية كانت تعتمد على الإبل والأغنام ، وقليل من الزراعة بجانب الأودية والسدود كسد عارم كما كانت تعتمد على التبادل التجاري بين البادية ومراكز المدن . إلا أن حرفة الرعي كان ينظر لها بازدراء ، يقول الشاعر تأبط شرا[2]:

وَلستُ بِراعِي ثَـلةٍ قامَ وسَطَهَـا   طويلِ العَصا غُرنُيقٍ ضَحْلٍ مُرَسَّلِ

فهو ليس راعي إبل ولا غنم ، ويجعل من الرعاة عبيداً ويجعل من الإبل والغنم لكثرتها كسبخة الماء التي تأتي إليها الطيور لتشرب منها، والراعي في وسطها كطائر الغرنيق في وسط الماء وهو يحمل العصا لتساعده في الحركة كأقدام هذا الطائر ، وهذه الأنعام كانت مقصد الصعاليك واللصوص لفقرهم فهم يغيرون على هؤلاء الرعاة ويفتكون بهم ويسلبون هذه النعم ويقتسمونها فيما بينهم . كما كان يفعل عروة بن الورد ، و السليك بن السلكة ، وتأبط شرا، والشنفرى . وكثيرا لا يؤثر نفسه بشيء ، فالغنيمة ليست من أجل الغنى ، بل لدفع غائلة الجوع ، وسد رمق الناس ومواساتهم في سني القحط وأيام الشدة [3].

---

[1] تأبط شرا ، **الديوان** ، ص 182.

[2] المصدر نفسه ، ص 173.

[3] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 134 .

الغُرْنُوق والغُرْنَيْق ، بضم الغين وفتح النون: طائر أبيض ، وقيل: هو طائر أسود من طير الماء طويل العُنُق (**اللسان** ، مادة غرنق) .

ثلل : جماعة الغنم وأصوافها (**اللسان** ، مادة ثلل).

مُرسَل : كثير الرُسُل و قيل القطيع من الضأن يُرْسَل منها إلى المرعى وأراد أنها كثيرة اللبن (**اللسان** ، مادة رسل) .

ممن ذكرهم مرة بن خليف[1] :

يَا ثابتَ الخَيرِ ويا بن الأخنَس ويا بن بُراق الكريم الأشَوْس

والشَنفرى عِنْدَ حُيُود الأنفس أنا ابن حَامِي السَّرْبِ في المُغمسِّ

نحن مَسَاعيرُ الحُرُوبِ الضُرُّس

فقد ذكر ثابت بن جابر الملقب بتأبط شراً ، وعامر بن الأخنس ، وعمرو بن براق والشنفرى ، فهناك من قسم الصعاليك فئات ، كفئة الفقراء ومنهم أبو النشناش ، والخلعاء كقيس ابن الحدادية ، والفارين من العدالة ممن جنوا على غيرهم واعتدوا على من سواهم ، إما بقتلهم للناس أو بسرقة أموالهم ، كالقتال الكلابي ، و الأحيمر السعدي ، وممن لهم طموحات سياسية كعبد الله بن الحجاج الثعلبي ، وعبيد الله بن الحر الجعفي ، وفئة الصعاليك السود أو الأغربة ، هم أبناء الإماء مثل الشنفرى وتأبط شراً ، و السليك بن السلكة ، ومنهم من عانى من الظلم الاجتماعي والاقتصادي وامتاز بطابعه الإنساني وعلى رأسهم عروة بن الورد(2) :

أقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأحْسُو قَرَاحَ الماءِ والماءُ بَاردُ

وفي العصر العباسي اختلفت الأساليب وتنوعت إذا اعتمد اللصوص على الحيلة والخداع والظرف والتفكه كأبي الشمقمق وأبي فرعون الساسي[3] :

وصبيةٍ مِثْلُ صِغار الـذّر سُودُ الوجُوه كَسَوادِ القِدْر

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 182/21 .

[2] عروة بن الورد ، **الديوان** ، ص 108 .

وانظر ، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 236 .

[3] عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي** ، ص 86.

أبو الشمقمق في العصر العباسي : اسمه مروان بن محمد وكنيته أبو محمد ولقبه الشمقمق ومعناه الطويل وبه أشتهر ومن موالي مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ولد بالبصرة ولا يعرف تاريخ ميلاده ،ولا يعلم سبب فقره وتصعلكه ومما زاد في أبعاده عن الخلفاء قبح خلقته وحدة مزاجه وضيق صدره، وخبث لسانه.

(الأصفهاني ، **الأغاني** 38/3 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء العباسيين** ، 232) .

قيس بن منقذ : نسب إلى أمه ، و الحدادية أمه شاعر من شعراء الجاهلية ، وكان فاتكاً شجاعاً صعلوكاً خليعاً ، خلعته خزاعة بسوق عكاظ ، وأشهدت على نفسها بخلعتها إياه ، فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه .(الأصفهاني ، **الأغاني** ، 138/14) .

أبو فرعون الساسي : اسمه شويس وكنيته أبو فرعون من بني تميم شيخ قصير عظيم الهامة عاش في البصرة في العصر العباسي وكان بدوياً أعرابياً سائلاً لا يصر عن الكدية مدح الوزير الحسن بن سهل ذكر أن له ديوان في ثلاثين ورقه ولا يعرف تاريخ وفاته ، سمي بالساسي نسبه إلى قرية ساس أسفل واسط (**مجلة الجندول** ، السنة الثانية ، العدد 14 ، تشرين 2004) .

كِالهم خنافسٌ في جُحْــر   هذا جَميعُ قِصّتِي وَأمْـــــري

كنيْتُ نَفْسِي كُنْيةِ في شِعْر   أنا أبو الفقْر وأمُ الفقْـــــــر

وهناك من مارس الاستجداء والكدية والتسول فاختار أسلوب الهوان والضعف والذل، بينما اختار أصحاب النفوس الأبية التمرد والثورة والغزو والسلب والنهب . وعرفت بعض القبائل بالصعلكة والسطو ، مثل هذيل فكان عدد كبير من أبنائها ممن اتخذها حرفة له كأبي كبير الهذلي ، والأعلم الهُذلي ، وأبو صخر الغي الهذلي ، وكذلك كانت الصعلكة في قبيلة بني فهم[1] . ومن مظاهر البطولة النفسية رفض الذل وإباء الظلم ، والإباء هو الشعور بالقيمة الذاتية مما يدعوه إلى رفض الذل ، وما يمسُّ حياته من ضيم ويترفع حتى عن استجداء الأقارب ، لأنه يرى ذلك أشد وقعاً في نفسه أن يمد يده ويخضع لغيره ، فكانوا لا يغيرون على فقير أو تاجر عرف بنزاهته[2] بل يغيرون على غني بخيل ، لا يؤدي الحقوق التي أوجبها عليه انتماؤه ،ولا على تاجر إلا إذا كان محتكراً مغالياً في أسعاره جشعاً في تعامله ، قال الشنفرى[3] :

وَمَنَ يكُ مِثْلي يَلْقهُ الموتُ خالياً   من المال والأهْلِينَ في رأس فدْفدِ

أنا ابنُ الألى شَدّوا وَرَاءَ أكفّهم   ولستُ بفقع القاع من بين قَــرْدَدِ

وعندما سَبى عروة بن الورد من بـني كنانة سلمى ، ومن مزينة ليلى تـزوجهن وأقمن معه ، ومضى على زواجه منهن دهراً وأكرمهن وأحسن إليهن ، وعندما قفل حاجاً وأثناء عودته طلبت حليلته أن تزور أهلــها فوافق إلا أنها خدعته بالاتفاق مع بني النضير وأهلها بقبول المفاداة وهي تعلم أنه لن يتنازل عنها ، وقيل أكثر من ذلك فقد تآمر عليه أخوه وابن عمه فأسقوه النسيء أو خمراً ليقبل بالفداء وسوف يغنى بذلك ولا يخاف الفقر[4] .

---

(1) انظر ، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 18 .

(2) انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي** ، ص 12 .

أبو النشناش : من لصوص بني تميم ، وكان يعترض القوافل في شذاذ من العرب بين طريق الحجاز والشام ، فظفر به بعض عمّال مروان فحبسه وقيده ، ثم هرب فلقي في طريقه غراباً ينتف ريشه ، فلجأ إلى رجل من بني لهب ، فقال لـه : " إن صدقت الطير يعاد إلى حبسه وقيده ويقتل ويصلب " (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 317/1) .

(3) الشنفرى ، **الديوان** ، ص 88 .

فدفد : الفدْفد الفلاة ، وقيل هي الأرض الغليظة ذات الحصى (**اللسان** ، مادة فدفد) .

(4) انظر ، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 76 .

وعندها فضلت الإقامة بين أهلها وانفصلت عنه . لام نفسه على قبول الفداء ، ولم تكن سوء معاملته وراء ذلك بل نظرة نساء قبيلته :" والله لا أعلم امرأة ألقت سترها على خير منك"[1] . إلا أن من اتهم بإساءة معاملة البنات أو وأدهن خوفا عليهن من العار فكان بعض بطون تميم وكندة وربيعة بدوافع اقتصادية ، وأخرى عصبية[2] حيث اختارت إحداهن البقاء مع من سباها على أهلها فاشتد غيض والدها وأقسم أن لا تلد له فتاة إلا وأدها .

ولم تكن مثل هذه الحوادث إلا حالات فردية لا يقاس عليها ، ولها أسبابها وظروفها . وفي إحدى غارات السليك وقد كمن له قوم وضيّقوا الخناق عليه ، فما كان إلا أن التجأ إلى بيت امرأة تدعى فكيهة ، واستجار بها وأجارته ومنعته من القوم ونزعت خمارها فاستغاثت بإخوتها . فكان للمرأة الشريفة ذات الحسب والنسب مكانتها في الجاهلية والإسلام وإن انزلقت أحياناً في مزالق السوء إلا أن الشاعر بالرغم من تمرده وخروجه على التقاليد و الأعراف يرضى بالممنعة ، حيث قال الشنفرى[3] :

أمَيمة لا يُخْزى نَثّاها حَليلَهـــــا ... إذا ذُكِرَ النّسوانُ عَفّتْ وَجَلّتِ
تَحُلُّ بمنْجاةٍ من اللوم بَيْتَهـَـــــا ... إذا ما بيُوتٌ بالمَلامَة حُلـّتِ
فقدَ أعجَبتني لا سقوطاً قناعُهَــــا ... إذا ما مَشتْ ولا بِذاتِ تَلفّتِ
كأنّ لها في الأرض نِسْيًا تقُصُّــــه ... على أمّها وإن تُكّلمكَ تَبْلتِ

فالشاعر الجاهلي قد أعجب أيما إعجاب بالمرأة ذات الحياء والعفة ، التي تترفع عن الدنايا ، والتي لا تتعرض للنقد والتجريح من مجتمعها فليست كثيرة التلفت أو التي تخضع لرقة القول ، وإنما يعجبه الفتاة الممنعة ، علماً بأن المرأة كانت تسـيء إليه بالقول والفعل فتشمت به

---

(1) الأصفاني ، **الأغاني** ، 73/3 .

(2) انظر، المبرّد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، 310/1 .

(3) الشنفرى ، **الديوان** ، ص 78 .

نثا الحديث والخبر نثوا حدث به وأشاعه وأظهره (**اللسان** ، مادة نثا) .

تبل : تبلاً أصابته بتبل والتبل السقم أو انقطاع الكلام (**اللسان** ، مادة تبل) .

وتعيّره بسواد لونه وتهزأ به ، عندما يحاول الاقتران بها أو طلب يدها وبعضهن كن يخشين سوء نظرة المجتمع ، أو سوء المعاملة لاقترانها بأبناء الإمـــاء ، كما حدث مع الفتاة التي لطمت الشنفرى[1] ، وكما حدث مع عروة عندما انفصلت عنه زوجه سلمى .

وما انفصال تأبط شراً عن مجتمعه إلا لعجزه عن التكيف معه وسعياً للحصول على الحرية والحياة و الانطلاق من قسوة الظروف والقيود [2] ، قال تأبط شرا[3] :

يَبيتُ بِمَغنَى الوحشِ حَتّىَ ألِفْنهُ ... ويُصْبِحُ لا يَحمِي لها الدَّهْرَ مَرتَعَا

ويقول تأبط شراًأن أنسه حين يرافق وحش الصحراء ويـــهتدي بنجوم المجّرة التي يضل فيها غيره ، [4] :

يَرَى الوحشةَ الإنسَ الأنيسَ وَيهتدِي ... بِحيثُ اهتدتْ أمّ النّجوم الشَّوابكِ

فإذا كان الشاعر المتصعلك يُقاسي الانقسام والإزدواجيّة حين يقف بين مجتمعين فكذلك هو الدهر ، وقال تأبط شرا [5] :

تُرَجِّي نِساءُ الأزْدِ طَلْعَةَ ثَابتٍ ... أسِيراً وَلَمْ يَدْرِينَ كيفَ حَوِيلِي

---

(1) انظر ، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 72 .

(2) انظر ، خليفة ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، ص23 .

(3) تأبط شرا ، **الديوان** ، ص 115.

انظر ، المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1-2 /494 .

(4) فرحات، **ديوان الصعاليك** ، ص153

(5) المصدر نفسه ، ص162. الحويل: القوة والقدرة على التصرف (**اللسان** ، مادة حول)

وماذا يرجو من الحياة ؟ فإذا كان في صراع دائم مع الفقر والجوع والمجتمع ، وجهازه لا يتجاوز نعلاً جافاً كأشلاء الطير تركه على قارعة الطريق ، أو يستعين بنعلين لا يـمكن إصلاحهما ، وقال الشنفرى[1] :

ـ ونعلٍ كَأشلاءِ السُّماني تَركْتُها   عَلى جَنْبِ مَورٍ كالنُّحيزَةِ أغْبَـرا

ـ وليسَ جِهازي غيرَ نَعلَيْنِ أسْحِقَتْ   صُدورُهُما مَخصورةٌ لاتُخَصَّفُ

وعندما ضاق بالحياة ذرعا لجأ إلى أمه الأرض يطلب الأنس من الوحشة ، والاقتران بدل الوحدة ، والسكينة بــدل القلق، والحرية بدل القيود ، والاتساع بدل الضيق . ويلخص الشنفرى ذلك بقوله[2] :

طريدُ جِناياتٍ تَيَاسَرنَ لَحْمَهُ   عَقيـــرتُه لأيـِّها حُـــــمَّ أوَّلُ

وإلفُ هُمومٍ ما تَزالُ تَعـودُهُ   عِياداً كحُمّى الرِّبْعِ أو هِيَ أثقَلُ

---

[1] الشنفرى ، **شعر الشنفرى الأسدي** ، ص 94 ، ص101ونسب إلى تأبط شرا في ديوانه ، ص 61 .

النحيزة : الطريق المستدقة الصلبة (**اللسان** ، مادة نحز) .

السُّمَانى طائر (**اللسان** ، مادة سمن) .

نعل مُخَصَّرَةٌ : لها خَصْران . وفي الحديث : أن نعله، عليه السلام، كانت مُخَصَّرَةً أي قطع خَصْراها حتى صارا مُسْتَدِقَيْن (اللسان ، مادة خصر) .

يعْقِرون الإبل على قبور المَوْتى أي يَنْحَرُونها ويقولون: إن صاحبَ القبر كان يَعْقِر للأضياف أيام حياته فنُكافِئُه بمثل صَنِيعه بعد وفاته.(**اللسان** ، عقر) .

[2] المصدر نفسه ، ص 117 .

فهو لا يستسلم لهذه المصائب والهموم والقلق الذي يحيط به، وإذا وردت فإنه لا يخضع لها وإنما يتصدى لها ليصدرها عنه ويقول[1] :

إذا وَرَدَتْ أصدرُتها ، ثُمّ إنها ثثُوبُ ،فتأتِي مِنْ تُحَيتٍ ومِن عَـلُ

ويقول القتال الكلابي[2] :

إذا همّ هَماً لم يَرَ الليلَ غُمّةً عَليَه وَلَم تَصعَبْ عَليه المَراكِـبُ

فالبطولات الفردية إثبات للذات ، وتعويض عن النقص الذي يشعر به نتيجة تدني منزلته الاجتماعية ، ومحاولات الإبداع والتميُّز ، والشجاعة والبطولة ما هي إلا للتعويض عن اليأس والعجز والإحباط ، وما الجماعة المذهبية إلا نقل ملكية من مجتمع القبيلة إلى المجتمع المذهبي الجديد[3] ، بعد أن اتسقت بينهم الظروف والأهداف والغايات . ويعتمد الشاعر أسلوب التجريد ، إذ لا وجود للنساء اللواتي تخيلهن فالمرأة تظهر خوفها من الإسراف في الإنفاق ليؤكد الشاعر كرمه ، ومحاورته للمرأة التي تظهر خوفها من المخاطر ليؤكد بطولته [4] ، والمرأة اللائمة هي الرافضة لسلوكه ، ويكتفي بتقديم حججه بعد أن يمهد لذلك ، فالوارث يسيء التصرف بالأموال ، كما أن الإنفاق يخلد الفتى في الثناء الحسن ، والإبقاء على المال لن يخلد الإنسان ، وفيه مكافأة للإخوان والقيام بالواجب يقول عروة [5] :

أليسَ عَظيماً أن تُلمَّ مُلمَةٌ وَليسَ عَلينَا في الحُقُوق مُعَوّلُ

ويقول في بيت آخر:

َما بالثراءِ يَسُودُ كُلُّ مُسَوّدٍ مُثْرٍ وَلكنْ بالفِعالِ يسَـــــــــودُ

---

[1] الشنفرى ، شعر الشنفرى الأسدي ، ص 117 .

[2] القتال الكلابي ، الديوان ، ص 29 .

[3] انظر ، الجنيدي ، علي ، في تاريخ الأدب الجاهلي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص448 .

[4] انظر ، القيسي ، نوري حمودي ، البياتي ، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، ص 157 .

[5] عروة ، الديوان ، ص128 ، ص 84 .

ولا يطلب الغنى لذات الغنى ، وإنما للقيام بالواجب لسد حاجة معوز في دفع ديّةٍ ، وتفريج كُربة . ويقول عامر بن الطفيل [1] :

إنّي وإنْ كُنتُ ابنَ سيدِ عامـر   وفارسُها المندوبُ في كُلِّ مَوكِبِ

فما سوّدتني عامرٌ عن وراثةٍ   أبى اللهُ أن أسمـو بأمٍّ ولا أبِ

ولكنّني أحمي حِماها وأتّقـي   أذاها وَأرمِي مَن رَماها بِمَنكَـب

فليست الوراثة هي التي سوّدته ولا عرف القبيلة ، وإنما شخصيته المتميزة وشمائله الحميدة . كما أن المال له فضلٌ في كسب الحمد والثناء ورفعة شأن صاحب المال ومكانته في قومه ، وبالمقابل فـإن قلة المال تغضُ من شأنه وربما أفسدته ، فلا يُسأل عنه إذا غاب وإذا حـضر ، فهو غريبٌ حتى في داخل مجتمعه ، وغائبٌ وإن كان حاضِرا[2] . ومن العوامل التي رسخت قيمة الكرم في نفوسهم ، وجعلتهم يسرفون في الإنفاق موقفهم من المال المرتبط بعقيدتهم الأزلية ونظرتهم العميقة إلى الفناء والموت ، فقد أسرفوا في كرمهم وأجـزلوا في عطائهم ، فليس للإنسان من ماله إلا ما أنفقه منه وتمتع به قبل مماته ، ويرى أن السعادة ليست باكتساب المال بل السعادة في النجاة من العذاب في الآخرة[3] . فالشاعر جحدر بن معاوية الذي سجنه الحجاج يتوب عن أعمال اللصوصية وقطع الطريق ، فيقول[4] :

يا نَفسُ لا تَجزَعِي إنّي إلى أمَدٍ   وَكُلُّ نفسٍ إلى يوم ومِقْـدارِ

وما السَّعادةُ في الدُّنيا لِذي أملٍ   إنّ السّعيدَ الذي يَنْجُو من النّارِ

لِله أنتَ فإنْ يَعصمْكَ فاعتصِمي   وإنْ كَذَبتَ فَحَسبِي الله من جارِ

---

(1) عامر بن الطفيل ، **الديوان** ، دار صادر بيروت ، 1979 ، ص 28 .

(2) انظر، التوحيدي ، أبو حيان ، **الإشارات الإلهية** ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة بيروت ، 1973 ، رسالة رقم 12 ، 87/1 .

عامر بن الطفيل : هو ابن عم لبيد الشاعر ،وكان فارس قيس ، وكان أعور عقيما لا يولد له ولم يعقب ، وأبوه فارس ، جاء إلى الرسول عليه السلام وطلب إن يجعل نصف ثمار المدينة له،ويوليه الأمر بعده فقال عليه السلام اللهم اكفني عامراً واهد بني عامر فطعن في الطريق فمات . (ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، 212 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 279) .

(3) انظر، خليف ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، ص 200 .

(4) الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 193 .

جحدر بن معاوية العكلي : ينسب نفسه إلى بني كعب ، والجحدر هو القصير ، أودعه الحجاج السجن ، وجادت شاعريته في السجن ، بتصوير همومه وحنينه إلى الوطن والأهل والحرية . (البصري ، الحسن ، صدر الدين علي بن أبي الفرج ، ت 656 ، **الحماسة البصرية** ، تحقيق وشـرح ودراسة عادل سليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط1 ، 1999 ، 337/2) .

فتجارب الحياة تُعلِّم الإنسان أن الفضـل لمن اكتسب الغنى و أنفقه في وجوه الخير ؛ ليكسبه الشهرة والذكر الحسن، وإن كان عديم المال فلا يسمع له ولن يبلغ درجات المجد . قال مالك بن خريم[1] :

أنبيتَ والأيامُ ذاتُ تجـــــاربٍ	وتُبدي لكَ الأيامُ ما لستَ تَعْلَـمُ
بأنَ ثَراءَ المال يَنفعُ ربَّـــــهُ	ويُثني عليه الحمدُ وهو مُذمـمّ
وإنّ قليلَ المالِ للمرءِ مُفْســـدٌ	يَحزُّ كما حَزَّ القطيعُ المُحــرّمُ
يَرى درجاتِ المجدِ لا يستطيعُها	ويقعُد وَسط القوم لا يتكلـــمُ

ويحذر الإنسان البخل وتحاول المرأة كفه عن الكرم والإسراف بالمال ، ولم يسمع لعاذلةٍ تلومه لأن الإبقاء على المال هو البخل ، والبخل مُزرٍ بأخلاق الرجال الكريمة ، وواضـع من عوالي رتبتها .

[1] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 3-4 /1171 .

مالك بن خريم : وقيل خزيم وفيه تصحيف وهو شاعر جاهلي إسلامي من لصوص همدان وقيل يعتمد على الغارات أكثر من التلصص ويلتزم الخلق الحميد ويُعدُّ من الفحول وله منافرات مع ابن يكرب (المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1171/403) .

فإذا لم يبذل المال فإنه يُقدِّم القِرى وقد تعوّد على ذلك ، وعليه حقوق تلزمه فلا يتخلى عنها ، فالضيفُ إما يحمدُ أو يلومُ، والضيفان تأتي إلى ضوء النار سواء إنسان أو ذئب وبالمقابل فإن البخيل يعمَدُ إلى إطفاء ضوء ناره أو سترها قال عمرو بن الأهتم[1] :

ذَرِيني فإنَ الشّحَ يا أمَّ هيثــم	لصالحِ أخلاقِ الرِّجالِ سَرُوقُ
ذَرِيني فإني ذو فَعَالٍ تُهمّــنِي	نوائبُ يَغشَى رزؤُها وحُقُوقُ
وكلُّ كريم يَتّقي الذّم بالــقِرى	وللحمدِ بينَ الصالحينَ طريقُ
لعمرُك ما ضَاقتْ بلادٌ بأهلِها	ولكنّ أخلاقَ الرجالِ تضيــقُ

فالشاعر يسعى إلى امتلاك المال ، ويهرب من البخل ، وكان من وسائلهم لاجتلاب الضيفان إيقاد النار ونباح الكلاب كي يسترشد الضال إلى بيوتهم ، وقد أستدلَّ على كرمهم من إلف كلابهم لوافديهم ، ذلك أن الكريم اعتاد على مشاهدة الغرباء . يقول أبو الطمحان في مدح بني فزارة[2] :

وقدْ عَرفتْ كلابُهُم ثيابي	كأنّي منكمْ ونسيتُ أهلي

و أكثر ما يكون الجود في وقت الشتاء والبرد الشديد ، ولا يصدر إلا عن نفسٍ بريئةٍ من الشح والطمع ، ومن مظاهر كرمهم إرضاء الضيف وإيثاره بكل ما لديه وغاية ذلك الذكر الحسن ويحرص على أن يغادره راضياً مادحاً، قال تأبط شراً[3] :

ونار قد حضأتُ بُعيد هــدءٍ	بدارٍ ما أريدُ بها مُقامــــــــــا
أتوا ناري، فقلتُ: مَنونَ أنتم؟	فقالوا: الجنُّ ، قلتُ :عُموا ظلاماً
فقلتُ: إلى الطعام فقالَ منهُــم	زعيمٌ:نحسدُ الأنسَ الطعامــا

---

[1] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 3 - 4 /1652 .

وانظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 452 .

[2] الأصفهاني ، الأغاني ، 13/ 7 .

[3] تابط شرا ، الديوان ، ص 256 .

عمرو بن الأهتم : هو عمرو بن سنان بن سمي التميمي ، والأهتم لقب أبيه سنان ، وفد مع وفد تميم إلى الرســـول - عليه السلام - وكان سيدا خطيبا شاعرا ، وسبب لقبه أن قيس بن عاصم ضربه بقوس ، فهتم أسنانه ، وكانت أم سنان سبية من الحيرة ، وابنه نعيم من أجمل الفتيان ، وأم حبيبه أخته تزوجها الحسن بن علي - رضي الله عنهما - فطلقها لقبحها . (ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 425) .

فالفقر والجوع كانا من سمات حياة الصعاليك واللصوص ، وكانوا يشكون الجوع في الشتاء لقلة الخصب وشدة البرد ، لكن السليك يشكو الجوع والفقر في أيام الصيف ، حتى يكاد لا يرى الناس ولا يبصر ويشارف على الهلاك والموت نتيجة ما لحق به من أذى فقال تأبط شرا [1]:

وما نِلتُها حتى تَصعلكتُ حِقبَـــــة وَكُدتُ لأسْبَابِ المَنيةِ أعـرفُ

حتى رأيتُ الجوعَ بالصيفِ ضَّرنِي إذا قمتُ تَغشانِي ظلامٌ فأسدِفُ

وكان الكثير منهم عزيز النفس لا يستجدي طعامه من أيدي الناس، بل يحصل على زاده بحد الحسام فلا يقبل منة من أحد ولو كان صديقا يقول بكر بن النطاح[2] :

وَمنَ يَفْتَقِر مِنّا يَعش بحُسامِهِ وَمنَ يَفتَقِرْ من سائر الناس يسَألِ

فهو يرى أن الموت أهون عليه من أن يمد يده، أو يجلس ينتظر من يجود عليه، يقول عروة[3] :

خَاطِرْ بنفسِكَ كَي تُصيبَ غَنيمة إنّ القُعودَ مَع العيالِ قبيحُ

وقال أيضا في قصيدةٍ أخرى[4] :

إذا المَرءُ لم يَطلبْ مَعَاشاً لنِفســـــهِ شَكَا الفقرَ أو لامَ الصّديقَ فأكثـَرا

فَسِرْ في بِلادِ اللهِ والتمسْ الغِنـــــى تَعشْ ذا يَسارٍ أو تموتُ فتعْـــذَرا

---

(1) السليك ، الديوان ، ص 84 .

بكر بن النطاح : شاعر حنفي من بني حنيفة بن لجيم ، أو عجلي من عجل بن لجيم وهما أخوان ، وكان صعلوكا يصيب الطريق ، ثم أقصر عن ذلك فجعله أبو دُلف من الجند ، وجعل له رزقا سلطانيا وكان شجاعا بطلا فارسا شاعرا حسن الشعر والتصرف فيه ، كثير الوصف بنفسه بالشجاعة والإقدام غضب عليه الرشيد فاختفى حتى مات الرشيد (المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1285/4) .

(2) المرزوقي ، شرح الحماسة ، 3- 1285/4.

(3) عروة ، الديوان ، ص88 .

(4) المصدر نفسه ، ص 87 .

فهناك من لا يخشى الموت بسبب جوع أو فقر أصابه ، بل يحاول أن يجنب أولاده خطر الجوع ، فيسعى لرزقهم وقد يهلكُ نفسه من أجلهم ، ويحاول أن يؤمن لهم ما يسدُّ عوزهم سواء بالحيلة حيناً ، وبالقسوة حيناً آخر، أو بالشكوى والتظلم ، حتى قال بعضهم:" إننا نسمع بالشبع من أفواه الناس" [1] .قال عروة [2]:

إذا قُلتُ قد جَاءَ الغِنى ، حَال دُونَه   أبوُ صِبيَةٍ يَشكُو المفاقِرَ أعْجَفُ

وهناك من كان من الصعاليك بمثابة الأم لرفاقه ، إذ كان يقوم على رعايتهم وتقديم الغذاء لهم ويقتصدُ في ذلك لخوفه عليهم من الجوع ، فكان تأبّط شرا يوزع عليهم الطعام ويقوم على مؤونتهم ، وكان كذلك عروة بن الورد يُقدم بَذْله لأصحاب الكنيف الذين كثيرا ما يتنكرون له .فهذا الاغتراب سلبيٌ لأنه عجز عن مواجهة الحياة ، أو التأثير في مجرياتها ، كما هو ضعف القدرة على التكيف ، وكثيرا ما يلجأ إلى العُزلة و الرضى والقناعة بالقليل من متع الدنيا ؛ لأن الحياة فانية . وتدعو هذه النظرة الفلسفية إلى الاغتراب عن الدنيا ، على أن دار الخلود هي دار الآخرة ووحدة مع المحبوب بعد الانفصال عنه بسبب الخطيئة والإثم . وهذه الحياة اغتراب عن الأصل وتحقق الحياة والوحدة بالعودة إلى أصل الوجود قال صلى الله علية سلم: " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " [3] .

فالاغتراب قسمان قسم ترك الدنيا وزينتها طلباً للأخرة ، وقسمٌ اكتفى بالدنيا عن الأخرة لأنه آمن بما آمن به الجاهليون بأن لا آخرة بعد هذه الحياة ، وكذلك الصعاليك واللصوص منهم من ارتضى بالعيش الكفاف ، وصبروا على ذل الجوع والفقر والحرمان ورضوا بحياة الدون ، كأصحاب الكنيف الذين قام عروة على رعايتهم وتأمين ما يأويهم ، ويسد رمقهم ، حتى إذا استطاعوا الاعتماد على أنفسهم ألحقهم بأهلهم وذويهم ، فهم لا يريدون من الحياة إلا العيش وإن

---

[1] عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي** ، ص 12 ، وانظر الجاحظ ، **الحيوان** ، 1 /36 .

[2] عروة ، **الديوان** ، ص50 .

[3] ابن ماجه ، **شرح سنن ابن ماجه** ، 1613 ، 116/1 .

ارتبط بالذل، والذين اختاروا هذه الحياة ورضوا بالخمول وأقاموا بأكناف البيوت وخلف أدبارها ، استجدوا أقواتهم من أصحاب البيوت ومن فضلات طعامهم حتى أصبحوا يأكلون بقايا الطعام والعظام ، قال عروة[1]:

لحى اللهُ صُعلوكاً إذا جَنّ ليلُه ... مُصافي المشَاش آلفاً كُلّ مَجْزَرِ
يَعدُّ الغِنى من دَهره كلَّ ليلةٍ ... أصابَ قِراها مِن صَديقٍ مُيسّرِ
ينامُ عِشاءً ثُمّ يُصبحُ طاوياً ... يَحتُّ الحَصَى عن جَنْبه المتعفّرِ
قليلُ التماسِ الزادِ إلا لنفسِهِ ... إذا هُو أمسَى كالعريشِ المجَمّدِ
يُعينُ نساءَ الحيّ ما يستعنَّهُ ... فيمُسى طليحاً كالبعيرِ المُحسّرِ

فهناك من انفصل عن مجتمعه لتمرده على الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة ، وهناك من قبل أن يعيش متكيّفاً مع مجتمعه بالرغم من فقره ، وهذا الاختلاف بين من خرج على المجتمع أو رضيَ به يعود لأسباب نفسية ، والصفة العامة لهما هي الفقر والتشرد ، فهناك من اعتمد على ذاته وانتهج النهب والغارة فكان طابعه عدوانيا سيء الأثر في نفوس العرب ، وإن كانت أهداف بعض الصعاليك على جانبٍ من النبل ، وليست هذه الفئة قاصرةً على عصرٍ أو على أمة دون غيرها .

والقسم الآخر هو الذي رفض الذل والخنوع ، وتمرّد وتشرّد حفاظاً على كرامته وعزة نفسه ، وفضّ الحلف بينه وبين قبيلته فسميّ خليعاً ، أما فضُّ الحلف بين القبائل فيسمى نقضاً ، فإذا تمرّد الأفراد على قبائلهم وكثرت جناياتهم أصبحوا عبئاً ثقيلاً على قبائلهم ، لأن الجنايات يترتب عليها العدوان والانتقام ، بالسيف والقتل والثأر ، ورفض المطالبة بالديّة لأنه ضعف وعار ، وتشنُّ حروب بين القبائل بسبب ذلك[2] فكما يعلن الحلف يعلن الخلع ويترتب عليه إسقاط كافة حقوقه ، فلا يُثأر له ولا تدفع له دية .

والخلعُ لم يكن هيناً ميسوراً وما كان يحدُث إلا في حالات نادرة ، فالفردُ عزيز على قبيلته وهو حريصٌ عليها حرصه على حياته ، وكان وراء الخلع أسبابٌ اقتصاديّة غير كثرة

[1] عروة ، الديوان ، ص 47 .
المرزوقي ، شرح الحماسة ص 421 .
[2] انظر ، الأصفهاني ، الأغاني ، 26/1 ، 99 ، 185/2 .
طلحُ و الطلاحة الإعياء والسقوط من السفر ، (اللسان ، مادة طلح) .

الجنايات[1] ، لما يترتب عليها من إساءة للقبائل المجاورة ، حين تسعى القبيلة لحسن الجوار ، وعقد الأحلاف لأن ذلك مصدر للقوة والشرف ، و تجير كذلك بعض القبائل هؤلاء المبعدين ، وتتحمل وزر جناياتهم ودفع الديّة عنهم ، وحمايتهم من الاعتداء ، وتكفُّ يده عن سوء تصرفاته ، ويُعتبر شرفاً لها ومكانة . ومن المتمردين على القبائل والمجتمعات الموالي ، وهم أقلُّ مكانة من أبناء القبيلة الذين يعيشون في كنفها ، فهُم موالٍ بالجوار والحلف ، ولا تبلغ حقوقهم حقوق الأصيل ومنهم العبيد المعتقون ، فهؤلاء في حماية القبيلة وتكون علاقتهم علاقة ولاء ، ومنهم أسرى الحروب وممن يجلب من الأمم الأخرى كالأحابيش [2] .

و تعود الخلافات الداخلية إلى تعدد الطبقات من أشرافٍ وموالٍ وعبيد وخلعاء وشذاذ و أغربة ، والنزاع السياسي والحربي هو العامل المشترك بين جميع الأسباب ، إلا أن هناك استعداد النفوس للثورة والجريمة ، للحصول على المال بالعنف والاستمتاع بحياة اللهو ، وكانت غاراتهم وسرقاتهم ضرباً من الثورة على الفقر والظلم والاستئثار بالمال ، ويمكن اعتبار المشاركة في الفتن صورة من صور الرفض لعدم مساواتهم في أرزاقهم وحقوقهم ، وهذا منشأ إحساسهم أن لا سبيل إلى الحرية والأمن إلا بالاستقامة والعدل والمساواة ، قال أبو النشناش وكان يعترض القوافل في شذاذ من العرب[3] :

وسائلةٍ أينَ ارتحالي وسائـــــلٌ	ومَنْ يسَألُ الصعلوكَ أيْنَ مَذاهِبُــه؟
مذاهِبُه إنَّ الفِجاجَ عَريضــــةٌ	إذا ضَنَّ عنه بالنوال أقاربُــــه
إذا المرءُ لم يَسرحْ سَواماً ولم يُرِحْ	سواماً ،ولم يَبسطْ له الوجه صاحبُه
فللموتُ خيرٌ للفتى من قعُـــودِه	عَديماً وَمن مَولى تُعافُ مَشاربُــه

ونشأت فئات العيارين والشطار والفرق الجديدة التي تختلف في أساليبها ووسائلها عما كانت عليه في العصر الجاهلي ، فاعتمدت أسلوب الحيلة والخداع والاستجداء والكدية ، بدل الإغارة والسطو . وحين خاب مسعاهم كان هناك من اتخذ أساليب الهجاء الفاحش والمقذع ، وهناك من لجأ إلى هذه الأساليب للحصول على المال والمغانم .

---

[1] انظر ، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص72 .

ابن منظور ، **اللسان**، مادة خلع.

[2] انظر ، خليف ، **في الشعر العباسي نحو منهج جديد** ، ص11 - 15.

انظر ، خفاجي ، **الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام** ، ص 308-310.

[3] انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 42/11 .

وكثيراً ما كان في الشعر شكوى من الفقر والحاجة وكثرة الصبية ، فكان النقد الاجتماعي من وسائل عرض قضايا المجتمع إضافة إلى الإشارة إلى الفساد والخلل في الأنظمة والقوانين ، وكان وسيلة لفضح من يتظاهرون بالدين تستراً ، وهم يقترفون الكبائر والجرائم . من هذه الطوائف سالفة الذكر تألفت عصابات الصعاليك واللصوص ، وقد جمع بينها على اختلاف قبائلها وعصورها ، الهدف والوسيلة والمصير، كالفقر والتشرد والتمرد والكفر بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، التي يؤمن بها المجتمع الذي فرضت عليه ، والإيمان بأن الحق للقوة وأن الضعيف ضائع حقه في هذا المجتمع . قال المرار الفقعسي[1] :

لا تسألي القومَ عن مالِي وكثرتِـه	قد يقترُ المرءُ يوماً وهو محمودُ
أمضي على سُنّةٍ من والدي سَلفتْ	وفي أرومَتِه ما ينبتُ العـــــودُ
مُطالِبٌ بتراتٍ غيـرَ مُـدركـةٍ	مُحَسدٌ والفتى ذو الفضلِ محمودٌ

وقد فقد الصعاليك و اللصوص التوافق الاجتماعي الذي تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع [2] ، فانطلقت هذه الجماعات من الصعاليك واللصوص إلى الصحراء كالذئاب الجائعة لتشق لنفسها طريقاً في الحياة ، فكان منهم من يوغل في السرقة واستئصال أموال الناس ، حتى لا يكاد يبقي لمن يباغتهم شيئا ، وبعضهم من تمرّس بأساليب اللصوصية ، فكانوا يعتدون على الأعراض مع عدوانهم على النفوس والأموال ، وقد عظم خطرهم ومهروا في صناعتهم ، حتى صار لهم فنٌ متقن ، وكانوا يحلمون استعداداً للعيش الحر المطلق من أي تبعيةٍ أو مسؤولية .

---

[1] القيسي ، حمودي ، **شعراء أمويون** ، جامعة بغداد ، 1976 ، ص 444 .

[2] انظر، فهمي ، حسن ، **الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث** ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ، 1970، ص 9.

الفصل الثاني

أنواع الاغتراب عند الصعاليك واللصوص

تمهيد

أولاً : الاغتراب الاجتماعي وأسبابه .

أ - عقدة اللون .

ب - الخلعاء من الصعاليك واللصوص .

ج - دور المرأة في اغتراب الصعاليك واللصوص .

د - حياة الصعاليك واللصوص بين الموت والثأر .

ثانياً : الاغتراب الاقتصادي .

ثالثاً : الاغتراب السياسي و أسبابه .

رابعاً : الاغتراب الديني و الثقافي .

خامساً : الاغتراب النفسي .

سادساً : الاغتراب المكاني .

أنواع الاغتراب عند الصعاليك واللصوص

تمهيد :

يشكل الاغتراب ظاهرة إنسانية عامة لا تخص عصرا أو جيلا محددا ، ويستخدم مفهوم الاغتراب على نحو منهجي يصل إلى درجة الازدواجية في السلوك ، ويحمل معنى ايجابيا حين يتميز الإنسان بإبداعه وفكره وسلوكه وحتى في أخلاقه ، فيدعو إلى المثالية في السلوك الإنساني في التعامل والعدل والإنصاف .

ويتمثل المعنى السلبي في عدم قدرة الذات على التكيف مع محيطها لأسباب ذاتية وأسباب موضوعية ، فالأسباب الذاتية تعود إلى عوامل نفسية ، أما الأسباب الموضوعية فهي الظروف المحيطة بالفرد وما يكونها من عوامل حضارية وثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية ، فكان للنقلة الحضارية بظهور الإسلام أثر واضح في خلخلة منظومة القيم الفكرية والاجتماعية ، كما كان للإسلام محور التغير في الشخصية العربية التي تخلت عن كثير من العادات الجاهلية [1].

فهناك اغتراب تكويني وهو الشعور بالضياع والعجز عن التكيف ، لضياع الروابط الاجتماعية التي يصعب إعادتها أو بناؤها [2] ، وهناك رفض كوني تلقائي للمجتمعات العنصرية أو العرقية ؛ لأن الاغتراب نوع من النفي أو الطرد من عالم الدفء العاطفي ، ولكن باختيار الإنسان وبإرادته ، وهذا ما يميز الاغتراب عن الغربة ،ويرفض الواقع حين تتبدل القيم والعادات ..

وتتعدد أنواع الاغتراب فالاغتراب الاجتماعي كان وراء نشوء الصعلكة واللصوصية ؛ ورفضهم الواقع الاجتماعي الذي يمثل الظلم والقهر[3] . و كان الاغتراب الاقتصادي بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية من فقر وجوع وطبقية وإتاوات وضرائب ، كما كان الاغتراب السياسي بسبب ما طرا على المجتمع من

---

[1] السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 5 .

[2] رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 33 .

[3] انظر ، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 5 .

تحولات في حياة الفرد بين خضوع لنظام القبيلة والخضوع لنظام الدولة ، وما في ذلك من أحزاب وتيارات . والاغتراب الديني والثقافي بين الأيمان بإله واحد وبين الأيمان بظواهر الطبيعة وتعدد الآلهة .

وزاد الوعي الثقافي للاختلاط بين الجنسيات والعناصر العربية وغير العربية ونشوء الحركات الفكرية . أما الاغتراب النفسي والمكاني فكان بين اغتراب ايجابي وانتقال إلى ميادين القتال والإقامة في الثغور وبين اغتراب سلبي مكاني؛ بسب غياهب السجون نتيجة السطو وقطع السبل ورفض الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي [1].

(1) السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 98 – 110 .

أولاً : الاغتراب الاجتماعي وأسبابه

أ - عقدة اللون :

تعرّض كثير من الشعراء الصعاليك إلى التفرقة العنصرية ، بسبب ألوانهم فكانت سبة وعاراً ونسبوا إلى أمهاتهم ، اللواتي كن يعملن في البيوت ويخدمن الحرائر ، ومنهن الجواري وملك اليمين ، فعندما ينجبن الأبناء يرفض آباؤهم من الأحرار أن يلحقوهم بنسبهم فنشأوا في وضع اجتماعي سيئ ، فالأمُ أمَة لا حـول لها ولا قوّة تسام الذل والهوان ، والابن ينسب لها كقيس بن الحدادية ، وخفاف بن نُدبة ، و السليك بن السلكة ، فإذا كان الوالد يرضخ لقيود المجتمع ويترفع عن إلحاق ابنه بنسبه ، فكيف تكون نـظرة المجتمع إليه عادلة ؟

وعنترة بن شداد لم يكن صُعلوكاً بل كان فارساً غلب عليه السواد ، اشترط عليه والده أن يكر على الأعداء مقابل حريته فقال له " كُرّ فأنت حُرّ " فأجاب إن العبد لا يُحسن إلا الحلب والصرّ[1] ، فعندما يحتاجون إليه يدعونه بابن الأطايب ، وفي الظروف العادية يدعونه بابن زبيبـة ، فقـال في ذلك [2] :

ــ يُنادونَنِي في السِّلم يا ابنَ زبيبةٍ	وعندَ صدَام الخيل يا ابنَ الأطايبِ
ــ العبدُ عبدُكم والمَالُ مالـــــكُمُ	فهلْ عذابُكَ عنّي اليومَ مَصرُوفُ

ونكرر الواقعة مع عروة بن الورد فيقول[3] :

إذا قِيلَ يا ابنَ الوردِ ،أقبلْ إلى الوَغىَ	أجبْتُ فلاقاني كَميٌّ مُقَـــارعُ
فمَا أنا مما جرَّتِ الحربُ مُشتَـــكٍ	ولاَ أنا مَما أحدثَ الدهرَ جازِعُ

---

[1] عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 218 .

[2] عنترة بن شداد ، **الديوان** ، شرح يوسف عيد ، دار الجيل بيروت ، ط1 ، 1992 ، ص 170 ، ص 162 .

[3] عروة ، **الديوان** ، ص 83 .

عنترة بن شداد : هو عنتر أو عنترة بن شداد من بني عبس وفارسهم المغوار وهو من أصحاب المعلقات وامه حبشية اسمها زبيبة له أيام مشهورة في حرب داحس والغبراء وهو من أغربة العرب سقط قتيلاً أو مات بجراحه (عفيف عبد الرحمن ، **معـجم الشعراء الجاهليين والمخـــضرمين** ، رقم الترجمة 452 ، عنترة ، **الديوان** ، ص 8 ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 153) .

وكثيراً ما كانت زوجة الوالد تتهم ابن الأمة بمراودتها عن نفسها ، فيصَبُّ الأب جامَ غضبه على ابنه ، ويفضل ابن الحرة عليه كما فعل والد عروة ، مما جعل العلاقات حتى بين الأخوة تقوم على الفوارق الاجتماعية والعرقية ،فتزداد الأحقاد والضغائن حتى إن الابنَ لام والده وعاتبه لأنه هو السبب في إضاعة نسبه ، فكان عروة يعدُّ أن العار الذي لحق به كان من انتساب أخواله إلى قبيلة نهد فقال في ذلك[1] :

وَما بيَ عارٌ أخالُ عَلمتُــــــهُ سِوى أن أخوْالِي إذا نُسبوا نَهدُ

إذا ما أردَتُ المجدَ قصَّر مَجدُهُم فأعَيا عليّ أن يُقاربني مَجــْـدُ

وقال أيضاً في قصيدة أخرى معرّضاً بنسب أخواله[2] :

لا تَلُمُ شَيخِي فَما أزْرَى به غيرَ أنْ شَارَكَ نَهداً في النسَّبْ

كانَ في قيسٍ حسيِباً ماجِداً فأتتْ نَهدٌ عَلى ذَاكَ الحَسَــبْ

ومما زاد في لومهم لوالد عروة وتشاؤمهم منه ؛لأنه كان السبب في حرب عبس وذبيان ولم يتعظ عروة بمــا لحق به من ظلم وهوان؛ فتزوج من الإماء فكان يرى أن يعوّض عن ذلك ببذل وعطاء لمن يحتاج لمساعدته ؛ ليشفع له في تغيير النظرة إليه ، فكان يجمع حوله الفقراء و المحتاجين ويرزقهم ، ويغزو ويكسب من الغير ، وخصوصاً أصحاب الثروة والإبل والأغنياء البُخلاء ، ليُنفِق على هؤلاء الفقراء الذين لا يجدون ما يسدُّ رمقهم ، وجعل لهم فناءً قريباً منه يحيط به سياج ليقيهم من البرد والحر وسموا بأصحاب الكنيف[3] قال عروة[4] :

أقولُ لقومٍ في الكنيف تَروّحــوا عَشِيّة بِتنا عندَ مـــــاوان رُزّحُ

تنالوا ُالغِنى أو تبلغُوا بنفوسِكُــم إلى مُستراحٍ من حِمامٍ مُبَــــرِّحٍ

وَمنْ يكُ ُ مِثلي ذَا عِيالٍ ومقتراً مِن المالِ يَطرَح نفسه كُــلَّ مطرحٍ

ليبلغ عُذراً أو يُصيبَ رغيبـــةً وَمَبلغُ نفسٍ عُذرَها مِثلُ مـنـــجَحٍ

---

[1] عروة ، **الديوان** ، ص 74 .

[2] المصدر نفسه ، ص 73 .

[3] الأصفهاني ، **الأغاني** ، ص 75/3.

[4] عروة ، **الديوان** ، ص 53 .

رُزّح : وأصله من رازح الابل إذا ضعفت ولصقت بالارض (**اللسان** ، مادة رزح) .

نجح : النجُح والنجاح الظفر بالشئ فهو منجح (**اللسان** ، مادة نجح) . مُطرّح طرح الدهر كل مَطرّح اذا نأى عن أهله وعشيرته (**اللسان** ،مادة طرح) .

ومن النوادر التي تُظهر فضله عليهم أنه أصاب إبلاً وامرأة بعد أن قتل زوجها وأنفذ السهم من صدره [1] ، فعند توزيع الغنيمة خصَّ نفسه بالمرأة إضافة إلى نصيبه من الإبل ، إلا أن القوم رفضوا ذلك ، فإما المرأة وإما الإبل ، ولتكن المرأة من ضمن الغنيمة ، إلا أن أحدهم تنازل له عن جُزء من نصيبه من الإبل ليحمل المرأة عليه .

فعروة آثر غيره على نفسه ولم يجد تقديراً واحتراماً، وقد يُضحّي بنفسه ويلقى حتفه في مخاطراته ومغامراته حتى يُنقذ غيره ، فالنفس البشرية خلقت من طمع ولم يشفع له كثرة عطائه عند من هم بحاجةٍ إليه ، فكيف تنظر قبيلته له ؟ وكيف ينظر هو إلى نفسه ؟ بعد أن وجد سوء المعاملة من الأب ، والخصام بينه وبين أخيه الذي فضله والده عليه ، وتنكر رفاقه له . فما سبب العار الذي لحق به ؟ لقد كان عروة صعلوكاً ذا نزعةٍ إنسانية فلم يخرج على قبيلته ، ولم تخلعه قبيلته ولم يسفك دماً ، وإنما كان العار الذي لحق به أنه ابن أمَةٍ ، وأخواله من قبيلة نهد ، وقد عرف عنها ضعة نسبها وضعفها ، وَعيّر والده بذلك على الرغم من أنه كان شريفاً في قومه .

فكان يُعرف بزعيم الصعاليك ويغزو ويجمع الصعاليك حوله ، ويرزقهم إذا كسب ، ويقتسم معهم لقمة العيش[2] ، فكان خروجه والمخاطرة بنفسه من أجل فئة من المستضعفين الذين لا يجدون المساواة ولا العدالة والإنصاف ، يلجؤون إلى البيوت طلباً للحماية ، وبحثاً عن قوتٍ يسد رمقهم ، فانفصل عن مجتمعه ليبني مجتمعاً من الضعفاء والمساكين ، وليكون ذا تأثير في المجتمع الجديد ، ولو بقي متآلفاً مع مجتمعه لحصل على قوته دون المخاطرة بنفسه ؛ لأنه ليس كباقي الصعاليك ، فهو يستطيع الحصول على المال من التجار والأثرياء دون أن يهاجم البخلاء منهم ، فالنزعةُ التي فجّرت فيه قوة التمرد لينشئ مجتمعاً جديداً يعترف بفضله جميع من هم بحاجةٍ إليه ، هي نزعة البحث عن الذات ومثله الشنفرى الذي هو ابن أمة وأسود وراح يغترب بحثاً عن الذات ، فهو يعتبر نفسه مجتمعاً جديداً له فلسفته وأهدافه غير المجتمع الذي خرج على أنظمته وقوانينه ، والذي هو جزءٌ منه وليس مقابلاً له .

---

[1] انظر، الأصفهاني ، **الأغاني** ، ص 76/3.

[2] المصدر نفسه ، 76/3 .

فلم يكن الدرسُ مقنعاً ولم يتعظ بسوء المعاملة بسبب نسب أخواله ، فتزوج كما تزوج والده باثنتين من الإماء ليلى من مزينة ، وسلمى من بني كنانة[1] . وحاول أخوه وابن عمه أن يضيّقا الخناق عليه بقبول الفداء ليصيب غنى في ذلك ، وليترك هؤلاء الإماء فقالا له : "والله لئن قبلت ما أعطوك لا تفتقر أبدا " [2] فأطاعهما وندم على ذلك بعد فوات الأوان وقال[3]:

ألا يَا ليتني عاصَيتُ طلْقاً وَ جَبّاراً ومَن لي من أميري

والنظرة الاجتماعيّة التي تقوم على التعصب من نساء الحيّ كان لها أكبر الأثر في إبعاد الزوجة عن زوجها وانفصالها عنه ، بالرغم من اعترافها بفضله ومعروفه .وقالت في إقناعها له بقبول الفداء والاعتراف بفضله " والله ما أعلم امرأة من العرب ، ألقت سترها على بعل خير منك ، وأقل طرفاً ، وأقل فُحشاً ، وأجود يداً ، وأحمى لحقيقة ، وما مرّ عليّ يومٌ منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحبُّ إليّ من الحياة بين قومك ؛لأني لم أشأ أسمع امرأةً من قومك تقول قالت أَمَة عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر في وجه غطفانيّة ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم "[4]. ولم تقتصر الإساءة على دور النسوة ، بل كان للأقارب أيضاً دورهم للتفريق بينهما ، ولا سيما الأخ وابن عمه وقال نادماً[5] :

سَقى سَلمَى وأينَ ديارُ سَلمى إذا كانت مُجاورَةَ السّرير
ذكرتُ منازلاً من أم وهـــــب مَحلَّ الحيِّ أسفلَ من نقير

إن السبب في فراقهما هو التناقض بينه وبين مجتمعه ، الذي ينظر إليه بازدراء على الرغم من تفضله على رفاقه الصعاليك ، ومنزلة والده لم تُلغ سوء النظرة إليه ؛ لأنه ابن أمَة . والتباين الاجتماعي في المستوى المادي أو في المستوى المعنوي كان وراء الحط من شأنه .

---

[1] انظر ، **الأصفهاني الأغاني** ، 79/3 .

[2] فرحات ، **ديوان الصعاليك** ، ص 37 .

[3] عروة ، **الديوان** ، ص33 .

[4] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 73/3 .

[5] عروة ، **الديوان** ، ص 33 .

فإذا سعت النساء في مجتمعه إلى فصله عن زوجه ، كما سعى أخوه وابن عمه وفي المرحلة الأخيرة كذلك سعت زوجه إلى الانفصال عنه ؛ لأن المجتمع والأسرة والزوجة حلقاتٌ متصلة عجز عن الانسجام معها ، وشعر بالعزلة والوحدة ، والانزواء وعدم التكيف مع هذا الواقع الاجتماعي ، فلم يهن عليه أن يكون منبوذاً أو يكون غير ذي شأن ، فسارع إلى إيجاد التوازن بينه وبين المجتمع ، فأنشأ المجتمع الجديد الذي يضم أصحاب الكنيف ، وهم أقل منزلة منه من أجل أن يوجد هذا التوازن [1] ، فبدلاً من أن يكون فرداً مسلوب الحرية أصبح عنواناً للحرية والانطلاق ، فحريته الفردية أنشأت حريةً جماعية ، وجماعة مذهبية لا فوارق بينها ، ويعتبر هذا المجتمع المثال الذي ينشده ، ويحطم المجتمع الواقع الذي يتنازل فيه الفرد عن حريته وحياته من أجل أن يكون عضواً فاعلاً يعيش بين الناس لا عندهم ، ويلغي الفوارق الطبقية التي يتمسك بها مجتمع القبيلة .

وبعد أن قاسى عروة ابن الورد لوعة الفراق ، لام نفسه بعد أن سمع لمقالة الوشاة والحُسّاد ، و ينكر على نفسه هذا التصرف ، لولا أن سقوه ما يذهب عقله لما وافق على الانفصال عن زوجه فقال[2] :

أطعتُ الآمرينَ بصَرْمِ سَلمى	فطارُوا في عُضاة اليستعوري
سَقوني النسءَ ثمّ تكنّفوني	عُداة اللهِ من كذبٍ وزورِ
فيا للناسِ ! كيفَ غلبتُ نفسِي	على شيءٍ ويكرَهُه ضَمِيري

---

[1] انظر ، الأصفهاني ، الأغاني ، 73/3 .

[2] عروة ، الديوان ، ص 35 .

اليَسْتَعُور : كشجر الأراك تصنع منه المساويك .(اللسان ، مادة يستعور) .

لقد شرب من الكأس التي عابها على والده حين اتخذ زوجة له من الإماء وأجابها لداعي الحج ولم يعرف ما تُخفي له ، وقبِلَ فداءها وندم على عمله إلا أنه اتهم الوشاة بإذهاب عقله . وهذا السليك يتوجّع لخالاته لأنهن من الإماء ، ولم يقصد خالاته الأدنين ، بل يقصد عامة الجنس المضطهد [1] واكتملت الصورة عنده حيث يضيق ذرعاً بقلة حيلته في امتلاك المال ليفدي به ممن تعرضن للعبوديّة والاضطهاد ، ويصعبُ عليه وقد رأى سوء المعاملة والاحتقار والضياع الذي يعانينه إضافة إلى قلة المال[2] ، فقال :

أشابَ الرأسَ أني كُلُّ يَوم	أرَى لِي خالةً وسطَ الرّحالِ
يَشقُّ عليَّ أن يلقينَ ضَيماً	ويَعجزُ عن تَخلّصهُنّ مَالـي

فلم يعلُ الشيب مفرقه لتقدّم سنه بل لما وقع على أبناء جلدته وخالاته من تمييز وذل وعبودية، ولعجزه عن افتداء خالاته أو بذل المال لهنّ ، فكانت غربته نفسية لمعاناته في مجتمعه ولعجزه عن التكيّف مع مجتمعه، ولفقره بسبب قلة المال ، لا لينفع نفسه بل ليساهم في إنقاذ الآخرين من الظلم . فكان السليك يجمع عدة صفات كانت هي السبب في نفور المجتمع منه ، فبالإضافة إلى سواد لونه كابن أمَةٍ كان سيء الخلق والمنظر ، فلا يؤمن جانبه وكغيره من الصعاليك نشأ فقيراً معدماً لا يملك مالاً ولا يملك خلقاً ، فقد يغير على من أجـاره ، ويسلب إبل الكبير في السن بعد أن اختلى به ، فأطاح برأسه واستاق إبله [3].

ومع دمامة خلق السليك فإنه كان يعتز بسطوته وعدوه، إلا أن الروح الإنسانية تظهر عندما يرى أن خالاته تعذب وتخدم في البيوت ، ولا يجد المال لفدائهن ، وبالمقابل فإن النساء يترفعن عن معاطاته الحديث ، فكان بائساً محروماً من نعمة المرأة التي تشمت بمنظره وسواد لونه . وكلما حاول نسيان أو تناسي غربته إلا أن سواد لونه يلحُّ عليه ، فانفصل عن المجتمع لأنه يشعر بأنه أقل شأناً من الآخرين ، والمرأة التي تشكل الوطن له كانت هي السبب في غربته ، لأنها ترى غيره أفضل منه ، ولم تعتمد على المفاضلة بينه وبين الآخرين بل عمدت إلى السخرية منه .

---

[1] انظر، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 220.

[2] السليك ، **الديوان** ، ص 89 .

وانظر ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 235 .

[3] انظر، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 134/18 .

وهذا عبدالله بن الحُرّ الجعفي تتعرض أمه للسبي وكأنها قينة ، وأراد أن ينتقم لما أصاب أمه بسيفه ويثور الشاعر لكرامتها ، وما لحق بها من ذُلٍّ وهوان ، وينتقم لما أصاب نسبه ، فيحاول أن يسبي الحرائر ليشفي غليل صدره، وتعويضاً لما لحق به من إهانة فالحرُ لا يقبل ضيماً ولا يقيم على ذُل وقال في ذلك [1] :

إن تَكُ أمّي من نساءٍ أصابَها	سِبَاء القنا والمُرهفات الصفائحِ
فتباً لفضلِ الحُرِّ إن لم أنل به	كرائمَ أبنـاءِ النساءِ الصرائـحِ

ويحاول سُحيم عبد بني الحسحاس تجاوز عُقدة السواد ببياض الأخلاق ، ويحاول إقناع نفسه وإقناع الآخرين، بأن سواده ليس سُبّة أو عاراً ، فالفتى لا يُقاس بمظهره وإنما بعقله وجمال أخلاقه [2] :

ليسَ يُزري السوادُ يوماً بذي اللّبِّ	وَلا بالفتى اللبيبِ الأديـــبِ
إن يَكُن للسوادِ فيّ نصيــــــــبٌ	فبياضُ الأخلاقِ منه نصيبي

وقال أيضاً[3] :

أشعارُ عبدِ بني الحسحاس قُمنَ	له يومَ الفخار مَقامَ الأصلِ والوَرِقِ
إن كُنتُ عبداً فنفسِي حُرّةٌ كَرَمــاً	أو أسودُ اللونِ إنّي أبيضُ الخُلُقِ

ولم تكن تختلف النظرة للعبيد سواء عند العامة أو الخاصة ، فعندما عُرض سحيم على عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال له بعض مـن حضر ، إنه شاعرٌ يُرغب في مثله[4] ، فقال : "لا حاجة لنا فيه ، لأنه إن شبع شبب بنساء أهله ، وإن جاع هجاهم[5] "، ويُعطى المال في كثير من الأحيان لكفُ لسانه عن الهجاء ، ومرت به نسوة وقد شمتن به وقد شُدَّ بالحبل فصدق عليه قول عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وعيّر قومه بنسائهم .

---

(1) الملوحي، **اشعار اللصوص واخبارهم** ،ص 261.

وانظر حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 212 .

(2) سحيم ، **الديوان** ، ص 54 - 55 .

(3) المصدر نفسه ، ص 55 .

(4) الأصفهاني ، **الأغاني** ، ص 331/22 .

(5) المصدر نفسه ، ص331/22 .

ويُعرف عنه خبث لسانه ، ويصرّح بذكر نساء قومه والتشبيب بهن ، وحملوه إلى أمير المدينة فسجن وجلده ، فهو عبدٌ مملوك لا يملك حريته للخلاص من العبودية أو الانتقال إلى قبيلة أخرى ، فالمملوك لا يحق له الخروج على القبيلة و لا يخلع كغيره ، وإنما يرضى بالعبوديّة ، ولذا كان منشأ الحقد عندهم أنهم يختزنون هذه الذكريات الأليمة في نفوسهم ، وعندما يحاول التعبير عن هذا الرفض أو التمرد ، فإنه لا يستطيعُ إلا بسوء سلوكه والتنفيس عن حقده ، إما بالقول وهذا سبب حدة لسانه ، أو بالفعل إذا وجد فرصة أو خلاصاً . وقال في ذلك [1] :

إنْ تقتُلوني فقد أسخَنتُ أعيُنَكُم ... وَقد أتيتُ حَراماً ما تَظُنونا

وقدَ ظَممتُ إلى الأحشاءِ جارية ... عَذبٌ مُقبّلها مِما تصَوّنُــونا

وقال في موضع آخر [2] :

شِدّوا وثاقَ العبدِ لا يُفلِتكُم ... إنّ الحياة من المماتِ قَريبُ

فلقد تحدّرَ من جبين فتاتِكُمْ ... عرَقٌ على ظهر الفراش وطِيــبُ

فهذه الفئة من الصعاليك فئة خاملة ، ارتضت الذل والعبودية والهوان ، والإقامة في خدمة البيوت والرعي ، فهي تعيش في راحةٍ وأمن ويوفر لها قوتها، يقول عروة في ذلك [3] :

يُعينُ نساءَ الحيِّ ما يستعنّه ... فيمُسي طليحاً كالبعيرِ المُحسَّرِ

فكانت عقدة اللون والعبودية سبب سوء مكانتهم الاجتماعية ، يضاف إلى ذلك أن سواد اللون عار وينظر لأبناء الأماء نظرة دونية .

---

(1) سحيم ، **الديوان** ، ص 59 .

(2) المصدر نفسه ، ص 66 .

(3) عروة ، **الديوان** ، ص47 .

طليح : طلح البعيرُ يَطلحُ طلحًا إذا أعيا ، والطلح والطّلاحة الإعياء والسقوط من السفر (**اللسان** ، مادة طلح).

مُحسّر : وحسرت الدابة حسراً إذا تعبت واستحسرت إذا أعيت (**اللسان** ، مادة حسر)

وتتعرض هذه الفئة للأذى والضرب إلا أنها لا تكفُ عن الذم ، وفضح أسرار البيـوت ، والتجاوز على حُرماتها ، يقول سُحيم [1]:

أبا معَبَدٍ بئسَ الفِراضةُ للفتـى ثمَانون لم تتركْ لحلفكُمُ عَبـــــداً

فما السِجنُ إلا ظِلّ بيتٍ سَكنتُه وما السّوطُ إلا جِلدةٌ خالطتْ جِلداً

أبا مَعبَدٍ واللهِ ما حلّ حُبـــُـها ثمانونَ سَوطاً بَل تزيدُ بها وَجْـداً

ويشير إلى الضرب بالسوط على أنه بسبب تعلّقِهِ بفتاة ، فكلما زاد عدد الأسواط ازداد شوقاً إليها، ولعل الضرب تعزير له وردعٌ عن سوء أخلاقه ، وقد أشار إلى عدد الجلدات التي تلقاها ويقلل من شأن عددها وألتها فما هي إلا جلدةٌ خالطت جلداً ، والذي تمرّد على الذُل والهوان لا يتأثرُ بما يجده في هذه الحياة من ضرب أو إهانة ، وقال عبيد بن الأبرص[2] :

فالعبدُ يُضربُ بالعَصا والحرُ تكفيه القرينة

وعندما أفطر شخصٌ في رمضان استدعاه الخليفة عليٌ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فجلده ثمانين جلدة تعزيرا له وزاد عليها عشرين أخرى ، فعندما سأل الرجل عن الزيادة فقال لجرأتك على حدود الله [3]. وعندما عيّرت امرأة عمرو بن شاس زوجها بابنه ،وحاولت إهانته وأن توقع به ، وتسلط والده عليه نتيجة لسواده ، إلا أن والده نصحها بإحسان المعاملة إليه، والترفق به وخيّرها بين القبول بوجوده ورعايته ، وبين الفراق فاختارت الفراق تاركة الابن ووالده ، فقال في ذلك[4] :

أرادتْ عِراراً بالهوان ومَن يـُـردْ عِراراً لعمْري بالهوان فقد ظلَــــم

فإنْ كنْت مِنيّ أو تُريدينَ صُحبتِي فكُوني له كالسّمن رُبّتْ لـــهُ الأدِم

وإنْ كنْت تُهوينَ الفِراق ضَعينتَي فكُوني له كالذئبِ ضَاعَتْ لهُ الغـَـنَم

---

[1] سحيم ، **الديوان** ، ص 66 .

[2] الميداني ، أبي فضل احمد بن محمد بن احمد بن إبراهيم ، **مجمع الأمثال** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الجزء الأول ، الجزء الثاني ، الجزء الثالث ، الجزء الرابع ، دار الجيل ، بيروت، ط2 ، 1987، ص 345 ، رقم 2447 .

عبيد بن الأبرص : كان شاعرا جاهليا قديما من المعمرين وشهد مقتل حجر أبي امرئ القيس ، وقتله النعمان بن المنذر يوم بؤسه. (ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 166) .

[3] انظر ، عبده ، **نهج البلاغة** ، ص 478 .

[4] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، ص 1- 2 /280 .

وإلا فسيري مِثلما سَارَ راكـــبٌ	تَجشّمَ خَمساً ليسَ في سيره أمَـــم
وإن عَراراً إن يَكنْ غيرَ واضِـــحٍ	فإنّي أحبُ الجونَ ذا المنكب العـَمَـم

ب - الخلعاء من الصعاليك واللصوص :

وهذه الطائفة هي التي تمردت ورفضت حياة الذل والهوان وقبول الضيم ، وعاشت الغربة في الصراع مع قبائلها حتى تشردت بعد أن خلعتها ، فإما أن تخلعها القبيلة وإما أن تتمرد على الأعراف والقوانين ، فالقبيلة لا ترضى أن تُمزّق وحدتها ، أو أن تخسر جوارها لمصالح فردية ، فقد تمردت على أعراف القبائل وتقاليدها وناصبوا غيرهم العداء ، وعاشوا الغربة بين وحوش الفيافي والجبال، وقاسوا من صعوبة الحياة وآمنوا بأن الحياة للأقوى ورفضوا أن يتفضل عليهم أحد بكرمٍ أو منّة ، واغتصبوا لقمة العيش اغتصاباً ، يقول الشنفرى[1]:

وأستفُّ تُربَ الأرض كَي لا يُرى له	عَليّ من الطول امرئٌ مُتَطوّلُ
ولولا اجتِنابُ الذّأم لمْ يُلفَ مَشـْـربٌ	يُعاشُ به إلا لديّ ومَأكَـــــلُ

فهم يعرفون أن هناك وسائل سهلة لكسب العيش، ولكن خوفاً من أن يعيشوا برغم وذلة فقد فضلوا الجوع على العيش الذليل . يقول أبو خرّاش الهُذلي[2]:

وإنيّ لأثوي الجوعَ حتى يَملَني	فيذهبُ لمَ يَدْنَس ثِيابي ولا جُرمُي
مَخافة أن أحيا برغمٍ وذلّــــــةٍ	وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْم

اغتربوا فلم يذعنوا لنظام أو قبيلة أو سلطة، وحاولوا أن يقهروا غربتهم وأعداءهم ويوقعوا بهم ، واختاروا مُجتمعا غير مجتمعهم ورفاقا غير أهلهم وذويهم ،و تحصنوا في المراقب واتـــخذوها مراصد وحصوناً لهم . فليست الصعلكة الحصول على لقمة العيش ، بل إثباتٌ للذات

---

[1] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 487/2 .

الشنفرى ، الديوان ، ص 112 .

[2] المرزوقي ، شرح الحماسة، 783/2.

وانظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، 445 .

التمرد على الأوضاع ، وقهر الاغتراب وتذليل العقبات التي تحول بينهم وبين أخذ مكانتهم ، وكذلك الوقوف ضد الطبقيّة فيرون طبقة تلقى التّجلة والاحترام ،وأخرى تلقى الذل والهوان بسبب فقرها أو غناها ، يقول مالك بن حُريم [(1)] :

بأنَّ ثراءَ المالِ ينفعُ ربــــــه	ويُثْني عليه الحَمدُ وهو مُذمَمُ
وأن قليل المالِ للمرءِ مُفســـدٌ	يخِزُ كما خرَّ القطيعُ المُحــرَّمُ
يَرَى درجاتِ المجدِ لا يستطيعُها	ويَقعُدُ وسط القومِ لا يتكلّـــمُ

وهنا يوازن بين من افتقر إلى المال وبين من أصاب غنى، فإذا كان المال يورث صاحبه حمداً فإن قلة المال تورثه فساداً ، فكأن المال هو الذي يحقق التوافق مع المجتمع والتغاضي عن جميع سيئاته ، بينما الفقر يـظهر عيوبه حتى وإن قام بأعمالِ الخيرِ والمعروف .

فكان الفقر والجوع والحرمان من أسباب اغترابهم عن مجتمعاتهم والمطالبة بحقوقهم ، حيث كان المجتمع يقوم على أسس اجتماعية غير عادلة ؛ تقوم على الطبقية التي تعتمد الثروة والغنى أساساً لطبقات المجتمع ، فإما أن تكون طبقة معدمة فقيرة وهذا ما أثار هذه الفئات للمطالبة بحقوقها، فكان منهم الصعاليك واللصوص الذين اختلفت تسمياتهم ووسائلهم في الحصول على الرزق ، وكان هناك طبقة مترفة متنعمة تمثل شيوخ القبائل وأصحاب الثراء والسلطة والنفوذ والتُجار ، وفي العصور التي تلتها صارت تمثل هذه الطائفة الخلفاء والولاة وقادة الجند ، والقائمين على بيت المال والجُباة ، الذين كانوا يسلكون السُبل المنحرفة ، إذ يجمعون أكثر مما يُطلب منهم من الضرائب أو يجمعون الضرائب من فئات معفاة[(2)] ، ويعتمدون وسائل الترهيب والترغيب. ومما زاد في التفاوت بين فئات المجتمع إغداق الأموال على المؤيدين للسياسة وحرمان المُعارضين ، أو إيثار بعض فئات المجتمع لأشغالهم عن الأمور السياسية ، وكانت الفئة القائمة على أموال المسلمين تأخذ النصيب الأكبر ، بحيث تؤمن أموال بيت المال ، وما زاد عن النصيب المفروض يكون من نصيبها .

---

(1) المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1171/3.

(2) انظر، عطوان ، **الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص 145-152 .

انظر ، خليف ، **في الشعر العباسي نحو منهج جديد** ، ص 15- 20 .

وعندما شكا فضالة إلى عبدالله بن الزبير فقال :" إن ناقتي قد نقبت ودبرت ، فقال : ارقعها بجلد واخصفها بهلب وسر بها البردين ، فقال له : إني قد جئتك مستحملاً لا مستشيراً فلعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال له ابن الزبير : إن وراكبها " [1] . بمعنى نعم وصاحبها وقال فضالة من يتصف بالبخل لا يصلح للرعية وأنشد فضالة [2] :

شكوتُ إليهِ أنْ نَقِبتْ قلوصي ... فردّ جوابَ مشدودَ الصفـادِ

يَضُنُ بناقةٍ ويرومُ مُلكـــــاً ... مُحالُ ذلكم غير الســـَّـدادِ

وَليتَ إمارةً فبخلتَ لمّـــــا ... وَلِيتَهُم بمُلكٍ مُستفـــــــادِ

فإن وَليتْ أميّة أبدلوكُــــــمْ ... بكلِّ سَميدع واري الزنــــادِ

وكانت الأعطيات السخية تذهب للمؤيدين والشُعراء وبطانة الخُلفاء والولاة والقُوّاد ، إضافة إلى الثروة التي اجتمعت في أيدي التجار ، بسبب أساليب الاحتكار والغش والخداع والرشوة حين يعفون من الضرائب ، وطائفة أخرى من الأغنياء من أصحاب الثروة والأراضي استأثرت بالحدائق ؛و لأن نظام الإقطاع كان مسيطراً إذ تسجل الأراضي بأسماء المتنفذين لتعفى من الضرائب ويكون نصيبهم من خـــراج الأرض كبيراً وسمي هذا " بالإلجاء "[3] .

كما أن الثروة الحيوانية وخصوصاً من الإبل والأغنام[4] تتركز في أيدي شيوخ القبائل ، ويقوم على خدمتها عدد من العبيد والرعاة مقابل أجر زهيد أو الحصول على الطعام والأمن

---

(1) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 65/12 .

(2) المصدر نفسه ، 65/12 .

فضالة بن شريك بن سلمان بن خويلد : من مضر بن نزار ، وكان شاعراً فاتكاً صعلوكاً مخضرماً أدرك الجاهلية و الإسلام . كان له ابنان شاعران هجا عبد الله بن الزبير عندما جاءه مادحاً ولم ينل بغيته وهجا عاصم بن عمر بن الخطاب (الأصفهاني ، **الأغاني** ، 65/12) .

(3) الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 20 .

وانظر ، ضيف ، شوقي ، **العصر العباسي الأول** ، دار المعارف بمصر ، ط2 ، 1966 ، ص 44 - 55 .

الإلجاء : هــو تســجيل الأراضـــي بأسماء المتنفذين لتعفى من الضرائب مقابل أخذ جزء كبير من خراجها (الخطيـب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 148) .

(4) انظر ، الجبوري ، يحيى ، **الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي** ، مطـبعة المعارف بغـداد ، 1968 ، ص 74 .

وانظر ، أبو سويلم ، أنور عليان ، **الإبل في الشعر الجاهلي** ، دار العلوم للطباعة والنشر ، 1983 ، ص 15-20 .

والطمأنينة ، فالإبل ثروة لها قيمتها المادية والغذائية أثمانها مهور وديّات، وهي هدايا و أعطيات كما أنها وسائل لبلوغ الغايات و حمل أثقال أصحابها ، فحليبها شراباً ، ولحومها غذاءً ، و أوبارها كساءً ، فالأحيمر السعدي كان يقطع السبل ويغير على القوافل وتاب عن ذلك ولكنه ما أن يرى الإبل حتى يحن إلى اللصوصية ويقول الأحيمر أيضا[1] :

يَرى اللهُ أني للأنيس لكارهٌ	وتبغضُهم لي مُقلةٌ وضميرُ
وإنّي لأستحي مِنَ اللهِ أن أرى	أجرر حبلاً ليسَ فيه بعيــرُ
وأن أسأل العبدَ اللئيم بعــيره	وبعران ربي في البلاد كثيرُ

وقال أيضاً يصف موقف المجتمع من الفقراء[2] :

تُعيّرُني الإعدامَ والبدوُ مُعرضٌ	وسيفي بأموالِ التّجار زعيمُ

وروّض العرب الإبل ، فكانت الصاحب والرفيق الذي لا يعرف الملل في رحلاتهم التي لا تنتهي ، وكانت سيادة القبيلة تعتمد على أمرين ما تملكه من ثروةٍ ونعم ، وما تملكه من محاربين أشداء ، وكانت الإبل أغلى ما يدفع مهراً للحرائر ، ولديها القدرة على مقاومة شمس الصحراء المحرقة ، واحتمال العطش والسيرُ في الكثبان الرملية فالله سبحانه وتعالى قد هيأها للبيئة التي وجدت فيها ، لأن الصحراء موطن الإبل الأصيل . والقبائل تلجأ كالدول إلى النفي والإبعاد عند ارتكاب جنايات اجتماعيّة تكون سبباً لجرائم أكبر كالاعتداء على العرض والشرف ، أو الإساءة لأفراد في القبيلة ، ورغبة عن العقاب التأديبي يُلجأ لمثل هذه الإجراءات صوناً لكرامة الإنسان ، وحرصاً على حياته وممتلكاته .

---

(1) الملوحي ، اشعار اللصوص وأخبارهم ،ص 89 .

وانظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 535 .

(2) المصدر نفسه ، ص 536 .

وحين يلجأ الفرد لغير قبيلته لن يجد نفسه عزيز الجانب كما هو في قبيلته ، ولن ينظر له باحترام كأفراد القبيلة المُضيفة ، وقد يتعرض لعقبات كثيرة كسوء المعاملة ، والسخرية والازدراء مما يُلحق به أذى أكثر مما هو فيه ، فيعود إلى قبيلته مهين الجناح ، ويذكر البرج بن مسهر الطسائي أنه خرج على قبيلته ولجأ إلى جوار بني كلب ، زمناً فلم يحمد جوارهم وقال[1] :

فنِعمَ الحيُّ كَلبٌ غيــــر أنا … رَأينا في جوارهمُ هنـــــاتِ
ترَكنا قوْمَنا من حَربِ عـام … ألا يا قومُ للأمرِ الشَتَـــاتِ
فإنْ نَرجعْ إلى الجبلين يوماً … نُصالحُ قوْمَنا حتى الممـــاتِ

ومن أسباب الاغتراب المؤدية للخروج على القبيلة الازدواجية في التعامل ، وفقدان العدل والمساواة، فتنصف القوي وتجور على الضعيف وتلبّي نداء البعيد وتهمل تلبية نداء القريب ، وعدم مناصرة القبيلة لأبنائها جبناً أو تخاذلاً ، تحقيراً أو إهمـــالاً لشأنهم مما يوقع أفرادها فريسة للظلم والضيم ، فقد أغارت بنو اللقيطة على قريط بن أنيف ، فاستاقوا إبلاً له ، فاستنجد بقومه فلم يُنجدوه ، واستنجد ببني مازن فأعادوا عليه أكثر من الإبل التي فقدها فقال البرج[2] :

لو كُنتُ من مازنٍ لم تَستَبِحْ إبلـي … بَنُو اللقيطةِ من ذُهلِ بن شَيْبانـــا
إذن لقامَ بِنصري مَعْشرٌ خُشُنُـــــنٌ … عند الحفيظةِ إنْ ذو لوثةٍ لانــــا
قومٌ إذا الشَّرُ أبدى ناجذيه لهُـــــم … طاروُا إليه زُرافاتٍ ووحِدانــــاَ
لا يَسألونَ أخاهُم حيَن ينْدُبُهـــــــم … في النائباتِ على ما قالَ بُرهانا
يُجزونَ من ظُلم أهلِ الظلم مَغْفِرةً … وَمن إساءَةِ أهلِ السوءِ إحسانــاً

---

[1] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ،359/1.

قريظ بن أنيف العنبري : أغار عليه بنو اللقيطة و استاقوا إبلا له ، فاستنجد قومه فلم ينجدوه واستنجد أقرباء بعيدين من بني مازن فأنجدوه وأعادوا عليه أكثر مما أخذ منه (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 67/1

وهن : الوهن الضعف في العمل والأمر وكذلك في العظم (**اللسان** ، مادة وهن) .

[2] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1- 2 /23 .

البرج بن مسهر بن جلاّس : أحد بني جديلة ، ثم أحد بني طريف بن عمر بن ثمامة وهو من معمري الجاهلية ، وقد جاور كلباً فلم يحمدهم وكان هو وعمه أبو جابر يشربان فانثنى البرج وقبّل امرأة عمه ثم رآه عمه فاستحيا ، وقال يا عمي غلبني الشراب ، فقال له : لو كان الشراب غلبك فلم تستحي ، أذهب فوالله لا تجمعني وإياك محلة ، ولا غزوة ولا نجتمع في بلد ولا أكلمك ابداً ، (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1- 2 / 359 ، 616 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 59) .

فالشاعر خرج على قومه لتخليهم عنه ، وما لحق به من أذى وظلم وذاق مرارة الخُذلان في حين ناصروا غيره . وطلب النجدة من غيرهم فلبوا النداء وأعادوا له إبله فاختار قوماً غيرهم وبدّلوا الخُذلان نصراً ، واستبدلوا بالجبن شجاعة .فالفرد للكل والقبيلة للفرد تحقق أمنه واستقراره ولا تسمح له بشق عصا الطاعة ؛ لأنها الكيان الذي يحقق أمنه واستقراره [1] ، و هي التي تقتص ممن يعتدي على أبنائها ، في الظروف الطبيعية لا أن تتخلى عن نصرته ، ليعيش شريداً طريداً باحثاً عن جوار يحميه[2] .

فالاغتراب عن القبيلة إما إيثار للنفس وتحقيق الذاتية والانفراد والتميّز، وإما غربة تُفرض عليه من قبيلته ، فكأنه يعيش بين مجتمعين اغتراب يختاره وغربة تفرض عليه . فكان منهم من اغترب و تمرد على القبيلة ونظامها وأعرافها وتقاليدها ،ومنهم من خلعتهم قبائلهم وغُرّبوا نظراً لكثرة جناياتهم ، فكانت الصحاري والجبال أماكن تواجدهم لاتساعها وبعدها عن السيطرة وجبالها الوعرة غير السالكة ملجأ لهم وفي هذه البيئة لا يعتبرون الوحوش خطراً على حياتهم أو مصدراً للخطر ، يقول مالك بن الريب[3] :

أُقلّبُ طرْفِي حَولَ رَحلِي فلا أرَى **بِهِ من عُيونِ المُؤنِساتِ مُراعِيا**

وقال توبة بن الحِمْيَر[4] :

تجُيرُ وإنْ شطتْ بها غُربةُ النّوى **ستنعُم يوماً، أو يُفادي أسيرها**

---

[1] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 32 .

[2] انظر، حسن ، حسين الحاج ، **أدب العرب في عصر الجاهلية** ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط1 ، 1984، ص 218 .

[3] ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 227 .

[4] توبة بن الحمير ، **الديوان** ، شرحه خليل إبراهيم العطية ، دار صادر بيروت ، ط1، 1988، ص 36 .
توبة بن الحمير : من اللصوص البارزين ، شهرته بعشق ليلى الأخيلية ، وزاد من شهرته شاعرية ليلى ، ولم يقدمها سوى الخنساء ، وسأل الخليفة عبد الملك بن مروان ما رأى فيك توبة حتى عشقك ؟، فقالت : " ما رأى الناس فيك حين جعلوك خليفة " ، كان يغير على بني همذان ، واجتمعت فيه صفتان عاطفة الحب وعاطفة الصعلكة وهما على طرفي نقيض بين الرّقة والعنف ، ولم تكن النزعة الشريرة إلا مظهراً اجتماعياً .
(المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 3 - 4/ 1311 ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 295) .

فهم يعتزون بوجودهم بها ويأنسون بحيواناتها وجوارها، وربما فضلوها على الجنس البشري ، وهجروا بيئة الناس ليس بأجسامهم ومعيشتهم بل بنفوسهم وعواطفهم ، حين حملوا الحقد والكراهية وروح الانتقام على مجتمعاتهم ، فليس غريباً أن يألفوا الوحوش ويروها تشاركهم آلام البيئة الإنسانية .يقول الأحيمر السعدي[1] :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذْ عَوَى وَصَوّتَ إنسانٌ فكِدتُ أطِيرُ

ويقول عبيد بن أيوب[2] :

وحَالفتُ الوحوشَ وحَالفتْني بقربِ عُهُودِهِنَّ وبالبعاد

فالشاعر يألف الحيوانات ويأنس بوجودها لعدم وجود إنسيٍّ يخيفه ، فيرى فيها صديقاً لا عدواً كما يرى فيها أهلاً وجاراً غير لئيم ، وخيرُ مثالٍ للانفصال عن المجتمع الإنساني هو الشنفرى الذي وجد بيئة الحيوان أكثرُ حُرية وألفة ، بحيث أنه عَرف هذه الحيوانات وعَرف خصائصها[3] ، فذكر كثيراً من حيوانات الصحراء ، كالحيّات والقطا والأرقط والعرفاء والفرعل والذئب والأراوي التي هي أكثر وفاءً في نظره من الإنسان ، واختار هذا المجتمع لأنه هو العضو الفاعل فيه و يتكيَّفُ معه ولا يعجزُ عن التواصل معه ، فحتى الحيوانات الأكثر شراسة كانت أفضل من الإنسان الضعيف الذي ينقلب وحشاً إذا وجد من هو أقل منه مكانة .

---

(1) ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 534 .

(2) الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، 1-2 / 217 .

وانظر، المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 3- 4 /1157.

(3) انظر، حاوي ، خليل ، **موسوعة الشعر العربي** ، تحقيق أحمد قدامة ، شركة خياط للكتب والنشر ، بيروت ، 1974، 59/1 .

ويخاطب سعد بن ناشب بلال الخارجي ، ويعيره خروجه من طاعة السلطان ، فيقول :" اترك توعدنا فإننا لم نفرق الجماعة تفريقك ولم نخالف المسلمين مخالفتك فإن فينا كرماً وإباءً يحرم علينا الصبر على المذلة والعار" [1] ، وأنشد[2] :

لا تُوعِدَنّا يا بلالُ فإنّنا وإن نحنُ لم نشققْ عصا الدين أحرارُ
وإنّ لنا إمّا خشيناك مَذهباً إلى حيثُ لا يخشاك والدهرُ أطوارُ
فلا تحمِّلنا بعد سَمعٍ وطاعةٍ على غايةٍ فيها الشِقاقُ أو العارُ
فإنّا إذا ما الحربُ ألقت قِناعَها بها حينَ يَجفُوها بنُوها لأبرارُ
ولسنا بمحتلِّينَ دارَ هضيمةٍ مخافةَ موتٍ إن بنا نبتِ الدارُ

ويعيش الفرد بعد إجباره على التنازل عن هويته الاجتماعية بعيداً عن قبيلته ، ليبحث عن توافقٍ آخر ، ولن يكون عزيزاً كما هو في قبيلته ، فهناك أعراف وتقاليد في القبيلة التي تجيره يجب مراعاتها وعدم الخروج عليها ، إلا أن النظرة إليه لا تقل عن نظرة المجتمع إلى أبناء الإماء ، وقد تزدريه القبيلة الأخرى عندما يعيش منفرداً، ويحاول أن يشكل مجتمعاً في هذا المجتمع . فالمجتمع الجديد يقوم على مصادرة حريته ، فليس له الحرية في إقامة علاقاتٍ خارج إطار المجتمع الذي التجأ إليه ، لذا يبقى معزولاً عاجزاً عن إقامة أي تحالفٍ ، فهو كمن قُيّد بالسلاسل والقيود ، فإذا خرج يبحث عن الحرية فقد وصل إلى من يصادر حريته ، فيعود إلى مجتمعه ملقياً بحريته مذعناً للقبيلة ، والتنازل عن هذه الحرية يعني الاستسلام والخضوع لما تمليه عليه قبيلته سواء اتفق معها أم لم يتفق . يقول العديل بن الفرخ في الخروج على القبيلة[3] :

وإنّي وإنْ عاديتُهم وجفوتُهمْ لتألمُ مما عَضّ أكبادُهم كَبِدي
لأنّ أبي عندَ الحفاظِ أبُوهُمُ وخالُهمُ خالِي وجُدّهم جِدّي

ويطلب الحماية والدفاع والمناصرة . وممن خلعته قبائلهم قيس بن منقذ بن الحدادية ، وصخر الغيّ الهُذلي ، وأبو الطمحان القيني ، والأحيمر السعدي[4] ، وممن عاش أيضاً في غير

---

[1] انظر ، المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 667/1 .

[2] المصدر نفسه ، 667/1 .

[3] المصدر نفسه ، 729/1 .

[4] انظر ، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص70 .

وانظر ، بدوي ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص72 .

قبيلته الشنفرى ولكن لم يكن خليعاً بل سبي مع والدته وهو صغير[1] . ومن خرج على قبيلته وطلب جوار قبيلة أخرى فيؤخذ نصف ديته ، والقوانين التي يعمل بها أو الأعراف والتقاليد التي تطبّق عليهم لم تكن إلا كإجراء تأديبي لم يطبّق إلا على الضعفاء ممن لم تكن لهم عصبة قبلية تؤويهم .

فقيس بن الحدادية لقيه قوم من مزينة وكان خليعاً فقال له استأسر قال : ما ينفعكم أسري وأنا خليع ؟ " والله لو طلبتم بي عنزاً جرباء جدعاء ما أعطيتموها " ، فقالوا استأسر فقال : نفسي عليّ أكرم من ذلك [2] ، فقاتلهم حتى قُتل .فالخلع والموت كلاهما موت بعد الغربة عن القبيلة.

وقد يكون الخلاف مع القبيلة عارضاً فلا يتخلى عن نسبه وانتمائه أو يطلب حماية قبيلة أخرى ، مما يعني له الضياع في أرض غير آمنه وحياة غير مستقره ، فيعيش صراعاً نفسياً بين إبائه وكرامته وعزة نفسه ، وبين حبه لقومه فيعيش في غربة مع ذاته ببعده وما يصاحب ذلك من قلق أو خوف وغربةٍ عن قبيلته ومجتمعه . قال عمرو بن قميئة[3] :

فقلتُ فِراقُ الدار أجملُ بيننا	وَقد ينتاي عن دار سوء نزيحُهــا
فإن تشْعَبي فالشَّعْبُ مِنْكِ سَجيَّةٌ	إذا شيمتي لم يُؤْتَ منها سَجيحُها

وتلجأ القبيلة أو الفرد عادةً إلى النزوح والبعد والرحيل إلى مكان غير المكان وأرض غير الأرض ، طلباً للحماية لتهدأ النفوس إذا ما أساء أحد جوارها ، وكان أساس الصراع بين القبائل إما من أجل الماء والكلأ وموارد العيش ، وإما للثأر بين القبائل واقتتالٍ لتأييد طرفٍ أو

---

[1] انظر ، الجندي ، علي ، **في تاريخ الأدب الجاهلي** ، دار الفكر ، ص 448 - 455 .

[2] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 9 /120.

[3] ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص243 .

عمرو بن قميئة : بن قيس بن ثعلبة من رهط طرفة بن العبد ، جاهليٌ قديم صحب امرأ القيس لما خرج إلى بلاد الروم وعناه في قوله :

بَكى صَاحبي لما رَأى الدَربَ دُونَه وأيقنَ أنّا لاحقان بقيصرا

(ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص243 ، عفيف عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 426) .

معارضة آخر ، وكثيراً ما يكون الخلافُ بين القبائل للتعدي على أعراضٍ أو انتهاك حرمات . فلا ترضى قبيلة القتيل العار وقبول الدية ، أو تستبدل بدم أبنائها لبناً بمعنى إبلاً [1] :

فلو أنَ حياً يقبلُ المالَ فدية — لسُقنا لكم سيلاً من المال مُفعَماً ؟

ولكن أبى قومٌ أصيبَ أخوهمُ — رضَى العار واختاروا على اللبن الدما

فالقبيلة كانت تأخذ حقوقها بحد الحسام ، وبعض القبائل كانت تلجأ إلى المصالحة والحوار أو يتكفل شيوخ بعض القبائل بفك النزاع بدفع مبالغ مالية ، أو الانتقال إلى أماكن فاصلة ، حتى لا يكون هناك احتكاكٌ بين أفرادها ، وهناك بعض القبائل هي التي تتكفل بحل النزاع بين المتخاصمين إذا كانت على قدر من الهيبة والثروة ، ولا تكون هذا السلطة إلا بالقوة. فكذلك الدولة تفرض سيادتها على الداخل في حمايتها وعلى ما يجاورها إذا التزمت بحسن الجوار الذي تؤيده القوة .

ج - دور المرأة في اغتراب الصعاليك واللصوص :

للمرأة موقفان في حياة الصعاليك ، موقف سلبي يتمثل بالمرأة العاذلة واللائمة ، لاعتزازها بمكانتها الاجتماعية ، وتسخر من سوء أوضاع زوجها الاقتصادية إذ ترفض الزواج منه ؛ لسواده والسخرية منه والانفصال عنه . وموقف إيجابي في صبرها على بعده مشرداً أو خليعاً، فقيراً أو سجينا كصبر ليلى الأخيلية مع توبة بن الحمير، حين دخلت على الخليفة عبد الملك ابن مروان وقد أسنت وعجزت فقال لها : ما رأى توبة فيكِ حتى هويك ؟ قالت : ما رآه الناس فيك حين ولوك [2] ، وموقف امرأة هدبة أبن الخشرم التي كانت تزوره وتحضه على الصبر ونصحها ألا تتزوج بعده إلا رجلاً ماجداً فما كان منها إلا أن مالت إلى قصّاب فجدعت أنفها حتى لا تصلح لزوج غيره ولم يكن هدبة لصاً بل سجيناً بسبب جناية قتل [3] :

فلا تنكَحي إن فرَّق الدهرُ بيننا — أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

---

[1] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 216/1 . البيتان لم يعرف قائلهما .

[2] القوال ، أنطوان ، شرح ديواني ليلى الأخيلية وتوبة بن الحمير وقصة حبهما ، دار الفكر العربي بيروت ، ط1 ، 2003 ، ص 27 .

[3] الجبوري ، شعر هدبة بن الخشرم ، ص 69.

أغمّ القفا : الغمم أن يسيل الشعر حتى يضيق الوجه والقفا (اللسان ، مادة غمم) .

فالمرأة هي الأم والأخت والزوجة وهي الأكثر إحساسا بالغربة سواء في غربتها النفسية أو في غربتها الاجتماعيّة ، وهي سبب المعاناة لأسرتها ولنفسها في مجتمع تميّز بالطبقية ، والتصنيف العرقي حسب اللون والعرق والجنس، فإذا كانت المرأة أمة فلا تلد إلا عبيداً وإن كان آباؤهم أحرارا . فعروة كان والده سيداً في قومه ولم يرفعه شرف والده.

والشنفرى يُرهن مع أمه وأخيه بعد أن سبيت والدته وهو صغير وكان يقوم على خدمة سيده مع ابنةٍ له في رعاية الغنم ،فعندما دعاها يا أخية وقيل طلبها أن تغسل رأسه ، وهناك رواية تقول بأنه مال ليقبلها أو طلب يدها فلطمته[1] .وفي نظرها أنه عبدٌ لا يحقُ له أن يطلب الحرائر، أو يتجاوز طبقته ليرتفع إلى طبقتها ، فكانت هذه الحادثة شرارة اليقظة في حياته ، فقال[2] :

ألا هَل أتى فِتيان قومي جَمَاعـــةً	بما لطمتْ كفُّ الفتاةِ هَجينَها
وَلو عَلمتْ قُعْسُوسُ أنسابَ والِدي	ووالدَها ظلّت تقاصَرُ دونَهـا

فهو يحاول أن يفخر بنسب والده ويغض من نسب والدته ، فالعار لحق به من سواد أمه فكانت هذه العقدة أي عقدة اللون هي التي تلاحقه عندما يفخر ببطولاته وشجاعته ، ويحاول أن يتجاهل الإشارة إلى والدته ؛ لأن العار لحقهم بسبب نسب أمهاتهم فدعوا بالهجناء . والهجين من اختلف جنسية والديه، وسموا بالأغربة لسواد ألوانهم . و السليك بن السلكة يحاول إنقاذ خالاته لكنه يعجز عن فدائهن ، ويعجز عن تخليصهن من المعاناة وخالاته كأمه في العبودية والرّق ، وصارت الأم عارا وسبة لأولادها أو زوجها .

فعروة كغيره من أبناء الإماء ، يحاول التغاضي عن سوء النسب من قبل أمه ويلوم والده على هذا النسب ، لأن والده كان سيداً في قومه ، وكان يعوّض عن نسبه بالأعمال التي يقوم بها ، وللخلاص من هذا العار الذي يختزن في اللا وعي ، يحاول أن يجد البديل والتواصل مع امرأة أخرى لينسى أو يتناسى الضيق الذي يشعر به. يقول عروة[3] :

هُمْ عَيّروني أنَّ أمّي غَريبةٌ	وَهَل فِي كريمٍ ماجدٍ ما يُعيَّرُ

---

[1] انظر، الأصفهاني ، **الأغاني** ،22/ 215.

[2] الشنفرى ، **الديوان** ، ص78.

[3] عروة ، **الديوان** ، ص 65 .

فالعواطف الإنسانية التي قابله المجتمع بها يحاول أن يعوضها بالمرأة ، التي يؤلف معها مجتمعاً مصغراً للخلاص من ضيق الحياة وجفوة المجتمع ، فالمرأة متنفسه عن الكبت الذي يعانيه إلا أن الفقر أحياناً يعكر صفو الانسجام بينهما ، وإذا لم يكن الفقر فليكن الواشي والمجتمع اللذان لهما رؤية خاصة . وان لم يكن هذا ولا ذاك فإن المرأة تنفر من الفقر كما تنفر من السواد . وتأبط شراً ترفض الفتيات الاقتران به لأنه كثير المخاطرة بنفسه فإنه زوج اليوم قتيل الغد ، ويتدخل الوشاة لمنع الفتاة من الزواج منه ، وقال في ذلك[1] :

وَقالوا لها لا تَنْكِحيهِ فإنّـــــهُ	لأولِ نصلٍ أنْ يُلاقي مَجمَــعاً
فلم تَرَ من رأى. قتيلاً وَحاذَرَتْ	تأيّمِها من لابسِ الليلِ أروَعا

وهو لا يحذر الموت لأن الشجاعة من أخلاق الرجال ، فحياته بين اللهو و السطو فهو يعيش الفرح و المعاناة ، بين الإقامة و المغامرة ، ويقول رداً على الحوار معها[2] :

فقلتُ لها يَومان يومُ إقامَــــةٍ	أهزُّ به غُصناً من البانِ أخـْـضَرا
ويومٌ أهزُّ السّيف في جيدِ أغيَدٍ	له نسوةٌ لم تلقَ مِثليَ أنكَــــــرَا

فغربة الصعاليك غربة نفسية لعدم التكيُّف مع المجتمع ، وعجز عن التأثير في محيطه الاجتماعي ورفض التبعية لأنه يؤمن بتفرده وتميُّزه ، فغرّب عن مجتمعه الذي سامه سوء العذاب . فالواقع الذي يطمح إليه واقعٌ مثالي يقوم على العدل والمساواة والواقع الذي يعيشه واقعٌ مظلم فاصطدم الواقع بالمثال والوجود الأصيل مع الوجود المُزيَّف، ووجد أن التنازل عن الحُريَّة هي مصادرة لها لتكون العلاقة علاقةُ العبد بالسيّد وليس علاقة الند للند ، أو علاقة الفرد مقابل الجماعة، يعيش عند القبيلة ولا يعيش بينها ، لا ليكون فرداً منها بل عبداً لها. وعندما تزوج وعاد من إحدى غاراته عيّرته زوجته عندما عاد مدّهناً ولم يعد معه ابن عمها عندما شاركه في غارةٍ ليلية وقال[3] :

تَقولُ تركتَ صاحَباً لك ضَائِعَـاً	وَجِئتَ إلينا فارَقاً مُتَباطئـــــــــــا
إذا ما تَركتُ صَاحبي لثِلاثـــــةٍ	أو اثنين مِثلينا فلا أبتُ آمِنـــــــا
وما كُنتُ أبّاءً على الخِلِّ إذ دَعَا	ولا المَرْءِ يدعوني مُمِرا مُداهِنا

---

[1] تأبط شرا ، **الديوان** ، ص 112.

[2] المصدر نفسه ، ص 100.

[3] المصدر نفسه ، ص 213 .

وكانت المرأة هي التي تحاور الرجل لمنعه من الإنفاق والإسراف بالمال وتحاول أن تكفه عن المخاطرة بنفسه ويقول في ذلك[1]:

عَاذِلتِي إنَّ بَعضَ اللومِ مَعْنَفَةٌ — وَهَل مَتاعٌ وإنْ أبقيتُه بَــــــاقِ

سَدِّد خِلالَكَ مِن مالٍ تُجمِّعُــهُ — حَتىّ تُلاقِي الذي كلُّ امــرِءٍ لاقِ

ويقال إن تأبط شراً هو لقب له واسمه ثابت بن جابر والذي أطلق هذا اللقب أمه أميمة إذ لامته بأنه لم يأتِ لها بهديةٍ ، كما يفعل أقرانه من أبناء قومه ، فجاءها بجرابٍ من الأفاعي فوضعه أمامها فصاحت ، وقيل إن النساء سألتها عنه فقالت تأبّط شراً فخرج [2] . والشر السلاح أو السكين الذي حمله ، وقيل أيضاً أن سبب التسمية أنه حمل غولاً فعندما ثقل عليه ألقاه بين قومه ، وهناك من يقول إن سبب اللقب لبيت شعر قاله فقال[3] :

تأبَّطَ شَرّاً ثُمّ رَاحَ أو اغتَدَى — يُوائِمُ غُنْماً أو يُشيفُ على ذَحْلِ

وهذه الروايات كلها تحمل معنى الشر والسلوك العدواني الذي يوصف به ، ومما يقال في ذلك أن والدته كانت تحاول الخلاص منه بالإتفاق مع أبي الكبير الهذلي لتخلو لها الفرصة وتتزوجه وقد كان قد اكتشف هذه العلاقة بينهما .

فالمرأة العاذلة إما أن تكون على الحقيقة خوف تأيمها وجعل أبنائها أيتاماً ، وإما أن يجّد من نفسه محاوراً يحاول أن يبث أفكاره من خلالها ، فيأتي بالأفكار التي يريد قولها ، ويحاول الطرف الأخر أن يرد عليها ويقنع الآخرين بها ، يقول عروة[4] :

ذَريني يَكُن مَالِي لعرضِي جُنَّــةً — يَقِي المالُ عِرضِي قبلَ أنْ يتبَدَّدا

و إلا فكُفِّي بعضَ لومِك واجعلِي — إلى رأيي من تُلحِينَ رأيكِ مُسنَدا

---

[1] تأبّط شراً ، الديوان ، ص 141.

[2] انظر، الأصفهاني ، الأغاني ، 21 / 144 .

[3] تأبّط شراً ، الديوان ، ص 191.

يوائم : يوافق (اللسان ، مادة وأم)

يشيف : يقتدر (اللسان ، مادة شاف أو شيف) .

[4] عروة ، الديوان ، ص 41 .

ذحـل : الثأر وقيل طلب مكافأة بجناية جنت عليك . وقيل هو العداوة والحقد وجمعه أذحال (اللسان ، مادة ذحـل) .

وقال حطائط بن يعفر [1]:

أريني جَواداً مات هَزْلاً لعَلنـــي	أرى ما ترين أو بخيلاً مُخلـــدا

ويحاول عروة إقناعها بأن الإنفاق صار له ديدناً ، وإن أدى إلى شحوب نفسه وهزال جسمه وقال[2] :

قالتْ تُماضُرُ إذ رَأت مالي خَويٌّ	وَجَفا الأقاربُ فالفؤاد قريحُ
مالي رأيتك في النَّدِيِّ مُـــنكّسِاً	وَصِبَاً كأنك في النديِّ نطِيـــحُ

و لا يقتصرُ العتاب واللوم على منعه من الإنفاق أو المُخاطرة بالنفس ، وإنما صار العتاب بسبب العنف والشراسة والفضاضة . فهذا سعد بن ناشب تلومه وتعاتبه على شراسته نتيجة لتقلب الظروف، وقد كان يتقلب في خليقته بين الشدة واللين وبين الجهل والحلم ، يقول [3] :

تُفنّدني فيما ترَى مِن شَرَاسَتـــــي	وشِدةُ نفسْي أمُ سعدٍ وَمَا تـدري
فقلتُ لها إنَّ الحليَم وإن حَـــــلا	ليُلفى على حالٍ أمَرَّ من الصَّبِـر
وما بي على من لانَ لي من فَظاظةٍ	وَلكنني فظٌ أبيٌّ على القسْــر
فإن تُعذِليني تُعْذُلي بي مُـــــرَزّأ	كَريْمَ نَثا الإعسار مُشترك العُسْرِ

وغالبا ما كان دور المرأة سلبياً ، فهي تلومه على إسرافه في المال ، وإنفاقه وتبذيره ، وكأنها تدعوه إلى البخل لتسوء نظرة المجتمع إليه[4] ، أو تحاول بأنانيتها أن تستأثر بالمال دون غيرها ، وقد تلومه متعللة بأنها تخشى عليه الخطر والموت لكثرة غاراته وغزواته ، ويحاول

---

[1] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1732/4 .

[2] عروة ،الديوان ص88.

[3] المرزوقي ، شرح الحماسة ، ص 1-656/2 .

الوَصَبُ : الوَجَعُ والمرضُ. (، اللسان مادة وصب) .

نثأ و نثث : نثا الحديث ، حدث به وأشاعه . (اللسان ، مادة نثث ونثا) .

حطائط بن يعفر : أخوه الأسود بن يعفر شاعر من شعراء الجاهلية قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء :" ولا عقب للأسود ولا لأخيه " ، وعند أبي الفرج في الأغاني ، 133/11 ، كانت ابنة العبّاب زوجته وهي امرأة من بني عجل وكان له أخوان زيدٌ وأربد (شرح المرزوقي ، الحماسة ، 1732/4 ، عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 139) .

[4] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1/ 664 .

إقناعها بأنه يعيش بين تيارين تيار يفرض عليه أن يكون جافاً ، وتيارٌ يفرض عليه أن يكون ليناً سهلاً ، فهو يتأثر بالمحيط الذي يعيش فيه ، فإذا افتقر فتكثر من لومه ليكسب الغنى .

ومن خلال الأمثلة الكثيرة والمتعددة لم نجد شاعراً تثنيه العاذلة عن رأيه أو أفكاره أو ما يؤمن به ؛ لأن الأدلة المقنعة التي يقدمها تثبت تفوقه ، فإذا حاول أن يقنع نفسه ويقنع المجتمع بأفكاره فكيف لا يقنع المرأة ؟ ولديه الإثباتات والوسائل الكفيلة كالتجارب المتعددة والواقع الذي يعيشهُ . فالعاذلة تريد سلبه ذلك الوجود الذي لا يتم إلا بانخراطه في سبيل الجماعة ، تضحي بالمال وبالذكر الحسن والمجد ومعالي الأمور في سبيل أن يبقى سالماً [1].

كيف تثنيه عن عزيمته وهو يرى أن المال هو الذي يخلد الذكر ولن يكون سبباً في خلود الإنسان [2]. كيف يكون بخيلاً ؟ والمجتمع لا يقيم وزناً لفردٍ لا يقدّم بذلاً ولا عطاءً ، وهو يريد أن يعوض عن سوء مكانته الاجتماعية ، بتقديم المساعدةِ لطالب الحاجة كدفع الديات والإسهام بتقديم العون لمن يحتاجه ، والقيام بالواجبات المطلوبة منه .

فهو إنسان أوقف حياته من أجل المشرَّدين المقهورين ، ويقترن الطموح للغنى بالاغتراب المشبعُ بالروح الإنسانيّة ليُسعِدَ من صار الجوع عدوهم ، وغيرهم يشكو التُخمة والشبع . وعروة كغيره من الصعاليك لكن لم يتحول إلى سافِكِ دم ولا مشرد في مجاهل الصحراء القاسية؛ لأن قبيلته لم تخلعه وصعلكته كانت باباً من أبواب الإنسانية والمـروءة ، والتعاون الاجتماعي بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها كان يراه واجبا فلم يغزُ غنياً كريماً ،بل يتخيَّرُ من عرفوا بالبخل ممن لا يرعون ضعـفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم ، وأصبحت الصعلكة نبلاً وأخلاقاً ، وحنّوا للفروسيّةِ والإيثار ، يقول عروة[3] :

فلا أتركُ الإخوانَ مـا عِشتُ للرّدَى ... كَما أنّه لا يتْرُكُ الماءَ شاربُـــه

ولا يُستضامُ الدهرَ جَـاري وَلا أرىَ ... كَمَن بَاتَ تَسْري للصَدِيق عَقاربُــه

---

(1) المرزوقي ، شرح الحماسة ، 664/1 .

(2) انظر ، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 129.

(3) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 73/3 .

فهو يكتفي بشربة ماء ويقدّم طعامه للجائع. وخلفاء بني أمية يثنون عليه فيقول عبد الملك: "من قال إن حاتم الطائي أكرم الناس فقد ظلم عروة " [1] . وقال معاوية : "لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببتُ أن أتزوج إليهم "[2] . فكانت المرأة تحاول أن تكفّه عن هذا الخلق والفلسفة والمبادئ التي يؤمن بها إلا أنه أصر على موقفه. فكانت أخلاقه قد أعجبت الخُلفاء ولم تعجب المرأة اللائمة والعاذلة فإذا كان عروة لا ينجب الأبناء ، فقد خلد ذكره بالبذل والعطاء .

و تمثل المرأة له الغربة واليأس والإحباط في لومها له وفي انفصالها عنه ، وتحاول أن تثنيه عن خلقه الكريم ، ولكن لا يمكن أن يكون دور المرأة سلبيا دائما ، وهو يلتجئ لها ويبادلها المشاعر والأحاسيس و جرّد منها شخصا آخر يحاوره ويطلعه على ما يشعر به من إحساس غريب ، بمحاولة التأثير على هذا المجتمع للاعتراف بفضله ، ومحاولة الاتصال بالمجتمع الذي اختاره لنفسه ، لا للمجتمع الذي يصادر حريته و يملي عليه القيم أو القوانين التي تقيده وتَحدُ من نشاطه الذي انفصل عنه .

ولم يكن هذا موقف المرأة بشكل عام بل هو صنفٌ من النساء يُجرّد منه محاورا لنفسه فهذا هدبة بن الخشرم يُقدَّم للقصاص وتقف زوجته إلى جانبه وتحثه على الصبر فلم تزد في آلام غربته بعد أن قتل زيادة بن زيد العذري وهو ينشد[3] :

ولستُ بمفراحٍ إذا الدَّهرُ سَرّني وَلا جازعٌ من صَرفِهِ المُتَقلِّـــبِ
وَلا أبْتغِي الشرَّ ، والشرُّ تاركي ولكنْ متى أحْمَل عَلى الشَرِّ أركبِ

---

(1) الأصفهاني ، الأغاني ، 73/3 .

(2) المصدر نفسه ، 73/3 .

(3) الجبوري ، شعر هدبة بن الخشرم ، ص 69.

وانظر المبرّد ، الكامل في اللغة والأدب ، 356/1.

ونظر إلى امرأته وهي تتبعه وضن بها وكانت جميلة فقالت : قفوا عنه ساعة ، وقد أوصاها أن لا تتزوج غيره فقال[1] :

فلا تنكحي إن فرّقَ الدهرُ بينَنا   أغمَّ القفا والوجهِ ليسَ بأنزَعا

بل تعدى اللوم إلى شرب الخمر ، وهناك من لامت أخ زوجها في عدم الأخذ بالثأر كامرأة عروة إذ لامت أبا خراش عندما كان يداعب ابنه ونسي أخاه فبكى وقال[2] :

وَقالتْ أراهُ بَعدَ عُروة لاهيــــاً   وَذلك رزءٌ لو عَلمتُ قليلُ

فلا تحسَبِي إني تناسَيتُ عَهدَه   ولكنّ صَبْري يا أميمَ جَميلُ

ألم تعْلمي أنْ قد تَفرّقَ قبلنـــا   نديما صَفاءٍ مَالكٌ وَعقيلُ

وإنيّ إذا ما الصّبحُ آنستُ ضَوءَه   يُعاودُني قُطعٌ عَليّ ثقيـلُ

كما كان اللوم عند الجبن وعدم الإقدام وقد يلام لقلة صبره على بُعدها أو فراقها له بسبب موت أو انفصالٍ بينهما أو خوف كلام الوشاة والحُسّاد يقول توبة بن الحِميَر[3] :

وَلو أنّ ليلى الأخيلية سَلّمتْ   عليّ ودُوني تُربة وَصَفائـــحُ

لسَلّمتُ تَسليمَ البشاشةِ أو زَقَا   إليها صَدى من جانبِ القبر صائحُ

ومما قاله في عدم صبره وتعلقه بها عندما طالت غربته وأودع السجن[4] :

فإن تمنعُوا ليلى وَحُسنَ حَديثِها   فلن تمنعوا منّي البُكا والقوافِيا

فَهلا مَنعتُم إذ مَنعتمُ حَديثَهـــا   خَيالاً يُوافيني على النأي هَادِيا

---

[1] الجبوري ، شعر هدبة بن الخشرم ، ص 105 .

[2] الأصفهاني ، الأغاني ، 247/21 .

[3] توبة بن الحمير ، الديوان ، شرحه خليل إبراهيم العطية ، دار صادر بيروت ، ط1 ، 1998 ، ص 7 .

[4] المصدر نفسه ، ص 10.

زقا يزقو ويزقي صاح وكل صائح زاق . (اللسان ، مادة زقا).

فالفراق والبعد والغربة لن تضيره ، فإذا منع الزيارة والوصل فلن يمنعوا طيف خيالها عنه وتذكره لها وحسن شعره فيها ، ولو سلّمت عليه عند نزع روحه لأجابتها عظامه ، فشعورهُ الصادق هو الذي يجعله لا ينساها في شعره ، وإن منعوا حديثها أو اقترابها فلن يمنعوا خيالها من زيارته . فالمرأة في هذا الموقف كان دورها إيجابياً فهي لا تتردد لحظةً واحدةً في التواصل معه في الواقع وفي الخيال ، وهي تحاول أن تبث فيه روح الحماس والقوة ، ولا تحاول أن تضعف أمامه ليستمد من قوتها قوةً ، ومن صبرها عزيمة ، فإذا صبرت على بعده وفراقه فهو لا ينساها حتى في أشد لحظات حياته ، فهو يعيش الغربة عنها مكانياً في السجن ، ونفسياً في محاولة منع الاتصال به و زيارته ، و قد تطول فترة سجنه فيعيش بين أمل الإفراج عنه أو القصـــاص منه ، فكل ألوان القهر تعرّض لها وكانت بجانبه لم تضعف ولم تلمه على ذنبه الذي اقترفه من أجل كرامته .

وكانت المرأة - في موقف الوداع إلى ساحات القتال وميادين الجهاد - أكثر إحساساً وتأثراً بغياب بعلها ، وبكاء الفتيات خلف الأباء أشدُّ إيلاماً، ولا سيما إذا كان الفراق يحمل إحساس اللاعودة. و ترك مالك بن الريب دياره و ابنتيه ليسافر إلى خراسان بعد أن ودع اللصوصية وقطع الطريق ؛ طلباً للعيش الذي ضاق به في موطنه ، وضاق بغربته في السجن بعد تعديه على الناس يقول في ذلك[1] :

تقولُ ابنتي لمّا رَأتْ طولَ رحلتِي	سِفارُكَ هَذا تاركي لا أبا ليَــــــــا
ألمَ تَرني بعتُ الضلالة بالهُـــــدى	وأصبحتُ في جيش ابن عفّانَ غازياً
لعَمْري لئن غالتْ خَراسانَ هامتِي	لقد كنتُ عن بابَيْ خراسانَ نائيـــــاً

وأيقن في غربته بدنو الأجل وبعد الديار بعد أن حالت بينه وبين أهله القفار، وزاد حنينه إلى أهله وبلاده ويتخيل لوعة النساء والبنات على فقده فيقول [2] :

وبالرّمل منّا نُسوةٌ لو شَهدنَني	بَكَيْنَ وَفَدّيْنَ الطبيبَ المُداويـا
فمنهُنَ أمي وابنتايَ وَخَالتِــي	وباكيةٌ أخرى تُهيجُ البَواكـيا
غريبٌ بعيدُ الدار ثاوٍ بقفْـــرَةٍ	يَدَ الدّهرِ مَعروفاً بأن لاتدانيا

---

[1] القالي ، ذيــل الأمالي والنوادر ، ص 87 .

[2] ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص227.

ومما زاد في ألم الفراق البعد عن ديار الأحبة والموت في بلاد الغربة حيث لا أم ولا أبناء ولا بنات ولا زوجة ، وحتى لا تكون القطيعة في الحياة وفي الممات ، فقد طلب التواصل بزيارة القبر، والدعاء له والتسليم عليه ، ويرد السلام حتى وإن حال بينه وبين زائره صفائح وتراب ، فيقول[1] :

فيا ليتَ شِعري هَل بَكتْ أمُّ مالكٍ | كَما كُنتُ لو عَالوا نَعيَّكَ باكَيِا
إذا مُتَ فاعتادِي القُبورَ وسلِمِي | على الرمسِ أسقيتِ السَّحاب الغوَادِيا

فمالك بن الريب كان يقطع الطريق إلى أن هيأ الله له التوبة على يد سعيد بن عثمان. فالتحق بجيوش الفتح إلى خراسان ، فكان يعيش آلام الغربة في ترك حياته التي اعتادها ، وابتعد عن الوطن الذي يحن إليه ، وشعر بالغربة وفقدان الأهل والأحبة .

وبالرغم من وجود رفاقه حوله شعر بضعفه ، واستعاد ذكرياته فقد كان قوياً فارساً لا يحتاج إلى من يعينه ، و أصبح الرفاق اليوم يجرونه وقد كان صعباً قياده ، فحيناً يطلب أن يرفعوه ليرى سهيل الذي يذكره بوطنه ، ويتذكر حصانه الذي لا يجد له ساقياً ، فالدار دار غربة ، غربة عن الأهل والوطن وما أشدها من غربة ! إذا كان لا سبيل إلى العودة ، ويعيش في نفوس بناته وأمه وخالاته ويتخيل شدة الفجيعة التي تحل بهن بعد فقده ، يقول[2] :

يَقولُونَ لا تَبعُدْ وَهُم يَدفنُونَنِي | وَأينَ مَكانَ البُعدِ إلا مَكانِيا

وتعرض عروة للغربة عندما فارق زوجه سلمى وسمع لأقوال الوشاة واحتال عليه أهلها سواء بقبول الفداء وشرب الخمر فأثنت عليه وعلى طيب عشرته. إلا أن نساء قومه قد جعلنها تفضل الانفصال عنه ولا تُقيم على حياة ذليلة إذ راح عروة يقول[3] :

وَقالُوا لستَ بَعدَ فداء سَلمَى | بمُغنٍ ما لَديكَ وَلا فَقِيرِ
وَلا أبيكَ لو كاليوم أمري | وَمَن لكَ بالتَّدبُر في الأمورِ
إذنْ لملكتُ عِصمَة أمِّ وهبٍ | على مَا كَان من حَسَكِ الصَّدورِ

---

[1] الأصفهاني ، الأغاني ، 22 / 304 .

وانظر ، خفاجي ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ، ص310 .

[2] انظر ، الأصفهاني ، الأغاني ، 22 / 304 .

وانظر ، المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ص 347 .

[3] عروة ، الديوان ، ص 65.

والمرأة لا تقل شأناً وكرامة عن الرجل فلها دورها في الحياة الجاهلية والإسلام ولها مكانتها فقد أغار السليك على بني عوارة فاستشاروا شيخاً منهم فقال : إذا عدا لم يتعلق به شيء فدعوه حتى يرد الماء فإذا شرب ثقل فلم يستطع العدو ، فلما ورد الماء بادروه فلما علم أنه مأخوذ خاتلهم وقصد لأدنى بيوتهم حتى ولج على امرأة يقال لها فكيهة فاستجار بها فأجارته وقال السليك في ذلك [1] :

لعَمْرُ أبيكَ والأنباءُ تُنْمِـــــي	لنِعمَ الجارُ أختُ بني عَــــوَارا
من الخَفِراتِ لمْ تَفْضَح أباهـا	ولَم تَرفَعْ لأخوتِها شَنَـــــــاراً
يَعافُ وصَالَ ذاتِ البذلِ قلبي	ويَتّبَعُ الممنعةَ النَـــــــــوَارا
وما عَجِزتْ فكيهةُ يومَ قامَتْ	بنصلِ السّيفِ واستَلبُوا الخِمارا

وبالرغم مما يتعرض له من مخاطر فلن يكف عن غاراته وغزواته ، أو ترهبه محاولات القبض عليه أو قتله ، فإذا نجا من غارةٍ اليوم فقد يعود إلى غارةٍ أخرى في اليوم التالي ، ولا يعرف عهداً ولا ميثاقاً ، فإذا لم يستطع نيل بغيته فقد يغدر بمن مد له يد العون كامرأة الخثعمي التي أبقاها عنده [2] . فالسليك كأحد شعراء الصعاليك خرج على مجتمعه ؛ لأنه يؤمن أن السلوك العدواني هو الذي يحقق له القوت والأمن ، لكنه وجد أن هناك طوائف منهم قد وفرت الأمن والقوت دون العنف ، لكن هذا السلوك لا يعجبه ، لأنه وإن بقي غيره في مجتمعه فقد تنازل عن حريته وكرامته مقابل ما يحققه من أمن ، ولا يرضى هو بهذا السلوك فهو لا يسلم حريته لغيره ، لأنه يرى في نفسه قدرةً وثقة لتحقيق ذاتـه وأمنه[3] ، والمجتمع الذي خرج عليه لن يحقق له ما

---

[1] السليك ، الديوان ، ص 75 .

[2] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 41 .

[3] انظر ، القيسي ، **تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام** ، ص 157 - 181

الخثعمي : هو مالك بن عمرو بن أبي ذراع من جثم ابن عوف الذي رهن امرأته حتى لا يقتله السليك ولا يطلع أحداً من خثعم عليه ليفدي نفسه فبلغ ذلك شبيل بن قلادة بن سعد وأنس ابن مدرك فخالفا إلى السليك فلم يشعر إلا وقد طرقاه في الخيل . (الأصفهاني ، **الأغاني** ، 354/22).

يصبو إليه إلا إذا كان دون كرامةٍ أو حرية ، فكأنه يصارع من أجل معنى معنوي ، وليس من أجل هدف القوت ومع ذلك فإن الشر كان أحد مقومات شخصية السليك [1] :

مَن مُبلغٌ حَرباً بأنّي مَقتُـــولْ؟	يا رُبَّ نهبٍ قد حَويتُ عُثكُولْ
ورُبَّ قِرنٍ قد تركتُ مَجْـدُولْ	ورُبَّ زوجٍ قدِ نكحتُ عُطبُولْ
ورُبَّ عانٍ قد فككتُ مَكبُـــولْ	ورُبَّ وادٍ قد قطعتُ مشبْـُولْ

وهو بهذه الأعمال من غزو وسطو يريد أن يحقق وجوداً مستقلاً ، وأفعاله التي يقوم بها والتي تصدر منه لا تدل على ضعف في همته ، وإنما تدل على كرهٍ للمجتمع الذي أوجد الفوارق المادية ؛ بسبب الطبقية التي يؤمن بها المجتمع والفوقية التي تجعل الناس الآخرين عبيداً فيعيش مطارداً من مجتمعه ، لا لأنه يأنف هذا المجتمع أو يجد نفسه غريباً عنه ، بل يرى أن المجتمع هو سبب غربته[2] ، فالفساد الخلقي الموجود في المجتمع والقهر والتسلط لا يستطيعُ أن يتأقلم أو ينكيف معه ، ويعجز عن إحداث أي تغيير . وكأن المجتمع في تلقائيته يستجيب لقوى أكبر تسيطر عليه ، وهو بفرديته التي يسعى إلى تحقيقها وحريته التي ينشدها يضعف أمام إرادة المجتمع ، فكانت إرادته إرادة المواجهة مع المجتمع وليس المصالحة معه .

وإذا كان لهم نصيب وافر من الغنائم والإبل ، فلم يكن لهم حظٌ من المرأة إلا المعاناة والشقاء [3] ، و لا تعرف حياتهم الأمن ولا الاستقرار، كما لا تسمح لهم مكانتهم الاجتماعية النظر إلى أعلى من مستواهم ، إضافة إلى نفور الناس من صفاتهم كدمامة الخُلق ، وهزال الجسم ، سوء

---

(1) السليك ، **الديوان** ، ص 90 .

عثكل : و العثكال العذق من اعذاق النخل الذي يكون فيه الرطب . (**اللسان** ، مادة عثكل) .

عطبل عطبول والعطبول الحسنة التامه (**اللسان** ، مادة عطبل) .

المَنْعُ : أن تَحُولَ بين الرجل وبين الشيء الذي يريده، (**اللسان** ، مادة منع).

لَبْوَةٌ مُشْبِلٌ : معها أولادُها. (**اللسان** ، مادة شبل) .

(2) انظر، المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، 65/1 ، 81 .

(3) انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص282 .

المنظر ، فلم تشفع لهم فروسيتهم وشجاعتهم التي حاولوا أن يجعلوها تعويضاً عن سوء منزلتهم الاجتماعية أمام نظرة الازدراء .

فهو يشعر بالنقص في طبيعته الخلقية وصفاته الشخصية ، ومهما حاول أن يرفع من شأنه في التمسك بالصفات الايجابية من كرم و شجاعة وإقدام و فروسية ، فلم ينل رضا المرأة والإعجاب به ولم تُغيّر موقفها منه يقول السُليك[1] :

ألا عَتِبَتْ عليّ ، فَصارَمتْنِي	وَأعجبَها ذَوُو اللمَّمِ الطِّـوَال
فَإنِي يا ابْنَة الأقوامِ أرْبِـي	عَلى فِعلِ الوَضِيِّ منَ الرجَـال
فلا تَصِلِي بِصُعْلُوكٍ نـؤوم	إذا أمْسَى يُعدُّ من العيـال
وَلكِنْ كلُّ صَعلوكٍ ضَـروبٍ	بِنصْلِ السَّيفِ هَامَاتِ الرِّجَـال

وهـزئت منه أمامة عندما رأت صفاته الخَلقِيّة كنحول جسمه وسواد جلده والفقم في فمه ، فهو أسود اللون بارز الفك يُقدم حين يجبن الآخرون فقال السليك [2] :

- هَزِئَت أمامة أنْ رأتْ بي رقةً وَفماً به فقمٌ وَجِلدٌ أسْوَدُ

ويقول كذلك[3] :

- أعطِي إذا النفسُ الشّعاعُ تطلعَتْ مَالِي، وَأطعنُ والفرائِصُ تُرْعِدُ

وينظر للمرأة بعد الإحساس بالحرمان وكأنها من كوكب آخر ، ويوازنُ بين دمامة صفاته وجمال ثغرها فيزداد ألما ويأساً ، فكانت المرأة بعيدةً عنه والتي تمثل الانتماء ، فالمرأة هي القبيلة التي رفضته للونه ودمامة خلقه وسوء سلوكه . و شروط الانتماء غير ممكنة لانعدام التوافق بينهما ، واتساع الهوة بين ما يؤمن به وبين ما تؤمن به القبيلة أو المرأة ، فإذا كانت المرأة تتعالى عليه ؛ فإن القبيلة لا تساويه بأبنائها ، وإذا كانت المرأة يعجبها الثروة والغنى ، فإنه لا يستطيع تحقيق ذلك ، ولعل سبب بعده أو انفصاله عن القبيلة هي الطبقية التي تفصل بينه وبين أفراد القبيلة الآخرين[4] .

---

[1] السليك ، **الديوان** ، ص 87-88 .

[2] المصدر نفسه ، ص 87-88 .

[3] المصدر نفسه ، ص 66 .

[4] انظر ، عبد الحميد ، **في تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص 322 .

فقم : الفقم في الفم أن تدخل الأسنان العليا إلى الفم . (**اللسان** ، مادة فقم) .

الفرائص : مفردها فريصة ، وهي اللحم الذي بين الكتف والصدر وترتعد فرائصة ترتجف (**اللسان** ، مادة فرص) .

فالعودة إلى الحالة الطبيعية والتشرد رفض للواقع واجترار للذكريات ، و هي محاولة من الشاعر للبحث عن الحرية المفقـودة ، والتغلب على العقبات التي تحاول فصله عن مجتمعه ، لكن لا يستطيع إليها سبيلاً ؛ لأن التركيب الاجتماعي والاختلال الاقتصادي وعدم المساواة والعدل مبادئ أقام المجتمع أسسه ومـعاييره عليها[1] ، ولن يستطيع الفرد الذي يعاني من هذه الآثار أن يـغير فيها ، أو يتكيف معها ، وكأنه يمثل بهذا السلوك مجتمعاً يقابل المجتمع الذي يعيش فيه ، أو هو ومجتمعه على طرفي نقيض ، مجتمع يسلب الحرية حين يتنازل الأفراد عنها ، ويستحوذ على حياتهم ، بينما يسعى الطرف الآخر إلى الحياة والحرية من غير قيود أو ضوابط لاستعادة حريته التي يريدها هو وليـس التي يريدها المجتمع . قال [2] :

وَتَبسُم عن أَلمَى اللِّثاتِ مُفلَّجٍ   جَدِيرُ الثَّنايا بالعُذُوبَةِ والبَرْدِ

وسحيم بن عبد الحسحاس عندما أسر بعض اليهود امرأةً من بني الحسحاس تسوَّر على اليهودي حصنه فقتله وخلَّص المرأة ، فقالت : "والله لوددتُ أني قدرتُ على مكافأتك فقال : والله إنك لقادرة وطفق يتغزل بها "[3] . ويحاول أن يرفع من شأنه أمام المرأة التي عيّرته بلونه وكنّ يشمتن به ؛ لأنه يقوم على خدمة البيوت . وليجعل من حسن أخلاقه مُعادلاً لسواد لونه ، وتعويضاً عن النقص الذي يشعر به وقال أيضا[4] :

إنْ كُنتُ عَبداً فَنفسِي حُرَّةٌ كَرَماً   أو أسوَدَ اللونِ إنيّ أبيضُ الخُلق

ونتساءل لماذا خرجوا على مجتمعاتهم ؟ أو خلعتهم مجتمعاتهم ؟ هل سلوكهم يناقض سلوك المجتمع ؟ أم أنهم لا يجـدون انسجاما أو توافقاً بينهم وبين مجتمعاتهم ؟ ومهما كانت الإجابة ، فإن هؤلاء الصعاليك قد عاشوا حياتين ، حياة التوافق مع المجتمع قبل الصعلكة ، وحياة الصعلكة بعد أن خاب أملهم[5] ، وخيبة الأمل نتيجة لفقدان الضالة المنشودة التي تتمثل بحاجاتٍ

---

[1] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 283 .

[2] السليك ، **الديوان** ، ص 69 .

[3] سحيم ، **الديوان** ، ص 16 .

انظر ، خليفة ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، ص 187 .

[4] سحيم ، **الديوان** ، ص 30 .

انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 21 /331 .

[5] انظر ، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص30 .مُفلج: الفلج في الاسنان التباعد ، ومُفلج ليس على استقامة ،(**اللسان** ،مادة فلج)

عضويةٍ أو طبيعية ، فهل في خروجهم حققوا هذه الأماني ، أو هل تغيرت نظرة المجتمع لهم بعد خروجهم ؟ .

فهناك من يرى أن الفرد جزءٌ من القبيلة بينما يرى آخرون أن الفرد يقابل القبيلة [1]، فإذا كان الإنسان بطبيعته موجود اجتماعيّ وأن حياته لن تكون حياة إنسانية حقه إلا إذا عاش حياة اجتماعية وسط البشر الأخرين ، أما إذا كانت علاقة الفرد علاقة تنافر وعدم تطابُق بين الذات والبنية الاجتماعيّة ، فحين يغترب عن بنيته الاجتماعيّة يغترب أيضاً عن طبيعته الجوهرية كما يغترب عن ذاته ، لأن هناك وجود فرديّ ووجود اجتماعيّ[2] .

فمن الصعاليك واللصوص من يؤمن بأن الفرد جزءٌ من القبيلة ، يرى أنها تحقق ذاته وتقوم برعايته وتصون كرامته وتدافع عنه ، ولا يعرف إلا من خلالها مقابل أن يقوم بالدور الذي يسند إليه ولا يخرج عن نظامهـا وأعرافها ، أو يسيء إلى جوارها [3] . أما من يرى أن الفرد ليس جزءاً من القبيلة ، بل هو يقابل القبيلة له حريته وحياته وسلوكه[4] ، يقوم بما يراه مناسباً ، ولا يعتمد على القبيلة أو ما تمليه عليه . فلذلك يحقق ذاته بتميزه وفرديته وكذلك بسلوكه الذي يقوم فيه ، فهل يستطيع الإنسان أن يعيش مـــعزولا عن مجتمعه ؟ أو ينتمي إلى مجتمع يتناسب معه في الأفكار والآراء والمعتقدات [5]؟ فالمجتمعات التي شكلها الصعاليك مجتمعات مصغرة ، وأنشئت نتيجة توافق الظروف و الأهداف والغايات ، لكن هذه الـــمجتمعات ليست كأي مجتمع ؛ لأن التمرد والشر والسلوك العدواني هو فلسفتها ، وهذه الفلسفة فلسفةٌ متطرفة لا تتفق مع المجتمعات المجاورة ، ولا تنسجم معها ، فلا تقوم على التواصل مع المجتمعات المـــجاورة ، وتكون العـــلاقة بينها وبين غيرها دائماً هي علاقةُ عداوةٍ وشر وسفك دماء ، وتنازع ملكية الأشياء .

---

(1) انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 85 .

(2) المرجع نفسه ، ص 82 .

(3) المرجع نفسه ، ص 85 .

(4) المرجع نفسه ، ص 85 .

(5) انظر، خليفة ، **سيكولوجية الاغتراب** ، ص 20 .

فهذا التناقض بين وجهتي النظر يثبتُ أن المجتمعات التي تكفلُ وتصون حرية وكرامة أبنائها ، وتتواصل مع غيرها هي الأقدر على الحياة والاستمرارية . " والانفصال أو الاستجارة شعور بالدونية وتخلخل في البنية القبلية وعجز عن تبديل الواقع " [1] .

د ـ حياة الصعاليك واللصوص بين الموت والثأر :

اغترب الصعاليك واللصوص عندما ذهبوا يبحثون عن مصدر للرزق بعد فشل مجتمعهم في تأمين الحاجات العضوية ، كما اغتربوا يبحثون عن نصير ليأخذ بثأر أخ أو والد أو قريب ، فالصعلوك لا ينتظر القبيلة أن تأخذ بثأره بل يأخذ ثأره بيده . و من تصعلك لا يخشى الموت[2] ، فحياتهم بين طالب ومطلوب وطراد وحذر. و ظاهرة الموت من الأمور التي حيّرت الإنسان ، والتضحيةُ بالنفس هربٌ من الحياة إلى الموت ، و نشأت عادةُ الثأر في الجاهليّة ، لأن الجاهلي يؤمن بأن الدم لا يغسل إلا بالدم ، وهو طلبٌ للموت في سبيل الكرامة ، لأن الموت أهون من العيش الذليـل ، يقول تأبّط شرا[3] :

وإنّي وإنْ عَمّرْتُ أعْلمُ أنني ... سَألقى سنانَ الموتِ يُبرقُ أصْلعا

والموت في البحث عن الرزق أو طلب الثأر أهون من الإقامة على الذل أوغربة البعد وغربة الفراق . كما أن المقابلة بين الفقر والموت توجب عليه اختيار الموت فهو المُفضّل . والانفصال والقطيعة بين الصعاليك واللصوص ومجتمعاتهم أو طردهم تتساوى مع الموت ، وكذلك الاستسلام للذل والخضوع أهون منه الموت ، يقول الشنفرى[4] :

إذا مَا أتتْني مِيتَتِي لم أبالِها ... ولَم تُذْرِ خَالاتِي الدُّموعَ وَعَمّتي

---

[1] انظر ، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديما وحديثا** ، ص239 .

[2] انظر ، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص256 .

[3] تأبّط شرا ، **الديوان** ، ص 100 .

[4] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 83 .

ويصور العكوك الحياة قبل الصعلكة وبعدها فيقول[1] :

قد كانَ أورقَ وصْلكُم يوماً	فذوى الوصالُ وأورقَ الصَّد
للهِ أشواقي وإنْ نَزحَـــــتْ	دارٌ بِنا وَطـَـــــواكم البعدُ

ويهون الموت على الصعاليك واللصوص أمام تركُ الأصحاب والبعد عنهم ، ويرى في الأسر والسجن والخلع غربة لا خلاص منها إلا بالموت ، فليس بمقدور الفرد مواجهتها منفرداً بعد تخلي قبيلته عنه ، ويصبح عاجزاً حيال الظروف التي تفرض عليه . فإذا كان الموت يمثل النهاية الحتمية لحياة البؤس والحرمان والفقر والتشرد فأهلاً به ، وإذا كان المقيم والضاعن ، والخليع وشيخ القبيلة نهايتهم واحدة[2] فلِمَ الخوف ولم الجبن ؟

فكان الشاعر الجاهلي مشغولاً بالمصير والقدر وبالظواهر الطبيعية التي حوله وكان يساوره القلق والخوف ، فلا يجد تفسيراً لحيرته وقلقه [3] ، فالغربة في الحياة تمثل الإنسان وهو يعاني من وحدته في الكون ، دون إيمان بعقيدةٍ دينية ، ودون إيمان بحياة أخرى فيها الأمل والعزاء ، ويضعف أحياناً أمام هموم الحياة اليومية التي لا نهاية لها ، فهذه الظاهرة التي تؤرقه فلا الحذر منها بمنج ، ولا اللامبالاة سبب في الهلاك .

وقد يستطيع الصعلوك أو اللص النجاة من المخاطر والمهالك ويفوز على خصومه ، وعندما يعود إلى حالة الأمن والاستقرار يهاجمه الموت ، فلا يستطيع الخلاص إلا بالتسليم ، وينتهي إلى وحدةٍ يكون فيها مرغماً خاسراً ، لا يصول ولا يجول ويراه الآخرون ولا يدفعون الموت عنه ، كما أنهم لا يستطيعون دفع الموت عن أنفسهم[4] . فالموت تسليم وخضوع دون قدرة على الهروب بالمعنى السلبي .

---

[1] عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 217 ، ص 334 .

[2] المرجع نفسه ، ص 295 .

[3] المرجع نفسه ، ص 147 .

[4] المرجع نفسه ، ص 73 .

فيصيب الموت المغامر كما يصيب المتخلف في بيته ، وقد كانت فلسفة الصعاليك واللصوص تؤمن بأن الـحياة الدنيا إلى نهاية ، والموت للمغامر وللمقيم[1] ، فلمَ الخوفُ من الموت ؟ فهم يرون أن الحياة قصيرة مهما طالت فليسارع الإنسان إلى اغتنام الملذات والمتع قبل أن يدركه الموت ، فإذا غامر بحياته فلا يعني هذا أن الموت له بالمرصاد ، وإذا أقام بين أهله وذويه فلا يعني أنه ناج من الموت . ولو استطاع الإنسان الخلود لعددنا أضلنا الشجعانا الذين يضحون بحياتهم من أجل الآخرين ؛لأن التضحية تخليد للذكر الحسن وليس تخليداً للجسد ، وإذا لم يكن منه بُدٌّ فمن العار أن تموت جباناً . ويتطرَّق أبو خراش إلى هذا المعنى في قوله[2] :

وإنْ تَزعُمِي أنِّي جَبنتُ فإنَّني ... أفِرُّ وَأرمِـي مَرَّةً كُلَّ ذلــكِ

أقاتِلُ حتى لا أرَى لي مُقاتِـلاً ... وَأنجُو إذا ما خِفْتُ بَعْضَ المَهالِكِ

فالشاعر لا يعرف الفرار من المعركة إلا حذراً منها ، واستعداداً للهجوم مرةً أخرى ، واختلفت النظرةُ للموت بين الإنسان في الجاهلية الذي يرى أن الموت هو النهاية الحتمية لحياة الإنسان ، وما دام أن الحياة تنتهي بنهاية الإنسان ، فليحرص على الاستمتاع باللهو وملذات الحياة ويعبُّ منها قبل الفراق بينما يرى المسلم أن الآخرة دار المستقر . يقول هدبة بن الخشرم يخاطب والديه حين قدم للقصاص[3] :

لا أرانِي اليومَ إلا مَيِّتـاً ... إنَّ بَعْدَ الموتِ دَارَ المُستَقَر

اصبِرا اليومَ فإنِّي صَابِرٌ ... كُلُّ حيٍّ لِقَضاءٍ وَقَــدَر

وتغيرت النظرة إلى الموت في الحياة الإسلامية ، فالموت هو نهاية لمرحلةٍ دنيوية وانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، وهي عودة بعد اغتراب بسبب الخطيئة والإثم ، ويرى نفسه في الحياة الدنيا في معاناة لعدم تكيفه[4]، كما أنها غربة من دار الفناء إلى دار البقاء و من دار الممر

---

(1) انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 37 .

(2) المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1-2 /783 .

و انظر ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 445 .

(3) الجبوري ، **شعر هدبة بن الخشرم** ، ص 60 .

وانظر ، المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، ص310 .

انظر المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1- 475/2.

(4) انظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 44 - 50 .

إلى دار المقر. فمن اغترب عن الدنيا زهد فيها ، ومن اغترب عن الآخرة تمسك في الدنيا ، فإن الدار الأخرة هي الدار الأبديّة التي لا موت بعدها . فإذا حرص الجاهليُّ على الاستمتاع بدنياه وملذاتها ، فقد تلقاها المؤمن بالخوف والحذر ، فلا تعطي شيئاً إلا وتأخذ أشياء . يقول ابن بشر العكلي الملقب بالسمهري بعد أن قُبض عليه وأودع السجن وهرب ثم أعيد إليه[1] :

ألا أيّها البيتُ الذي أنا هَاجِـرُه فلا البيتُ منسيٌّ وَلا أنا زائِـرُهُ

فَإنْ أنجُ يا ليلى فَرُبَّ فَتىً نَجَا وَإنْ تَكنْ الأخرَى فَشَيءٌ أحَاذِرُه

أحسَّ الشاعر الجاهليُّ بالموت إحساساً حاداً ، فالطبيعةُ والبيئةُ من حوله قاسية ، والحياة الاجتماعية مضطربة و غير مستقرة ، ففيها الخوف والقلق ، والجوع والبؤس والحرمان . وسبب الصعلكة التمرُّدُ والغربة على مجتمعاتهم ، وشعورهم بأن حياتهم بلا معنى[2] ، وإحساسهم بأنهم أقل شأناً من غيرهم ، حين تنظر مجتمعاتهم إليهم بعين الازدراء والاحتقار، وكلما ازدادوا حنيناً لمجتمعاتهم والتآلف مع أهلهم وذويهم ازداد المجتمع بعداً عنهم وجفاءً لهم . فيرى في انفصاله موتاً بطيئاً [3] ، كما يرى أن تقديم المساعدة لرفاقه زيادة في استمرار معاناتهم ، وإرغاماً لهم على الخضوع والاستسلام ، أو إذلالاً لهم ، وكل ما يحيط بهم هو موت . فانحباس المطر حرمان وبؤس ، والطلـل انقضاء للحياة وشعور بالعدم ، والسجن والثأر يجمعان بين الغربة المكانية والغربة النفسية، ويشعر بقصر الحياة التي مهما امتدت فنهاياتها موت ، فهو في غربة في صراعه مع الحياة ، وإذا طال به العمر وأدركته الشيخوخة فقد زادت الهوة بينه وبين الأجيال .

والناس تتعلل بالأسباب ، وتنسى الموت . فالموت واحد وإن تعددت الأسباب فإما أن يصلب أو يترك للسباع أو يمثل به أو يلدغ وكلها يحمل معنى الغربة ، و تستوي عندهم الحياة والموت ، أو يكون بينهما حاجز رقيق إلى حد الاختلاط ، و لا ينفصل الإحساس بالموت عن الحياة البائسة للإنسان ، عندما يفقد الأمل بالعدل الاجتماعي والتوافق والانتماء . والموت هو اللامساواة ، واللاتوافق واللاانتماء ، وتصبح حياة التشرد والمطاردة ساحة مواجهة ، ويصبح العمر ميدان حرب مستمرة . كل ذلك يمثل الغربة المفروضة على الإنسان ، والتي لا يقدر على التكيف معها ويعجز حين يفقد حريته في الاختيار أو التكيف [4] . فكان إحساس الشاعر بالغربة

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 233/21 .

[2] انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 15.

[3] انظر، بدوي ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 293 .

[4] المرجع نفسه ، ص 285 .

والوحشة يزداد حين يستشعر قلقاً يتهدد حياته، أو عندما يهاجمه الإحساس بدنو أجلة يفيض لوعة وأسى ليس بعداً عن القبيلة ومضاربها ، بل بعداً عن الوطن الذي ينتمي إليه ، وناسه ومناخه ونمط الحياة فيه ، يقول مالك بن الريب وقد حضرته الوفاة وهو مغترب عن بلده في خراسان[1] :

وَلما تَراءتْ عند مَروَ مَنيتَّي وَخَلَّ بها جِسْمي وحَانَتْ وَفَاتِيا

أقولُ لأصْحابي ارفَعُوني فإنَّه يَقرُّ بعَيْنِي أنْ سُهيلٌ بَدا لِيـــا

فيا صاحِبَيْ رحلي دَنَا الموْتَ فانزلا برابيةٍ إنّي مُقيمٌ ليالِيـا

ويقول عبده بن الطبيب[2] :

المَرءُ ساعٍ لأمرٍ ليسَ يُدْرِكُه والعَيشُ شُحٌ وإشفاقٌ وتَأمِيلُ

وأبو النشناش يعيش الغربة في الصحراء يخشى بها الردى ؛ لاتساعها وقلة أسباب الحياة فيها ، كانعدام الماء وشدة حرها وقرها ودروبها المجهولة ، وحيواناتها المفترسة والزاحفة . ويفضل العودة للحـــالة الطبيعية أو البدائيّة ، بعد أن عجز المجتمع عن تحقيق العدل والمساواة [3]، و بعد أن تنازل عن حريته وحياته ليحقق له الأمن والطمأنينة والاستقرار ، وعدم القدرة على التكيُّف مع مجتمعه وانفصاله عن مجتمعه وذاته.ففضَّلّ العودة إلى بدائيته وقد تكون أفضل من مجتمعه الذي نشد فيه الحرية والعدل ، ووقف عاجزاً عن تحقيقها له .

وإن عاد إلى بدائيته فلن تكون أفضل من حياة القلق والبؤس ، ففيها مجتمع آخر لا يقلُّ في وحشيته عن وحشية وتسلط الإنسان، الذي يرى امتلاك القوة هي الوسيلة للسيطرة على وحشية الإنسان وتوحش الحيوان[4] . فالصراع والتنافس في الحياة الطبيعية لا يقل عن التنافس والصراع في حياة المجتمعات التي سيطرت عليها الطبقية ، كالفقر والغنى ، والتضاد بين الشبع والجوع والــقوة والضعف و الحرية والعبودية يمثل التمرد والاستسلام، والثورة والخضوع ،

---

[1] المبرّد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، 61/1.

وانظر ، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 257 .

سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 82

[2] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1- 791/2.

[3] انظر ، المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، ص 61/1 .

انظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص22 .

[4] انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص55 .

والموت والحياة .فالتناقضات في الواقع الذي يعيشه كانت السبب في غربته وتمرده ، يقول أبو النشناش[1] :

وَداويةٍ بُهْماً يَخْشَى بها الرَّدَى	سَرَتْ بأبي النَّشناش فيها ركائِبهُ
لِيُدْرِكَ ثاراً أو لِيدُرِكَ مَغْنمَــــا	جَزيلاً وهَذا الدّهر ُجَمٌّ عَجائِبُـــه

فأبو النشناش لا يأسف على الحياة ، فهو في صراع مستمر إما بحثاً عن القوت أو ليصيب رزقاً أو يطلب ثاراً ، فليس هناك استقرار أو اطمئنان ، فالإرادة والهمة العالية لا تقبل بالخضــوع والذل ، بل تجعل من هذه الدوافع والحوافز ملهماً للوصول للغايات التي تريح النــفس للمساهمة في العطاء والبذل ، وعدم الاكتفاء بالقليل. فالطموحاتُ والآمال أكبر من الفردية والأنانية . فمن يضُحي بنفسه ويواجه المخاطر لا يكون إلا صاحب همةٍ عالية ونفسٍ أبية لا تقبل الذل والاستجداء ، والنفوس الضعيفة هي أبعد ما تكون عن الهموم والقلق[2] ، فصاحب الهمة يملك من المقومات ما لا يملكه السادة والأغنياء ؛ لأن الواقع الذي يعيشه ليس تجربة عابرةً ، فقد ألف المـغامرة والهموم وقد آمن أن الحياة للأقوى . وعندما نحاول أن نبحث عن سبب صبرهم على المعاناة ، نجد أن كثيراً منهم قد تعرَّض لظروف قاسـيةٍ ، ليبحــث عن رزقٍ ، أو ليدفع ضيماً أو يساهم في معروف ، فكان لا يقلُّ مكانة عن غيره من الناس ، لكنه قد يصاب بالإحباط إذا كان ما يؤمن به يتناقض مع ما يؤمن به الآخرون ، فيصــطدم بالواقع والمحيط الذي يعيش فيه ، مما يسبب له انحرافاً أو خضوعاً . قال أبو النشناش[3] :

ونائيةِ الأرجاءِ طامسةِ الصُّوى	خَدَتْ بأبي النشناشِ فيها ركائبُـه
ليكسبَ مَجداً أو ليُدركَ مغنمـاً	جزيلاً وهذا الدهرُ جَمٌّ عجائــِــبـه
وسائلةٍ بالغيب عني وســـائلٍ	ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبــــه
فلم أرَ مثلَ الفقرِ ضاجَعَه الفتى	ولا كسوادِ الليلِ أخفقَ طالِـــــبـه
فعِشْ مُعدَماً أو مُتْ كَريماً فإنني	أرى الموتَ لا ينجو من الموتِ هاربُه

---

[1] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1-/317 .

[2] انظر ، زيدان ، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي ، ص 282 .

[3] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 317/1 .

ومن عادة الجاهليين طلب البكاء على نفسه عند وفاته ، وطلب السقيا لقبره وخصوصاً من النساء ومن المقربين من الرجال[1] . فإذا كان لا يستطيع أن يحقق التواصل في حياته فيتمنى أن يكون قريباً بصدق الشعور معه وتحقيق العاطفة الإنسانية بينه وبين الآخرين، التي عجز عن التأثير عليها أثناء حياته ، فالعواطف تتجمد لبعده وسوء أفعاله ، وتستنهض في مواقف الحزن والوداع للشعور الإنساني أمام جبروت الموت . وإذا لم يكن ليتحقق الوصال مع الطرف الفاعل مباشرة ، فإنه يتحقق مع أسرته التي تسعى إلى التكيُّف مع المجتمع ليحصل التوافق والانتماء بدل القلق والاضطراب . يقول مالك بن الريب[2] :

إذا مِتُّ فاعتادي القُبورَ فسلِّمي	على الرَّمسِ ، أسقِيتِ السحابَ الغواديا
تَرَى جَدَثاً قد جرَّت الريحُ فوقَهُ	تُراباً كلونِ القـــــــسطلانيِّ هابياً

فإذا كان يعجز عن التكيُّف مع مجتمعه فلا يجد الانتماء والتوافق الاجتماعي ، فإنه في أحيان كثيرة يفقد الانسجام مع أسرته . فيزداد الشعور بالغربة الداخلية بين أفراد أسرته . والاغتراب في سلوكه عن المجتمع الذي ينتمي إليه قولاً لا فعلاً [3]. ويرى الهروب من الحالة الاجتماعية إلى حالة التشرد عن المجتمع الذي لا يحقق له التوازن، و النفور من المجتمع والشعور بعدم الانتماء إليه يؤثر في انفصال الفرد عن ذاته وعن أسرته[4] ، فيزيد التطرف كالعقوق بين الأب والأبناء حتى يصبح سلوكه مكتسباً ومتوارثاً ، متوارثاً من السلف إلى الخلف ومكتسباً من المحيط الاجتماعي . يقول القتال الكلابي[5] :

إنّي لعمرُ أبيْهم لا أصالِحُهُـــــــمْ	حتى يُصالحَ راعي الثَّلَّة الذيبُ
أو تَنْجَلي الخيلُ عن قتلى مُصَرَّعةٍ	كأنّـــــها خَشَبٌ بالقاع مقطوبُ

---

[1] انظر، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 80 .

[2] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 82/3 .

[3] انظر ، خليفة ، **سيكولوجية الاغتراب** ، ص15 .

[4] انظر، خليف ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، مكتبة غريب ، ص260 .

وانظر ، خفاجي ، محمد عبد المنعم ، **الشعر الجاهلي** ، دار الكتاب بيروت ، ط2 ، 1973 ، ص 50 - 55 .

[5] القتال الكلابي ، **الديوان** ، ص 32 .

ومهما حاول الخلاص مما لحق به من عار سواءً بسبب لونه أو بسبب فقره ، فلن يستطيع تجاوز طبقته ، وإن كسب غنى أو عوَّض عن سواد لونه بفروسيته وشجاعته ، أو بكثرة عطائه أو إيثار غيره عليه ، ويحاول أن يثبت أنه لا يقلُّ مكانة عن غيره. فعامر بن الطفيل يحثُّ على أن يكون الإنسان سيداً في أفعاله وليس بسبب حسب أبيه وأمه[1] . ومن دوافع كرمهم شدة كلفهم بالذكر الحسن وطيب الثناء ، وكذلك طمعهم في اجتلاب المكانة السامية ، وخوفهم من الذم والتشهير بين القبائل إن هم توانوا أو قصروا ، قال عمرو بن الأهتم[2] :

وَكُلُّ كَريمٍ يَتَّقِي الذَّمَ بالقِرى	وللخَيرِ بينَ الصَّالحِينَ طريقُ

فحتى لا يعير بالبخل ، فإنه يقدم الطعام لمن يحتاجه ، ولا يتردد في بذل نفسه ويضحي بها من أجل أن لا يقال بخيل . وعندما عقَّ منازل والده فرعان بن الأعراف فأنه يمثل اغتراباً وهوةً بين الأجيال ، وكما عقَّ والده فإن ابنه خليج قد عقَّه . فقال له عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - :" عَققت فعُقِقـــــت "[3] ، وقال فرعان في ذلك عندما تقدم سنه وضعف بصره[4] :

فلمّا رَآني أبصرُ الشَّخص أشْخُصا	قريباً وذا الشَّخْص البَعيدُ أقاربُه
تَغمّد حقي ظالماً وَلوى يَــــــدِي	لوَى اللهُ يَدهَ الذي هُو غَالِبُـــــه
أإن رَعَشتْ كفا أبيكَ وَأصبحـــــتْ	يَدَاكَ يَدَي ليثٍ فإنَّكَ ضارِبُـــــه

فالعزلة النفسية عن المجتمع و عن الواقع الاجتماعي ، جعلت الصعلكة و اللصوصية تحمل مخاطر المطاردة وشدة الحذر ، وصار القلق والخوف جزءاً من حياتهم ، ويشعر بالخوف

---

[1] انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 50 .

[2] ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 425 .

انظر المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1652/4 .

[3] المصدر نفسه ، 3-4 /1445 .

فرعان بن الأعرف المرّي أو فرغان : وفي اسمه تصحيف ، كان شاعراً لصاً اعتمد في قوته على بنيه الذين عقوه عندما كبر ومن أبنائه منازل وقيل هم ثمانية وأربعة من المراضيع ، يقول :

ثمانيةٌ مثلُ الصُقور وأربعاً	مراضيع قد وفين شُعْثاً ثمانيا

المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1445/4 .

انظر ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 434 .

[4] المصدر نفسه ، ص 3-1445/4.

من كل شيء يواجهه ، حتى صار صوت الحمام يخيفه بالرغم من أن صوته رمز للألفة والوفاء وصار الأصدقاء الأوفياء لا يأنس بهم . يقول عبيد بن أيوب[1] :

لقد خفتُ حتّى لو تطير حَمَامَـــة	لقُلتُ عَدوٌ أو طليعةُ مَعْشـــرِ
فإنْ قِيلَ خيرٌ قلتُ هذي خَديعـــةٌ	وَإن قِيْلَ شَرٌ قُلتُ حَقاً فشَمِر
وَخُفتُ خَليلي ذا الصّفاءِ وَرَابني	وَقلتُ فُلاناً أو فُلانة فاحـْـذر

ولكن هناك شعور عام بأنهم مطاردون ، وغربتهم بين طالب أو مطلوب ، وشعروا بالاغتراب لعدم تكيفهم مع المجتمع ونفورهم منه ، واستبدل بعضهم بمجتمعه مجتمعاً آخر ، وتخلى أو تنازل عن مجتمعه القبلي إلى مجتمع مذهبي ، و هناك من انتقل من المجتمع الإنساني إلى المجتمع الحيواني ، الذي يراه أكثر وفاء وتوافقا وانسجاما معه [2] ، ويسيطر عليه إحساس بالخوف والوحدة في وقت يتلهف إلى الأمن والاستقرار . فهناك من يهرب خوفاً من السجن والسلطة التي تلاحقه ، لأن بعض القبائل أصبحت تطارد الصعاليك واللصوص مع الدولة للقبض عليهم وتدفع لهم (جعالة) مكافآت ، فيحاولون التخفي حتى عن أقرب الناس إليهم ، فهو لا يثق بأحد حتى المقربين من رفاقه و يشعر بأنهم عيونٌ عليه .

ويقال إن يزيد بن مفرّغ هجا عبّاد بن زياد بن أبي سفيان والي سجستان، وغمزه في نسبـه ، فأغضب الخليفة معاوية، فأخذه بعقابٍ حتى كاد يتلف ، ولقي من التشهير والتنكيل من آل زياد لأن الخليفة أذن لهم بتأديبه[3] ، ويقول ابن مفرّغ :

قُرنتُ بخنْزيرٍ وَهرٍّ وَكَلبَــــــةٍ	زَماناً وَشَانَ الجلد ضَرْبٌ مُشَذّبُ
فَلوَ أنَّ لحْمِي إذْ وَهَى لعِبتْ بـــهِ	كِرام مُلوكٍ اوَ اسَودٌ وأذْئـــــبُ
لـهوّنَ من وَجدِي وَسَلّى مُصَيْبتي	وَلكنمّا اوذى بلِحْمِي أكَلـــــــبُ

---

[1] الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص 221.

[2] انظر، حفني ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، ص390 .

[3] سلوم ، شعر ابن مفرغ الحميري ، ص 21 .

وانظر ، عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ، ص 78 .

وبواعث هذا الخلاف بين الشاعر وآل زياد هو الانتماء لقريش ، والخروج على بني أميّة ، و بعض الشعراء كان يجاهر في انتمائه ، وكان بعضهم الآخر متقلباً كوسائل الإعلام التي ترحب بمن يتسلم زمام الأمور ، وتُعرض عمن انتهى عهده فينقلب الهجاء مدحاً والمدح هجاءً[1] .

فغربة الموت لا عودة بعدها في عقيدة الإنسان الجاهلي ، وعند المسلم هي نهاية الوجود المادي وانفصال بين الروح والجسد ، وهناك من يرى اتصال بينهما في الآخرة ، في حين يرى بعضهم الآخر تحول الروح إلى طائر يجثم فوق القبر إلى أن يؤخذ بثأره ، وقال عروة بن الورد[2] :

أحاديثُ تَبْقَى والفَتَى غَيْرُ خَالِدٍ إذَا هُو أمْسَى هَامَةً فَوقَ صُيِّر

فلماذا لا يهاب الموت في مغامراته وغزواته ؟ هل الحياة التي يعيشها أشد من الموت ؟ ولماذا الصبر على الفقر والثأر والذل والهوان ما دام النهاية لها الموت ؟ أم قدَّم المساعدة وعاش حياة الصعلكة لأنه وجد توافقاً مذهبياً معهم . وقال عروة[3] :

تَنالوا ُالغِنى أو تَبْلُغوا بنِفُوسِكُمْ إلى مُستَراحٍ مِن حِمامٍ مُبَرِّحِ

و جاء الإسلام وجعل الموت أمراً محبباً للنفوس بعد الاطمئنان إلى أن حياة الآخرة أفضل من حياة الدنيا وأفضل من الإقامة على الذل والهوان ، يقول أبو خراش[4] :

مَخَافَةَ ان أحْيَا برغمٍ وَذِلَةٍ وَللموتُ خيرٌ مِن حَياة عَلى رَغْم

فالمعادلة متعددة الوجوه فالغنى يقابل الموت ، أو حياة ذليلة مقابل الموت . أليس غريباً أن ينشد الغنى ليُكافئ من تشابهت ظروفهم مع ظروفه ؟ فلا يطلب الغنى لنفسه ، وإنما طلب الغنى

---

[1] سلوم ، **شعر ابن مفرغ الحميري** ، ص 79 .

وانظر ، الشايب أحمد ، **تاريخ الشعر السياسي** ، دار القلم ببيروت ، ط5 ، 1976 ، ص 41 .

[2] عروة ، **الديوان** ، ص 47 .

وانظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 3 /73 .

[3] المصدر نفسه ، ص 52 .

[4] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1-783/2.

لعجزه عن مكافأة الأخوة، وعدم قدرته على القيام بالواجبات التي تفرض عليه،كمساهمة في ديّة أو إعانة محتاج أو إغاثة ملهوف وسد عوز فقير محروم . يقول أبو النشناش[1] :

فعِشْ مُعْدَماً أو مُتْ كَرِيماً فإنني   أرَى الموتَ لا يَنجُو مِن الموتِ هاربُه

ومن يطلب الغنى إما أن يحقق هدفه، أو يحول الموت دونه يقول عمرو بن براق[2] :

وَمَن يَطلبُ المالَ المُمَنّعَ بالقِنا   يَعِشْ ذا غِنى أو تَخْتَرِمهُ المخارِمُ

لم يكسب غنى بل ليكسب مدحاً وحمداً ، وليعوض عن كل نقص حلّ به سواء الشماتة بحسبه أو نسبه ، أو ترفعاً عن العبودية والذل ، ووصولاً إلى مكانة اجتماعيّة يرضاها لنفسه ، في ظل الصراع الطبقي ، فالكرم وسيلة لتسديد الخلال . يقول عروة[3] :

فإن نَحْنُ لم نَمْلك دِفاعاً بحادِثٍ   تُلمُّ بهِ الأيامُ فالمَوتُ أجمـــــلُ

فهو يهرب من كل شيء يلحق الأذى والعار بنفسه ، فيأنف أن يكون عبداً بخيلاً ، أو جباناً ذليلاً يقبل الضيم والهوان ، كما يترفع أن يكون دون غيره مكانة وخلقا . ويحث غيره على المضي قدماً لكسب الغنى غير هياب من الموت ، و يكون الموت عذراً لمن طلب الغنى ومات دونه ، قال عروة[4] :

فسِر فِي بِلادِ اللهِ والتمسْ الغِنى   تَعِش ذا يَسار أوْ تَموتَ فتعْذَرا

ومهما تعددت الآراء حول الغنى والكسب ، أو حول الفقر والهوان ، أو الموت والحياة فلن نجد شاعراً يفضل حياة الذل على الموت، كما لم نجد أحدا إلا والموت عنده أفضل من الحياة ، إذا لم يستطع القيام بواجبة أو أحس بالتقصير عن القيام بواجبة ، وما طلب الغنى إلا لتحقيق الذات وإثبات القدرة على مجاراة أصحاب النفوذ ، فليس هو خائر القوى ، بل له ذاته المستقلة التي

---

(1) المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 347/2 ، 357.

أبو النشناش النهشلي : من لصوص بني تميم كان يقطع الطريق بين الشام والحجاز وتجمع حوله رفقه من الشذاذ. (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1 /317) .

(2) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 74/3.

(3) عروة ، **الديوان** ، ص 128 .

وانظر ، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 71 .

(4) عروة ، **الديوان** ، ص 88 .

وانظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 74/3 .

ليست جزءاً من الكل بل تقابل الكل ، فهو لا يعاني الاغتراب إلا لأجل قهر الاغتراب، فلا يطلب الغنى لأجل الغنى بل ليكون قادراً على المساهمة في حقوق الأخرين ، ويكون معطياً لا متلقياً ذا تأثير في صنع القرار، لا عاجزاً في التكيف مع مجتمعه[1] .

وحاول التوافق والانسجام مع مجتمعه ففرض عليه جميع ألوان الغربة ، ومنها غربة بسبب اللون ، أو غربة بسبب الفقر والحرمان ، كما كانت بسبب التقسيم الطبقي والعرقي فعجزت هذه الطوائف عن إقامة جسور التواصل بينه وبين الآخرين ، واتسعت الفجوة بين السيد والعبد ومن خرج على القبيلة أو خلعته عنها ، وأوجد فقدان العدالة الاجتماعية والاختلال الاجتماعي ، الكراهية بين الفئات المختلفة ، فالأب لا يلحق أبناءه بنسبه ، وأبناء الحرائر غير أبناء الإماء[2] . فالعجز في التكيف بين أبناء المجتمع أوجد الغربة النفسية ، التي يعاني منها الفرد بين أسرته ومجتمعه ، ويحاول تناسي هذا الوضع إلا أن الواقع الذي يعيشه يكرّسُ معاناته ويدعو إلى تمرده .

غربة الموت من أشد صور الغربة في الجاهلية ويا لها من غربة لما تثيره من رعب ووحشة في القبر وعذاب نفسي[3] ، كما أنه شعور بالوحدة بعد فراق الأهل والأصحاب والعزلة عن البشر، وفيه الغربة الأبدية في المسكن الجديد ، وبئس المسكن بالنسبة إليه . يقول الشنفرى[4]:

فلا تقبروني إنّ قبْري مُحَرمٌ   عليكمُ ولكنْ ابشِري أمَّ عامر

---

[1] انظر ، خليف ، **شعر الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 31 .

[2] انظر ، خليفة ، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب** ، ص 15 .

وانظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 20 .

[3] انظر، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص290.

[4] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 112 .

فالشنفرى لم يدفن ولا يريد أن يدفن ، وخرج على مجتمعه الإنساني في حياته ، ولجأ إلى مجتمع آخر يأنس بقربه ، فهو يشعر بقرب المجتمع الذي اختاره في حياته ، كما يشعر بقربه في مماته ، ويُفضل أن يكون طعاماً للضباع على أن لا تمسّه يدٌ بشرية ، وكان إحساسه أن المجتمع الحيواني أكثر رحمة من المجتمع الإنساني[1] ، فلا يعرف في المجتمع الذي اختاره حقداً أو غدراً أو طبقية ولذلك اختاره على غيره .

وغربة الموت عند أبي الطمحان القيني طابعٌ فاجع لأنه هو العدم ، وهو النهاية الحتمية لكل إنسان ، فهو يطلب الأنس بأصحابه ، قبل أن يفرق بينهم الموت ، وكذلك فإن القبر مهما جعلوه مناسباً له فإن انفراده وعزلته به تجعله غير صالح ، لأن الجاهلي يرغب بالحرية والانطلاق ويرى الموت والقبر قيدٌ لهذه الحرية ، فيقول في ذلك[2] :

ألا عَلِّلانِي قبلَ نَوح النوائِــــح	وَقبلَ ارتقاءِ النَّفسِ بَينَ الجوانِــــحِ
وَبعدَ غدٍ يا لهْفَ نَفسي على غدٍ	إذا رَاح أصْحابي ولَستُ برائِــــحِ
يَقولونَ هَلْ أصْلَحتُمُ لأخيكُــــمُ	وما القبرُ في الأرضِ القضاءِ بصالحِ

وتزيد غربة الموت غربة إذا كان بعيداً عن وطنه، وكثيراً ما كانت هذه الغربة تتم بعيداً عن الأوطان في سبيل نشر الإسلام والفتوحات الإسلامية ، وكثيراً من الجند شكوا هذه الغربة ، فالبلاد التي دخلوها تختلف في طبيعتها ومناخها عن بلاد الجزيرة، وقد أكثروا من مناشدة الخلفاء بإعادتهم إلى أوطــانهم لعدم تكيــُّفهم مع هذه الظروف، وعجزهم عن التأقلم في أجواء باردة ، قال مالك بن الريب[3] :

أحَنُّ إلى أرضِ الحِجاز وحاجَتِي	خِيامٌ بنجدٍ دُونَها الطَّرفُ يقصُرُ
أفِي كلِّ يومٍ نَظرةٌ ثُمَّ عَبْـــــرَةٌ	بعينيكَ مجرى مائها يَتَحــدَّرُ

---

[1] انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 21/ 139 .

[2] الجبوري ، **شعر هدبة بن الخشرم** ، ص 83 .

ونسبت الأبيات الثلاثة الأولى إلى أبي الطمحان القيني ، المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 3-4 /1598 .

[3] وانظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 22/ 304 - 324 .

وقال مالك [1] :

تَبدّلْتُ من رَيّا وَجَاراتِ بَيْتِها	قُرىً نبطياتٍ يُسمينني مُرداً

فالغربة في شعر الفتوحات ليس بُعداً عن القبيلة التي كانت تمثل الوطن والمرأة ، بل هو بعدٌ عن الجزيرة وطبيعتها ، بين أناس غرباء ، ويتشوق إلى نجدٍ وما يُذكره بها من أراكٍ وخيامٍ ونجومٍ كسهيل . ومما يروى أن أبا خراش كان له أحد عشر أخا كلهم عداؤون ، فأسر خراش ابنه مع عمه عروة ، فقتل عروة ونجا خراش من الأسر ، بعد أن أفلت من القيد ، وسأله الذي أنقذه كيف أنت والصحراء ؟ فقال قطاه بمعنى لا يحتاج إلى دليل ، وكان سريعاً في العدو يعرف تضاريس الصحراء ودروبها فقال والده في نجاته [2] :

حَمَدتُ إلهي بَعدَ عُروةَ إذ نَجَا	خراشٌ وَبعضُ الشَّرِ أهونُ مِنْ بَعْضِ
فَوالله ما أنسى قتيلاً رُزِيتُــــه	بجانِبِ قوسِي ما مَشَيتُ على الأرْضِ

ويروى أنه كان الوحيد لأبويه ، فعندما غزا بجيش عمر بن الخطاب-رضي الله عنه - توسل إليه والداه وشكا إليه شوقه إلى ابنه ، وإنه رجلٌ قد انقرض أهله ، وقتل إخوته ولم يبق له ناصر ولا معين غير ابنه ، فقال الخليفة: "لا يغزو وحيد أبويه إلا بإذنهما" [3] . واتصف بالسماحة والكرم وكانتا سبباً في هلاكه، عندما أعدّ طعاماً لضيوفه اليمانيين وعندما ذهب وأحضر لهم الماء لدغته أفعى فتحامل على نفسه ليكرم ضيوفه ومات في يومه ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال :" والله لولا أن تكون سنة لأمرت ألا يضاف يــمانٍ بعدها "[4] ، وكتب لعامله أن يأخذ النفر الذين نزلوا به فيغرمهم ديته . فخراش ابن أبي خراش يفر من قدر الله إلى قدر الله فيفر من الأسر والقتل ، ليلاقي مصيره بعيداً عن القتال ، وينفصل عن أعمال التمرد والمطاردة وقطع الطريق ، لينضم إلى جيوش الفتح ويعود إلى والديه بعد أن اطلع الخليفة على أمر والده .

---

[1] انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 21 /304 .

[2] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1- 783/2 .

[3] المبرّد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، 347/1 .

وانظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، ص 250/21 .

[4] المصدر نفسه ، ص 250/21 .

ولعل غربة أبي الشمقمق تختلف عن غربة المهاجرين في الجهاد ، فغربته في وطنه حيث يرى أن الفقر ملازمٌ له ، وكل ما يحيط به يمثل الغربة. فالغربة حين لا يجد بيتاً يأوي إليه يفترش الأرض ويلتحف السماء [1]:

فمنزليَ الفضاءُ وسقفُ بيتي ... سماءُ اللهِ أو قطعُ السحابِ

فأنتَ إذا أردتَ دخلتَ بيـتي ... عليّ مسلماً من غير بـابِ

فالتشاؤم وسوء الحظ يلاحقه ، ويكثر من الشكوى والتظلم ، ويفد إلى قصور الخلفاء ، إما لعرض مشكلاته ، أو لمدح الخلفاء لنيل العطاء ، فلم يتخذ وسائل الغزو كما كان في الجاهلية ، بل تغيرت الوسائل والظروف ، فأصبح التكسب والحيلة والخداع والشكوى والتذمر من وسائله .بينما في الجاهلية أخذ الشنفرى يعاني من الغربة . و جاءت ردة الفعل قاسية فقد قتل والده وسبيت والدته ولطمته الفتاة التي طلب يدها ، فلم يثأر لوالده أحد في صغره ولم تُدفع له ديّة وقال[2] :

اضعتُم ابي إذ مَال شَقٌ وسَـادِه ... عَلى جَنَفٍ قدْ ضَاعَ مَن لمْ يُوسَدِ

فَانْ تطعنُوا الشيخَ الذي لمْ تُفوّقوَا ... مَنيتَهُ وغِبتُ إذ لم أشهَـدِ

فَطعْنَتُ خِلسٍ مِنْكُمُ قد تركتُهـا ... تَمجُ عَلى اقطارِها سمُّ أسـودِ

وبقي يحمل هذه الذكرى الأليمة في نفسه ، إذ ارتحلت أمه به وبأخيه الأصغر تطلب الأمان لتدفع عنها الخوف والظلم بعد أن فقدت معيلها، وحملت صبيتها كأفراخ صغار حملوا الإحساس بالظلم كسّر دفين ، إلى أن حانت فرصة القصاص، فكانت النهاية باللقاء بينه وبين قاتل أبيه في موسم الحج ، فعاجله بضربةٍ لونت ثيابه بالدم ، وقال[3] :

قتَلنا قتيلاً مُهدّياً بُملَـبِّدٍ ... جِمارَ مِنى وَسطَ الحَجيج المُصوّتِ

جَزينا َسلامان بنَ مُفَرّجَ قَرْضَهَا ... بمَا قَدّمتْ أيديهُمُ وأزلـتِ

---

[1] المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، 24/2 .

[2] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 49 .

وانظر ، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 50 .

جنف : يجنف، جَنَفًا فهو جنِف ، رجل أجنف في أحد شقيه ميل .(**اللسان** ، مادة جنف) .

[3] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 41 .

إلا أن النظرة لها ولأبنائها لم تتغير ، فكان اغترابها من أجل أن تجد حضنا يؤويها بعد أن انفصلت عن بني سلامان والقت رحالها في بني فهم ، وكان الانتصار لكرامته أقسى ؛ لأن اللاشعور اختزن مأساة ومعاناة الأم وترددها بين القبائل ، فلم يقبل الهوان وقال في ذلك أيضا [1] :

وَلَكِنَّ نفساً حُرةً لا تُقيمُ بي | على الضَّيمِ إلا رَيثما أتحَوَّلُ

ويعود الثأر إلى كثرة الغزو والنهب والسطو والسلب ، وغياب قانون رادع للثأر بين المتخاصمين ، كما أن التنافس والصراع على موارد الماء والكلأ كان من أسباب اغترابهم لأن القانون لصاحب القوة والسلطان ، وبعد أن جاء الإسلام وضع قوانين وتشريعات للقصاص والعقوبات لسائر الجرائم ، كالرّق وشرب الخمر والتعدي على الحرمات .

ولم تنتهِ عادة الثأر في العصر الإسلامي والعصور التي تلته ،فقد كان الثأر من رواسب الجاهلية ، وكان نتيجة استمرار اللصوصية وقطع الطريق، على قوافل التجارة أو قوافل الحجيج بين الحجاز وبلاد الشام . فمالك بن خريم ، ومالك بن الريب ، وسعد بن ناشب كلهم عملوا على قطع الطريق و اللصوصية . ولكن قبض عليهم فمنهم من سُجن ، ومنهم من تاب بعد أن فتح لهم الإسلام باب التوبة .

وأما هدبة بن الخشرم فقد نُفذ فيه حكم القصاص ، بعد أن قتل زيادة بن زيد العُذري ، واعترف بذنبه أمام الخليفة معاوية ، فأرسله إلى والي المدينة سعيد بن العاص ليسجن هناك . حتى يبلغ ابن القتيل الحلم ، وحاول عدد من الخلفاء أن يتوسّط في هذا النزاع ويُقدّم الدية لولي القتيل عنه ، وُعرض عليه عدة ديات ، على أن يتنازل عن حقه فرفض[2] ، وهذا يبين أن الثأر لا يسكت عنه ، وقال هدبة بن الخشرم [3] :

فلمّا رأيتُ إنما هي ضَربَــــةٌ | مِنَ السيفِ أو إغضاءُ عينٍ على وَتْرِ
عَمدتُ لأمرٍ لا يُعيّرُ والــــدي | خِزايته ولا يسُبُّ بـه قبــــــري
رُمينا فرامَينا فصادفَ سَهمُنـــا | مَنيَّةَ نفسٍ في كتابٍ وفي قَــــدْرِ
وَأنتَ أميرُ المؤمنينَ فما لنـــا | وَراءك مِن مُعدىً وَلا عَنك من قِصرِ
فإنْ تكُ في أموالِنا لا نَضِقْ بِـها | ذِرعاً وإن صَبرٌ فنصبِرُ للصَّبــــرِ

---

[1] الشنفرى ، الديوان ، ص 89 .

[2] انظر ، المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ص 336.

[3] المرجع نفسه ، ص 365 .

وكــان ممن عَرض دفع الدّيـات عليه الحسين بن علي ، وعبد الله بن جعفر عليهما السلام ، وسعيد بن العاص ، و مروان بـن الحكم ، وبعد أن بلغ ابن القتيل الحلم قُدّم للقصاص ، فقال هدبة في ذلك[1] :

فإنْ تَقْتُلوني في الحَديد فإنّني قتَلتُ أخاكُم مُطلقا لم يُقيَّدِ

ومن خلال هذه الأمثلة نحاول أن نجمل أسباب الغربة الاجتماعية ، بأن السبب الحقيقي والمباشر هو الاغتراب الاقتصادي الذي كان سبباً في أنواع الاغتراب الأخرى ، فالتقسيم الطبقي بين طبقة غنية وفقيرة يعود إلى أسباب اقتصادية ، كما أن الفقر والحرمان والجوع هي من الأسباب التي دعت إلى خلع القبائل لبعض أبنائها ، أو تمردهم عليها لفقدان العدالة والمساواة .

وفي العصر الإسلامي لم يسلم حتى الخلفاء من القتل غيلة ، كما لم يسلم بيت مال المسلمين من النهب . سواء من القائمين عليه أو من الشذاذ ، وبعد ذلك صارت حركات منظمة عندما جاءت الخلافة الأموية والخلافة العباسيّة كأحزابٍ معارضة ، منها ما يريد مصالح فردية ضيقة ، وأخرى تحاول التغيير في السلطة أو اكتساب مركز أو مكانةٍ مرموقة [2] ، فكان لا بدَّ من إيجاد عقوباتٍ رادعة وبسط سيطرة الدولة ، لتطبيق النظام الذي يكفلُ الأمن والاستقرار لمختلف الفئات . فأنشئت السجون وطبقت القوانين والأنظمة ، فتعرض لألوان التعذيب من يقع في يد السلطة أو الدولة ، وقد يلتجئ إلى الصحراء بعيداً عن يد العدالة ، فهناك من هرب إلى الدول المجاورة كالعديل بن الفرخ الذي هرب إلى قيصر وهدد الحجاجَ إن لم يُسلّم ليرسلن خيلاً أولها عـــند قيصر و آخرها عند الحجاج [3] ، وهناك من هدم بيته كسعد بن ناشب، أو ألقي القبض

---

[1] المبرّد ، الكامل في اللغة والأدب ، ص 365 .

[2] المصدر نفسه ، ص 71- 75 .

العُديل بن الفرخ : ولقبه العباب ، وكان العباب كلبا له ، وهو شاعر إسلامي في الدولة المروانية ، هجا الحجاج و هرب منه إلى قيصر ملك الروم ، فبعث إليه : " لترسلن بـه أو لأجهزن إليك خيلاً يكون أولها عندك و آخرها عندي " ، فبعث به إليه ، وانتهى الأمر بالعفو عنه ،(شرح المرزوقي ، الحماسة ، 729/1) .

[3] انظر، المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1- 2 /729 .

على أسرته ليسلم نفسه ، أو وضع في مقابلة أسد جائع كجحدر العكلي ، وهناك من نفذ فيه القصاص كهدبة ، أو بقي في السجن حتى مات ، وكثيرا منهم كان يفضل الموت على أن لا يلقى في غياهب السجن . قال العديل بن الفرخ [1]:

ظللتُ أساقي الهَمَّ إخوتي الألى ... أبوهُمْ أبي عندَ المِزاحِ وفي الجِدِّ
لعَمري لئِن رُمتُ الخُروجَ عليهِمُ ... بقيسٍ على قيسٍ وعوفٍ على سعدِ
لكنتُ كمُهريقِ الذي في سِقائِه ... لِرقرَاقِ آلٍ فوقَ رابيةٍ صَلْدِ

وكان وراء الغزل دواع جديرة بالاعتبار والاستقصاء بعضها سياسي وبعضها أخلاقي واجتماعي ، و هناك من سررن بذكرهن في غزل كبار الشعراء ، وهناك من يتعرض لهن في المحافل كنساء علية القوم [2] ، وثمة من اغترب عن النساء لأنها لم تلد له إلا البنات ، لأن البنات كن يوأدن في الجاهلية خوف الفقر أو العار أو طمع غير الأكفاء فيهن ، ولم يكن عاماً عند العرب بل عرفت به ربيعة وكندة وتميم ، وعاتبت إحدى النساء زوجها بقولها[3] :

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظلُّ في البيتِ الذي يَلينا
غضبانُ ألا نَلِدَ البنينا ... تاللهِ ما ذلك في أيدينا

وكتب الاغتراب على الإنسان منذ بدء الحياة ، والإبداع والتمرد يتبعان الحالة النفسية ولا يزدهران إلا في أسوأ الظروف ؛ لأن الاغتراب مصاحب للوجود والواقع النفسي للإنسان . ولا تعني كل نقلة اغترابا مكانياً . فالاغتراب المكاني كان نتيجة طبيعة لمجموعة من العوامل أبرزها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي[4] ، التي تعود بمجملها إلى العامل الاقتصادي . وغذى الطموح الشخصي وظهور الطبقية الاقتصادية والاجتماعية الإحساس الفردي و المناداة بالمساواة والتكامل الذي نادى به الإسلام . فهدبة كان سجيناً لسبب اجتماعي ، ومالك كان مطاردا لخروجه على الدولة ، وعبيد بن أيوب كان مخلوعاً .

---

[1] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 731/1 .

[2] انظر ، البرزة ، **الأسر والسجن في شعر العرب** ، ص 313 .

[3] عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 356 .

[4] انظر ، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 98 .

و حاولت هذه الفئات التغيير سواء على المستوى الفردي أو الجماعي ، فعجزوا وتبددت أحلامهم في إقامة مجتمع أو سلطة مثالية ، وكان التفاوت الطبقي والقوانين لا تخدم إلا أصحاب النفوذ الذين وضعوا هذه القوانين من أجل مصالحهم [1] . كما كان التفاوت الطبقي ونظرة الاستقلال الذاتية الفردية سبباً في تمرد الصعاليك واللصوص، كذلك كان تفكك القبيلة بين خضوعها للنظام السياسي وتكاتفها يعد سبباً في التفاوت الطبقي ، واختلال علاقة الأفراد بالقبيلة . أما تحرر الفرد من الضغوط والقيود الاجتماعية التي تواجهه ، وتصدع الانتماء القبلي أو الانسلاخ عن القبيلة فقد زاد من حدة التمرد . فالتمرد اغترابٌ وبحثٌ عن بديل للقيم التي يقوم عليها البناء الاجتماعي ، واختلال علاقة الذات الإنسانية بواقعها الذي يفترض أن تكون العلاقة بينهما أساسها التكيف والانسجام . فطبيعة البيئة حددت الشكل الخاص للنظام القبلي ، فقسوة الصحراء أوجدت النظام الجماعي المتلاحم وسحقت الفردية المتمثلة بحركة الصعلكة التي هي أهم مظاهر الاغتراب الاجتماعي ، واشتهرت بتحللها من الالتزامات القبلية [2] ، وبمسئوليتها وحدها عن جرائرها ، وتتخلى قبائلها عنا ورفضها سلوكياتها .

فالصعلكة و اللصوصية حركة تهدف إلى تغيير نمط المجتمع وتقويض أركانه ، والاستبدال به مجتمعاً صالحاً يسوده الحب والوئام والتكافل الاجتماعي والاقتصادي ، وأهم صفات الصعاليك واللصوص النزعة الفردية المتميزة نحو التحرر من السلطة والنفور منها [3] . وتحول اللون وما يعانيه الملونون من عنصرية لا يمكن إنكارها إلى سبب آخر للاغتراب على الرغم من موقف الإسلام في الدعوة للمساواة والعدل . وتحريم الرق وجعله كفارة عن الذنوب . وجاء الإسلام بفكرة الأمة والتفاضل بالعمل ، وبقيت العصبية عالقة بالنفوس .

ويتحول موقف المرأة من اغتراب الرجل سواء في علاقة الحب أو الزواج إلى سبب آخر للاغتراب. وتكتم مشاعرها لكن الشعراء يتحدثون بلسانها في قصائدهم وينقلون مشاعرها [4] . وتلعب دورا في تخفيف غربة الرجل وزيادة حدتها فحينا يغترب طالبا مواجهة الفقر وتوفير حياة

---

[1] انظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 69 .

[2] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 123 .

[3] انظر ، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 20 .

[4] انظر ، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 34 .

كريمة بعيدا عن الذل والهوان ، أو يغترب سعياً وراء المحبوبة التي غادرت الديار ، أو اللحاق بجيوش الفتح مساهمة في القيام بالواجب والحصول على وسائل الرزق الكريم .

وتعاني المرأة من غربته حين تخلعه قبيلته ، أو يسجن بجناية قام بها ، أو لثائر يطلبه ، ويزداد إحساسها بالغربة حين تطول غربته بين الاغتراب بحثا عن رزق ،وبين غربة الظروف الصعبة التي يعاني منها . لقد كانت المرأة معين خياله ، يؤنس بها وحدته ويجرد منها محاوراً فإن منعوا زيارتها فلا يمنعون خيالها[1] ، وتتخطى بطبيعة خيالها الحواجز والقضبان . ويعد عدم الاتصال وفقدان الاستقرار النفسي من العوامل الموجبة للاغتراب ، كما أن غموض المستقبل وفقدان الحماية عوامل ملحة في شعر الصعاليك واللصوص للتمرد . والمرأة رمز الاستقرار والوطن والأمن وليست على وفاق معه فأحيانا تلومه وأحيانا تسخر منه فزادت في غربته.

يقول عبيد بن أيوب [2] :

ليتَ التي سَخِرتْ منّي وَمِن جَمَلي	ذاقتْ كما ذُقتُ مِن خَوفٍ وَأسفار

ويقول ابن الحر في ذلك رداً على امرأته التي تلومه بمخاطرته بنفسه بحثاً عن الرزق[3] :

تُخوفُني بالقتلِ قومِي و إنّما	أموتُ إذا جاءَ الكتابُ المُؤجَلُ
لعلَ القنا تُدْنِي بأطرافِها الغِنى	فنَحيا كِراماً نَجتَدي ونُسوَّمُ
ألم تَرَ أنّ الفقرَ يُزري بأهلِه	وَأنّ الغِنى فيه العُلى والتجمُّلُ

والصعاليك اللصوص من أبرز صفاتهم الاستعداد والتهيؤ الفطري للعدوان ، والإحساس بوطأة القبيلة والتقاليد وسلطة الدولة ، وتزداد مشاعر الاغتراب عند ارتكاب مخالفة ضد القبيلة أو الدولة أو السلطة [4] ، فلا يجد العون منها ، بل يجد الإعراض والطرد والخلع . لذا فإن انعدام الاستمتاع بالثروة ، وتدني المكانة الاجتماعية دوافع قوية لظهور المنهج الإجرامي والتمرد والارتداد الحضاري ، وكانت الصعلكة و اللصوصية وسيلة للإنعتاق من ضيم المجتمع وأعرافه

---

[1] السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 38 .

[2] عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 114 .

[3] المرجع نفسه ، ص 106 .

[4] انظر، عطوان ، **الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية** ، ص 358 .

الجائرة ، ودفعت الغربة المكانية الصعاليك إلى اتخاذ الجن والغول والمجتمع الحيواني رمزاً لما أضحى عليه من حالة التشرد وانعدام التوازن ، واستطاع أن يألف الأهوال والتخيلات حتى أنس بها .

وصار الخوف إحساس طبيعي في نفس الصعلوك الذي يعيش في حالة الترقب والتشرد والقلــق ، كذلك فإن إلف الحيوانات وسيلة تعويضية لحاجات الإنسان الاجتماعية . فاللجوء إلى الخيال ، واجترار الذكريات هو شعور بالعزلة والوحدة والبحث عن توافق أو تواصل مع أسباب الحياة . وكان السجن عاملاً من عوامل توليد الاغتراب في داخل جدرانه ، وتعددت ألوان التعذيب وأساليبه ، كما تعددت السجون للفئات المتمردة كدوار ، والمخيس ، والديماس والصحراء هي الملجأ والملاذ لبعدها عن سيطرة السلطة واتساعها . وفيها يعلنون الحرب على جميع الناس بدافع الانتقام [1] .

خرج ابن هبّار في تجارة إلى بعض بني أمية إلى الشام فاعترضه جماعة فيهم القتال الكلابي فقتلوا ابن هبّار وأخذوا ماله ، فأخذهم عامل مروان بن الحكم فحبسهم ، وقيل بل اغتاله القتال الكلاب حين كان هو السجّان وخرج هو ومن كان معه فقال في ذلك[2] :

وكاليُ بابِ السِّجنِ ليسَ بــــمُنتهٍ	وكان فِراري منه ليسَ بمؤْتلي
إذا قلتُ رفّهني من السجنِ ساعة	وتممّ بها النّعمى عليَّ وأفضـل ؟
يشدُّ وثاقيَ عابساً ويتلُنـــــــــي	إلى حلقاتٍ من عمودٍ مُوصّـــل
فقُلتُ له والسَّيفُ يعضِبُ رأســهُ	أنا ابنُ أبي التيماءِ غيرَ المُنحَّل

فالاغتراب ظاهرة تقوى وتضعف من حقبة إلى أخرى ، وتنتشر في منطقةٍ دون أخرى حسب الظروف والعوامل المختلفة ، والشاعر يخلق عالماً خاصاً به هو العالم المثالي الذي يطمح إلى تكوينه هرباً من الواقع الذي لم يستطع التكيف معه ، و اصطنع المجتمع القوانين والحدود والحواجز في سبيل القضاء على أحلامه وطموحاته . و لم يلجأ الصعلوك في المجتمع إلى العزلة باختياره ، بل كان المجتمع بنظمه وقوانينه هو الذي جعله ينفر منه[3] ، ويتخذ من الاعتزال وسيلة

---

[1] عطوان ، **الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية** ، ص 360 .

[2] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 329/23 .

[3] انظر ،عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 130 - 135 .

للهروب من آلامه وهمومه ، وكانت استجابة لما يعتمل في النفس من القهر والاضطهاد والجوع والفقر، وهو تعبير عن تجربة ذاتية .

وكانت الظروف المحيطة بهم طبيعية أو طبقية سبباً في خروجهم على مجتمعاتهم ، إما لطلب المساواة ، أو نتيجة الإحساس بالظلم ، كما كان تمردهم دفعاً للموت في سنوات الجدب والقحط . أو طلباً للثأر لأن السطو والغزو والنهب كثيراً ما يعرّض أصحاب الثروة للقتل ، فالأمطار قليلة ، ومصادر الرزق متذبذبة وغير ثابتة ، والأحوال مضطربة حتى في أيام قيام الدول ، فأصبح الوضع أكثر تعقيداً لأن عمال الخراج استأثروا بالأموال دون غيرهم ،سواءً في جمعها أو توزيعها . حتى أن بعض الخلفاء استغل هذه الأموال في تثبيت حكمه ، فيبدد الأموال على الفئات المؤيدة له وهناك من أعطى حتى المعارضين له اتقاء شرهم ، ويقال أن بعض العسس أخذوا الشاعر أبا دُلامة وحرّقوا ثيابه وحبسوه مع الدجاج ، فكتب إلى أبي جعفر المنصور عن سوء حاله[1] :

أميرَ المؤمنينَ فدتك نفســـي	عَلامَ حَبستني وخَرقت ساجي
أقادُ إلى السجون بغير جُـرم	كأني بَعضُ عُمّال الخَـــراج
ولو مَعَهم حُبستُ لكانَ سَهْلاً	ولكنّي حُبستُ مع الدجـــاج
على أنّي وإن لاقيتُ شـــراً	لخَيْرِكَ بعد ذاك الشّــر راج

فطوائف الولاة و التجار في الجاهلية والإسلام كانت تجمع الثروة وتحتكرها لنفسها ، وهذا التقسيم الطبقي زاد الحقد والكراهية بين فئات الصعاليك واللصوص والفئات الأخرى ؛ لأنهم يشعرون أنهم منعوا حقهم عنهم ، وتركزت الثروة في أيديهم بسبب حرمان الفقراء منها .

---

[1] البرزة ، الأسر والسجن في شعر العرب ، ص 343.

ثانياً : الاغتراب الاقتصادي

يعود الاغتراب على مر العصور للإحساس بالفقر ، لأن الطبيعة قاسية ، وكان العامل الجغرافي سبباً من أسباب الاغتراب لوجود مناطق خصبة ومناطق قاحلة ، وفرض التفاوت الطبقي والاختلال الاقتصادي أسلوب الحياة الرعوي ، كما فرض النظام القبلي التنقل الدائم على الإنسان في جاهليته وبداية الدعوة الإسلامية لذا قال الإمام علي كرَّم الله وجهه : " الفقر في الوطن غربة ، والغنى في الغربة وطن " [1] . فالفقر غربةٌ نفسية واقتصادية واجتماعية ، غربة في الوطن وغربة بين الأهل ، وغربة ذات اليد هي الغربة عندما لا يستطيع الإنسان الاعتماد على نفسه ، أو يستجدي قوته من الناس ، فالزوجة تلوم زوجها إذا افتقر ، وتلومه إذا أصاب غنى ؛ لتكفه عن البذل والعطاء ، والصبية الذين لا حول لهم ولا قوة يتضورون جوعاً ، فهم بين المين : بين ألم الجوع ، وألم الصبر عليه ،و بين أن يكون لهم من يعطف عليهم ويكفيهم مؤونتهم ، وبين أن يكونوا عالة على غيرهم.

فكانت الهجرةُ والاغتراب عن الوطن مظهراً من مظاهر الغربة ، كما كان التمرد والثورة على القبائل مظهرا آخر ، وما الخروج على القبيلة أو الدولة إلا لأسباب الشعور بالظلم والتقسيم الطبقي بين أبناء المجتمع ، إضافة إلى التفاوت في المستوى الاقتصادي[2] . وقد كرَّس النظام الإقطاعي بما فيه من ظلم هذه الفوارق ، فكان من أسباب الفقر انقسام المجتمع إلى طبقتين سادة وعبيد ، وأبناء إماء وأبناء أحرار ، وأصحابُ ثروةٍ ورعاةٍ وفلاحين ، فهناك من يرى أنه خلق ليكون سيداً على حساب الفقراء والمستضعفين ، وعندما جاء الإسلام ألغى الفوارق الطبقية والعرقية ، ودعا إلى المساواة والعدل بين الناس ، وحرَّم الرِّق والعبودية . فقال بكر بن النطاح[3]:

ومَن يفتقِر مِنّا يَعشْ بحُسامه   **ومَن يفتقِر من سائر الناس يَسأل**

---

[1] عبده ، **نهج البلاغة** ، 4/ 14 .

[2] انظر ، ضيف ، **العصر العباسي** ، ص 44 - 88 .

[3] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 38/19 .

وسأل الرشيد يزيد بن مزيد عن قائل هذه البيت فردَّ عليه : " والذي شرّفك وأكرمك بالخلافة ما أعرفه " ، فانصرفتُ وسألت عن القائل فقيل بكر بن النطاح وكان أحد أصحابي ، فأعلمته ما كان من الرشيد ، فأمرت له بألفي درهم وأمرته ألا يظهر ما دام الرشيد حيّا[1] .

وعاش الناس متساوين في الحقوق والواجبات ، فأمَّن لهم الإسلام العطاء من بيت المال ، وفتح أبواب الجهاد وإصابة الغنائم لمن يقدر على الجهاد ، وفرض الجزية على أهل الذمة مقابل حمايتهم في ديار الإسلام ، كما سنَّ الخراج على الأراضي الزراعية ليكون قسماً منها لبيت مال المسلمين . لكن جاء العصر الأموي فكان العنصر العربي هو المفضل على غيره من العناصر ، فشعر غير العرب بالظلم وعدم المساواة ، وفرضت عليهم ضرائب و إتاوات ، حتى أن أصحاب الخراج غالوا في جمع الخراج ، فأرغموا الفئات المعفاة على دفع الضرائب[2] ، وكانوا يجبون من الناس أكثر مما هو مطلوبٌ منهم ، فيستأثرون بما زاد عن المفروض على الناس لأنفسهم ، فكانت شكوى وتذمر من سوء جمع الخراج وسوء توزيعه .

وفي العصر العباسي لم تكن الأوضاع الاقتصادية للطبقة الفقيرة المعدمة بأحسن حال وذلك لظهور الطبقية ، ولا سيما أن المجتمع العباسي كان يعيش حياة ترف ونعيم وبؤس وحرمان ، فالخلفاء والأمراء والقادةُ وعمال الخراج وحاشية الخلفاء هي من الفئات المتنفذة ، التي كان نصيبها من بيت المال كبيراً ، والسلطة بيدها ، بيد أن السياسة العباسيّة كانت تهدف إلى إغداق العطايا على المؤيدين للدولة والعلماء والفنانين وحاشية الخلفاء ، ولم تكن هذه الهبات تقتصرُ على الأموال بل هناك حدائق وبساتين وإقطاع من الأراضي[3] إضافة إلى القصور والثروة والمتاع .

[1] الأصفهاني ، الأغاني ، 38/19 .

[2] المصدر نفسه ، ص 140 .

[3] المصدر نفسه ، ص 140 .

والأسباب التي هيأت لظهور الصعاليك واللصوص والعيارين والشطار والطفيليين في العصر العباسي الأول هي أسباب متعددة ، منها ما يرجع إلى الاختلال الاقتصادي والطغيان في تطبيق النظام المالي[1] ، وهي الأسباب نفسها التي كانت وراء ظهور الصعاليك في العصر الجاهلي سواء في جمع الصدقات والخراج ، وإرهاق الناس وتكليفهم مالا يطيقون ، وإنفاقها في سبل السياسة للمؤيدين حيناً ، وللمعارضين حيناً آخر لإشغالهم عن الخلافة .

ومنها ما يعود إلى التناقض الاجتماعي بين طبقتي الأغنياء والفقراء[2] فكانت الطبقة الغنية المترفة تعيش في نعيم على حساب الطبقة الفقيرة التي تعاني البؤس والحرمان ، فهم مغلوبون على أمرهم بل ومستعبدون . فحركة الصعلكة تطورت في هذا العصر بحكم تحضر الناس واستقرارهم وإقامتهم في المدن [3] وضعفت الروابط القبلية كما أن فئاتهم لم تعد من الخلعاء و الأغربة السود والفقراء المعدمين ، ولم يعد قوافل وأسواقاً يغيرون ويسطون عليها .

فتغيرت الوسائل والأساليب والأهداف فعمد بعضهم إلى الشكوى أو إلى الهجاء ، واحترف غيرهم السطو على الدولة وأصحاب النفوذ عوضاً عن الأسواق والطرق احترافاً منظماً قائماً على التعلم و التدرب ، واختراع الخدع والحيل [4] . ولا تختلف الدوافع عن العصور السابقة فإذا كانت الطبقية غير واضحة في الجاهلية ، فقد اتسعت الفجوة بين الطبقات . فالفقراء يعانون من ضيق وعـري وإملاق وهزال وجوع ، أجسامهم عارية وأرجلهم حافية ، وبطونهم جائعة وألوانهم شاحبة ، وغيرهم ينفق أموالاً طائلة .

فمنهم من لجأ إلى المدح إثباتاً لحسن سيرته والتكسب والاستجداء ، ومنهم من لجأ إلى حركة مستوية مـنظمة قامت على تثقيف رفاقهم وتمرينهم على حيلهم الطريفة ، وخططهم المحكمة ، فكانوا يسطون على الأثرياء والأشحاء ، ولا يعتدون على الجيران ، ولا على الفقراء . والطوائف التي استخدمت هذه الوسائل والأساليب هم العيارون والشطار والطفيليون [5] . فكانت

---

[1] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص 9 - 39 .

[2] المرجع نفسه ، ص 96 .

[3] المرجع نفسه ، ص 96 - 123 .

[4] المرجع نفسه ، ص 143 - 160 .

[5] انظر عبد المولى ، **العيارون و الشطار البغاددة في التاريخ العباسي** ، ص166.

الحياة الاقتصادية مضطربة ، وظهر قصور النظام المالي وفسادهُ واضحاً ، وساء توزيع الثروة والأموال كما ساءت جباية الخراج وزادت نسبته مما أدى إلى خيانة القائمين عليه وسوء ائتمانهم ، فكانت هذه العوامل جميعها وراء ظهور الصعلكة و اللصوصية ،وصارت حركات التمرد تزداد يوما بعد يوم مطالبة بتخفيف الخراج أو ممتنعة عن تأديته .

ومما زاد الأمور سوءا عزل الوزراء والولاة والجباة لسوء سيرتهم وخيانتهم ، ومصادرة أموالهم ، وأفاضوا الأموال بالمقابل على الجيش لتثبيت أركان دولتهم ، وعلى المعارضين اتقاءً لخطرهم . ولم يكن الوضع الاجتماعي بأسعد حال من الوضع الاقتصادي[1] ، فالطبقية والتناقض الاجتماعي أدى إلى إهمال حياة الشعب ، فانتشرت اللصوصية والفتن و الاضطرابات بين الفئات الفقيرة وبين من يعيشون في دعة وسعة من خلفاء ووزراء وعمال وقادة ، فالخليفة يخص أسرته وحاشيته ، و ينفق أموالاً طائلة في إنشاء القصور ، و إجزال الهبات للشعراء والمغنين ، فهذا التباين في الأرزاق والمعيشة وانعدام المساواة والعدل ، جعل الفقراء ينتظمون في جماعات متمردة ، يجبون المارة في الطرق وفي السفن ، ويقطعون الطرق جهراً ، ويغيرون على المدن والتجار ، فاعتُبروا خارجين على النظام ، ثائرين على السلطان ، فكانوا يحققون وجودهم ويكسبون أقواتهم بالقوة حيناً أو السطو والسرقة حيناً آخر ، وهناك من تعقبهم بالتنكيل و التضييق والحبس والقتل ، ولم يعالج أسباب خروجهم وتمردهم[2] .

حضرت ليلى الأخيلية إلى الحجاج تشكو سوء الأوضاع ، فقال ما أتى بك يا ليلى ؟ قالــت : " إخلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وَكَلَبَ البرد ، وشدة الجهد وكنت بعد الله الرد "، وقالت : " أصابتنا سنون لم تدع لنا فضلاً ولا ربعاً ، فقد أهلكت الرجال ، ومزقت العيال ، وأفسدت الأموال " [3]، ثم قال للحاجب : اذهب فاقطع لسانها . فدعا لها بحجّام ، فقالت : ويلك ! إنما قال لك اقطع لسانها بالصلة والعطاء ، فدخلت عليه ، وقالت : كاد والله يقطع مِقولي وأنشدته[4] :

حجّاجُ أنتَ الذي لا فوقه أحـــــدٌ	**إلا الخليفةُ والمُستغفَرُ الصَمَـدُ**
حجّاجُ أنتَ سِنانُ الحربِ إن نُهجَت	**وأنت للناس في الداجي لنا تَقِدُ**

---

[1] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص 96 .

[2] المرجع نفسه ، ص 123 .

[3] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 11/ 227 .

[4] الفوال ، **شرح ديواني ليلى الأخيلية وتوبة بن الحمير** ، ص 27 .

وكانت غاراتهم وسرقاتهم ضرباً من الثورة على الفقر والظلم[1] ، وتعبيراً عن السخط لتحصيل أرزاقهم وحقوقهم بالقوة ، وكان خروجهم على المجتمع مناداةً بالحرية ، فكان الفقر من دوافع إخافة السبل وقطع الطريق ، فكان في الجاهلية الطرد والخلع والانفصال عن القبيلة لتحقيق الحرية و الذات . و اختفت هذه الظواهر ولو جزئياً بسبب المساواة والعدالة وتوفير الأعطيات من بيت المال[2] ، إلا أن قيام الدول وسوء الائتمان من القائمين على بيت المال ومن الولاة والجباة زاد الأمور سوءاً ، إذ تمادى الذين يتولون الأمور المالية ، بجمع الخراج والضرائب في ذلك ، سواء في توزيع الثروة ، أو جمع أكثر مما يطلب منهم ، كما أن انشغال الخلفاء داخلياً بالفتن والثورات ، وخارجياً بالفتوحات ، أدى إلى عودة الظلم والفقر وتجاوز الحدود بحرمان بعض الفئات من رواتبها ، وانضمام هذه الفئات تحت ما يسمى أحزاب المعارضة ، أو الشذاذ والخارجون على القانون .

فهذه الأسباب مجتمعه أدت إلى نوع من الشعور بالظلم والحرمان والفقر، مما أدى إلى التمرد والعصيان ، والامتناع عن دفع الضرائب ، كما أدى للحث على القيام بالثورات وشق عصا الطاعة أو رفع التظلم والشكوى إلى الخلفاء ، وزاد الأمور تعقيداً الثراء الفاحش بين الطبقات الغنية صاحبة النفوذ . والإسراف في تبذير الأموال على الملاهي والمجون والخلاعة ، وفي بناء القصور وشراء المتاع والطعام واللباس ، في حين أن الكثير من سواد الشعب لا يجد قوت يومه[3]. فكانت بعض الفئات فقيرة أصلاً وفئات تركن إلى الكسل والفراغ ، وتعتمد على الدولة في تأمين العطاء من بيت مال المسلمين ، وكان هناك نوع من الوعي الذي تغذيه الحركات المعارضة للدولة أو العناصر غير العربية ، التي فتحت عيون الناس على حياة الترف والمجون ، ولا سيما بعد استقرار الناس في دولة ونظام . ومما يبين التفاوت ما حصل للقتال الكلابي إذ دعاه رجلٌ يقال له أبو سفيان فجلس القتال ينتظر رسوله ولا يأكل حتى انتصف النهار ، وكان عنده فقرة من حوار فقال لامرأته [4] :

فإنَّ أبا سفيانَ ليسَ بمولِمٍ	فقومي فهاتي فِقرة من حوارك
فبيتُكِ خيرٌ من بيوتٍ كثيرةٍ	وقِدرُك خَيرٌ من وليمةِ جـــارِكِ

---

[1] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص175.

[2] المرجع نفسه ، ص 171 .

[3] المرجع نفسه ، ص 96 .

[4] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 325/23 .

وتشعر الفئات المحرومة بالظلم والحرمان ، كما أنها تعاني من الفقر والعوز ، فزاد التفاوت الطبقي بين طبقة الخلفاء والقادة والولاة وبين عامة الشعب ، كما أن الظلم في فرض الضرائب والخراج والإتاوات زادت الأمور تعقيداً ، وزادت معاناة سواد الشعب من استبداد أصحاب النفوذ ، وخصوصاً الولاة الذين كانوا يفرضون الضرائب على غير مستحقيها مما اضطر بعضهم إلى تسجيل أراضيهم لأصحاب النفوذ لعدم قدرتهم على تسديد ما عليها من التزامات ، مقابل قسم كبير من خراجها لأصحاب النفوذ ، وهو ما سمي بقانون " الإلجاء " [(1)] .

فإذا كان الفقر هو من أسباب الاغتراب الاقتصادي ، فإن هناك أسباباً أخرى كالشعور بالظلم وكثرة التسلط ، مما اضطر كثير من الصعاليك واللصوص إلى معاداة القبائل والدول ، وكثرة السلب والنهب والتطرف والتمرد على كل القوانين والأعراف ، فكم من معيلٍ أصابته الفاقة والفقر ؟ فوقف عاجزاً عن أن يؤمّن قوت صبيته ، وكم أم تعللت بإنضاج الطعام لصبيتها ولم ينضج ؟ وكم والدٍ أو قريبٍ تمنى لابنته أو لمن يعيلها الموت حتى لا تمد يدها لسؤال الناس ؟ وكم طفلةٍ قد نفذ فيها حكم الموت دفناً وهي على قيد الحياة خوفاً من الجوع أو العار ؟ قال تعالى : ﴿ وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنبٍ قتلت ﴾ [(2)] ، وكم قصةٍ أعقبت في الحلق غصة في تراثنا وحتى في أيامنا أيام التمدن والحضارة .

فإسحاق بن خلف الحنفي كفل ابنة أخته بعد أن فقدت معيلها ، فكان يتمنى لها الموت خوف العار وخوف الجوع ، حتى لا تحتاج إلى أخ أو عم ، في حين كانت تتمنى له طول العمر ليبقى إلى جانبها . ويقول في ذلك [(3)] :

لولا أميمةُ لم أجزعْ من العَـــدَمِ ... ولم أجبْ في الليالي حِندسَ الظُّلَمِ

وَزَادني رَغبةً في العيشِ مَعرفَتِيَ ... ذُلَّ اليتيمةِ يَجفُوها ذَوُو الرَّحِـــمِ

أحاذِرُ الفقرَ يوماً أنْ يُلِمّ بهــــــــا ... فيهتِكَ السترَ عن لحمٍ على وَضَمِ

تَهوى حَياتي وَأهوى مَوتَها شَفَقاً ... والموتُ أكرمُ نزَّالٍ على الحُــرَمِ

أخشى فَظَاظةَ عَمٍّ أو جَفَـاءَ أخٍ ... وكنتُ أبقى عليها مِن أذَى الكَلِـمِ

---

(1) انظر ، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 148 .

وانظر ، عطوان ، **شعر الصعاليك في العصر العباسي** ، ص 85 .

(2) التكوير ، آية 8 .

(3) المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 282/1 .

وانظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 320 .

فالشاعر لا يخشى الموت ، إذ أصبح الموت أمنية حتى لا يلم بها فقرٌ أو فضاضة أو غلظةٌ من أخ أو عم ، وهي تتمنى له العيش والحياة حتى لا تغدو وحيدةً ، وصار الموت قريناً للجوع فقد أصاب الجوع تأبط شراً حتى لا يستطيع أن ينهض على أقدامه ، وكذلك الشنفرى أخذ يستفُّ التراب ، في حين أصاب السليك العشى الليلي على مصابرته الفقر والجوع، وشكا الفقر حتى في أيام الصيف حين يشبع الناس ، فهو قد أصابه الجوع في الشتاء والصيف ، وشكا عروة بن الورد هزال وشحوب جسمه ، لأنه آثر غيره على نفسه [1] .

فالسليك لم ينل بغيته من الشبع إلا بعد أن تمرَّس بأساليب الصعلكة ولم يجد بديلاً عنها ، فقد صار أقرب للموت من الحياة ، فإذا شكا الناس الفقر والجوع في الشتاء ، فإنه كان يشكوه في الصيف ، يقول في ذلك[2] :

وما نِلتُها حتى تَصَعلكْتُ حِقْبـــــــةً   وَكِدْتُ لأسبابِ المنيةِ أعـــرفُ

وحتى رأيتُ الجوعَ بالصّيفِ ضرّني   إذا قمتُ تَغشَاني ظلالٌ وأسْدِ فُ

فإذا أصابه الجوع بالصيف ، فكيف تكون حالته وبؤسه في أيام الشتاء ؟ وحتى في أسعد لحظات حياتهم عندما يصيبون مغنماً ويشبعون على أثره ، فإنهم يحسبون لأيام الجوع ، فلذلك يقتصدون حتى في طعامهم ، ويخشون أيام الفقر ، فكان تأبط شراً هو المسؤول عن مؤونة أصدقائه في أيام غزوهم ، ويقتصد في إطعامهم لكي يبقي لهم طعاماً ويرى أن تطول أيام الغزو ، أو يخشى عدم نيلهم الغنائم من وراء غزوهم ، يقول الشنفرى في وصف تأبط شراً ويشبهه بأم العيال فيقول[3] :

وأمِّ عيالٍ قد شهدتُ تَقُوتُهـــــمْ   إذا أطعَمَتهُمْ أوتَحَتْ وَأقلَّتِ

تَخافُ علينا العَيْلَ إنْ هيَ أكثرتْ   ونحنُ جيـــاعٌ أيَّ آلٍ تألَّتِ

ويصفح الشنفرى كذلك عن ذكر الجوع ويصبر عليه ، خوف أن يتفضل عليه أحدٌ ، ويقول[4] :

أديمُ مِطالَ الجوعِ حتى أميتَــه   وَأضربُ عنه الذِّكرَ صَفحاً فأذهلُ

---

[1] انظر ، المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 282/1 .

[2] المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، 310/1 .

وانظر ، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 334 .

[3] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 39 .

[4] المصدر نفسه ، ص 112 . * الوَتِيحُ : القليل من كل شيء . (**اللسان** ، مادة وتح) .

فإنّي لمولى الصّبر أجتابُ بَزّه   على مِثل قلبِ السِّمع والحزمُ أفعلُ
وأعدِمُ أحياناً وأغنى وإنّمـــــا   يَنالُ الغِنَى ذو البعدةِ المُتبـــذّلُ

وتحدثوا عن صبرهم واحتمالهم الجوع ، كما يؤثر أولاده على نفسه ، ويصبر على الجوع حتى لا يكون فريسة للذل والهوان ، ويعيش عيشة كريمة مترفعة عن التسول والاستجداء ، يقول أبو خراش[1] :

وأني لأثوي الجوعَ حتى يَملني   فيذهبُ لم يدنسْ ثِيابي ولا حَرَمي
أردُّ شجاعَ البطنِ قد تعلمينَـــهُ   وأوثِرُ غيري من عِيالكِ بالطعـــمِ
مَخافة أنْ أحيَا برغمٍ و ذِلـــةٍ   وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رغمِ

فهناك حاجة عضوية وحاجة أنانية ، فالحاجة العضوية للإبداع والعمل و الإنتاج والنشاط لتلبية حاجة حفظ الوجود الطبيعي ، والحاجة الأنانية والشره هي الرغبة في الثراء والكسب [2] ، وبقدر الكسب تكون التضحية ، وبالتضحية تخلٍ عن الحرية لصالح شهوة المال وحب التملك ، ولا يمكن القضاء على الحاجات إلا بعد إجراء تغيير للنظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي ، وسبب التمرد والثورة كان بدافع القضاء على الملكية الخاصة . والإلغاء الإيجابي للملكية هو الانعتاق الكامل لكل الحواس والحل الحقيقي للتناحر بين الإنسان والإنسان.

وهناك من تاب عن أعمال الصعلكة و اللصوصية ، فتقرّبَ من الدولة ، و سجل في ديوان العطاء و أجري له راتبٌ ، و ربما خمل ذكره بعد شهرته بالصعلكة أو زادت شهرته لتقربه من الخلفاء و مدحه إياهم و تكسبه في شعره . و خير مثال على ذلك بكر بن النطاح الذي تخلى عن الصعلكة و اتصل بأبي دلف العجلي قائد جيش الرشيد ومن تبعه الأمين و المأمون و المعتصم . و تخلى الصعاليك عن أساليب الإغارة و السطو إلى أساليب أخف حدة و اكتفت بالأقوال كأساليب الشكاية و التظلم و الاستجداء و الاستعطاف و السخرية و الهجاء و التعـريض ، و منهم من لجأ إلى الخداع و الحيل و التكسب و حسن التخطيط و البراعة في التنفيذ ، و تثقيفهم بأسرار حرفتهم و حدود مهنتهم ، فلا ينهبون كل الأغنياء بل من اتضح فسادهم ، و لا كل التجار إلا من مال

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، ص 239/21 .
وانظر ، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 50 .
[2] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 122 .
وانظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 45 .

الكـــاذب المخادع الذي يتلاعب بالأسعار، ولا يخرج الزكاة ، و يأكل أموال الناس ظلماً و عدوانا [1] ، و منهم عثمان الخياط الذي كان يلص على حواشي الخلفاء ، و من يتمتعون بزينة الحياة، وعلى الشاذين وقطاع الطرق .

وفرّه بن محرز الحنفي الذي اتصل بأبي دلف ، و لكثرة ما احتال و تعلل بنفس الحيلة من شراء أرض أو عقار أو لسداد دين فقال له أبو دلف :" أما تفنى هذه الأرضون التي إلى جانب أرضك " [2] ، فغضب و انصرف و انشأ يقول[3] :

يا نفسُ لا تَجزَعي من التَلف	فإنّ في اللهِ أعظمَ الخَلفِ
إنْ تقنعي باليسَير تُحترَمِـــي	و يُغنيكِ اللهُ عن أبي دُلفَ

فهو يعزي نفسه بامتناع عطاء أبي دلف الذي أغدق العطاء عليه مرات ومرات ، حتى إذا زجره للكف عن التكرار وزيادة العطاء، انقلب المدح إلى تعريض بأبي دلف و الاستغناء عنه . فالوسائل الكثيرة و المتعددة للكسب أصبحت مهنة و احترافا و خصوصاً عند من اعتاد على التسول و الكدية ، فهناك من خصص له أعطيات و رواتب من بيت المال لمشاركته في حملات الفتوحـــات ، إلا أن نفسه لا تكف عما اعتادت عليه من ذل النفس و امتهانها . قال بكر بن النطاح [4] :

هنيئاً لأخواني ببغدادَ عيدهمُ	وعيدي بحلوانٍ قراعُ الكتائبِ

---

[1] انظر، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 30 .

[2] المرجع نفسه ، ص9 - 39 .

[3] المرجع نفسه ، ص9 - 39 .

[4] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 37/19 .

فقال أبو دلف : " إنك لتكثر الوصف لنفسك بالشجاعة " وما رأيتُ لذلك عندك أثراً قط ، قال : نحن جنينا على أنفسنا وقد كنا أغنياء عن إهاجة أبي وائل . حتى أصبحت حكايات الفقر و التسول من النوادر الطريفة التي تكثر في شعرهم ، كشكوى الزمان و جور السلطان و سوء الحظ و التشاؤم من الحياة، حتى يتخيل أنه لو خاض البحر لجف ، ولو أمسك الدر لتحول إلى زجاج ، ولو همّ بشرب الماء العذب لصار مرا لا يشـرب . يقول أبو الشمقمق [1] :

لو ركبتُ البحارَ صارتْ فِجاجاً	لا ترى في مُتُونها أمَواجــــــا
ولو أنّيَ وضعتُ ياقوتة حمـ	ـراءَ في راحـــتي لصارتْ زُجَاجاً
وَلو أنّي وَرَدتُ عَذباً فُراتــاً	عادَ لا شكّ فيه مِلحاً أجَاجــــاً

فشعر الصعاليك قصص و حكايات و حوار و مخاطرة ، يرتبط بمناسبة أو قصة غالباً ما تتعلق ببطل القصة، وشعرهم شعر مواقف أو شخصيات تتكلم عن نفسها، حيناً يخاطب نفسه و حيناً يخاطب الأخرين ، فإما أن تكون هذه الحكايات خروجاً و انفصالاً عن المجتمع و إما أن تكون ميلاً للتوافق وطلباً للانتماء . يستخدم الشاعر الأسلوب التقريري الخطابي ، كما يوظف البيئة في شعره ، فشعرهم بما يتسم به من واقعية يصور جانبي الخير و الشر ويغلب أحدهما على الأخر حسب المواقف الاجتماعية التي تفرض ذاتها عليه .

كان العكوك من الموالي الخراسانية ، و على صله بأبي دلف ويظهر إكرامه و التحفي به عند زيارته ، فتأخر حياء عنه فسأله لقد انقطعت عني ، و أظنك استقللت برّي إليك فإني سأزيـد منه حتى ترضى ، فقلت له :" والله ما قطعني إلا الإفراط في البر" [2] ، وقال في ذلك[3]:

هَجرتُكَ لــم أهْجُركَ من كُفر نِعمةٍ	و هلْ يُرتجى نيلَ الزيادة بالكفـــــر

---

[1] جرنبارم ، جوستاف ، **شعراء عباسيون** ، ترجمة محمد يوسف نجم ، طبعة دار الحياة ، بيروت ، 1959 ، ص 115 .

وانظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص 92

أبو دلف : هو القاسم بن عيسى بن إدريس أحد بني عجل ومحله في الشجاعة وعلو المحل عند الخلفاء ويمتاز بحسن الأدب وجودة الشعر وكان من قادة الخلفاء العباسيين زاره علي بن أبي جبلة فأكرم وفادته ثم انقطع عنه مدةً وحسب أنه استقلّ عطاءه فعندما سئل عن سبب انقطاعه قال :" والله ما قطعني إلا إفراطه في البر (الأصفهاني ، **الأغاني** ، 8/ 246) .

[2] عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 217 .

[3] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 246/8 .

وانظر ، عزيز ، **المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي** ، ص 194 .

ولكـــنّني لما أتيـــتُــــــكَ زائراً فأفرطت َفي برّي عجزتُ عن الشّكـــر

فمن الآنَ لا آتيكَ إلا مُسلّمــــــــاً أزُوركَ في الشهرين يوماً و في الشهر

فإنْ زدتني براً تزايدتُ جَفـــــوةً و لم تلقني طول َالحياة ِإلى الحشـــر

و اختلفت أساليب الصعاليك واللصوص حسب طبيعة العصور، فالعصر الجاهلي يعتمد الغزو و الإغارة و السطو ، وكان العصر الأموي استمرار للعصبية القبلية ، و العصر العباسي يميل للمدح أو الهجاء و أحيانا التكسب بالشر . أو يلجأ إلى أسلوب الاحتيال و الاستجداء . فكان الدوار بين الشاعر و الممدوح ، وكان يتردد على أبي دلف لينال العطاء[1] ، و لكن يتظاهر بالحياء من كثرة الزيارات و يتغيب حتى يسأل عنه و يجزل له العطاء ، فإذا لم يعط انقلب المدح هجاءً مقذعاً ، فالشاعر يحفظ شعره لارتباطه بمناسبة ، و شعره كالصحف اليومية سريعة الانتشار و خصوصاً أنها تعبر عن واقع الحياة التي يعيشها . و لم تكن قصائد طويلة بل مقطوعات لا تتعدى عشرة أبيات ، و هذه الميزات ساعدت في الحفاظ على شعر الصعاليك ، وإن كان فيها معارضة للقبائل أو السلطة و الدولة .

فإذا نظرنا إلى شعر الصعاليك في العصر الجاهلي لا نجد فيه مدحاً ولا غزلاً ولا أطلالاً في مستهل قصائدهم [2] ، فالشاعر لا يقيم بين أفراد القبيلة بل خارجاً عليها ، ولا يعرف القصور و شيوخ القبائل ليستجدي منهم ، و إنما يعرفهم كأصحاب ثروة يغري رفاقه بالإغارة عليهم ، فلم يعيشوا الحياة بل ضيوفاً على الحياة ، قال مالك بن الريب[3] :

حيثُ الدُجى مُتطلعاً لِغُفولــــــهِ كالذئبِ في غَلسَ الظلام ِالخاتـلِ

فوَجدتُه ثبتَ الجَنان مُشيّعــــــاً ركّاب مَنسج َكلَّ أمر هائــــــلِ

لم يدر ما غُرفَ القصور وفيؤها طاوٍ بنخلِ سوادهِ المُتمايــــــلِ

لم ينالوا حقهم لأنهم لم يرتادوا القصور، و لم يمدحوا أو يفخروا بقبائلهم فشعرهم ذاتي ترجمة لواقعهم الشخصي[4] ، يعيشون عند الناس لا بين الناس ، فلم تكن زياراتهم لأصحاب

---

(1) انظر، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 22/ 313 .

(2) انظر، زيدان ، **التمرد والغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 76 .

(3) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 22/ 323 .

(4) انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 270 .

ختل : الخَتْل تخادع عن غفلة و التخاتل التخادع (**اللسان** ، مادة ختل) .

النفوذ، أو غاراتهم على الأثرياء حباً في جمع المال ، بل دفعاً للموت عن أنفسهم . فالفقر كان وراء بؤسهم و تعاستهم .

فمن احترف الصعلكة و اللصوصية مع بقية الصعاليك فلا نجد لها سبباً غير الفاقة والفقر ، يطردون الإبل ويبيعونها في الأسواق ، وهذه المهنة تسبب لهم العداوة والكراهية ولا تهدأ إلا بالثأر ، لأن السرقة تقترن بالقتل ، فيصبح القاتل مطاردا من أولياء القتيل ، فكان السمهري ممن أصاب دماً ، وخلعته قبيلته " عكل " وقعدت عن نصرته ، فهام على وجهه يبحث عن نبيلٍ يحميه فعندما ألقي القبض عليه ألقي في السجن ، فكانت الغربة بسبب الثأر والخلع إضافة إلى السجن الذي اقتص منه بعد سجنه من أولياء القتيل ، وقال في السجن[1] :

ألا ليتني منْ غيرِ عُكلٍ قبيلتي	ولم أدر ما شبّان عُكلٍ وشِيبِها
قبيلة لا يقرعُ البابَ وفدُهــا	لخير ولا يأتي السّدادَ خطيبُهـا

فكانت حياتهم معاناة وشقاء ، وقد يفرُّ من السجن ويلقى نفسه في سجن آخر أكثر اتساعاً ، وهناك من يتعرف على رفاقٍ له في السجن فإذا خرج من سجنه التحق برفاقٍ آخرين ، ويمكن أن يردعه السجن فيتوب عن حياة الصعلكة كتليد الضبي الذي سجن في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ثم لا يلبث أن يعود لما جبل عليه من شرٍ هرباً من الفقر بعد أن وجد في نفسه هوى للجنوح ، وتهيؤاً واستعداداً للشر ، وبالرغم من تلون أشكال التعذيب في السجن ، إلا أن الفقر والحرمان والجوع كان أشد وقعاً في نفسه وفي أسرته من عذاب السجن ، وما اللجوء إلى الصحراء إلا محاولة للتخفي عن وجه السلطةِ أو الدولة . قال أبو الشمقمق[2] :

ما جَمعَ الناسُ لدنياهــــمُ	أنفعُ في البيتِ من الخُبزِ
والخبزُ باللحمِ إذا نلتَـــهُ	فأنتَ في أمنٍ من النّـرزِ
كانتْ لهم عنزٌ فأودى بهــا	وأجدَبُوا من لبنِ العنـزِ
فلو رأوا خبزاً على شاهـقٍ	لأسرَعوا للخبز بالجمـزِ
ولو أطاقوا القفزَ ما فاتهـم	وكيفَ للجائع بالقفــزِ

[1] الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، 1-2 /37 .
البرزة ، الأسر والسجن في شعر العرب ، ص 295 .
[2] جرنبارم ، شعراء عباسيون ، ص 123 .

وقصص الفقر والحرمان والجوع لا تنتهي ، والفقراء ليس عندهم ما يسد رمقهم أو يعيل أولادهم ، ولا َهمّ لهذه الطبقة سوى توفير الطعام ويتغنى برغيف الخبز ، وهو الأمل الوحيد له و أضحت حكايات الفقر مدعاة للطرافة والتفكه ، أو قصصاً للتسلية ، وكثير من الفقراء من يلقون اللوم على الدولة التي لا تحدد لهم أرزاقا من بيت المال ، فلجأ هؤلاء الفقراء إلى أساليب ووسائل جديدة كالحيل والخداع والاستجداء والكدية بوسائل أدبية أو طبية أو السفارة إلى أبواب الخلفاء ، أو القيام بأعمال فكاهية ، كالخداع البصري أو ما يسمى ألعاب الخفة أو السحر والشعوذة ، بعد أن أعياها طلب الرزق بسبب الفراغ والترفع عن العمل ، وإلقاء اللوم على الدولة والتواكل ، فالفقر أو الجوع لا لقلة العمل بل الركون إلى الدعة ، وتزايد عدد المواليد[1] .

فالحياة المترفة والقصور واتساع الدولة وتنوع مصادرها ومجالس اللهو والغناء فيها ، يدل دلالة واضحة على الترف والنعيم ، فحتى الجنسيات غير العربية كانت تقوم بأمور الدواوين [2] ، وأبواب الجهاد كانت مفتوحة ، وكانت النهضة في المجالات المختلفة سواء الأدبية والتجارية في أوج ازدهارها كذلك كانت في الأسواق ، والطرق التجارية ، وحركات التبادل التجاري ، وكل هذا لا يمنع الفقر في الطبقات الفقيرة وقصصها التي لا تخلو من البؤس إضافة إلى الطرافة . يقول أبو فرعون الساسي[3] :

وصبيةٍ مثلُ صِغار الــــــذر	**سُودُ الوجوهِ كسوادِ القِدر**
جاءَ الشتاءُ وَهمْ بشَــــــــر	**بغير قُمصٍ وبغيـــر أزر**
كأنهم خَنافسٌ في جُحـــــــر	**هذا جَميعُ قِصتي وأمـــري**
فارحمْ عِيالي وَتَولى أمــري	**فأنتَ أنتَ ثِقتي وذُخـــري**
كُنيتُ نفسي كنيةً في شِعـري	**أنا أبو الفقر وأمُّ الفقـــــر**

وتحدث الصعاليك واللصوص عن سياط الفقر والجوع التي يصبها الفقر على نفوسهم ، فكانوا يتوارون عن أعين الناس لسوء منظرهم ، وعري أجسادهم [4] ، وهم يصبرون على الأذى والذل ، ومما يزيد في معاناة أسَرهم و صبيتهم الذين يستغيثون .

---

[1] انظر، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 125 .

[2] انظر، شوقي ، **العصر العباسي الأول** ، ص 44 – 88 .

[3] التوحيدي ، أبو جابر ، **الإمتاع والمؤانسة** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، وأحمد الزين ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، 34/3 .

عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص 86 .

[4] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 38 .

وقصص الفقر والحرمان والجوع لا تنتهي ، والفقراء ليس عندهم ما يسد رمقهم أو يعيل أولادهم ، ولا َهمّ لهذه الطبقة سوى توفير الطعام ويتغنى برغيف الخبز ، وهو الأمل الوحيد له و أضحت حكايات الفقر مدعاة للطرافة والتفكه ، أو قصصاً للتسلية ، وكثير من الفقراء من يلقون اللوم على الدولة التي لا تحدد لهم أرزاقا من بيت المال ، فلجأ هؤلاء الفقراء إلى أساليب ووسائل جديدة كالحيل والخداع والاستجداء والكدية بوسائل أدبية أو طبية أو السفارة إلى أبواب الخلفاء ، أو القيام بأعمال فكاهية ، كالخداع البصري أو ما يسمى ألعاب الخفة أو السحر والشعوذة ، بعد أن أعياها طلب الرزق بسبب الفراغ والترفع عن العمل ، وإلقاء اللوم على الدولة والتواكل ، فالفقر أو الجوع لا لقلة العمل بل الركون إلى الدعة ، وتزايد عدد المواليد[1] .

فالحياة المترفة والقصور واتساع الدولة وتنوع مصادرها ومجالس اللهو والغناء فيها ، يـدل دلالة واضحة على الترف والنعيم ، فحتى الجنسيات غير العربية كانت تقوم بأمور الدواوين [2] ، وأبواب الجهاد كانت مفتوحة ، وكانت النهضة في المجالات المختلفة سواء الأدبية والتجارية في أوج ازدهارها كذلك كانت في الأسواق ، والطرق التجارية ، وحركات التبادل التجاري ، وكل هذا لا يمنع الفقر في الطبقات الفقيرة وقصصها التي لا تخلو من البؤس إضافة إلى الطرافة . يقول أبو فرعون الساسي[3] :

وصبيةٍ مثلُ صِغارِ الـــــذّر	سُودُ الوجـوهِ كسوادِ القِدر
جاءَ الشتاءُ وَهمْ بشَـــــــرِ	بغير قُمـصٍ وبغيـــر أزر
كأنهم خَنافسٌ في جُحـــــــرِ	هذا جَميعُ قِصتي وأمـــري
فارحمْ عِيالي وَتَولى أمـــري	فأنتَ أنتَ ثِقتي وذُخـــري
كُنيتُ نفسي كنيةً في شِعـري	أنا أبو الفقر وأمُ الفقـــــر

وتحدث الصعاليك واللصوص عن سياط الفقر والجوع التي يصبها الفقر على نفوسهم ، فكانوا يتوارون عن أعين الناس لسوء منظرهم ، وعري أجسادهم [4] ، وهم يصبرون على الأذى والذل ، ومما يزيد في معاناة أسَرهم و صبيتهم الذين يستغيثون .

---

[1] انظر، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 125 .

[2] انظر، شوقي ، **العصر العباسي الأول** ، ص 44 – 88 .

[3] التوحيدي ، ابو جابر ، **الإمتاع والمؤانسة** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، واحمد الزين ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، 34/3 . .

عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول** ، ص 86 .

[4] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 38 .

وبين نزعته القبلية . فالنزعة الفردية تتسم بالتميز والتنوع في الشعر والبطولة والفروسية ، وإما بالتمرد والسلوك العدواني والعجز عن التجاوب مع الأوضاع العامة [1] . وجاء الإسلام ووحد القبائل تحت نظام اقتصادي واحد ، كما وضع أسس التعاون الاقتصادي وتوزيع الثروات والزكاة فتفرقت القبائل في طلب الرزق ويتحول الاغتراب الاقتصادي إلى اغتراب حضاري نظرا لعجز المغترب عن التلاؤم مع البيئة الحضارية الجديدة .

ثالثاً : الاغتراب السياسي و أسبابه

تطور الاغتراب عبر الخروج على القبيلة ، والتمرد على العادات والتقاليد ، فكان الخروج لانعدام المساواة والعدل ، وزاد الإحساس بالظلم ، وساءت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، فهناك من طردتهم قبائلهم لإلحاق الأذى بجيرانهم ، وارتكاب السطو والإغارة والسلب ، مما حمّل قبائلهم الديات ، وساء جوار قبائلهم مع غيرها [2] ، وتعرض الصعاليك واللصوص لنهب الأموال كما اعترضوا طرق القوافل ، واعتدوا على الثروات ، وسبوا النساء . فكان الانفصال عن القبيلة ونظامها القائم تمرداً ، وتخلوا عن العصبية القبلية ورابطة الدم والمصاهرة والنسب ، و لجأوا إلى عصبية مذهبيةٍ تجمعها الظروف والغايات والأهداف ، متمثلة بالرفاق الصعاليك واللصوص ، فتخلوا عن العصبية القبلية إلى عصبيةٍ مذهبيةٍ .

وبدخول الإسلام الذي ألغى العادات القبلية السيئة كالوأد والثأر وتحريم الرق ؛ ليضع نظاماً شاملاً يقوم على العدل والمساواة ، وأصبح الاغتراب فكرياً ومذهبياً[3] ، فنشأت في خلافة عثمان أحزاباً ومعارضة ، فكان من يرى بان الخلافة حقٌ لقريش ، ومن يرى أن الخلافة للأكفأ كرأي الخوارج ، وهناك من يعتقد أن أحقيّة الخلافة للشيعة أتباع الإمام علي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - لقربه من الرسول عليه السلام ، وزوج ابنته فاطمة ، وأم الحسن والحسين ، لكن هناك

---

[1] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 63 .

[2] انظر، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 33 .

[3] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 240 .

من يرى أن العباسيين أعمام الرسول هم أحقُ بالخلافةِ ، ويحتج بذلك أن أبناء البنات لا يرثون الخلافة ، أما الزبيريون فطالبوا بأن تكون الخلافة في الحجاز وليس في الشام أو في بغداد[1] .

فتولد الصراع السياسي نتيجة الخلاف على الخلافة ، وتدّخل عناصر غير عربية بهذه الصراعات ، وكثر الاجتهاد بالفكر والرأي ، لإثبات أحقية الخلافة في آل البيت أو في عامة المسلمين ، كل هذه الأمور كانت ممهدةً للخروج على الدولة من فئات الصعاليك واللصوص والعيّارين والشطار . فحتى البيت الواحد كالبيت الأموي كان فيه انقسام بين من يتولى أمور الخلافة ، هل هو البيت المرواني أو البيت السفياني[2] ؟ وعندما جاء العصر العباسي كانت الدول المجاورة تتدخل في شؤون الدولة العباسية .

وكانت هذه الدول صاحبة نفوذ ، لتغلغل عناصرها في الخلافة العباسية بروابط المصاهرة وكذلك القرب من العاصمة بغداد ، فكان بعض الخلفاء أخوالهم من الفرس ، وبعضهم أخوالهم من الأتراك ، كما أن هناك بعض الدويلات العربية تدين بالتبعية لهذه الدول ، فالمناذرة يدينون بالتبعية للفرس لقربهم منهم ، و الغساسنة يدينون بالتبعية للروم أيضا ، إضافة إلى أن الخلافة العباسية قامت على أكتاف العناصر غير العربية ، لأنها كانت تطالب بالمساواة التي حرمت منها في العهد الأموي ، وأيّد الموالي الخلافة العباسية بعد أن آمنوا بالمساواة بين الأجناس المختلفة العربية وغير العربية تجمعهم المواطنة والمصالح المشتركة[3] .

في ظل هذا الانقسام والانفصال بين مؤيد ومعارض ، وبين خاضع لهذا النظام أو تلك السياسة ، كانت الجماعات المذهبية تطالب بنصيبها من السلطة والحكم وإشراكها في الخلافة[4]. وكانت العناصر غير العربية لها نفوذها ، ولا سيما بعد أن تعرضت للظلم في العصر الأموي فكرا وسلوكاً . إذ دخل إسماعيل بن يسار على عبد الملك بن مروان لمّا أفضى إليه الأمر بعد مقتل

---

[1] انظر، الشايب ، **تاريخ الشعر السياسي** ، ص 41 .

[2] انظر، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 78 .

[3] انظر، عبد الحميد ، **في تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص 303 - 340 .

[4] انظر، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 40 - 98 .

وانظر ، الشايب ، **تاريخ الشعر السياسي** ، ص 50 - 90 .

عبدا لله بن الزبير فسلم ووقف موقف المنشد فقال له عبد الملك : " الآن يا ابن يسار ! إنما أنت امرؤ زبيري ، فبأي لسان تنشد ، فقال له : " يا أمير المؤمنين أنا أصغر شأناً من ذلك ، وقد صفحت عن أعظم جرماً وأكثر غناءً لأعدائك مني "[1] فأنشد إسماعيل بن يسار وقال[2] :

رحلنا لأنَ الجودَ منكَ خَليقـــةٌ وأنكَ لم يَذْمُمْ جنابَكَ مُجتـــدِ

ملكتَ فزدتَ الناسَ ما لم يزدهمُ إمامٌ من المعروفِ غير المُصَرَّد

وقمتَ فلم تنقُضْ قضاءَ خَليفـــةٍ ولكنْ بما ساروا مِن الفِعل تقتدي

فبدأت حركات التمرد ليس على مستوى فردي ، بل على مستوى جماعي ، كأحزابٍ معارضةٍ للنظام والدولة ، وظهرت الشعوبية التي تحط من شأن العرب وتفخر بالعنصر الأجنبي وخصوصاً العنصر الفارسي ، مطالبة بإنصافها ومساواتها بأبناء الدولة المسلمة ، وتعددت الانتماءات و الولاءات وزاد الاغتراب و التنافس والانشقاق ، فزاد نفوذ حاشية الخلفاء من ولاةٍ وقادةٍ والاستئثار بالمراكز والأموال . وكان إسماعيل بن يسار شعوبياً شديد التعصب للعجم وله شعرٌ يفخر فيه بالأعاجم ويسخر من العرب فأنشد يوماً قصيدة يفخر على العرب بالعجم ومنها[3] :

إذْ نُربي بناتنا وتَدسُو ن سَفاهاً بناتِكم بالتُرابِ

فقال له رجلٌ منهم : إن حاجتنا إلى بناتنا غير حاجتكم ، لكن أشعب قال له : " دفن القوم بناتهم خوفاً من العار ، وربيتموهن لتنكحوهن وخجل إسماعيل حتى لو قدر أن يسيخ في الأرض لفعل "[4] . فكلُّ هذه الأوضاع ساعدت الموالي على التطرف والتمرد[5] ، وشعرت بالظلم وعدم العدل ، وساءت أوضاعها الاقتصادية والمعيشية على الرغم من خضوعها للدولة وللنظام ، وعندما وجدت أن الأمور تزداد سوءا خرجت على النظام ونظمّت صفوفها ، ولم يكن الأمر يقتصر على المطالبة بالحقوق بل بتغيير الخلافة أو المشاركة في السلطة أو تشكيل أحزاب

---

(1) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 423/4 .

(2) إسماعيل بن يسار ، **ديوانه شاعر ودراسة** ، يوسف بكار ، دار الأندلس ، بيروت ، 1991 ، ص 8 .

(3) المصدر نفسه ، ص 8 .

(4) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 415/4 .

(5) انظر ، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 82 . .

وانظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 101 .

الصَرد : المُقلل ، وصَرَّدَ العطاء قلله ، والتصريد في العطاء تقليله (**اللسان** ، مادة صرد) .

معارضة ، ويتجاوز ذلك إلى الاعتداء بالقول والفعل على سيادة الدولة وعلى ولاة الأمر و حتى التمرد على الخلفاء .

ولا أدلّ على ذلك من الأحداث التي أعقبت وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فكان هناك مطالبة بالخلافة ، وانقسامٌ بين الأنصار والمهاجرين و الأوس والخزرج ، وكذلك الاعتداء على حياة الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على يد أبي لؤلؤة المجوسي ، وهو من العناصر غير العربية ، وأعقبه بعد ذلك مقتل الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، ثم مقتل الخليفة علـــي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على يد عبد الرحمن بن ملجم ، فكانت هذه الصراعات تعبر عن خلافٍ بين العناصر العربية و تدخلات من عناصر أجنبيةٍ [1]. فليس هي حركات فردية كحركة الصعلكة واللصوص وإنما هو نزاعٌ بين العنصر العربي وغير العربي .

فكانت هذه الانقسامات سبباً لظهور الصعاليك واللصوص والعيّارين والشطار على مستوى فردي وعلى مستوى جماعي ، للوصـــول إلى الخلافة ، واغتراب جماعيٌ في وجود أحزاب معارضة لها أهدافها وفلسفتها الخاصة ، معارضة لنظام الحكم وتطمع في تولي مقاليد السلطة ، فكان اغتيال الخلفاء على يد الموالي بادرةً خطيرةً في ظل الدولة الإسلامية التي عملت على تحقيق المساواة والعدالة و الإنـصاف والحُرّية لأبناء الدولة ولمن أقام في ظل الدولة الإسلامية ، سواء بقي على دينه أو أعلن إسلامه . وتمادي الطبقات الوضيعة على أصحاب السلطة ، وظهور الشعوبية التي تنتمي إلى جذورهـا التاريخية كاعتزاز الفرس بمجدهم ، والتقليل من شأن العرب الذين قضوا على هذا المجد ، فكانت نظرتهم أن المجد يجب أن يعود إليهم ، وأصبحت هذه العناصر تفاخر وتعتز بأصولها الفارسية حتى أمام الخلفاء ، فإسمـــاعيل بن يسار

[1] انظر، فهمي وآخرون ، **المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول** ، ص 146 .

وقف أمام هشام بن عبد الملك يفاخرُ بمجده ويعرّض بالعرب[1] ، وجعل من الأحداث الفردية تاريخاً للعرب ، وقال على مرأى ومسمع من الخليفة[2] :

إنّما سُمّي الفوارسُ بالفُـــرْ	**سِ مُضاهاةَ رَفعةِ الأنســابِ**
وَاسْألي إنْ جهلتِ عنّا وعنْكم	**كيفَ كنّا في سالفِ الأحقابِ**
إذْ نُربي بناتِنا وَتَدســــــــو	**نَ سفاهاً بناتِكم في التّــرابِ**

فهو ينسب الفرسان للفرس ، ويعتزُّ بأصوله الفارسية وبتاريخه المجيد ، ويفاخر بتربية بناتهم ، ويعرِّض بالعرب ، ويجعل الحوادث الفردية تاريخاً مشيناً للعرب ليصبح سلوكاً عاماً عند كل العرب وهي عادة وأد البنات ، التي كانت لها ظروف خاصة وفي بطون خاصة ، ولم تكن عامة حتى في قبيلةٍ واحدةٍ . وعندما كانت الخلافة في قوتها وازدهارها كان الخليفة بيده السلطة والقوة سريع البديهة للرد عليه ، فقال له : " أعليّ تفتخر بأعلاج قومك ؟" [3] فأمر بإغراقه بالماء حتى كادت تخرج أنفاسه ، ثمّ غرّبه و نفاه إلى الحجاز ، وقال في ذلك[4] :

إني وجدِّك ما عُودي بذي خورٍ	**عند الحفاظِ ولا حَوضِي بمهدومِ**

فلم يكن الموالي إلا أعداء ومعارضين للنظام العربي ، وإن عمل أكثرهم في دواوين الدولة في الخلافة العباسية ، ومما زاد في نقمتهم على الدولة الأموية لأنها لم تسمح لهم أن يكونوا بمنزلة أبناء العرب ، ولم يتسنَ لهم المساواة والمشاركة في الدواوين أو العمل في الدولة . فالعرب لا تسمح لهم بتقدم الصفوف ، أو الإمامة بالصلاة ، أو بالزواج من العرب ، وإن تزوج أحدٌ منهم فتطلق منه ، فخطب أحد الموالي إحدى بنات بني سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجي إلى والي المدينة وهو إبراهيم بن هشام فما كان من الوالي إلا أن فرّق بينهما ، وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فيرى أن الموالي ليسوا أكفاء للعرب ، وما موقف بشار وأبي نوّاس ببعيدٍ عن عنصرية إسماعيل بن يسار الذين لا يفتأون يُعرضون بالعرب ويلمزون في قصائدهم بتخلف العرب وغلظتهم وجفائهم وهم يعيشون بين ظهرانيهم ، ولم يكن الخروج على

---

[1] انظر ، احمد ، محمد فتوح ، **الشعر الأموي** ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1991 ، ص 82 .

[2] وانظر ، إسماعيل بن يسار ، **ديوانه شاعر ودراسة** ، ص 8 .

[3] انظر ، الهايس ، **شعر الوقائع القرن الثاني الهجري** ، ط1 ، 2002 ، ص 37 ، 52 ، 68 .

[4] عيسى فوزي ، أمين فوزي ، **في الأدب العباسي** ، دار المعرفة الجامعية ، 2003 ، ص 37 ، 59 .

خَورَ خَوَرا وخوْرَ: ضَعُفَ وانكسر؛ ورجل خَوّارٌ: ضعيف.(خور ، **اللسان**) .

النظام بالسطو والنهب والتعدي على حقوق الناس ، بل تجاوز ذلك إلى الخروج على قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وحتى على دينهم أحياناً بالغزل الفاحش والزندقة والغزل الغلماني[1] .

وهناك فئاتٌ خرجت على الدولة وزادت بازدياد الظلم وجبروت الولاة ، فإذا كانت القبائل تخلع الخارجين لديها حتى يشفع لهم أحدٌ من أصحاب النفوذ أو السلطة أو شيوخ القبائل ، واستطاع بعضهم أن يفدي نفسه بالمال ، ومن بقي منهم نفي وأبعد إلى غير موطن قبيلته ، ومن تمادى في تمرده في عهد الدولة الإسلامية فقد أتاح له الإسلام باب التوبة ، وجعل إعتاق الرق وسيلة لتطهير النفوس ، والتكفير عن الذنوب ، كما فتح الإسلام باب الجهاد ترغيباً في الجنة وتوبة عن المعاصي والآثام ، كأبي الطمحان القيني و مالك بن الريب اللذين تابا عن قطع الطريق ورافقا جيوش الفتح إلى خراسان ، وكان يرى أن قطع الطريق كان لأسباب اجتماعية واقتصادية في بيئة لا عمل فيها إلا الرعي ، ولا سبيل إلى المساهمة في الواجبات غير اللصوصية وقطع الطريق ، وعندما سئل مالك ما حملك على قطع الطريق ؟ فقال : " أصلح الله الأمير ، العجزُ عن مكافأة الإخوان " [2] . فترك الضلال إلى الهدى ، وذهب غازياً في سبيل الله ، وقال[3] :

ألمْ ترني بعتُ الضلالة بالهُدى   وأصبحتُ في جيشِ ابن عفانَ غازياً

فلم يغزُ رغبة في جمع مال أو ثروة ، بل حتى لا يعجز عن دفع التزام عليه ، فالاغتراب في هذا المعنى بعدٌ عن الأهل ، والشعور بالعجز عن القيام بالواجب ، والبحث عن الذات وحب الـــــحرية والانطلاق ، وحتى لا يرى غيره أفضل منه ، اغترب عن مجتمعه حين رأى نفسه قد عجز وقصّر عن تأدية الحقوق الواجبة عليه ، ويتنازل عن حريته ويتخلى عن فرديته ليصبح في جيش ابن عفان غازياً[4] ، فيحقق الانفصال عن ذاته ليجد التواصل مع مجتمعه بعد أن فشل في حياة الصعلكة و اللصوصية . فإذا استطاع نيل المال فقد خسر الأمن والاستقرار .

---

[1] انظر، القيسي وآخرون ، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، ص 157 - 181 .

[2] انظر، المبّرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ص 301 .

[3] انظر ، الأصفهاني ، الأغاني ، 22 / 304 - 326 .

[4] انظر، سلامي ، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري ، ص 22 .

ولن يستطيع الاستمرار في هذه الحياة لما فيها من ضياع وعزلةٍ وانفراد ، فهي لا تحقق له ذاتاً ولا تحقق له تواصلاً مع مجتمعه[1] ، ووعده ابن عفان بإعادة التوازن بينه وبين مجتمعه وبينه وبين ذاته ، فيغنيه عن حياة الصعلكة ويرغبه بالأجر والثواب في الآخرة ، واختار التوبة ليكفر عن الذنوب ، كما اختار الجهاد والغنى مقابل الحرمان والتمرد والخروج على قوانين المجتمع ، فالحياة التي كانت بلا معنى أو هدف تحولت إلى نعيم يحقق فيه الأمن والطمأنينة والسعادة في الآخرة ، فإذا لم يحقق غـــنائم فإنه يحقق أجراً كما يحقق عطاءً من بيت مال المسلمين ، والثواب والغنائم تحقق مصلحة ذاتية ومصلحةٍ عامةٍ في الدنيا و الآخرة ، فلبى دعوة ابن عفان لإنهاء حياة الصعلكة والحرمان . وسبيل التوبة يحقق الشعور بالهوية والشعور بالانتماء والانسجام ، بدل اليأس والاضطراب ، وسوء التوافق وصراع القيم ، ويسيطر عليه إحساسٌ بالخوف والوحدة ويحسُ بوحشة المكان فيتركه خوفاً من القصاص .

كما أخذوا يلومون قبائلهم أبين لها أن تستكين للضيم و تستسيغ الهوان ، يقول الأحيمر السعدي[2] :

ولُبِّئتُ أن الحيَّ سعداً تخاذلوا	حِماهُمْ، وهم لو يعصَبون كثـــيرُ
أطاعُوا لفتيان الصباح لِئامَهم	فذ وقوا هوانَ الحربِ حيثُ تدورُ

يقول الشاعر بعد أن ودع اللصوصية وأسلم أمره إلى خالقه في حله وترحاله ، لينام قرير العين بعد أن كان لا يجد الأمن والطمأنينة في حياته التي ودعها ، فيقول مالك[3] :

أدلجتُ في مهمهٍ ما أنْ أرى أحــــداً	حتى إذا حَانَ تَعريسٌ لِمن نَزَلا
وضعتُ جنبي وقلتُ اللهَ يَكلؤنـــــــي	مهما تَنم عنكَ من عينٍ فما غفلا
و السيفُ بيني وبين الثوبِ مِشعَـــرُه	أخشى الحوادثَ أنّي لم أكنْ وكِلاً

---

[1] انظر، السويدي ، الاغتراب في الشعر الأموي ، ص 210 .

[2] الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص 98 .

[3] الأصفهاني ، الأغاني ، 22/ 312 .

انظر ، الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، 310

وهناك من استمر في خروجه على الدولة وعلى النظام حتى يلقى مصيره بالقتل أو بالحبس والتنكيل والتعذيب ، وكثيرٌ من القصص ظهر فيها عاقبة التمرد فكانت المطاردة إلى أن يتم إلقاء القبض عليه ، فيلقى في غياهب السجن أو يقتل أو الاثنين معاً ، وعُرف العصر الأموي بالشدة والعنف سواءً من الولاة أو الخلفاء ، فسعد بن ناشب هدم منزله ليسلم نفسه وقال[1] :

فإنْ تهدِموا بالغدر داري فإنّها تراثُ كريم لا يُبالي العَواقبا

وسعيد بن المسيب رفض مصاهرة عبد الملك فقبض عليه وأودع السجن ، ثم أُخرج ومنع الناس من مجالسته ، وقد يتأخرُ بعض الناس عن دفع الخراج أو يمتنع عن دفع الجزية ، فكان مصيره السجن ، وحبس من يشرب الخمر فحبس جعفر بن علبة الحارثيّ ، ومما قال في ذلك[2] :

لقدْ زَعَموا أني سَكِرتُ وَربمـا يَكونُ الفتى سكرانَ وَهو حَليمُ

لعَمرُكَ ما بالسّكر عارٌ على الفتى ولكنّ عاراً أن يُقال لئيـمُ

وإنْ فتى دامتْ مواثيقُ عهـده على دون مـا لاقيته لكريـمُ

وكان جحدر العكلي يقطع الطريق ويخيف السبل ، فأرسل الخليفة إلى عامله في اليمن إبراهيم بن عربي ليشتد في طلبه ، وقد ظفر به وحمله إلى الحجاج فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : تخلُّب الزمان ، وجرأة الجنان ، أي الفقر وقوة القلب ، فسجن وحنَّ إلى بلاده . فقال له الحجاج : أأقتلك أم ألقيك للسباع ؟ فقال : أعطني سيفاً وألقني للسباع ، وألقاه لسبع جائع وهو مقيد بالسلاسل ، فزأر السبعُ ، فتلقاه بالسيف ، ففلق هامته وبعد ذلك أكرمه وخلع عليه ، وجعله من أصحابه ، فأساليب التعذيب وألوانه تعددت واختلفت لكن النتيجة واحدةٌ ، فإما إلى الموت ، وإما إلى الخروج من السجن بعد ألوان من الموت[3] .

ولم يسجن في سجن واحد بل ينتقل إلى عدة سجون ، فالسجن والتغريب والبعد والنفي حتى لا يكون له أي عنوان يمكن الوصول إليه ، ليؤثر في نفسه ويفت في عزيمته حين لا يجد من يزوره أو يسأل عنه ، فيعيش في صراع مع نفسه وصراع مع همومه ، ويعيش لحظات الضياع بين ظلام السجن و فضاضة السجان . ومن الأسباب السياسية للاغتراب الغزل الذي اتخذ طابعاً سياسياً في خلافة معاوية وكانت العصبية القبلية والخصومات السياسية وراء ذلك ، وكان الغرض

---

(1) المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1-2 /70 .

(2) البرزة ، **الأسر والسجن في شعر العرب** ، ص 329 - 330 .

(3) الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 193 .

من الغزل التشهير وكشف الستر عن المحصنات، وكانت أشعارهم تحمل على الجد والحقيقة ، فثمة شعراء سجنهم غزلهم ، فحين تغزل أبو دهبل الجمحي بابنة معاوية عاقبه بسجن وعذابٍ ومنعه هو ومن جاء بعده من الخلفاء من دخول الشام ونفي إلى أقاصي اليمن[1] .

وهناك من كان يهدف من وراء الغزل النيل من أعراض السلاطين والأشراف ، فعبد الرحمن بن حسّان تغزّل بابنة معاوية ، وأغضى عنه لمكانة الأنصار ، فحين يكون الشاعر صاحب نفوذ فتكون له معاملة خاصة ولا تطبق عليه القوانين والأنظمة ، وعندما لا يكون الشاعر ذا حسب ونسب أو قبيلته ضعيفة فإنه يقتص منه [2] ، فهذه الازدواجية هي التي أوغرت قلوب الصعاليك واللصوص على الدولة الأموية لغياب العدالة و الإنصاف ، فكان منهم من لجأ إلى البوادي أو الصحراء هرباً من أمير ، أو حكم قضائي ، أو تهمة في الدين ، فوجد في الصحراء ملاذاً آمناً من ضيق السجون وعارها . وكانت عشيرة القتال الكلابي تبغضه لكثرة جناياته ، وما يلحقها من أذاه ولا تمنعه من مكروه ، فقال يهجو قومه[3] :

فلو كنتُ من قومٍ كرامٍ أعــــزَّةٍ ... لحاميتَ عنّي حينَ أحمِي و أصْرِمُ

دعوتُ فكم أسمعتُ من كلِّ مُؤذِنٍ ... قبيحَ المُحَيّا شَائه الوجهُ والفَــــمُ

ولكِنمّا قومي قماشةُ حاطــــــبٍ ... يُجمِّعُها بالكفِّ والليلُ مُظلـــــــمُ

وعلى صعيد العامل السياسي فكانت الخلافة أو السلطة والفتوحات والتمركز في الثغور والأطراف مصدرا دائما للاغتراب وتوليده[4] ، وكثر التذمر من البعوث والغزوات والفتن والتمرد الداخلي وزاد العجز من التأثير على مجريات الأمور ، وازدادت حدّة اغترابهم حين تبّنى بعضهم مبادئ وعقائد وسلوكا غير مألوف في مجتمعهم . كالغزو عنوةً والسطو على بيوت

---

[1] البرزة ، احمد مختار ، **الأسر والسجن في شعر العرب** ، ص 311 .

أبو دهبل الجمحي : هو وهب بن زمعة بن أسيد بن أحيحة بن وهب كان رجلاً جميلاً شاعراً وكان عفيفاً ، وقال الشعر في آخر خلافة علي بن أبي طالب ومدح مُعاوية و عبدالله بن الزبير وقد ولاه ابن الزبير بعض أعمال اليمن. (المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 3- 4 /1319 ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 413 ، **ديوان أبي دهبل الجمحي** ، تحقيق عبد العظيم عبد المحسن) .

[2] انظر،البرزة، **الأسر والسجن في شعر العرب** ، ص 311 .

[3] القتال الكلابي ، **الديوان** ، ص 35 .

[4] انظر،عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 106 .

وانظر، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 88 .

قماشة حاطب : حاطب ليل يحطب كل رديء وجيد لأنه لا يبصر ما يجمع في حبله ، (**اللسان** ، مادة حطب) .

المـــال ، والتمادي في الاعتداء على الرموز ، وزاد التمرد على القبيلة كنظام ،وعلى السلطة المركزية والخلافة . والاغتراب السياسي تنازل الأفراد عن حقوقهم للنظام السائد ، وظهرت الأقليات الفردية التي تطمح في الحصول على مناصب سياسية ، وظـهرت أحزاب معارضة للدولة وتنظيمها السياسي وطالبت بالمساواة والمشاركة في الحكم .

وكان الهرب أحد الوسائل للفرار من وجه السلطة[1] فلا بد من الخضوع ليستطيع أن يعيش في سلام واطمئنان . وتضخيم الذات والفخر بالنفس فاختار الأسلوب الخبري . والنزعة الخطابية بأسلوب النفي والاستنكار . وبعد الفرار لجأ إلى المدح والاستعطاف ، وهناك ظهرت مشاعر الإحباط وعدم الثقة بالمحيطين .كما ظهرت فئات ثائرة ضد السلطة الأموية لا تعترف بشرعيتها ولا بسلطانها فالولاة والجباة ضد الفقراء . والفقر والعجز وبَعد عاصمة الخلافة يقف دون وصول شكواهم [2] . فعاش في كنف القبيلة ولم يكن يعرف إلا من خلالها ولا تعبأ بانفصاله عنها فتتضارب في نفسه مشاعر الخوف والحنين .فقد أغار خفاف بن ندبة هو ومعاوية بن الحارث على بني ذبيان فلما قتلوا معاوية بن عمرو قال خفاف : " والله لا أريم اليوم أو أقيد به سيدهم ، فحمل على مالك بن حمار وهو يومئذٍ فارس ابن فزارة وسيدهم فطعنه فقتله "[3] وقال :

فإنْ تكُ خيلي قد أصيبَ صميمُها	فعَمَداً على عيني تيمّمتُ مالكاً
رفعتُ لهُ ما جرَّ إذ جـــرَّ مـــوته	لأبنيَ مَجداً أو لأثأرَ هالِكـــــاً
أقولُ لهُ والرُّمحُ يـــــأطِرُ مَتْنَه	تأمّلْ خُفافاً إنّني أنا ذلـــــكا

وكان من نتائج المعارضة في ظل الحكم الأموي أن دفع المعارض السياسي حياته ثمنا لهذا المبدأ أو عرض نفسه للسجن الطويل أو التعذيب بكل الوسائل والنفي والتغريب [4] ، والاغتراب الفردي بسبب طموحات فردية عزّ تحقيقها ، فابن الحر الجعفي يحاول أن يتولى بعض المناصب في الدولة ، ورفض الانضواء تحت أي قيادة[5] فبعضهم دخل السجن ، والأخر طاردته الدولة وقضى أما في سجنه ، أو بعيدا عن تحقيق أهدافه ،وعذب حتى مات فبقي مغتربا بلا قضيه

---

[1] السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 88 ، 241 .

[2] المرجع نفسه ، ص 59 .

[3] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 23/18 .

[4] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 12 .

[5] المرجع نفسه ، ص 67 .

ولا حزب . ولم يستطع العربي أن ينسلخ من عصبيته القبلية التي يلجأ إليها عند أزماته ،فلعبت العصبية القبلية الجاهلية دور أحزاب المعارضة للسلطة الأموية [1] .

فكان الزهد أحد مظاهر الاغتراب والغرباء الذين قاوموا الحياة ومغرياتها ، فقهروا السلطتين سلطة الحكام وسلطة النفس بترويضها على الطاعات[2] . كما كان العرب يؤمنون بتميزهم الطبقي ، فمعاوية يري أن هذه الحمراء قد كثرت واشتد الولاة في الضغط على الموالي فاسقطوا أعطيات كثير منهم ، وفرضوا عليهم الخراج ونقش على يد كل رجل اسم البلد التي وجّهه إليها[3] . فكان أول ردود فعل الرفض والحقد مقتل الخلفاء ولم تكن هناك ثورة في العصر الأموي إلا والموالي وقودها يقاتلون بشجاعة العرب وحقد العجم .

وظهرت الشعوبية أو التعصب العرقي الفارسي كمعادل للعصبية القبلية العربية[4] وشعر ابن الحر في عدم قتل المسلمين واعتزال الصراع السياسي لأن الطموح هو جذوة الاغتراب السياسي وقد يؤول هذا الطموح إلى مصارعة السلطة والدعوة للتغيير أو المشاركة . وانقسم الاغتراب السياسي إلى نمط جماعي و أخر فردي اتسم بالعنف والتمرد لكلا الشكلين ،وقابلت القبيلة أو الدولة العنف بعنف متبادل . سواء بالخلع أو النفي أو التغريب، وكان يمثل الصعاليك السياسيون عبيد الله ابن الحر الجعفي الذي اختلطت ثورته السياسية بثورته الاقتصادية ، ويتعطش للحرية بعيداً عن التبعية لأي أمير ، كما تعتبر حركته امتداداً لحركة عروة بن الورد [5] ، ويقول عن أصحابة "هم بطانتي وأصحـابي وأخواني ، اتقي بهم إن نابني أمر ، أو خفت ظلامه من أمير " [6] .

---

[1] انظر، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 166 .

[2] المرجع نفسه ، ص 72 .

[3] المرجع نفسه ، ص 83 .

[4] المرجع نفسه ، ص 84 .

[5] انظر، فهمي ، **المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول** ، ص 180 ، 194 .

[6] انظر ، الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 262 .

رابعاً : الاغتراب الديني و الثقافي

جاءت الأديان السماوية كرد فعل على القوانين الوضعية التي فشلت في إنقاذ الإنسان من عبودية الإنسان[1] ، فالإنسان في الديانات السماوية لا يسترّق ولا يباع بيع العبيد ، وغيره هو الذي يجوز استرقاقه بالحرب أو الشراء ، ويعامل بعنفٍ ولا يجوز تحريره أو افتداؤه ويبقى رقيقاً. والمسيحية دعت إلى المساواة بين الناس فكانت دعوتها اغتراباً على الفكر الذي ينادي بالتمييز والخروج عليه ، ولم تصمد دعوتها أمام دسائس العنصرية ، التي قالت أن المساواة في الأرواح ، والجسد يتحمل كل المشاق والآلام ويخضع لكل ذي سلطان .

والإنسان هو الأساس في تكوين الدولة والتشريعات والقوانين التي تعتمد على العدالة والألفة والتعاون وعدم قدرة الإنسان في تحقيق السعادة والطمأنينة للإنسان[2] . لذا فإن الدولة هي التي تستطيع ذلك ، ولا تستطيع تحقيق وإشباع الرغبات ، والراحة الوحيدة التي يستطيع الاطمئنان إليها هي الراحة عند الله ، والخير لإصلاح الأنظمة الفاسدة هي المحبة .

واستمرت العبودية بوجود السادة ، والسيد الذي يسيء معاملة مولاه يلجأ إلى الحاكم ، فيأمر ببيعه لسيدٍ آخر . والمساواة دليل على وحدة الفكر ضد النظام العبودي[3] ، ويتخذون أسلوب الهروب تخلصاً من الاغتراب ، بابتعادهم عن المشاكل الاجتماعية و الصراعات السياسية مما دفعهم إلى التشرد والتمرد . والنظام الشخصي والنظام العالمي هما مجرد مظهرين مختلفين لمبدأ واحد ، وجود عبيدٍ بطبيعتهم الأخلاقية ، وليس العبودية الاجتماعية .

وجعل الله الإنسان سيداً على سائر المخلوقات ولكن لم يجعل أي سلطان على نفوس البشر بل جعل البشر متفاوتين عقلاً وعلماً ومالاً ومعرفة وجاهاً . وأي محاولةٍ لفرض هذا السلطان يعتبر طغياناً[4] ، وجاء الإسلام بين دولتي الفرس والروم . ويعتمد نظام دولهم على استغلال الإنسان بصورةٍ بشعةٍ ، وتجريده من حقوقه ومميزاته الإنسانية ، في حين شرع الإسلام العتق ورغّب فيه ، ولم يجعله وسيلة قهرٍ وإذلال ، بل وسيلة لنقل الرقيق من الكفر إلى الإيمان ، وحرّم

---

[1] انظر، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 85 .

[2] المرجع نفسه ، ص 89 .

[3] المرجع نفسه ، ص 53 .

[4] المرجع نفسه ، ص 90 .

سائر مصادره ، ما عدا رق الأسر بسبب الحروب العادلة لدفع العدوان وحفظ التوازن مع الأمم ، والرق بسبب الوراثة .

وحصر الإسلام مصدر الرق بالحرب والولادة ، فأسير الحرب يسترق وأبناء الإماء، وأبناء الأرقاء يتبعون آباءهم في الرق ، وشرط الأسير أن يكون كافراً عند أخذه ، والولد الذي يولد من أمةٍ مملوكةٍ ويكون أبوه عبداً أو أن يكون غير مالكٍ للأمة ، أو لا يعترف بأنه أبٌ للولد ، ويرث الولد العبودية كما يرث أي شيء مادي[1] ، وتحول الإنسان إلى متاع يباع ويشترى في الأسواق الخاصة ودور النخاسة ، واتسعت التجارة والزراعة فزاد الطلب على الطاقة البشرية ، وتحوّل الإنسان من طبقته الفقيرة والرقيق إلى مصدر للثروة والرفاهية والجاه ، كما كان العبد ثروة السيد و كان الرقيق يقدم على سبيل الجزية والهبة والهدية.

ومنهم من خدم في البيوت أو عمل في حراسة القوافل أو التجارة أو الزراعة ، وبلغ الرق على أشده في العصر العباسي ، وكان سبب ظهور الرق والعبودية غياب العدالة الاجتماعية وتفكك روابطها ، وابتعاد الأمة عن الحكومة [2] ، وظهر الاغتراب بدلاً من الألفة والارتباط بها ، كما ظهر الاستغلال الطبقي والعصبية القبلية . وعمق روح الاحتكار بصورة عامة الشعور بالاغتراب عند الأفراد في الطبقات والقبائل الضعيفة اقتصادياً ، والبعيدة عن نظم الدولة والسياسة وعند الموالي المسلمين من غير العرب .

وازدهرت العصبية القبلية كنتيجة السياسات الاقتصادية والاجتماعية الخاطئة وتعمقت الفروق الطبقية بين طبقات المجتمع ، واستغلت الطبقات الضعيفة حتى تحولت إلى طبقةٍ من الرقيق للخدمة في الإقطاعيات الزراعية وعبيد لخدمة البيوت ، ونتيجة للتطور الاقتصادي والمالي ظهرت النزعة المادية والعلاقات الاستقلالية والنزعة اللا إنسانية ، كل هذه المظالم أدت إلى التذمر ، والتذمر دليل الاغتراب[3] ويبقى الإنسان متماسكاً أمام الطغيان وإذا استكان وضعف فقد إيمانه بحق نفسه في الوجود ، ولم تنته الثورات ما دامت العوامل التي دفعتهم للثورة لم تتغير مطالبين بتحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية .

---

[1] انظر، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 98 .

[2] انظر، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي** ، ص 64 .

[3] انظر، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 118 .

وزاد وعي المستغلين من انفجار الشكوى والتذمر والسخط ، كما زاد التباعد الفكري بين الطبقات الاجتماعية وفي الاتجاهات السياسية ، وهو الذي فجر الثورة ضد القبيلة و السلطة ، وسلوك الأفراد انعكاسٌ للقواعد والقوانين التي تنظم العلاقات بين الفرد والمجتمع، وبين الفرد والدولة وتضعها الفئة المتسلطة ، والهدف العام هو المحافظة على استمرار سلطتها[1] ، والمحافظة على امتيازاتها وممتلكاتها ، وهذا الأساس خلق الاغتراب لدى الطبقات غير المنتفعة من تلك التشريعات والقوانين . يقول جحدر مصورا تجربته في سجن المخيس وبعدها بسجن دوار ويقول [2] :

يا ربَّ أبغضُ بيتٍ عندَ خالِقِـه	بيتٌ بكوفان منه ُأشعِلتْ سَقَــــُر
َمثوى تُجَمعُ فيه الناس ُكــــلهُمُ	شتّى الأمور فلا وردٌ ولا َصـدُر
دارٌ عليها عَفاءُ الدّهرِ مُوحِشة ٌ	من كلِّ أنسٍ وفيها البدُو والحضَرُ

والأهداف التي يتوخاها واضع القانون هي سعادة الرعية وصيانة حقوقها الطبيعية والمكتسبة ، وهي التي تضمن الحق والعدل والمساواة ، ويجب أن تكون العلاقة بين القانون الوضعي والطبيعي متينة ، وإن اختلفت طرق تطبيقها ، وقد انعكست الأنظمة الفاسدة على سلوك الناس من جور الطغاة وغياب العدالة بين أفراد المجتمع وتثبيت الفروق الطبقية ، والاعتراف بطبقة الرقيق كشيء من الأشياء ولا علاقة لها بصفات الإنسان الإنسانية ، وتحوّلت الزراعة والرعي إلى عمل عبودي ، والإنسان إلى سلعةٍ قابلة للمبادلة[3] ، وزادت العبودية بازدياد الظلم والقوانين الجائرة . ويدعو على هذه السجون بالخراب بعد أن عانى فيها غربة المكان ، والغربة النفسية إذ لا يعرف مكانه ولا يزوره زائر . يقول جحدر كذلك [4] :

يا ربَّ دَوارَ أنقِذْ أهلـَه عَجَلاً	وأنقضْ مرائره من بعدِ إبرامِ

وظهر الاغتراب كظاهرة اجتماعية وسياسية واقتصادية ، لأن أهم حافز للإنسان على نمو وعيه وإدراكه لوضعه الاجتماعي هو مصادرة حريته الفردية ، وإحساسه بذل العبودية ونمو الشعور بالاغتراب ، حيث كان الفرد مرغماً على العمل من أجل القبيلة أو الدولة كعبدٍ ، ويعمق

---

[1] انظر، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 118.

[2] القيسي ، **شعراء أمويون** ، ص 173 .

[3] انظر، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 77 .

[4] انظر ، الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 193 .

العمل والرق والعبودية الشعور بالاغتراب ، وأصبح المجتمع يتكون من الطبقة المستبدة صاحبة السلطة والسيادة ، والطبقة المعدمة وهي طبقة العبيد [1] .

فالأحرار لا يخضعون لأي جماعةٍ خاصةٍ ولا لأشكال التبعية التي تنتقص من حريتهم الإنسانية ، أما طبقة الفقراء والأسرى والموالي والعبيد فكانت تحتل طبقة متدنية في سلم التدرج الاجتماعي مما يؤكد وجود التمايز والفوارق الطبقية [2] ، وكانت فئة الخلفاء والولاة والقادة تتمتع بصورةٍ عامةٍ بالحرية الاقتصادية والاجتماعية والسيطرة على الموارد والأراضي ، وتعزل قوانين المتسلطين والجبابرة طبقة العبيد ، الذين يعرفون بأسماء سادتهم كسحيم عبد بني الحسحاس ، مما كان يترتب عليهم افتقارهم لكثير من الحقوق التي يتمتع بها غيرهم من الآخرين ، وكان منهم من يبحث عن الغنى لابتياع حريته ، وإذا تزوج عبدٌ أو أمة شخصاً حراً كان الأبناء أحراراً .

والتمايز الاجتماعي الواسع والعميق هو الأساس في خلق شعور الاغتراب عند الناس، ثم تبلور نتيجة الوعي إلى فكر سياسي معين ، وأصبح الشعور بالاغتراب ميزة الحضارات عن طريق الثورات على أهداف السياسة داخل الدول ، وشعور الاغتراب هو المسؤول عن عدم الاستقرار ، وعدم رضا الناس عن حدة التمايز بين الطبقات ، و كان لا بد من الثورة على مظالم الأغنياء وحالة البؤس والتعاسة التي يعيشها الفقراء، وكانت تتخذ أساليب مختلفة أهمها الاستيلاء على الأموال والملكيات ، وكان رد الفعل قوياً من الشعوب المظلومة ضد الأنظمة القاسية التي افتقدت وخلت من النظرة الإنسانية[3] . فأعلن الصعاليك واللصوص الحرب على جميع الناس ، ويصور العديل بن الفرخ شدة خوفه وترقبة الدائم لما حوله وضيق نفسه بكثرة الترحال ويقول[4] :

ها َنذا َضاقتْ بيَ الأرضُ كُلُهـــــا … أليكَ وقد جّولتُ كلَّ مكانِ

فلو ُكنتُ في ثـهلان أو شعبتي أجا … لـخلتك إلا َأنْ تُصدَّ تُراني

---

[1] انظر، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 11 .

[2] انظر، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 57 .

[3] انظر، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 75 .

[4] القيسي ، **شعراء امويون** ، ص 275 .

ومقاومة القوانين الجائرة وسلوك الأمراء والملوك تارةً عن طريق الثورة ، أو بالمقاومة السلبية أي الخضوع والاغتراب الفردي والعزلة ، و جوهر كل هذه الطرق سواءً الثورة والاغتراب هو الرغبة في تغيير الأوضاع الشاذة غير الإنسانية ، للتغلب على الشعور بالاغتراب بكل أبعاده الفردية والطبقية[1] . وتخدم القوانين التعسفيه الأمراء والسادة الذين سيطروا بطريقةٍ ما على الشعوب، مما أفقد هذه الفئة المعدمة إنسانيتها ، كما تتدفق الأنهار فاقدة أسماءها وأشكالها في البحر ، يتجه الفرد إلى مجتمعه لمقاومة التسلط والتعسف بالقوى السلبية أو بالثورة لتغيير الأوضاع الفاسدة إلى أخرى إنسانية .

فحالة الاغتراب هي رد فعل على القوانين التعسفية التي وضعها جماعة التشريعيين ويعتقدون أن القوة والإلزام خير وسيلةٍ لتقويم الأخلاق[2] ، وحارب الإسلام ظاهرة الرق واستعباد الإنسان للإنسان في المجتمعات ، واعتبر الاغتراب من أسباب سقوط الحضارات ، ودليلٌ على تخلف أنظمتها الاجتماعية ، فقامت الثورات وحركات التمرد كنقيض وضرورةٍ تاريخيةٍ . كما قال ابن الفرخ في هذا الشأن[3] :

إنّي دعوتُك يا إلـــــهِ مُحمدٍ ... دَعْوَىً فأوَّلُها لــي استغْفارُ

لتُجيرني من شرٍّ ما أنا خائـفٌ ... ربَّ البريّة ليس مثلك جَارُ

تَقْضَى ولا يُقْضَى عَليْكَ وإنّـما ... ربيّ بعلمِــــكَ تَنْزُلُ الأقدارُ

---

[1] انظر ، السويدي ، الاغتراب في الشعر الأموي ، ص 40 .

[2] انظر ، سلامي ، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري ، ص 50 .

[3] القيسي ، شعراء أمويون ، ص 173 .

وكثيراً ما كانت التيارات المعارضة يساندها غير العرب لشعورهم باستلاب مجدهم وتعاظم الخطر الذي يهددهم ، وأصبحوا نتيجة الاستبداد والطغيان على هامش الحياة . كما أن شعورهم بعدم وجود قيمة أو هدف للحياة و اللا معنى لها فهم غرباء في غير بلادهم ، وغرباء لشعورهم بعدم تحقيق أدنى الكرامة لأنفسهم [1].

ومما ساعد على معارضتهم وعيهم وإطلاعهم على الفكر الفلسفي المعارض ، فكانت هذه الأحزاب والمذاهب متعددة الأراء الفلسفية والعلمية المتنوعة ، ويسعى لهدفٍ وحيد هو تحقيق العدل الاجتماعي . وانتقل المجتمع العباسي من الدور الزراعي إلى الدور التجاري، وتدنى مستوى المعيشة أدى إلى انقسام المجتمع على أساس معاشي لا قبلي أو عنصري ، وظهرت طبقة إقطاعية وطبقة تجارية استولت على الأسواق التجارية، واستحوذت على أملاكٍ كثيرةٍ ، و أنهكت الضرائب الكثيرة صغار المزارعين وتسجيل أراضيهم للمتنفذين[2] . كل هذه السياسات الظالمة أدت إلى الصراع الطبقي والتمرد والحروب، وإلى تبلور الحدود بين الطبقات الاجتماعية ، وظهرت الجماعات المتمردة التي تشعر بالاغتراب من الأوضاع السياسة والاقتصادية التي تسير عليها الدولة ، كالعيّارين والشطّار الذين اتخذوا مواقف سياسية تتميز بالثورة على السلطة وأصحاب الأموال . قال عبيد بن أيوب[3] :

يا ربِّ قد حَلفَ الأعداءُ واجتَهدوا ... إيمانَهم إنني من ساكِني النـار

أيحلفونَ على عَمْـــياءَ وَيْحَهُمُ ... ما عِلمُهم بعظيم العَفْو غــفـّار

إنّي لأرجو من الرحمن مــغفرةً ... ومنّةً من قوّام الديـــــن جبّار

وما أخافُ هلاكا بَين عَفوهمـــا ... وما يَفوتُهما المستَوْهِل السّاري

والدين الوضعي أصبح يحجر على العقل حرية التفكير ، وأصبحت العلاقات علاقاتٌ بين أشياء ، وعلاقاتٌ مادية جامدة لا تناسب العالم الأرضي الذي أصبح عالم شقاءٍ وتمزق وفقدان

[1] انظر، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 75 .

[2] انظر، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 108 .

[3] الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 220 .

القيسي ، **شعراء أمويون** ، ص 173 .

للحرية[1] ، والدين دين المعاملة لا الألفاظ الميتة التي تحد من تفكير الإنسان أو هي نسقٌ من الحقائق وتبقى جامدةً ولا تترجم إلى سلوكٍ عملي ، فيرى فيها دين القواعد والقوانين التي تفرض على ذات الإنسان ولا دور له فيها إلا التنفيذ . فإن الشعر والنثر وسيلة الإعلام الوحيدة لإظهار سياسة الأشخاص والدول وإشهارها ، وإذا كان الإعلام يمثل سياسة الحكام والخلفاء والقادة والولاة ، فهو إعلامٌ انتقائي يقوم بتضخيم الإيجابيات وإغفال الأمور السلبية ، إرضاءً للسلطة والنظام .

والإسلام ألغى الرق وأقام العدل والمساواة، وجعل الرق في المرتبة الأولى في العطاء. وكان الرق وراء انتشار الوعي بين الفئات الصغيرة للمطالبة بحقوقها وقد أنصف الطبقات واقعاً وفكراً ووعياً لمعرفة مالهم وما عليهم[2] ، وفتح الصراع بين الطبقات العيون واسعة على الوضع المتوتر في النظام الطبقي، الذي لا يقوم على التوافق الاجتماعي ، وزاد الإحساس بالاغتراب مع إطلاعهم على أوضاع سادتهم وما فيها من ترف ونعيم ، كما تطور عنصر الاغتراب الفردي إلى عنصر اغترابٍ جماعي ، يسعى لتحقيق صورة فضلى ويتحول إلى قوة للسيطرة ، ورفع الإذلال .

وتحولت جهود الفئات المظلومة وعبوديتهم إلى أموالٍ وثروةٍ وخلقت وضعاً اقتصادياً مزدهراً ، ووضعاً اجتماعياً متدهوراً مما أدى إلى اضطراب اجتماعي، وانعدام الاستقرار في المجالين الفكري والسياسي ، وتحولت إلى تكتلات فكرية كوّنت أحزاباً سياسية ، ونشأت حركات المعارضة بشكل فردي ثم تحول إلى أشكال جماعية[3] ، ويعود سبب هذا الاغتراب إلى التشريعات اللا إنسانية التي زادت من الفئات المظلومة .

---

[1] انظر، الخطيب ، **الحضارة والاغتراب** ، ص 125 .

[2] المرجع نفسه ، ص 130 .

[3] المرجع نفسه ، ص 137 .

وهناك غربة الضياع في مواجهة الموت والزمن ، وغربة الإنسان عن الطبيعة والبساطة إفساد للإنسان ليعيش في عبودية للقوانين والأنظمة والعادات والتقاليد ،ليكون غريبا في المجتمع الذي صنعه بيديه، وأسيرا للمادة والمؤسسات والقوانين[1] . مما خلق في نفسه التوتر والقلق بين فطرته التي تميل للبحث عن الحرية والسعادة ،وبين مجتمعه الذي خلقه من قيود وقوانين يقول القتال الكلابي[2] :

كأنّ بلادَ اللهِ وهي عَريضة　　　عَلى الخائِف المَطلوبِ كَفّةُ حابلِ

فهو غريب في هذه الأرض حين تضيق به، ويعبد الأوثان وظواهر الطبيعة والحيوانات ، يبحث عن إله أو خالق لهذا الوجود ، واهتدى ببحثه بأن قوة كبرى هي التي نظمت هذا الكون . واغتراب الحال هو الاغتراب الصالح زمن الفساد ، والعالم بين قوم جاهلين، أو الصدّيق بين قوم منافقين ، اغتراب أهل الصلاح بين أهل الفساد والفجور، واغتراب العلماء بين الجاهليين[3] .

والاغتراب بالمعنى الإسلامي هو الابتعاد أو الانفصال عن الحياة الزائفة ومفارقة شهوات الدنيا وملذاتها وهوى النفس ، ومحاربة البدع والتمسك بتعاليم الدين[4] . ولا يحل الاغتراب إلا في المثقفين من فلاسفةٍ وحكماء وشعراء ومبدعين ومتميزين وكل نابهٍ لا يستهان بعلمه وذكائه ، ويغترب حين لا يجد من يناصره في مجتمعه لظلم أصابه ، أو مخالفةٍ في الرأي والاتجاه ، وحين يجد نفسه في موقف الرافض لقيم المجتمع المستهتر بها وهناك من أطلق تسمية شعراء الرفض على الصعاليك واللصوص لتمردهم على القوانين والأعراف والقيم والتقاليد ،ومخالفة القبيلة فكرا وسلوكا أو معتقدا وانتماءً ، مما يلحق به الأذى وسوء المعاملة وعدم الانتصار له أو رفع الظلم والضيم إذا لحق به ، فيعتبر خارجاً على قبيلته ونظامها أو معارضاً للسلطة والدولة ، فاغترب بسلوكه وبإرادته وباختياره، لعدم التوافق والانسجام بين ما يؤمن به وما يؤمن به سواد الناس .

---

[1] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 79 .

[2] القتال الكلابي ، **الديوان** ، ص 99 .

وانظر ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 465 .

[3] انظر ، سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، 25 .

[4] المرجع نفسه ، ص 28 .

وتظهر مشاعر الندم والتماس العفو في شعر هدبة كقوله [1]:

بغيضٌ إليَّ الظلمُ ما لم أصبْ به	من الظلم مشعوفُ الفؤاد نفيرُ
وإني وإن قالوا أميرٌ وتابـــعٌ	وحُرّاسَ أبوابٍ لهنّ صريـــرَ
لأعلمُ أن الأمرَ أمرك إن تــدِنْ	فربٌ وإن تغفر فأنت غفــورُ

فيؤثر الآخرين على نفسه ويزهد بمتاع الدنيا ؛ لأن ما عند الله خير وأبقى . فالاغتراب عنده اغتراب عن الذات وعن العالم كله ، هو اغتراب التصوّف والزهد[2] فيعتزل الحياة والناس وينفصل عن كل ما في الوجود ، حتى عن نفسه ويزهد بالدنيا وما فيها ويدّعي الاتصال بالله روحياً .

خامساً : الاغتراب النفسي

تتمثل الغربة النفسية في طرد القبيلة لأبنائها أو خلعهم ، وتتمثل بالشعور بالعزلة والوحدة وكثرة الهموم ، أو دخول السجن والتعرض لأصناف من العذاب ، منها غلظة السجان وثقل القيود والأغلال ، يضاف إلى ذلك طول فترة السجن ، كما تمنع زيارة الصعاليك واللصوص ولا يستقر في سجن حتى لا يعرف له عنوان . ولم تقتصر ألوان التعذيب على ذلك فقد يهدم بيته كسعد بن ناشب ، أو تسجن أسرته إلى أن يسلم نفسه كما أصاب ابن الحر الجعفي فقال[3] :

همْ هدمُوا داري وقادُوا حَليلتي	إلى سِجنهم والمُسلمون شُهودي

كما سبيت أمه لزيادة معاناته وتسليم نفسه فقال[4] :

فإنْ تُكُ أمي من نِساءٍ أفاءَها	جيادُ القنا والمُرهَفاتِ الصفائح
فتباً لِفضلِ الحَرِ إنْ لمْ أنلْ بهِ	كَرائِمُ أوْلادِ النّساءِ الصّرائح

---

[1] الجبوري ، شعر هدبة بن الخشرم ، ص 91 .

[2] انظر ، سلامي ، الاغتراب في العصر العباسي القرن الرابع الهجري ، ص 24 .

[3] الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص 262 .

[4] المرجع نفسه ، ص 261 .

وقد يطارد ويلجأ إلى قبيلة أخرى أو إلى الصحراء ، أو يلجا إلى دولة مجاورة كما فعل العديل بن الفرخ عندما لجا إلى قيصر وقد أجبر الحجاج قيصر على أعادته ، بعد أن هدده بجيش أوله عند قيصر وأخره عند الحجاج [1] . والغربة النفسية لا تقتصر على البعد المكاني بل هناك غربة الهموم والتشرد نتيجة الإبعاد والإقصاء عن القبيلة والشكوى من طول الليل ، يقول جحدر المحرزي في وصف الهموم التي تعتاده في السجن[2] :

تأوّبَني فبتُّ لـــــها كَنيعاً	هُمومٌ لا تُفارِقُني حَـــوانِي
هِيَ العوّادُ لا عوادَ قومي	أَطلْنَ عِيادتي في ذا المكَان
إذا ما قلتُ:قد أجْلِينَ عنّي	ثنى رَيعَانُهُنَ علـــــيّ ثَانِ
فإنّ مقرَّ منزِلِهِنَّ قلبــــي	فقد أنْفهنهُ فالقـــــــلبُ آنِ

وتزداد غربه الصعاليك واللصوص النفسية لسخرية المرأة منهم وامتناعها من الزواج منهم لسواد اللون ، ودمامة الخلق ، وهزال الجسم ، وقلة المال ، وكثير من الصعاليك واللصوص تعرضوا لسوء المعاملة حتى من إبائهم،كما تعرضوا للتميز بينهم وبين أبناء الحرائر ، و تسلطت نساء إبائهم عليهم كعرار بن شاس ، أو سوء نظرة أفراد المجتمع لأبناء الأماء و لنسائهم أيضا كأمراة عروة [3] . ويعاني كثير منهم من غربة نفسية حين تتعرض أمهاتهم للامتهان ولا يستطيعون فدائهن كخالات السليك من جنسه ولبس الأدنيين لقلة مالهم ، وقد تتعرض النساء للسبي إذلالا لهم [4].

فالمرأة بالنسبة للشاعر مبعث للقلق والاضطراب أنها تشكل هاجساً مضاداً ومتناقضاً مع ذات الشاعر حين يجرد منها محاورا إذ تنشطر الذات وتتحول الظاهرة اللغوية إلى ظاهرة انفعالية . ويمثل الإحباط بالرحيل عن المكان ، والرحيل يشكل صدمة لذات الشاعر بعد فراق القبيلة قسراً وقد يقترن الاغتراب النفسي في عدم التكيف مع القبيلة ، باغتراب نفسي مكاني حين يسجن ويطول مكثه بالسجن وتبدأ المواجهة بالقطيعة في منع زيارة زوجته ، ويحاول الشاعر إعادة التوازن النفسي في استرجاع طيف المحبوبة . فهناك تحديات كثيرة تهّدم مكاني بخلع القبيلة له والبحث عن الأنس بدل الوحدة، وتحدي الطبيعة بالجفاف فيصبح الفقر والجوع معاناة

---

(1) المرزوقي ، شرح الحماسة ، ص 729 .

(2) البصري ، الحماسة البصرية ، 1510/3 .

(3) السويدي ، الاغتراب في الشعر الأموي ، ص 130 .

(4) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 235 .

نفسية دائمة . ويواجه الإنسان القمع والقهر من أخيه الإنسان كما يواجهه من الطبيعة . والقلق والاضطراب النفسي لا يقتصر على الحياة بل هناك قلق من المصير الإنساني المتمثل بالموت وتشظي الحياة وانقسامها بين الأمل والإحباط . وعبر الشاعر بمرارة وحسرة عن هذا التحول عندما اختار الخروج على مجتمعه[1].

سادساً : الاغتراب المكاني

كان الاغتراب المكاني بسب الطرد أو الخلع أو الخروج للفتوحات ، وكان نتيجة طبيعية لمجموعة من العوامل المعقدة . أبرزها العامل الاقتصادي ، والعامل السياسي ، ثم العامل الاجتماعي ، ويمكن اعتباره محصلة للعوامل السابقة . فتفرقت قبائل كثيرة في طلب الرزق وغالبا ما يتحول الاغتراب الاقتصادي إلى اغتراب حضاري نظرا لعجز المغترب عن التلاؤم مع البيئة الحضارية الجديدة . وعلى صعيد العامل السياسي كانت الفتوحات والتمركز في الثغور مصدراً دائماً للاغتراب . ويتحول الحب والزواج إلى سبب آخر للاغتراب . كما كان اللون من أسباب غربتهم فالمرأة تسخر منه ، والمجتمع لا يقيم له وزناً ووالده يرفض أن يلحقه بنسبه[2] .

والغربة السياسية أو معارضة الدولة توجب عليه الاغتراب هرباً بنفسه فيترك قبيلته أو بلاده خوفاً من القيود والسجن ، وتكون الصحراء والجبال الملاذ الأمن للفارين من سلطة القبيلة أو الدولة وفيه قال ابن الحر[3] :

أتاني وَعيُد ابن الزبير فلم أُرَعْ ... وما مثلُ قلبي بالوعيدِ يُروَّعُ

فلا تَرميَنّي بالوعيدِ فإنــــني ... سأتركُ ما تهوى وأنــفكَ أجدعُ

وفي الشام إخواني وجُلّ عشيرتي ... وقد جُعلت نفـــسي إليك تَطلّعُ

---

(1) ربابعة ، موسى ، **قراءة النص الشعري الجاهلي** ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، الأردن ـ اربد ، 2002 ، ص 33 .

(2) سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 210 .

(3) الملوحي ، **أشعار اللصوص و أخبارهم** ، ص 270 .

ولم تكن الغربة المكانية سلبية دائما فهناك من اغترب حين رافق جيوش الفتح بعد أن أعلن توبته عن إعمال اللصوصية والصعلكة . واغترب يبحث عن الرزق بعد أن سدت أبواب اللصوصية ، ولم يكتف بالإنفاق على نفسه وأسرته بل ليقوم بالواجب الذي يملي عليه أيضاً، قال ابن الحر [1]:

تعوّدتُ إعطاءَ لما ملكت يدي   وكل امرىء جار على ما تعوّد ا

خلائقُ ليست بالتَّخلُّق، إنني   أرَى أكرمَ الأخلاقِ ما كانَ أمجدا

وقد يغترب حين يتعرض للتهديد والملاحقة من السلطة ، وحين تفشل في إلقاء القبض عليه تعمد إلى التنكيل بأسرته ، كهدم بيته سجن زوجه، قال ابن الحر[2] :

همْ هدموا داري وقادُوا حليلتي   إلى سجنهم والمسلمونَ شهودي

وهم أعجلوها أن تَشُدَّ خِمارها   فيا عجباً هل الزمان مُقيدي ؟

فما أنا بابن الحرِّ إنْ لم أرُعْهُمُ   بخيلٍ تُعادِ بالكماةِ أسودِ

وحين يعارض السلطة ويُلقى القبض عليه يلقى بالسجن ، وقد تطول معاناته، فيجد الـــــــحرية في الهرب إلى الصحراء، ولكن يجد القيود والأغلال في السجن ، إلا أن الأمـــل والرجاء لا ينقطعان للخلاص من السجن وقيوده ، فكلما سمع صوت الباب انفرجت أساريره أملاً بالإفراج عنه، وفيه يقول جحدر[3] :

يَا صاحبيّ وباب السّجن دُونكما   هل تؤنِسان بصحراء اللوى نارا

إذا تَحــرّكَ بابُ السجن قام له   قومٌ يَمِـــدُّونَ أعناقاً وأبصارا

---

[1] الساوحي ، أشعار اللصوص و أخبارهم ، ص 261 .

[2] المرجع نفسه ، ص 262 .

[3] المرجع نفسه ، ص 184 .

الفصل الثالث

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك واللصوص

تمهيد

أ - الروح القصصية .

ب - الوحدة الموضوعية .

ج - التأثر بالبيئة .

د - المقطوعات .

هـ - المقدمة في شعر الصعاليك واللصوص .

و - الواقعية في شعر الصعاليك و اللصوص .

ز - الخصائص اللغوية والظواهر العروضية .

ح - الصورة والتشبيه في شعر الصعاليك واللصوص .

ط - الثنائية في شعر الصعاليك واللصوص .

ي - الحكمة و المثالية الإنسانية في شعر الصعاليك واللصوص .

ك - الفردية والتحلل من الشخصية القبلية في شعر الصعاليك واللصوص .

ل - التلقائية وغياب الصنعة .

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك واللصوص

تمهيد :

إن أبرز ما يميز شعرهم الروح القصصية[1] ، التي غالباً ما تكون خصيصة مشتركة ، بما فيها من تمثل لعناصرها ، فالشاعر يكتب مقطوعته الشعرية ، ويدون مذكراته الشخصية ، وهو البطل الذي تدور حوله أحداث القصة ، فلا يخضع لمذهب نقدي ، ولا يميل إلى التقليد سواءً في المقدمات أو في الموضوعات ، فلا يتكسب بشعره ولا يتردد على شيوخ العشائر ولا القصور ، ولا يمدح لينال مكانة بين قومه .

فلا مقدمات طللية ولا استهلال بالغزل ، ويكثر الحوار في أشعارهم فيكون بينه وبين رفاقه ، وكثيراً ما كان بينه وبين المرأة في الواقع ، أو يجرد شخصاً من الواقع ليحاوره ويبث أفكاره وآراءه من خلاله [2] ، والحوار هو "مونولوج " داخلي مع نفسه في خلواته وفي بعده ، ولا سيما عند الإحساس بالفراغ والخلوة في الصحراء المقفرة ، وانشغال الرفاق بالكسب والغزو والسطو ، ومما ساعد على ذلك هموم الليل وطوله ، لأن الليل بالنسبة للصعاليك وقت رزقهم وكسبهم . يقول أبو الطمحان القيني عندما أسره رجلان من طيء فاشتراه منهما بجير بن أوس بن حارثة وقال[3] :

أرقتُ وآبتني الهموم الطوارقُ	ولم يلقَ ما لاقيتُ قبلي عاشقُ
إليكمْ بني لأم تخبُ هجانُها	بكل طريقٍ صادفتْهُ شبارقُ
لكم نائل غمرٌ وأحلامُ سادةٍ	و ألسنةٌ يوم الخطاب مسالقُ

والصراع الذي يعيشه بالأجواء المحيطة به ، سواءً مع قبيلته أو مع أعدائه أو مع رفاقه وأحياناً مع نفسه ، أطلقت لسانه بالحكمة لأن كثرة التجارب تصقل موهبته ، وشعرهم كما هي حياتهم يعتمد السرعة ولا يميل للصنعة والتكلف ، ولا يتسم بالإطالة بل هو مقطوعات قصيرة أو

---

[1] انظر ، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 360 _401.

[2] انظر ، الجندي ، علي ، **في تاريخ الأدب الجاهلي** ، ص448 _454 .

[3] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 10/13 .

شبارق : شبرق ، وشبراق وشباريق مقطع ممزق (اللسان ، مادة شبرق) .

مجموعة أبيات ، تعبر عن غرض يتعلق بالشاعر نفسه وبواقعه الذي يعيشه ، وإذا عرفت مناسبة هذه المقطوعة سهل فهمها .

والألفاظ لا تخلو من الصعوبة لارتباطها بالبيئة الجاهلية[1] ، فقسوة الصحراء وخشونتها انعكست على مفرداتهم ، ويعود ذلك للفترة الزمنية التي تفصل بيننا وبين إنتاجهم الأدبي ، وإذا وصف الأشياء فلا يصفها لذاتها بل يصفها لأثرها عليه أو لعلاقته بها ، وفيها جمال الصورة الـمستمدة من البيئة التي يعيشها بجسمه وروحه ، وليست التي يعيشها في خياله أو عبر مشاهدات وملاحظات سريعة ، فأحياناً يسابق الطير لسرعته ويجاري ظلال السحاب .

فالانفصال والبعد عن القبيلة انفصالٌ عن أماكن وجودها ، فلا نجد ذكراً لمكان القبيلة بل نجد المراقب وشعاب الجبال ورمال الصحراء ، كما أن حياتهم لا تعرف الاستقرار والاطمئنان ، ولا الحياة الأسرية ، فيشكو بعد المرأة والحنين إلى الديار ، لأن الفقر عدو الغزل ، كما أنه عدو المرأة ، ولا تصبر على فقره وإن أصاب غنى في غزواته وغاراته ، وفي العصر الإسلامي ظهرت مفاهيم وألفاظ جديدة تتعلق بالدولة والجهاد والإسلام ، والكتاب والتوبة ، إلا أن قاموس الفقر والحرمان والجوع ظل بارزاً وطاغياً في مقطوعاتهم الشعرية ، لذا كان شعرهم يمثل واقعهم في الغربة والألم ، وفي الفيافي والقفار والفاقة والعوز .

أ - الروح القصصية :

شعر الصعاليك صورة صادقة عن حياتهم ، فهو شعر مذكرات شخصية[2]، يسجلون كل ما يدور فيها من حوادث ومغامرات ، سواءً على المستوى الفردي أو الجماعي ، ويرتبط شعرهم بمناسبة . فقد ذكروا ما يتعلق بصفاتهم الشخصية ، كسرعة العدو ، وروح المغامرة ، والجلد والصبر ، ومعاناتهم وتربصهم بأعدائهم ، وما يشعرون به من ظلم وعبودية وذل ، وتدني مستواهم الاجتماعي ، وعدم تكيفهم مع مجتمعاتهم ، وعجزهم عن التأثير على الآخرين بآرائهم ، وإبعادهم عن صنع القرار ، وشعورهم بالنقص وعدم التوافق الاجتماعي ، مما دفعهم للمغامرة والشجاعة

[1] انظر ، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 360 _401.

[2] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 274 .

والفروسية ، تعويضاً عما لحق بهم من جور وحرمان وبؤس . فعندما وفد فضالة بن شريك على عبدالله بن الزبير ولم يلب رغبته وكان يأمل بأن يقدم له العطاء السخي ، فقال في ذلك[1] :

أقولُ لغِلمَتي شُدوا ركـــابي	أجاوزُ بَطنَ مَكةَ في سوادِ
فما لي حينَ أقطعُ ذاتَ عرقٍ	إلى ابن الكاهليةِ من معادِ

كما تظهر الروح القصصية في لامية الشنفرى بكل عناصرها من زمان ومكان وشخصيات وحوار وعقدة وحل كما تظهر العناصر القصصية في هذه الأبيات ، فالحوار كان بين فضالة و غلمته الذين جهزوا له وسيلة السفر والتي كانت في طريقها صوب مكة قاصداً فيها عبدالله بن الزبير وكان المكان هو بطن مكة وعنصر الإثارة والتشويق هو الحصول على العطاء أو خيبة الأمل وزمان القصة عندما ضاقت به الظروف وأعلنها في غير مكان عندما دبرت دابته فجاء يطلب العطاء فعندما لم ينل غايته انقلب المدح إلى هجاء ، فتغيرت أساليب الصعلكة و اللصوصية تبعاً لاختلاف العصور فلم تعد تعتمد على السطو والنهب بل صارت تعتمد على الشكوى والتظلم ومدح أولي الأمر فإذا لم يحقق هدفه انقلب المدح إلى الهجاء .

وهذا ما جرى في قصةٍ بين بشر بن خازم عندما أسرته بنو نبهان من طيء ؛ لأنه كان يهجو أوس بن حارثة الطائي ، وكان قد نذر ليحرقنه إن ظفر به ، فقالت له أمه سعدى قبَّح الله رأيك[2] ؛ أكرم الرجل وخلِّ عنه ؛ فإنه لا يمحو ما قاله غير لسانه فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء قصيدة مدح ، وقال بشر بن أبي خازم في ذلك شعراً[3] :

فبتُّ مُسهدًا أرَقًا كأنـــــــي	تَمشتْ في مَفاصليَ العُـــقـُـار
أراقبُ في السماءِ بناتِ نعشٍ	وقد دارتْ كما عُطِفَ الصُوارُ
ليَاليَ لا أطاوعُ مـــَنْ نَهاني	و يضفو فوقَ كعبــــــيَّ الإزارُ
فأعصِي عاذِلي وأصيبُ لهواً	وأوذِي في الزيارةِ مَنْ يـَـــغارُ

---

[1] الأصفهاني ، الأغاني ، 65/12 .

[2] انظر ، الضبي ، المفضليات ، 329/1 .

[3] المصدر نفسه ، 340/1 .

بشر بن أبي خازم الأسدي : شاعر فارس فحل جاهلي قديم من شعراء الطبقة الثانية من الجاهليين قتل في أحد الغزوات على يد بني صعصعة ، إذ رماه أحد الغلمان بسهم أصاب منه مقتلاً (عبد الرحمن ، معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، رقم الترجمة 63) .

كما ذكروا في شعرهم ما تميزوا به من معرفةٍ بالقيافة و العيافة ومعرفة دروب الصحراء وتتبع الأثر ، وخصائص الحيوانات فعرفوا من القطا مواقع الماء ، كما امتازوا بسرعة العدو وحدة البصر ، إضافة إلى قوة السمع وسرعة البديهة ، وحسن التخلص في مواقف الهلاك ، فتأبط شرا ينصح رفيقه بقلة شرب الماء لأنه أوجس خيفة ، فقال : أنها ليلة طراد ، و إني لأسمع وجيب قلوب الرجال ، فقال رفيقه : ما هو إلا وجيب قلبك ، فقال : والله ما وجب قط[1] . وكثيرا ما تكون مجموعة الأبيات تشكل عناصر القصة في مجملها ، قال السليك[2] :

وعَاشِيةٍ راحتْ بِطاناً ذُعَرتُها	بسوطِ قتيلٍ وَسْطها يتسيفُ
كأن عليه لون بردٍ مُحبرٍ	إذا ما أتاه صارمٌ يتلهفُ
فبات له أهلٌ خلاءٌ فناؤهم	ومرتْ بهم طيرٌ فلم يتعيفوا

فالسليك حمل على صاحب الإبل وهو شيخ كبير في ليلةٍ شديدة البرودة ، بعد أن عاد ابنه بالإبل قبل غروب الشمس ، فكمن له السليك وغدر به ، فأطاح برأسه واستاق الإبل وعاد بها إلى أصحابه ، فمن خلال هذه الأبيات نجد أن البطل هو الشاعر ، والشخصيات هم الرفاق ، والمكان هي الصحراء ومسالك الجبال الوعرة ، والزمان دجى الليل وظلامه ، والعقدةُ هي الغاية والهدف للكسب والفوز بالإبل والغنائم وسبي النساء ، والحوار مونولوج داخلي في نفس الشاعر ، والتخطيط للوقت المناسب لتنفيذ خطته ، والحل والتشويق هل ينجو من غارته وهل يحقق طموحه ؟ فالشاعر يختار الوقت المناسب وغفلة راعي الإبل ويفتك به حتى يجعل ثيابه ملونة بالدماء ، فاستخدم عناصر اللون والحركة ووظف الطبيعة حيث جعل الطير ينبه القوم لكن لم يستجيبوا لها ، وتأتي الخاتمةُ بتحقيق الهدف وجعل فناء أهل الإبل خالياً من الإبل وصاحبها .

---

[1] انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 144/21 .

[2] السليك ، **الديوان** ، ص 82 .

القيافة : تتبع الأثر (**اللسان** ، مادة قيف) .

العيافة : الكهانة وادعاء معرفة الغيب . (**اللسان** ، مادة عيف) .

وعندما سأل معاوية بن أبي سفيان ليلى الأخيلية عن توبة بن الحمير فقال : ويحك يا ليلى أكما يقول الناس كان توبة عاهراً خارباً ؟ فقالت من ساعتها[1] :

مَعَاذَ إلـــــــهي كانَ واللهِ سيداً   جواداً على العلاّت جَمّاً نوافِلهُ

يبيتُ قريرَ العينِ مَنْ باتَ جارَهُ   ويُضحِي بخير ضيفهُ ومُنازلـه

فقال معاوية : لقد جزت بتوبة قدره ، فقالت : " والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أني مقصرة في نعته " ؟ [2]. فالاتجاه القصصي حوارٌ ومساجلات[3]، تنبعث من فلسفة الشاعر، وحوارهم يعتمد أحياناً التجريد يختلقه الشاعر ليؤكد صفة المشورة ، كالكرم عند محاولة المرأة كفه عن ذلك ، والشجاعة عند محاولتها إبعاده عن المغامرة والمخاطرة ، ويكتفي بتقديم حجته بأسلوب حواري يمهد له باللوم والعتاب والشكوى والتذمر . ويعتمد الأسلوب القصصي على تسلسل الأفعال ، والإثارة والتشويق[4] ، ويقدم كل من الطرفين أدلته وبراهينه لإثبات فكرته ، فقد يجرِّد الشاعر من نفسه محاورا له ، وقد يجرِّد من المرأة اللائمة والعاذلة محاورا له ، أو قد يجرِّد محاورا من المقربين له من الرفاق ، واختيار الوقت المناسب للحوار أو اللوم فيكون عند الخلوة مع النفس وفي الوحدة والعزلة أو في وقت الراحة ، كما لامت امرأة تأبط شرا زوجها عندما عاد مدهناً وقد مات ابن عمها ، وحواره مع رفيقه عند عين الماء[5] .

فالفن القصصي يسير وفق تسلسل منطقي ، وترتيب طبيعي للأحداث ، وهذه المقطوعات غالبا ما يكون لها مناسبة ، لأن الشعراء الصعاليك لم يتخذوا الشعر مهنة ، بل كانت تمليه عليهم الظروف التي عاشوها ، وكثيرا ما كانت هذه القصص تنطلق من واقعهم الحياتي ، إلا أننا قد نجد فناً قصصياً خيالياً [6]وخصوصاً في حوار تأبط شراً مع الغول ، وكيف استطاع أن يقتلها ؟ ووصفها بأنها هي ما بين القط والكلب ، والأنس بحيوانات الصحراء التي ألفت الأحيمر السعدي

---

(1) الفوال ، **شرح ديوان ليلى الأخيلية وتوبة ابن الحمير** ، ص28

(2) المرجع نفسه ، ص 28 .

وانظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 224/11.

(3) انظر ، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 363.

(4) انظر ، القيسي ، **تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام** ، ص 157 .

(5) الأصفهاني ، **الأغاني** ، 149/21 .

(6) انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 31 .

حتى أصبحت لا تهرب منه . و الشنفرى اختار المجتمع الحيواني بشخصياته التي ذكرها ، فقال[1] :

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيْدٌ عَمَلَّسٌ ... وَأَرْقَطُ زُهْلولٌ وَعَرفاءُ جَيْأَلُ

فأصبحت هذه المقطوعات حكاياتٍ قصصية تعبر عن مذكراتهم الشخصية ، وقد لا تقتصر على فردٍ منهم بل غالباً ما كانت سمة بارزةً لأشعارهم ، كعروة مع أصحاب الكنيف ، و خراش مع ضيوفه اليمانيين ، والقصاص من هدبة ، وغزو مالك بن الريب لخراسان ، وسجن العديل بن الفرخ . ومن خلال هذه القصص نجد الروح البطولية التي يتحلى بها أصحاب هذه القصص ، فكان الفخر بأنفسهم بدلاً من الفخر بقبائلهم ، وقد ركزوا على الصفات المعنوية ، أو الصفات المثالية في معظم أشعارهم ، حيث يؤثرون غيرهم على أنفسهم ، ولم يكن كسبهم لذاتهم بل لجماعة الرفاق ، واعتمادهم على ذاتهم حتى لا يروا فضلاً لأحدٍ عليهم . و يسجل الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة وفيها عناصر القصة من إثارةٍ وتشويق وتسلسلٍ للأحداث ويمكن اختيار عنوان لكل مقطوعة ، والقصة بطلاها الشاعر وخصمه ، كالشاعر والقبيلة ، والشاعر وراعي الإبل ، أو الشاعر والغول .

ب - الوحدة الموضوعية :

من خصائص شعر الصعاليك واللصوص ؛ لأن الموضوعات تتعلق بالسيرة الذاتية لكلٍ منهم ، ويمكن وضع عنوان خاص لها[2] دالاً على موضوعها ، كأصحاب الكنيف مثلاً ،و تأبط شراً والغول ، و السليك وخالاته ، وسبي الشنفرى وأمه ، كما ظهرت الوحدة الموضوعية في قـــصة القتال وعمه وقصة جحدر والأسد ، فالقتال الكلابي لم يكتف بقتل الأمَة التي أراد عمه أن

---

[1] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 72 .

عَمَلَّس : و العَمَلَّس الذئب الخبيث والكلب الخبيث . (**اللسان** ، مادة عملس) .

السِّيد : الذئب (**اللسان** ، مادة سيد) .

الأرْقَط : النَمِرُ للونه، صفة غالبة غلبة الاسم ، (**اللسان** ، مادة رقط) .

زهل : الزهل والزهلول الأملس من كل شيء . (**اللسان** ، مادة زهل) .

[2] انظر، بدوي ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 70.

يتزوجها بل نبش قبرها أمام شهود عدول ليثبت عدم وجود علاقة بين عمه والأمَة حفاظاً على كرامة قبيلته فقال[1] :

أنا الذي انتشلتُها انتِشالاً ثم دعوتُ غِلمَةَ أزوالاً

فصدَّقوا وكذَّبوا ما قالا

وتعرَّض جحدر إلى السجن في أكثر من موقع ، ويدعو على هذه السجون بالخراب بعد أن عانى فيها غربة المكان ، والغربة النفسية إذ لا يعرف مكانه ولا يزوره زائر ، ويقول في ذلك مصوراً تجربته في سجن المخيس وبعدها في سجن دوّار ، فيقول[2] :

يا ربِّ أبغضُ بيتٍ عندَ خالِقِـه بيتٌ بكوفَانَ مِنهُ أشعِلتْ سَقَـرُ

مثوى تجمَّع فيهِ الناسُ كُلُّهُـمُ شتّى الأمور فلا وِردٌ ولا صَـدرُ

دارٌ عليها عِفاءُ الدَّهرِ مُوحِشَةٌ من كُلِّ إنسٍ وفيها البدوُ والحضرُ

وقال في وصف سجن دوّار[3] :

يا رُبَّ دَوارَ انقذْ أهلهُ عَجَلاً وانقضْ مرائِره من بعدِ إبرامِ

فهذه الموضوعات جاءت دون مقدماتٍ طللية ، ودون غزل بالمرأة [4] ، لأن هناك ما يشغلهم عن النساء بالكسب والغارات والمطاردات التي كانت بمثابة أعمال لهم ، فلا غزل إلا في أوقات الراحة والاطمئنان ، و موضوعاتهم قصيرة ، ومقطوعاتهم لا تحتمل الإطناب ، فالموضوع الذي يتحدث عنه الشاعر يتعلَّقُ بحياته الواقعية والنفسية ، والتنقل بين أجزاء الموضوع كالتنقل والعدو بين فيافي الصحراء ، و موضوعات المقطوعات هي موضوعات جزئية بعضها يتعلقُ بقصص المغامرة ، أو وصف سرعة العدو أو الأنس بحيوانات الصحراء ، و بعضها ما يتعلق بالشعور بالظلم ، كاحتقار أبناء الإماء ، أو مصابرة الجوع ، فكلها موضوعات قصيرة تتعلق بحياتهم ، أو هي خواطر تتعلق بمناسبة مرت بهم .

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 342/23 .

[2] القيسي ، **شعراء أمويون** ، ص 173 .

[3] المرجع نفسه ، ص 181 .

[4] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 258 .

ولا نستطيع أن نقول أن قصائدهم تخلو من الطول ، أو تقف جميعها عند موضوع واحد أو غرض واحد ، ويمكن أن تعود أسباب طول قصائد بعضهم لسببين [1] :

الأول : يعود لفترة الحياة التي سبقت فترة الصعلكة ، عندما كان يشعر بالأمن والاطمئنان والانتماء إلى القبيلة .

الثاني : لفترة الراحة من الغزو وأثناء الاستقرار ، فشعرهم كان آنياً يعبر عن حادثةٍ معينةٍ في فترةٍ من لحظات حياتهم .

أما من حيث الشك في نسبها – أو نسبتها لأكثر من شاعر واختلاف عدد أبياتها ، فهناك أسبابٌ متعددة لذلك ، فمنهم من يعيدها إلى أن الشعر الجاهلي بمجمله قد تعرَّض للضياع[2] فكان شعرهم كباقي الشعر ، وهناك من يعيد سبب ذلك إلى أنهم بخروجهم على قبائلهم لم يذكروا مآثرها وأمجادها ، فإن قبائلهم لم ترو أشعارهم ، فليس من المعقول أن يعرضوا وحدة القبائل إلى الخطر وتقوم القبيلة برواية أشعارهم إكراماً لهم .

و قد يتبادر إلى أذهاننا سؤال ، فكيف وصل شعرهم إذا لم تقم قبائلهم بروايته ؟ لعل بعضهم يعيد ذلك إلى فترة ما قبل الصعلكة ، أو إن رفاقهم قد رووا أشعارهم ، ولم يحترفوا الفن أو يتكسبوا به ، بل كان انشغالهم بتحقيق سبل العيش ، فقد احترفوا الصعلكة ولم يحترفوا الفن لأن الفن يحاول تخليد المآثر والمفاخر ، وليس لديهم ما يفاخرون به ، فحياتهم بؤسٌ وفقر وتشرّدٌ ومطاردة ، فلا أمن ولا استقرار .

---

[1] انظر ، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 392.

[2] المصدر نفسه ، ص 392.

ج - التأثر بالبيئة :

عبر شعر الصعاليك واللصوص عن أحوالهم الشخصية ،كما عبروا عن بيئاتهم وظروف معيشتهم بما فيها من قسوةٍ وحرمان ومعاناة ، فوصفوا الأشياء لعلاقتها بهم وليس لذاتها ، وكان من هذه الأشياء المهامه والمراقب والشعاب والغور والنجد ، حيث قال الشنفرى[1] :

وتشربُ أساري القطا الكُدْرُ بعدما سرتْ قَرَباً أحناؤها تتَصَلْصَلُ

كما وصفوا حيوانات الصحراء التي عاش بينها الشنفرى وعبيد بن أيوب و الأحيمر السعدي كالذئاب والسيد والأرقط والعرفاء وابنة الرمل والأراوي ، قال الشنفرى[2] :

ولي دُونَكم أهلون سيد عملّسٌ وأرقط زهلولٍ وعرفاءُ جيألُ

كما ذكر الأحيمر السعدي الذئب في قوله[3] :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عَوَى وَصَوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

ووصفوا ما يتعلق بهم من أسلحه كالسيف والسهم والقوس ، حيث قال عروة [4] :

بكلّ رقِاق الشفرتين مهندٍ ولدْن من الخطيّ قد طرّ أسمرا

كذلك وصفوا مناخ الصحراء وتقلباته بين القر والحر الذي ألحق بهم العطش والتعب وكسر القوس ليصطلي بناره بينما يشتد الحرُّ حتى يذيب دماغه ، يقول الشنفرى[5] :

ويوم من الشِّعرىَ يذوبُ لُبابه أفاعيه في رَمْضائِه تتقلبُ

---

[1] الشنفرى ، الديوان ، ص 114 .

[2] المصدر نفسه ، ص 109 .

[3] ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، 535 .

[4] عروة ، الديوان ، ص 67 .

[5] الشنفرى ، الديوان ، ص 120.

طرّ : طرر و طـرّة كل شيء حـرفـه (اللسان ، مادة طـرر) .

كما يصف هزال جسمه وما يعاني من عري وسوء ما ينتعله حيث لا يقي أقدامه من حرارة الصحراء واحتكاكها بالصوان ، يقول تأبّط شرا [1] :

يَسْرِي على الأينَ والحيّاتِ مُحْتَفِياً ... نَفْسِي فِداؤُك من سار على ساقِ

وقال في وصف نعله[2] :

ونعلٍ كأشلاء السُّماني نَرَكْتُها ... على جنبِ مورٍ كالنحيزةِ أغبرا

ونتيجة وجوده بين حيوانات الصحراء أصبح يعاني آلامها فصار إلفا لها ولم يعجز عن التكيف مع ظروف الصحراء ، يقول الشنفرى[3] :

أنا السَمْعُ الأزلُ فلا أبالي ... ولو صَعُبت شَناخِيُب العقابِ

ولا ظمأ يؤخرني وَحَــرّ ... ولا خمصٌ يقصّرُ من طلابي

فكما وصفوا البيئة والصحراء وحيواناتها فقد وصفوا السجون والقيود والسجّان وغلظته وهناك بعض من الشعراء وصف السلاسل التي يقيد بها ، وفقد بسببها حريته كما قيدت أطرافه ، يقول طهمان بن عمرو الكلابي[4] :

لعلكَ بعدَ القيدِ والسجن أنْ تُرى ... تَمرُّ على ليْلى وأنتَ طلـــيقُ

أسيراً يعضُ القيدُ ساقيْه فيهمــا ... من الحَلق السّمر اللّطافِ وثيقُ

---

[1] تأبط شرا ، **الديوان** ، ص127 .

[2] المصدر نفسه ، ص 61 .

[3] المصدر نفسه ، ص 28 .

شنخب : الشنخوب والشنخاب اعلى الجبل وشناخيب الجبال رؤوسها (**اللسان** ، مادة شنخب) .

النّحيزةُ : طريقة من الرمل سوداء ممتدة كأنها خط ، مستوية مع الأرض (**اللسان** ، مادة نحز) .

[4] طهمان بن عمرو الكلابي ، **الديوان** ، ص 35 .

وانظر ناهد ، أحمد الشعراوي ، **دروس ونصوص في الأدب الجاهلي والإسلامي والأموي** ، 1993 ، ص 258.

فالشاعر لص فتّاك هرب من المجتمع واعتكف بجبل العارض ، ويهبط من الجبل ليلاً ليسرق الآمنين في دورهم ، وتعرّض طهمان إلى قطع يده اليمنى عقوبة لارتكابه السرقة ، وشكا أمره إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ، وقال[1] :

يَدي يا أميرَ المؤمنين أعِيذُها | بحَقويكَ أن تلقى بَملقى يُهينُها
تَشُدُ حِبَالَ الرَحل في كلّ منزلٍ | إلى شِمال لا يمين تُعينهــــا

فلم تكن آثار السجن تقتصرُ على الغربة النفسية ، أو البعد عن الأولاد والزوجة والأهل والوطن ، بل هناك غربة مادية" تكون بقطع الأطراف أو الموت في السجن لشدة التعذيب ولم يكن السجن في مكان يمكن زيارته ، وإنما يُنفى ويسجن في بلدٍ غير موطنه الذي يعيش فيه فجحدر بن معاوية تنقل في أكثر من سجن ، وقد تطولُ فترة السجن قبل تنفيذ الحكم، ويعاني الإنسان من الخوف والقلق وربما تمرَّد على السجان وقتله ، وفرَّ من سجنه كما فعل القتال الكلابي إذ قال[2] :

تركتُ ابنَ هبّار لدى البابِ مُسنداً | وأصبح دوني شابة وأرُومُهــا
بسيفِ امرئٍ ما إن أخبِّر باسمِـهِ | وإن حَقرت نفسي إليّ همُومُها

فالسجّان قاس يعامله بغلظة فيزداد كراهية للحياة التي يعيش فيها فإما خضوعٌ للقوانين والأنظمة ومصادرة للحرية وإما قيدٌ وسجنٌ وغربة ومعاناة . فالشعراء اللصوص يعانون من الظلم ، ولا يقبلون الذل ، ومنهم من تخلت عنهم قبائلهم ، فكان أمامه الموت هلاكاً أو السطو والنهب ، أو البقاء في غياهب السجون ، ومنهم من احترف مهنة الصعلكة واللصوصية وعمد إلى السرقة والنهب ، واقترنت هذه السرقة بالقتل ، فأصبح القاتل مُطارداً من أولياء القتيل ، وكان السمهري أحد اللصوص الذي أصاب دماً وخلعته قبيلته عكل وقعدت عن نصرته ، فهام على وجهه يبحث عن نبيل يحميه ، فقال في حبسه[3] :

ألا يا ليتني من غير عُكْلٍ قبيلتي | ولم أدر ما شبّانُ عكل وشِيْبُهــا
قبيلةٌ لا يقرعُ البابَ وفدُها | لخير ولا يأتي الســـدادَ خطيبُها

---

[1] طهمان بن عمرو الكلابي ، **الديوان** ، ص 30 .

انظر ، الشعراوي ، **دروس ونصوص في الأدب الجاهلي والإسلامي والأموي** ، ص 264 .

[2] القتال الكلابي ، **الديوان** ، ص 87 .

[3] الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 37 .

فاستخدم الكناية حين قال لا يقرع وفدها الباب بخير ولا تسير على رشاد فالشاعر لا يصف الأشياء إلا لارتباطها به وكثرة معاناته ، فإذا عاش في الصحراء وصف ما يحيط به من مناخ وبيئةٍ وحيوان ، وإن ألقي في السجن وصف القيود والأغلال وأثرها في جسمه ، وأثر السجن في مصادرة حريته ، وإذا عاد لأسرته وصف بؤس أولاده وزاد لوم امرأته له على سلوكه في المخاطرة بنفسه وبعده عن الأهل ، فهذا هدبة بن الخشرم يسجن ولا يزوره إلا طيف امرأته ، فيذكر معاناته فإن منعوا زيارتها فلن يمنعوا خيالها . وعبر عن الصراع القائم بين ذاته وبين البيئة المحيطة بألفاظ توحي بالصراع والمواجهة ، ويظهر ذلك في صراع جحدر والأسد ، قال جحدر بن معاوية[1] :

فَلقتُ هامتَه فخرَّ كأنّهُ   أُطـُمٌ هَوى مُتقوّضَ الأبراجِ

فالألفاظ التي استخدمها لها دلالتها ففلقت تدل على انقسام رأسه نصفين ، والأطم والأبراج تدل على الارتفاع ثم السقوط والدمار فالصورة ماثلة أمامه فالأسد كالبناء العالي الذي تهاوى بفعل قوة الشاعر . وما وصف الشاعر للأسد بالضخامة إلا لإثبات شجاعته .

د - المقطوعات :

تتعدد الروايات في سبب قصر قصائد شعراء الصعاليك واللصوص لعدة أسباب منها : أن الشاعر حصر نفسه في موضوع واحد ، و اتسمت هذه المقطوعات بالصدق والعفوية والبعد عن التكلف فهي مشاعر واضحة بسيطة ، وتتحلل من المقدمة الغزلية أو الطللية ، وإن قائلها لا يدور في خلده إلا فكرة بعينها .

فالشعراء الصعاليك واللصوص لم ينقطعوا إلى فنهم ، فكان عبارة عن خواطر يلقيها الشاعر في مناسبةٍ معينةٍ . وأخذت أمام روعة الأحداث والتهاب المشاعر شكل الفن القصصي وبعضها الآخر شكل النقائض[2] إذ يلجأ بعض الشعراء إلى هجاء خصومهم بعدد من الأبيات كما فعل سعد بن ناشب عندما هدموا بيته ، أو قصةٍ حواريه بين الشاعر وامرأته أو الشاعر ونفسه أو الشاعر والخليفة ، فلم تكن هذه المقطوعات يراد بها التكسب أو مدح ذوي الشأن لتنفّح أو يلجأ فيها

---

[1] القيسي ، شعراء أمويون ، 170/1 .

أطم : الأطمُ حصن مبني من الحجارة والجمع آطام. (اللسان ، مادة أطم) .

[2] الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص 151 .

إلى المحسنات أو البديع . ويلجأ إلى تنويع الأساليب بين أساليب خبرية و إنشائية من نداء واستفهام ورجاء . يقول عبيد بن أيوب[1] :

أزاهدةٌ فيّ الأخلاءُ أن رأتْ فتىً مُطرداً قد أسلمَتهُ قبائِلُـــهُ

قليلُ رُقَـــادِ العين ترّاكُ بَلدَةٍ إلى جوز أخرى لا تَبِّنُ منازلُــهُ

ولا تُخذل المولى إذا ما ملمة ألمّت ونازلْ في الوغى مَن يُنازله

فهذه الأبيات قصيرةٌ ، وتميل إلى الاختصار ، ويمكن أن تنسب لأكثر من شاعر ، سيما وقد تشابهت ظروفهم خصوصاً وأن الشعراء الصعاليك عاشوا في بيئات متشابهة و موضوعاتهم كانت مشتركة كالفقر والجوع ، والطرد والتشرد ، والسلب والنهب . وأدت غربة المكان في الصحراء أو في السجون إلى انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، ويمكن أن يعود سبب ضيـــاع بعض شعرهم لبعدهم عن القبائل وعن الرواة الذين لا يهمهم من أمر الصعاليك شيء سيما وأن حديثهم ذاتيٌّ فردي لا يمدح القبيلة ولا يذكر مآثرها ، ولم يرو من أشعارهم إلا ما يتعلق بمناسبة[2] أو تتناقله الألسن لسهولته وارتباطه بحوادث معينة . فهناك اختلافٌ في رواية الأبيات ، واختلافٌ في نسبتها ومثال ذلك يقول هدبة بن الخشرم[3] :

يقولونَ لا تبعدْ وَهُم يَدفنونَني وليسَ مكانُ البعدِ إلا ضرائحي

أما مالك بن الريب ، فيقول[4] :

يقولونَ لا تَبْعُد وهُم يَدْفنونني وليسَ مكانُ البعدِ إلا مكانيـــا

وهناك مجموعة من الأبيات نسبت إلى أبي الطمحان القيني وجاءت في الحماسة شرح المرزوقي ببيتين من الشعر[5] :

ألا عَلّلا ني قبلَ صَدح النّوائـــح وقبلَ ارتقاء النّفس فوقَ الجَوانح

وقبلَ غدٍ يا لهفَ نفسي على غدِ إذا راحَ أصحابي ولستُ برائـــح

---

[1] الملوحي ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص 227 .

[2] انظر ، خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص 278 .

[3] الجبوري ، شعر هدبة بن الخشرم ، ص 83 .

[4] ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 227.

[5] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 3_4 /1266.

وهذه الأبيات وردت في شعر هدبة بن الخشرم الذي جمعه يحيى الجبوري في أربعة أبيات وليس ببيتين ، مع اختلاف في بعض الكلمات[1] :

الا عللا ني قبلَ نوح النوائـــــحِ	وقبلَ اطلاع النفس بينَ الجَوانـِـــحِ
وقبل غدٍ يا لهف نفسي على غدٍ	إذا راح أصحابي ولستُ برائـــــحِ
إذا رَاحَ أصْحَابي بفيض دموعِهم	وغودرتُ في لحدٍ عليَّ صفائـــــحِ
يَقولونَ هل أصلحتم لأخيكـــــمُ	وما الرّمسُ في الأرض القواءِ بصالحِ

وبعض الأبيات نسبت إلى أكثر من قائل ، ولم يعرف على وجه التحديد سبب الاختلاف في هذه الروايات إلا لبعد عهد الرواة ، أو لنقلها سماعاً لأن الصعاليك لم يكونوا على اتصال بقبائلهم ، ومن هذه الأبيات قول مالك بن الريب [2] :

إنْ تُنصفونا يا آل مروانَ نقتَـربْ	إليكم وإلا فأذَنوا ببعـــــادِ
فإنّ لنا عنكم مزاحاً ومرحـــــلاً	بعيس إلى ريح الفلاتِ صوادِ
ففي الأرض عن دار المذلة مذهب	وكلُّ بلادٍ أوطنتْ كبـــــلادِ

وهذه الأبيات عينها نسبت إلى الفرزدق في شرح المرزوقي للحماسة ، ولم أعثر عليها في ديوان الفرزدق ، ولم يعرف أن الفرزدق طارده الأمويون أو خرج من دياره بل كان ممن يدين بالتقية وهي هوى بني هاشم ، ويظهر حبه للأمويين، بينما مالك بن الريب عمل في اللصوصية وقطع السبل إلى أن قيَّض الله له الهداية على يد سعيد بن عثمان ، وذهب في جيش الفتوحات إلى خراسان ، وسواءً كان الاختلاف في نسبة الأبيات ، أو في روايتها ، فكل هذا يؤكد أن شعر الصعاليك كالشعر الجاهلي فيه اختلاف الروايات ، وفي اختلاف نسبته إلى غير صاحبه ، و هناك حذفٌ وإضافات وربما يعود هذا إلى عدم تدوينه[3] ، ولانقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، فلم تكن القبائل لتعنى بنقل أشعارهم أو تدوينها ، وبعض هذه الأشعار التي وصلت

---

[1] الجبوري ، **شعر هدبة بن الخشرم** ، ص 83 .

[2] المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، ص 301.

وانظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 304/3 .

وانظر المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 1_2 / 676 .

[3] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 320 .

قد يعود إلى فترة ما قبل الصعلكة ، أو لحظات التوافق والانتماء مع القبيلة . ويكثر الشاعر من الحنين إلى القبيلة كما جاء في قول السمهري[1] :

بني أسدٍ هلْ فيكمُ من هوادةٍ فتغفِرِ إنْ كانتْ بي النعلُ زلّتِ

وتركز هذه المقطوعات على غرض واحد ، لتخدم حادثة تاريخية عندها نقلها الرواة وبينوها[2] ، وجاءت هذه المقطوعات محدودةً حيث وحدة الموضوع الذي كتبت من أجله ، فكانت مجموعة الأبيات لا تحتاج إلى فترةٍ زمنية لإعدادها لانشغال الصعاليك بتحصيل الرزق وليس بقول الشعر ، ولم يكن الشعر وسيلة للعيش ، وإنما هو تعبير عن عواطف ومشاعر تجاه حدثٍ أو مناسبةٍ معينة . وقد يتساءل البعض عن أن بعض القصائد جاءت طويلة كلامية الشنفرى ، ولعل السبب يعود في ذلك إلى أن هذه القصائد قد تكون قيلت قبل احتراف الصعلكة[3] ، عندما يصفُ حياة البؤس التي كان يحياها ، وبداية خروجه عن مجتمعه الإنساني إلى مجتمع آخر كان له فيه دور البطل . وهناك من شك بأن اللامية قد قالها خلف الأحمر .

وكانت أشعارهم مقطوعاتٍ فلم تنشد في مجالس ، ولم يكافأ عليها ، وهي ترتجل ارتجالاً في غياب القراءة والكتابة بشكل واسع في مجتمع أمي ، وترتبط بمناسباتٍ ويمكن وضعها تحت عناوين كفلسفة الصعاليك ، أو الجوع أو الفقر أو مغامرات الصعاليك أو التهديد والوعيد أو المطاردة والتشرد أو أحاديث الفرار ، كما أنه لا وقت للفن لديهم أو الإطالة أو تجويد القصائد[4] ، فحياتهم قلقة مضطربة ويشعرون بأنها قصيرة ، ويذكر ابن سلام أن الشعر العربي بدأ بأبياتٍ قليلة العدد ليعبر عن انطباعاتٍ سريعةٍ مؤقتة وعرف العرب الأوزان الخفيفة كالرجز بعد أن عرفوا الحداء خلف الإبل ، وظهرت لغة ذابت فيها لهجات القبائل كلغة أدبية موحدة[5] . فهذا هدبة بن الخشرم يرى أن الحياة دار بلوى وأنها إلى زوال يقول[6] :

فإنّا قدْ حَللنا دارَ بَلْـــوى فتخْطِئُنا المنايا أو تُصيبُ
وكمْ مِن صاحبٍ قد بَانَ عنّي رُميتُ بفقدِهِ وهو الحبيبُ

---

[1] القيسي ، **شعراء امويون** ، ص 142 .

[2] المرجع نفسه ، ص 328 .

[3] انظر ، خليف ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، مكتبة أبو غريب ، ص 187 .

[4] انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 284 .

[5] المرجع نفسه ، ص ، 284 .

[6] الجبوري ، **شعر هدبة بن الخشرم العذري** ، ص 57 .

فلم أبدِ الذي تـحنـو ضُلوعي	عليه وإنني لأنـــا الكئيبُ
مخافة أن يَرانـي مُســـتكيناً	عدوٌ أو يُساءَ بهِ قـــريبُ
ويشمتُ كاشِحٌ ويـــَظنُّ أنـي	جَزوعٌ عندَ نائبةٍ تنـــوبُ
على أنّ المنية قدْ تــــُوافـي	لوقتٍ والنوائبُ قد تـنوبُ

والقصيدة لديهم تمثل دفقه شعورية ، واختفت المطولات ، وظهرت المقطوعـــــات ، والوحدة العضوية كنتيجة لقصر القصائد ؛ لان المقطوعة تعبر عن مكنونات النفس وما يعتمل بها من مشاعر الإحباط والتوتر ، وما يرافق القلق من خفوت في الصنعة الفنية كما لجأ الشعراء الصعاليك إلى توظيف عناصر درامية كالحوار وتسلسل الأفعال والصور واستخدام عناصر اللون والصوت والحركة والانتقال من ظاهرة الإنشاد إلى الصوت الإنساني إلى مصاحبة الموسيقى ، وأكثروا من التشبيهات والكنايات وقل استخدام الاستعارة في شعرهم[1] .

ولم يظهر الاغتراب في قصائد مستقلة ، فالمقطوعة تركز على ذات الشاعر ومدى إحساسه بالعجز والتشتت ، ووحدة الموضوع تستدعي قصر المقطوعة والحديث عن الفقر أو السلاح والبيئة وحيواناتها فهو يتحدث عن موضوعات لها صلة به، ويختفي ذكر القبيلة التي فقد الإحساس بعصبيتها له ،وظهر البناء القصصي والحوار، كعناصر تتعلق بسيرته الذاتية . لقد كانت صور التحدي تلازم الشاعر في ثورته المستمرة ، يقول ابن الحُر[2] :

أنا الحُرّ ُ وابنُ الحرِّ يحملُ شِكتي	طِوالُ الهوادِي مشرفاتِ الحوانكِ
فمَن يَكُ أمسى الزُعفرانُ خلوقَهُ	فإنّ خلوقي مُستثــــار السنابكِ

هـ - المقدمة عند الصعاليك واللصوص :

لم تظهر الأطلال والأمكنة والمحبوبة المعشوقة في مطالع قصائدهم لانفصالهم عن قبائلهم وعدم استقرارهم ، بل ظهرت المرأة اللائمة العاذلة الحريصة على فارسها التي تدعوه للمحافظة على حياته في حشو القصائد فإن لم تكن المخاطرة من أجل نفسه فمن أجل الناس الأخرين ، وتلومه على كرمه وإسرافه ، وتعاتبه على مخاطرته بحياته ، وتغريه بالبقاء إلى جانبها[3] :

تقولُ سُليمى لو أقمتَ لسَرّنا	ولم تدر أني للمقام أطوّفُ

---

[1] الجبوري ، شعر هدبة بن الخشرم العذري ، ص62 .

[2] القيسي ، شعراء امويون ، ص 97 .

[3] عروة ، الديوان، ص 100 .

وانقسمت القصيدة الجاهلية كفئات الصعاليك فقسمٌ يتحدث فيه الشاعر عن نفسه ويصوِّر عواطفه ومشاعره وانفعالاته ومذكراته الشخصية، والقسم الآخر يتحدث فيه عن القبيلة قبل فترة التصعلك وفاءً بالعقد الفني ، فالقسم الذاتي وما يتصل به من حديث عن الصحراء وزيارة طيف المحبوبة واختزان صورتها باللاشعور وإثبات الذات أمام مشكلة الفراغ في حياته .ويغيب عن المقدمة في شعر الذات المكان والطلل كما تغيب عنها المرأة [1] ، فالمكان هو الوطن الذي يحل فيه ولا يعرف الاستقرار، والمرأة ترتبط بالوطن والمكان وهي القبيلة فكانت العلاقةُ بين الشاعر وهذه العناصر غير ثابتةٍ ولا مستقرة بسبب حياة التشرد والتمرد والخلع . فعبيد بن أيوب مارس اللصوصية ثم ارتكب جناية ، ونتيجة لذلك أهدر السلطان دمه وخلعته قبيلته ، وهجر المجتمع إلى البراري[2] :

وفـــــــارقتُهُم والدَّهرُ موقِفَ فُرقةٍ	عواقِبُهُ دارُ البلى و أوائلــــــه
وأصبحتُ مثلَ السَّهمِ في قعرِ جُعبةٍ	نضياً نضا قد طال فيها قلاقِلـة

فكانت العلاقةُ بين الشاعر والقبيلة تصفو حيناً ويشوبها كثيرٌ من الكدر لعلاقة اللاانتماء بين العناصر التي تحيط به . فالطبيعة قاسية تفرض سيطرتها عليه وتتحكم في مصيره ، والمرأة الجسد والمرأة الوجود لا يفرغ لهما في حياته [3] ، ويعرف من خلال حياة الصعاليك أنهم لا يعيشون لأنفسهم بل يعيشون لغيرهم من الناس ، فالخوف من الفقر والخوف من المخاطرة بالنفس لا حباً به بل خوف تأيُّمها فذكرياته غير متصلة وعلاقته بالمكان والقبيلة كعلاقته بالمرأة ، فإذا انعدمت العلاقة أو أصابها الفتور انقطع ما بينه وبين محيطه من روابط وغاب التوافق والانسجام بينهما .

ويعد اغتراب الصعاليك واللصوص عن مجتمعاتهم الإنسانية لأنهم يسيرون في فكرٍ وسلوكٍ لا يتفق مع خلق القبيلة ، فهما على طرفي نقيض بين الفردية والجماعية ، وعاش الصعاليك واللصوص بين تيارين ، بين نزعة التحرر والانطلاق وبين نزعة القوانين والأنظمة والقيم والأعراف . فالخــروج على القبائل كالخروجٌ على نظام القصيدة [4] ، فلم تعد مقدمات طللية ، واختفى الغزل بسبب التشرد والبعد عن القــبيلة ، ويكون الغزل في البيئة المترفة

---

[1] انظر، خشروم ، **الغربة في الشعر الجاهلي** ، ص 63.

[2] الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 224 .

[3] انظر ، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين** ، ص 263 .

[4] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 270 .

المستقرة ، وليس في حياة الصعاليك واللصوص أمن واستقرار أو ترف ، فقد أخرجهم الجوع والفقر وكان سبباً في تمردهم ، فالعلاقة مع المرأة كالعلاقة مع القبيلة بين مد وجزر فانعدمت المقدمات لطبيعة الحياة التي يعيشها الصعاليك من سرعةٍ وتنقُّل وعدم استقرار ، والسعي للحصول على الرزق وعدم الانقطاع للفن .

وكانت المقطوعات لتخليد مآثرهم لأن الشعر أبقى من الصروح والمظاهر الأخرى ، كما أن المجتمع الجاهلي أميٌّ يفتقر إلى الكتابة وهي أكبر حاجز أمام النصوص الأدبية المطولة ، وتظهر الفردية والبطولة والفروسية كبديلٍ للمقدمات الطللية وسمي شعر الرفض لرفض النهج التقليدي للقصيدة [1] ، وإذا خلا شعرهم من النسيب في بداية المقطوعة فإنه لم يختف من شعرهم أو من مقطوعاتهم ، ولكن ليس في المقدمات ولكن من خلال الأبيات وفي الحشو ، ولم يكن الغزل بالمحبوبة بل بالزوجة لبعده عنها بسبب حياة المطاردة والغارات ، و يأتي غزلهم في حشو القصائد لا مطلعا لها ، فالغرض من مقطوعاتهم هو التعبير عن إحساسهم سواءً في المطلع أو الحشوة ، ويتسم شعرهم بالواقعية وهو يسمو عن المادية كما أنه أقرب للغزل العذري منه للغزل المادي ،ففيه يشكو الغربة والفراق والتشرد والانفصال،ويبعد عن الفحش إلا ما كان من شعر سحيم لإقامته في البيوت و إطلاعه على أسرارها،

و ـ الواقعية في شعر الصعاليك و اللصوص :

من خلال النماذج الشعرية المتوفرة بين أيدينا ،نرى أن الصعاليك بالرغم من اتفاقهم في الظروف المعيشية ، وإحساسهم بالظلم والعبودية فنرى هناك تيارين ، تيارٌ يميل إلى الشر والتهيؤ والاستعداد النفسي للإيذاء ، ويتمثل هذا التيار في معظم صعاليك الجاهلية كالشنفرى ، وتأبّط شراً و السُليك وعمرو بن برّاق واللصوص في العصرين الأموي والعباسي كجحدر والقتال الكلابي والسمهري ، والتيار الآخر الذي رضي بالعيش الكفاف في البيوت ، يسام العذاب من أجل لقمة العيش ، ويمكن أن يكون بين هذين التيارين تيار إنساني يمثله عروة بن الورد الذي يـــؤثر الآخرين على نفسه ، والذي قال فيه عبد الملك بن مـــروان : " من زعم أن حاتم الطائي أكرم الناس فقد ظلم عروة " [2] ، وتيار ذو طموح سياسي يمثله ابن الحر .

---

[1] انظر ، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 284 .

[2] انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، ص 73/3 .

فكما هي الحياة تمثل جانبي الخير والشر فكذلك حياة الصعاليك ، فبعضهم يحصل على قوته بحد الحسام ، والبعض الأخر يستجدي الناس ، فشعرهم صوَّر حياتهم الواقعية ، بخيرها وشرها ، وبفرحها وحزنها وبعدها عن الخيال[1] ، فالطبيعة قاسية ، لا يستطيعُ الإنسان بمفرده مواجهتها . و يكرّس النظام الطبقي عدم المساواة ، فيجعل من الغنى والغني والثروة شيئا مقدسا ، وإن كان على حساب الفقراء ، وكأنهم أخذوا على عاتقهم إصلاح المجتمع بالسطو على الأغنياء البخلاء والتجار المحتكرين ، وليقتسموا ما كسبوه ليكون للفقراء نصيب منه حتى وإن لم يشاركوا في الغزو كما فعل عروة .

اتخذ الصعاليك واللصوص حياتهم مادةً لموضوعاتهم بما فيها من خير أو شر ، وبعدهم عن الإمعان في الخيال سوى ما كان من حديثٍ عن الغول في شعر تأبّط شراً ، والأحيمر السعدي ، وعبيد بن أيوب ، فصوّروا البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها السلبية كالسطو والثأر والفقر والجوع ، والرِّق والعبودية ، وكذلك مظاهرها الإيجابية من كرم وإيثار ، ونخوةٍ وعفةٍ ، وشجاعةٍ وفروسية ، وامتازت واقعيتهم بصدق النقل عن الحياة لمعايشتهم البيئة والطبيعة وليس هي عبارة عن ملاحظاتٍ عابرة[2] ، ومن واقعيتهم تصوير الضباع وجرانها ونبشها للقبور وانتفاخ بطونها وسواد جلودها كلباس الرهبان وقصر قوائمها . كما تحدثوا عن حيوانات الصحراء وطيورها كسرعة القطا ومعرفة ينابيع الماء من خلاله، وشدة حرارة الصحراء التي يغلي مخ الضب بسبب ذلك، وبردها الذي يجعل الإنسان يصطلي بنار قوسه ، وعرفوا قلة مائها حيث يخزن الماء في بيض النعام لوقت الصيف[3] كما صوّروا فقرهم وجوعهم وهزالهم بحيث لا يستطيع أن ينهض على قوائمه ، أو لا يستطيع الإبصار وتلف أمعاؤه كما تلف الخيوط على المغزل . يقول عبيد بن أيوب[4] :

أخو قفراتٍ حالفَ الجِنّ وانتحى	**عن الأنس حتّى قدْ تقضَّتْ وسائلُهْ**
لهُ نَسَبُ الإنسيِّ يُعرَفُ نَجرُهُ	**وللجنِّ مِنهُ خَلقُهُ وشمائلُهُ**
فما رُمتُ جَوفَ الغيلِ حتّى ألِفتُهُ	**وأعجَبني أسرابُهُ ومَداخِلُهُ**

---

[1] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 276 .

[2] المرجع نفسه ، ص 277 .

[3] انظر، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 39 .

وانظر، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 20 /347 .

[4] القيسي ، **شعراء أمويون** ، 1/224 .

ز - الخصائص اللغوية والظواهر العروضية :

حافظ الشعراء الصعاليك واللصوص كغيرهم من شعراء الاحتجاج على الأوزان والقوافي ، ووحدة الموضوع وسلامة التركيب اللغوي والنحوي ، والتعبير عن الذات الفردية والتجارب الخاصة ، ووضعوا المعاني الجديدة في قوالب جديدة بعيدا عن التكلف والتعقيد ، والبعد عن المعاني المبتذلة والمكررة فكانت صعوبة الحياة تنعكس على صعوبة ألفاظهم ومعانيهم[1] ، ومن شعرهم أراجيز قصيرة اتسقت بالأوزان والقوافي ، فكانت ألفاظهم مستمدةً من واقع الحياة اليومي و تتراوح قصائدهم بين الطول والقصر بحسب فترات الراحة التي يمرون بها ، وانطلاق اللسان يعبر عن النفس الإنسانية المتوترة التي لا تعرف الراحة والهدوء . وهناك بعض الألفاظ والمعاني نجد فيها الصعوبة والغرابة ، لأنها تعبر عن بيئةٍ صحراوية بعيدة عن الحضارة ، وتصور هذه الصحراء بكل قسوتها ومخاطرها ، يقول تأبّط شرا[2] :

كَأنَّمَا حَثْحَثُوا حُصّاً قَوادِمُه ... أو أمَّ خِشْفٍ بِذي شَثٍّ وطُبّاقِ

فاتسمت الألفاظ الجاهلية في شعر الصعاليك واللصوص بالصعوبة إذ تحتاج إلى معجم لكي يستطيع القارئ أن يتعرف هذه المعاني كما استخدمت لهجات مثل **منون أنتم تلحين** ، لأن المترادفات في اللغة العربية كثيرة ، فيستخدم الألفاظ التي قد تكون سهلة بالنسبة إليه وصعبة بالنسبة للعصور التي تليه ، لبعد الفترة الزمنية التي تفصل بيننا وبينهم ، لكن هذه الصعوبة لا نجدها في الشعر الإسلامي والعباسي الأول ، لأن الشعراء صاروا قريبين من الحضارة والتمدن ، فصارت ألفاظهم قريبة من الحياة الحضارية التي يعيشون فيها .

---

[1] انظر، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 283 .

[2] تابط شرا ، **الديوان** ، ص 144 .

حثث : تحثيثا وحثحثه بمعنى ولى حثيثا اى مسرعا. (**اللسان** ، مادة حثث) .

الشثُّ شجر طيِّبُ الريح ، مُرُّ الطعْم يُدْبَغ به (**اللسان** ، مادة شثث) .

ويعود التفاوت في أساليبهم للقدرات الفنية والإبداعية ، فالألفاظ بين الجزالة و الحوشية الوعرة ، وبين البساطة والسهولة ، ومما يجعل هذه الألفاظ الوعرة سهلة التكيف بالنسبة لمن عاش في البادية وعرف ألفاظها وأسماء نباتاتها وحيواناتها ، كما أن هذه المقطوعات ترتبط بحدثٍ أو مناسبة وتكون كالنقائض في الحوار الذي يجري فيها بين قولٍ ونقضٍ لهذا القول [1] ، وإذا جاءت بعض الألفاظ صعبة فإنها جاءت عفوية فليس هناك الوقت الكافي لتحبيرها وتجويدها ، وإنما قيلت على الفطرة والسليقة التي هي بنت الساعة من غير تجويد أو تنقيح .

وظهرت في العصر الإسلامي بعض المعاني الإسلامية التي تتعلق بالتوبة والاستغفار والدعاء إلى الله بتفريج الكربة سواء كربة الفقر أو كربة السجن ، وربما ضمّن بعض أبياته جزءاً من آيةٍ في شعره ، كقول هدبة بن الخشرم[2] :

فإنْ يكُ صَدرُ هذا اليومِ ولّى فإنّ غداً لناظِره قريبُ

ويمتثل الشعراء في الإسلام لأوامر الدين ، وإذا ما اقترفوا ذنباً سارعوا للتكفير عنه بالتوبة منه ، وقال هدبة أيضاً[3] :

وإنْ كنتُ من خوفٍ رَجَعْتُ فإنني من الله والسّلطان والإثم رَاجفُ

فهو يخشى الله سبحانه وتعالى ويخشى الوقوع في الإثم ، ويحذر عقوبة السلطان . وتنوعت أساليبهم بين أسلوبٍ خبري وأسلوبٍ تقريري حين يخاطب امرأته أو رفاقه أو يخاطب نفسه ، فتكون صيغة الأمر للطلب على الحقيقة أو الالتماس أو التعجيز أو النصح والإرشاد في عدة مواقف كقولهم :

ذَريني للغنى أسْعَى

خَاطرْ بنفسكَ كي تُصيبَ غَنِيمةً

فسرْ في بلادِ الله والتمسْ الغنى

أريني جواداً ماتَ هَزْلاً لعلني

---

[1] انظر، الشعراوي ، **دروس ونصوص في الأدب الجاهلي و الإسلامي والأموي** ، ص 230 .

[2] الجبوري ، **شعر هدبة بن الخشرم** ، ص 55 .

[3] المرجع نفسه ، ص 119 .

وبالرغم من كثرة هذه الأساليب بصيغة الأمر في اللوم والعتاب ، فلم نجد عند الصعاليك إذناً صاغية لهذا العتاب ، كما أن هذه الأوامر لم تثنه عن عزيمته ، فكان الرد حازماً وقاسياً ويؤكده بالدليل القاطع ، الذي لا لبس فيه ولا غموض .فهو لا يسمع لوماً ولا عتاباً إلا إذا اقترن بدليلٍ ملموس ، فهو يسعى للغنى لأنه يرى أن له احتراماً وإجلالاً ، ويتغاضى الناس عن جميع إساءاته ، وشر الناس من تلبّس بصفة الفقر فالجلوس عن الغنى عارٌ وسبةٌ وإذلالٌ لأنه يعيشُ بين العيالِ والنساء الخوالف [1] :

خاطِرْ بنفسِكَ كي تصُيبَ غنيمةً   إنّ القعودَ مع العيالَ قبيحُ

والخطاب في غالبه للمرأة إما على الحقيقةِ ، أو يجرّد من نفسه محاورا لها يبثُ أفكاره من خلالها ، ويلجأ إلى أسلوب النهي كقولهم :

لا تنْكِحيه ، لا تَقْبُروني ، لاَ تُلمْ شيخي فَمَا أزْرى به .

و يضفي هذا الأسلوب الحواري على الأبيات جمال المشاركة في الإقناع بالآراء المطروحة سواء من الزوج أو الزوجة ، أو من الشاعر ورفاقه يخاطبهم بصيغ الأمر والنهي ، وجمال هذه الصيغ اقترانه بالحجة والدليل النابع من التجارب التي عاشها ، وخرج بخلاصة تجاربه ، ويقوم الدليل والحجة المقنعة التي يقدمها على صدق رأيه مقام الحكمة ، يقول عمرو بن الأهتم[2] :

ذَريني فإنَ الشّحَ يا أمَّ هيثمٍ   لصَالحِ أخْلاقِ الرّجالِ سَرَوقُ

وكلُّ كريمٍ يَتّقِي الذمَّ بالقِرى   وللحقّ بَينَ الصالحيْنَ طريقُ

فهو يسعى للغنى ليؤدي ما عليه من واجبات ، ويقدم القرى لضيوفه دفعاً للذم ، كما أنه يخشى وصمه بالبخل ؛ لأنه صفة ذميمة تسرق مكارم أخلاق الرجال ، وهذه الأبيات بمعناها الذي تحمله نجدها عند عروة بن الورد تأتي بأسلوبٍ يحتاج إلى دليل، وهذا الأسلوب يحتاج إلى حكم وبرهان عليه ، فيقول[3] :

دعيني أطوّفُ في البلادِ لعلَّني   أفيدُ غنى فيه لذي الحقِّ مَحْمَلُ

---

[1] عروة ، **الديوان** ، ص 88 .

[2] المرزوقي ،**شرح الحماسة** ، 4/ 1652.

وانظر ، ابن قتيبة ، **الشعر والشعراء** ، ص 425 .

[3] عروة ، **الديوان** ، ص 128 .

ويخاطب الشنفرى وعروة قوميهما حثاً لهم على طلب الغنى ، والهجرة والرحيل عندما تضيق بهم أرض قومهم ليلتمسوا كسباً أو غنيمة وليطلبوا مجداً وعزةً ، ولا يقيمون في ديار الذل والهوان ، يقول الشنفرى حين رغب عن مجتمعه الإنساني[1] :

أقيمُوا بَنِي أمي صُدُورَ مَطيكُم   فإني إلى قوم سواكمُ لأمْيَلُ

ويقول عروة[2] :

أقيموا بَني لُبنى صُدُورَ ركابكُم   فكُلّ منايا النّفسِ خَيرٌ من الهزْلِ

فالنفس الأبية هي التي لا تقيم على الذل ولا تصبر على الهوان ، والفقر غربة في مجتمع الأغنياء، والجوعُ ذلٌ في مجتمع المتخمين . خرج الصعاليك على تقاليد مجتمعهم من حيث الشكل و الموضوعات والمعاني فلم يخرجوا في لغتهم ، فهي أقرب إلى فطرة اللغة ، وشعرهم من مصادر اللغة حيث استخدم في المعاجم كاللسان والتاج وغيرها ، وألفاظ لا تخلو من الغريب والصعوبة وتحتاج إلى استخدام المعجم في بعض مفرداته أو كلها ومن الأمثلة على ذلك قول تأبط شرا[3] :

أزَجُ زلوجٍ هُذْرُفيّ زَفازفٌ   هزفٌ يبذُ الناجيات الصوافنا

فهو يصف حصانه بالسرعة ، واستخدم هذه المفردات المُترادفة التي لم تعد مستخدمة في أيامنا . لكن لم يكن الحكم عاماً على الصعاليك في استخدام الغريب أو المفردات الصعبة ، فعروة بن الورد أقل الشعراء الصعاليك إغراباً من الناحية اللغوية ، فهناك أسبابٌ لعدم إغرابه ؛لأنه يقوم بدور الزعيم والداعية وصاحب المذهب غير مغربٍ بألفاظه ، لأنه يدعو إلى اعتناق مذهبه ، ويكون بحاجة إلى التواصل مع المتلقي والتأثير فيه ، ولم يعش مشرداً في الفيافي أي لم يعتزل مجتمعه أو ينفصل عنه ، فكان إنسانيا بين الناس ، وإنسانيا في رعايته للصعاليك ومن هم بحاجة إلى رعاية ، فخلصت ألفاظهم من الحوشية البدوية ، ولم يكن جافاً قاسياً يسفك الدماء أو يعتدي أو

---

[1] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 108.

[2] عروة ، **الديوان** ، 55 .

[3] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 154/21 .

ازج :في مشيته بازج ازوجاً ،اسرع وهو ايضا طويل الساقين (**اللسان** ، مادة أزج) الهزرفي الكثير الحركة ، السريع (**اللسان** ،مادة هزرف) زلوج :سرعة ذهاب الشيء والزليجة الناقة السريعة (**اللسان** ،مادة زلج) زفازف: زفزف ، سرعة المشي مع تقارب الخطو (**اللسان** ، مادة زفف) .

يغزو إلا الأغنياء البخلاء ، الذين منعوا حقوق الناس في أموالهم ، فجاءت ألفاظه سهلة واضحة تخلو من التعقيد الذي وجد عند غيره .أما عن الظواهر العروضية فقد استخدم الصعاليك الأوزان والبحور والقوافي السهلة والخفيفة بما فيها من زحافٍ وبحورٍ سهلةٍ كالرجز الذي كان يشبه الحداء خلف الإبل وسرعة النظم فيه كسرعة الغارات والقتال[1] ، فلم تكن لهم أوزان أو بحور خارج شعرهم القبلي .

ومما قالته السلكة أم السليك عند غياب السليك في إحدى غاراته بعبارات قصيرة موجزة تعبر عن البساطة والوضوح والعفوية بلا تكلفٍ وبلا مقدمات ، فهي مقطوعة مرتجلة ذات موضوع واحد تعبر عن عاطفةٍ صادقةٍ فيها الحيرة والقلق من المصير الإنساني والنهاية الحتمية بالموت وتعدد أسبابه ، فالموت في طلب الرزق أو بسبب غدر عدو ، أو خيانة صديق أو لمرضٍ أو لشدة برد أو حر ، والعاطفةُ عاطفةُ الأمومة الصادقة التي تتمنى أن يحل بها الموت ويرفق في ابنها ، وتقول[2] :

طاف يَبغي نجـوةً	**من هلاكٍ فهَلَـكْ**
أمريضٌ لم تُعُـد	**أم عدوٌ خَتَلَـكْ**
والمَنايا رَصَّـدٌ	**للفتى حَيثُ سَلَـكْ**
كُلُّ شيءٍ قاتِـلٌ	**حِينَ تَلقى أجَلَـكْ**
طالما قدْ نِلتَ فـي	**غير كَدٍّ أمَلَـكْ**
سَأُعَزّي النفسَ إذ	**لم تُجبْ من سَألكْ**
ليتَ نفْسي قُدّمـت	**للمنايا بدَلَـكْ**

(1) انظر ، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 330 .

(2) المرزوقي ، شرح الحماسة ، 918/4 .

السلكة أم السليك : هي أمة سوداء كان ابنها السليك أحد صعاليك العرب العدائين . لها في رثاء ابنها السليك شعر وزوجها عمر بن يثربي السعدي (عبد الرحمن ، **معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين** ، رقم الترجمة 228) .

والبناء اللغوي انعكاس واعٍ لنفسية الشاعر ومدى قدرته على انتقاء الألفاظ لإبراز المضمون ، وتحقيق نوع من الانسجام في الجانب الصوتي ، كقول ابن الحر[1] :

لعلّ القنا تُدْني بأطرافها الغِنى فنحيا كِراماً نجتدي ونُـــوَّمَّ
ألمْ تــرَ أنّ الفقرَ يُزري بأهلِه وأنّ الغِنى فيه العُلى والتّجَمُّلْ

وكثر استخدام الأسماء والأماكن والتقابل اللفظي ، والمجالات الدلالية التي تعبر عن الذات ، وما يغامرها من حرمان وأسى وحزن [2] ، والقلق الذي يهزه لفقدان الاستقرار ، والبعد عن المكان أو الوطن أو المحبوبة ، لكثرة التشرد والمطاردة ،كما اتسمت لغتهم بالحزن والعتاب بين الشاعر وذوي القربى ، وعلاقة الكراهية والتحدي للمجتمع والسلطة .

فالبرق والنجم دلالة الشوق والحنين إلى الوطن ، وهما النور في وسط الظلام ، والأمل في تحقيق الرغبة في العودة إلى الوطن والأهل والزوجة ، واستخدم السيف في الدلالة على القوة للأخذ بالثأر ، وجلب الرزق، ودفع الظلم والضيم ، والحيطة والحذر يقول مالك بن الريب[3] :

والسّيفَ بَيني وَبَين الثوبِ مِشْعَرُه أخشى الحوادثَ إني لم أكن وَكِلا

وقال عبيد بن أيوب[4] :

وطالَ احتِضاني السّيفَ حتّى كَأنهُ نِياط بجلدي جَفْنه وَحَمائِلهُ

---

[1] القيسي ، شعراء أمويون ، 1 /170 .
[2] انظر، السويدي ، الاغتراب في الشعر الأموي ، ص 295 .
[3] الأصفهاني ، الأغاني ، 22/304_323 .
[4] عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ، ص 114 .

وقال سعد بن ناشب[1] :

سأغسِلُ عنّي العارَ بالسّيفِ جَالِباً ... عَلَيَّ قضاءُ اللهِ مَا كَانَ جَالِبـــــا
وَلَمْ يَستشِرْ فِي رأيه غيرَ نفسِـــهِ ... ولم يرضَ إلا قائمَ السّيفِ صاحبَا

وقد أكثروا من المترادفات لبراعتهم وتميزهم في استخدام اللغة واتساع معجمهم اللغوي[2] ، ومن الأمثلة على ذلك الرمح والأسماء المتعددة له كالقنا واللدن والخطي والرديني والسنان والمثقف . فإما إن يذكر الأسماء أو يذكر الصفات . فالقيود استخدمها بمعاني الأغلال والأدهم و الكبول والأصفاد والوثاق ، فكل هذه المترادفات نجدها في أشعارهم ، وتختلف في مجالها الدلالي بحسب توظيفها في الشعر .

ح - الصورة والتشبيه في شعر الصعاليك واللصوص :

كثرت الصور والتشبيهات في شعر الصعاليك ، وارتبطت الصورةُ الواقعية بصور الخيال أو الصور الذهنية التي امتزجت أجزاؤها في مخيلته ، فتطوى أمعاؤه كما تطوى الخيوط نتيجة خلوها من الطعام ، يقول الشنفرى[3] :

وَأطوِي على الخِمصِ الحَوَايا كَما انطوتْ ... خُيوطةُ مارِيٍ تُغارُ وتُفتَلُ

فالأمعاء خاوية من شدة الجوع يسهل فتلها ، كما تفتل خيوط الحائك ، وينتقل من تصوير الجوع إلى تصوير الشجاعة والفتك بالأعداء ، فيجعل من رؤوسهم قرى للسيوف ، ومن جثث الأعداء طعاماً للضباع والطيور ، ويقول الشنفرى أيضا[4]:

ظللنا نُقَرّي بالسّيوفِ رُؤوُسهم ... وَنرشُقُهم بالنّبل بين الدّكادِكِ

---

[1] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 67/1 .

[2] انظر، السويدي ، الاغتراب في الشعر الأموي ، ص 295 .

[3] الشنفرى ، الديوان ، ص 113.

[4] المصدر نفسه ، ص 107.

كما يرسم صورة سرعته في غاراته ، وقد تطاير الصوان خلف أقدامه ولمع الشرر من جراء احتكاك أقدامه بالأرض وتكسُّر الحجارة ، وكأن أقدامه حوافر الخيل عند احتكاكها بالصخور ، قال الشنفرى [1] :

إذا الأمعزُ الصّوانُ لاقى مَناسِمي تطايرَ منه قادحٌ ومُفلّلُ

ومن الصور التقليديةِ التي وردت في شعر بكر بن النطّاح ، اجتماع الضدين بين جمال المرأة وطول فرعها وسواد شعرها الفاحم ،فسواد شعرها كالليل وجمال وجهها كالنهار فكأنها فيه نهارٌ وكأنه عليها ليل ، فالضد يظهر حسنه الضدُّ [2] :

بيْضاءُ تسحبُ من قيامٍ فرْعَها وتغيبُ فيه وهو وَحْفٌ أسْحَمُ

فكأنها فيه نهارٌ ساطــــعٌ وكأنه ليلٌ عليها مُظلــــمُ

ومن الصور المكررة فرح الطير والضباع لكثرة القتلى ، فالشنفرى يأمر أصحابه أن لا يدفنوه ليكون طعاماً للضباع،بينما تأبّط شراً يرسم صورة فرح الضبع والطيور بكثرة القتلى[3] فيقول الشنفرى :

تضْحك الضبعُ لقتلى هُذيلٍ وترى الذئبَ لها يستهلُّ

وعتاقُ الطير تهفو بطانــاً تتخطاهُم فما تستقــلُّ

ويستعير الضحك للضبع حين تكشر عن أنيابها عندما ينافسها الذئب على الجيف والجثث ، وتضحك فرحاً بكثرة القتلى ، و يتهلل الذئب بشراً بذلك ، والطيور تغدو بطاناً ولا ترتفع بطيرانها لامتلاء أمعائها . وتكثرُ التشبيهات مقارنة بالاستعارة في شعر الصعاليك ، ويغلب على هذه التشبيهات اقترانها بالبيئة والواقع الذي يعيشه الصعاليك واللصوص ، فيشبه الشنفرى تأبط

---

[1] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 112.

نسم : منسم خف البعير (**اللسان** ، مادة نسم) .

[2] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 3_4 / 1285.

[3] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 93 .

شرا حين يقتصد في توزيع الـطعام كأم العيال التي تخاف على أبنائها العيلة والفقر ، لأنها تحسب أن تطول بهم الإغارة ويستخدم المترادفات أوتحت وأقلت [1] :

وأمِّ عِيالٍ قد شَهِدتُ تقوتُهم ... إذا أطعَمتْهُم أوتَحَتْ وَأقلتِ

ويتولى عروة بن الورد الإنفاق على أصحاب الكنيف ورعايتهم ويتنكرون له بعد أن أغناهم ، فهو كمن تربي أبناءها وتقوم على رعايتهم ، فإذا اشتدت سواعدهم اختاروا زوجة وشريكة حياة وتركوها وحيدة ، ونسي أمه واختصّ بالعناية والرعاية بغيرها ،فالأم لا تستطيعُ أن تدعو عليه بالثكل ، وترضى منه أن يكون حولها تراه ويراها وكنى عن الزوجة بالجديد الذي يسلب الألباب بزينته واستخدم الكحل رمزا للزينة، ويقول [2] :

فإنيّ وإيّاكم كَذي الأم أرَهَنتْ ... لهُ ماءَ عيْنيها تُفدّي وتحملُ
فلما تَرَجّت نفعَه وشبابَــــه ... أتتْ دونه أخرى جديدٌ تُكحَلُ

ويقول العديل بن الفرخ في هذا المعنى [3] :

كَمرضِعةٍ أولادِ أخرى وَضَيّعت ... بَنِي بَطنِها هذا الضَّلالُ عن القصدِ

---

[1] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 80 .
[2] الأغاني ، **الأصفهاني** ، 3/ 77 .
[3] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 736/2 .

فعندما يؤثر الآخرين على نفسه فهو كمن ترضع غير ابنائها ، وتترك أبناءها جائعين .

فقابل بين الهداية والضلال فحين ترعى أبناءها فقد أصابت الصواب بينما إذا فضلت غيرهم عليهم فقد وقعت في الضلال ، واعتادوا على الكر و الفر في الصحراء ، وامتازوا بسرعة عدوهم حتى ضرب بهم المثل في السرعة ، فقيل : " أعدى من الشنفرى " ، " و أعدى من السليك " [1] ، فحينا يسابق الريح في جريه أو يسابق السحاب أو يسابق الطيور ، وورد ذلك في شعر معظمهم ، يقول تأبط شرا في أبياتٍ مختلفة [2] :

_ أجَاري ظلال الطير لو فاتَ واحـدٌ	ولو صَدَقوا قالوا بلى أنتَ أسرعُ
_ ويَسبقُ وفدَ الريح مَن حيثُ ينتحي	بمنخرق من شده المتـدارك
_ لا شيء أسرعُ مني ليسَ ذا عـذرٍ	وذا جناح بجنبِ الرّيدِ خفـّـاق

ويشبه نفسه بشدة حذره ويقظته كمن ينام بعين واحدة ، والأخرى هي على اتصالٍ بالقلب تحذره الأعداء والمهالك ، يقول[3] :

إذا خاط عَينيه كَرى النوم لم يزلْ	لهُ كالئ من قلبٍ شَيحَانَ فاتكُ

وعمرو بن شاس يتمنى أن تكون العلاقة القائمة على المحبةِ والود بين زوجته وبين ابنه كعلاقة السمن بالأدم ، أي لا تتغير ولا تتبدل ، علاقةٌ قائمة على التوافق والاتصال وعدم استغناء طرفٍ عن الأخر ، ولا تكون العلاقة علاقةُ عداوةٍ كعلاقة الذئب بالغنم[4] :

فإن كنت منّي أو تُريدينَ صُحبتي	فكوني لهُ كالسّمن رُبتَ لـهُ الأدَم
وإن كنتِ تهوينَ الفراقَ ظعينـتي	فكوني له كالذئبِ ضَاعتْ لهُ الغنم

ويحاول الشاعر أن يوجد علاقة في تشبيهاته بين ما هو موجودٌ في الطبيعة و بين ما يتخيله أو ينطلق من التشابه في العلاقات بين واقع البيئة ويربط ذلك بما في مخيلته ،فتشبيهاتهم قائمة على الوضوح والترابط بين المشبه والمشبَّه به ووضوح وجه الشبه بينهما . ويلجأ بعض

---

(1) الميداني ، **الأمثال** ، 2 /394 .

(2) تأبّط شرا ، **الديوان** ، ص 107 ، 152 ، 133 .

(3) المصدر نفسه ، ص 152 .

(4) المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 280/2.

شيْحان : والشائح الغيور لحذره على حُرمَه (**اللسان** ، مادة شيح) .

الشعراء إلى حذف أداة التشبيه وعقد توازنٍ بين المشبه والمشبه به وكأنهما شيء واحدٌ ، يقول فرعان بن الأعرف في عقوق ابنه منازل [1] :

تُربِّيته حتى إذا آضَ شَيْظماً   يَكادُ يساوي غاربُ الفحلِ غاربه

فجعل المشبه عين المشبه به في الطول و الضخامة وتحدثوا عن صفات أسلحتهم ، فالسيف كلون الملح ، وكذلك السهم حين انطلاقه من قوسه كأنه صوت الثكلى إضافة إلى استخدام الألوان والحركة والصوت[2] :

حُسامٌ كلون الملح صافٍ حَديْدُه   جراز كأقطاع الغدير المُنعَّتِ

ويقول في وصف القوس[3] :

إذا زَلَّ عنها السهُم حَنَّتْ كَأنها   مرزأةٌ ثكلى تَرنُّ وتِعْوِل

والتشبيه أهم ما وظفوه في أشعارهم فهو يعتمد على الملاحظة والموازنة بين ما يرونه وبين ما يوجد في مخيلتهم ، و كثرت التشبيهات المنتزعة من البيئة في شعر الصعاليك ، وتتكرر التشبيهات نفسها عند أكثر من شاعر فالسيف كالملح والسهم عند الانطلاق كصوت الثكلى ،يقول عمر بن برّاقة[4] :

وكيف ينام الليل من جُلّ ماله   حسامٌ كلون الملح أبيض صارم

ويقول الشنفرى في وصف الترس[5] :

وصفراء من نبع أبيٍّ ظهيرةٌ   ترن كأرنان الشجي وتهتف

---

[1] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 280/2.

[2] الشنفرى ، **الديوان** ، ص 81 .

[3] المصدر نفسه ، ص 110.

رزأ : رزاه يرزؤه رزنا أصاب منه خيرا (**اللسان** ، مادة رزأ) .

[4] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 198/21.

[5] المصدر نفسه ، 213/21 .

فالسيف كالملح رفيق لصاحبه في حِله وترحاله ، وهو لا يفارقه كما لا يفارق الجسم لباسه ، وصورة الغول عند تأبط شراً وعبيد بن أيوب تحاط بإطار أسطوري ، فالإنسان في الصحراء يتخيل الأمر الصغير كبيراً ، كما يتخيل السراب ماءً ، ويتصور ما كان يخيله الوهم له ، وتختلط الأصوات في أرجاء الصحراء . والتشبيهات لا تتجاوز عقد موازنةٍ بين أمرين ، واستخدام عناصر البيئة من حيواناتٍ ونباتاتٍ وطيور ، ومظاهر طبيعية في تشبيهاتهم . فالقبر في احديدابه كالبعير الجاثم عند أبي خرّاش ويقول[1] :

إذا راحوا سِوايَ وأسلموني **لخشناءَ الحجارة كالبعير**

وسحيم عبد بني الحسحاس حقد على الأحرار لاستعبادهم له ، وحقد على لونه وخلقته ، وتلظى بنار الحرمان من جنس النساء الأبيض ، وكانت شاعريته سلاحه الوحيد ، يقول في ذلك[2] :

فلو كُنتُ وَرداً لونُه لعشَقِنني **ولكنَّ ربّي شَانَنِي بِسوَاديا**

ويصور صخر الغي السحاب الثقيل المقبل في بطئه كحركة الأسير في قيوده ، وكان الأسر معهوداً لكثرة الغزو والسلب والنهب ، فكان الشاعر قريباً من مكة ويرى الأسرى في سوق الرقيق ، يساقون ولا يفتديهم أهلهم حيث يباعون ، كما يرسم أبو الطمحان القيني هذه الصورة وصورة الشيخوخة في لونين من الحياة التي عاشها ، وتركت رواسب في تفكيره فالدهر قد حناه حتى صار كالصيّاد الماكر ، الذي يحني قامته ليخفي شخصه عن صيدٍ يدنو منه ، وهو قد أصبح قريب الخطو متثاقلاً كالأسير المقيَّد ، فيقول ابن الحر[3] :

ألا ليتَ شِعري هل أتَى أمّ واصــلٍ **كَبُــــول"أعضُوها بساقيَّ تُجرَحُ**

إذا ما صرفتُ الكعبَ صاحتْ كأنّها **صريفُ خَطاطيف بدَلوين تُمتَحُ**

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 21/ 232 .

[2] سحيم ، **الديوان** ، ص 25 .

[3] القيسي ، **شعراء أمويون** ، 93/1 .

" الخطاطيف : جمع خُطّاف ، والخطاف حديدة تكون في الرحل تُعلّق منها الأداة (**اللسان** ، مادة خطف) .

ط – الضدية في شعر الصعاليــــــك و اللصوص :

تبرز الثنائيات الضدية في الحياة ، فهناك غنى وفقر ، وجوع وشبع ، وحرية وعبوديّة، وهناك صعلوك عامل وصعلوك خامل[1] ، وفي مغامراتهم موتٌ وحياة ، وصدام وهروب ، وعجزٌ وصمود ،كما أن هناك تكيُّفا وخروجا ، وتمردا وخضوعا ،وما فيها من تناقض بين الانسجامٌ والانتماءٌ والتوافق ، وبين التمرد والتحدي ، فهناك قواعد وقوانين وأعراف وتقاليد ، ثم الخروجُ عليها والانفصالُ عنها ، حياةُ ألفة وأنس تقابل وحشةً وتشرد ا، قبولٌ بالواقع ورفضٌ له .

فكما هي الحياة بجانبيها الإيجابي والسلبي ، كذلك هي حياة الصعاليك تتسم بالانقسام و الازدواجية ، والاضطراب والقلق ، حياةٌ قبل الصعلكة وحياةٌ بعدها ،فهناك صعلوك قبل الحياة بواقعها وبخيرها وشرها ، وصعلوكٌ متمردٌ ثائرٌ رافضٌ لكل القيود والتقاليد ، عاش الحياة الإنسانية المضطربة ، وعاش حياة المجتمع الحيواني هرباً من القيودِ والأغلال التي صنعها بيده ، إلى حياة الحرية والاستقلال ، فعاش منفصلاً عن مجتمعه مع اتساع الهوة والفجوة بيــن الواقع والمثال ، بين الانتماء واللاانتماء ، بين التوافق واللاتوافق ، عاش بين الذات والجماعة ، وبين الفردية وبين القبلية الاجتماعية ، بين (أنا) الفرد (ونحن) الجماعة[2] ، سواءٌ الجماعة المذهبية أو العصبية .

---

[1] انظر ، الجندي ، **في تاريخ الأدب الجاهلي** ، ص 448.
وانظر ، القيسي ، **تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام** ، ص 158 .
[2] انظر، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 21 .

وتردد بين حياتين ومجتمعين ، وعاش التصادم مع مجتمعه والانفصال عنه ، و آثر التخلي والتنازل عن حريته وحياته لأجل الجماعة ، ولم يرضَ أن تخلعه القبيلة وتتبرأ منه ، ورضي أن يتمرد على الأعراف والتقاليد التي ساهم في وضعها ، فعاش منفصلاً عن نشاطه ونتاج عمله ، حاول العودة لحالة الطبيعة البدائية[1] التي نشأت قبل نشأة المجتمعات ؛ لأن المجتمعات لم تحقق ما يطمح إليه من حريةٍ بل ساهمت في بناء مزيدٍ من القيود والتفرقة العنصرية والفوارق الطبقية ، فنشأ في صراع مع الذات ومع المجتمع ومع الحياة ، فكانت ثنائية العقل والعاطفة ، الذات والمجتمع ، الموضوع والوجود .

فرأى التناقض وحاول أن يوفق بين أقطابه ، أو أن يصلح الانحراف فيه وحاول اختيار الجانب الإيجابي ، وذكر الدليل والبرهان على صحة اختياره ، فقابل بين من يملك المال وبين من لا يملك المال قال عروة[2] :

المالُ فِيه مهابة وتَجِلَّة　　　　والفقْر فِيَه مذلة وخُضُوعُ

فبعد أن فضّل المال على الفقر ، فإن هذا لا يعني أن المال كل شيء بل لا بد من الفعل ، ويقول في ذلك[3] :

ما بالثراء يسَودُ كُلّ مُسَودٍ　　　　مُثرٍ ولَكِنْ بالفَعَالِ يَسُودُ

---

[1] انظر ، رجب ، **الاغتراب سيرة مصطلح** ، ص 32.

[2] عروة ، **الديوان** ، ص 88 .

[3] المصدر نفسه ، ص 84 .

ويرى أن الجوع مذلة ، ويحذر الإنسان من خطره ، فالجوع يسلب الإرادة ويضعف الهمة ، ويذل الإنسان[1] :

فجوعٌ لأهلِ الصالحينَ مَذلة　　　مَخوفٌ رداها أن تُصيبك فاحذرِ

ويهاجم من يرضى بالذل والعبودية ، ويقدر من يعتمد على نفسه ، و يقول[2] :

يَنامُ عِشاءً ثمَّ يُصبحُ طاويـاً　　　يَحتُّ الحَصا عنَ جَنْبه المُتعفِّرِ

ولكنَ صُعلوكاً صفيحةُ وجههِ　　　كَضوْءِ شهابِ القابسِ المتنورِ

والحياة إذا تساوت مع الموت فلمَ الأسف على هذه الحياة ؟ فالموت نهاية الحياة وليس هناك من خلود ، ويقول في ذلك[3] :

تُخوِّفُني ريبَ المَنون وَقد مَضَى　　　لنا سَلفٌ قَيسٌ معاً وَرَبيعُ

وقد يخضب الشيب رأس الإنسان عند تقدم سنه ، في حين يشيب الآخرون من شدة الوقائع ، فالشيب شيبان شيب الزمن وشيب الوقائع ، يقول الشنفرى[4] :

فما شابَ رأسِي منْ سنيْن تتابعتْ　　　طِوالٍ ولكنْ شَيَّبتهُ الوقائعُ

وإذا كان وجود الإنسان كعدمه فإن الموت أجمل له ، لأن وجوده يترتب عليه حقوقا لأهله وأسرته ومجتمعه[5] :

فإنْ نحنُ لم نملكْ دِفاعاً بحادثٍ　　　تلمُّ به الأيامُ فالموتُ أجملُ

---

(1) عروة ، **الديوان** ، ص 75 .

(2) المصدر نفسه ، ص 46 .

(3) المصدر نفسه ، ص 71 .

(4) الشنفرى ، **الديوان** ، ص 75 .

(5) المصدر نفسه ، ص 128 .

فحياته حربٌ مستمره ، والسيف ضجيعه في حـله وترحاله ، إما لطلب غنيمة أو لطلب ثار ، يقول عروة[1] :

قليلُ غِرارِ النومِ أكبرُ هَمّهِ   دَمُ الثارِ أو يَلقى كميًا مُقنّعا

فعندما عادوا إلى حياة الراحة والاستقرار أرادوا أن يخلدوا بطولاتهم ومغامراتهم التي عاشوها واقعا أو خيالا [2] . فكان التحلل من الشخصية القبلية والتمركز حول الذات من عوامل ضياع أشعارهم ألا ما ارتبط بمناسبات اجتماعية معينة ،أو ظروف سياسية كالاعتقال والسجن والمعارضة والأحزاب .

فالفئات الاجتماعية الفقيرة لم تكن من رواد القصور أو من هواة المدح والتكسب ،فإذا كانت تريد الاقتراب من القصور والطبقات الغنية فإن التفاوت الطبقي لا يسمح لهم بتجاوز مكانتهم الاجتماعية ، ولم تعد القبيلة تمثل الانتماء بل تمثل الشذوذ ، وأصبح الرباط رباط مذهبي بين مجموعة من الرفاق يقتسمون الغنائم معهم ويستبدلون انتماءهم القبلي بانتمائهم المذهبي ، حين جعل الرفاق بمنزلة القبيلة فصاروا أكثر انسجاما وتجانسا وتماسكا. فشعرهم مذكرات شخصية تبرز فيها الذات أو الروح الجماعية المذهبية لا القبلية[3] ، فهم في عزلة عن القبيلة وخصوصاً ما غلب عليهم السواد أو طردوا من القبيلة بسبب سوء تصرفاتهم ، وحاول كثير منهم إثبات ذاته ببطولاته الفردية وغاراته وكسبه، ومنهم من حاول جمع الضعفاء والمساكين حوله والإقامة على خدمتهم .

ي - الحكمة و المثالية الإنسانية في شعر الصعاليك واللصوص :

عند دراسة شعر الصعاليك واللصوص نجد أشعارهم صورة مثالية تنطق بالأثرة والإباء فعزة النفس والكرم والصبر على الجوع من الصفات التي امتازوا بها ، وصار إقراء الضيف ، والتضحية بالنفس لأجل الآخرين سلوكا وواقعا يصور معاناتهم . فهل شعرهم من نسج الخيال ؟ أو سبقوا عصرهم وأمنوا بمبادئ وقيم تتمثل في مخيلتهم لا في واقعهم ؟لقد كان الواقع الذي

---

[1] تابط شرا ، **الديوان** ، ص 113 .

[2] نظر، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 178 .

[3] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 150 .

يعيشونه واقعاً مزرياً يمثل الضياع والتشرد والذل والعبودية ، وهناك من يؤمن بالحرية والعدالة والمساواة و ينفر من الظلم والذل والقهر ، وهم ينادون بالمثالية والتضحية بالنفس ليسعد الآخرون[1] .

فالسليك يتأذى لخالاته التي تسام العذاب وهو عبد ، وعروة يتعهد الجياع ويألم لهم ، وهم يتنكرون له . هل انفصلوا عن واقعهم وتخلوا عن مجتمعاتهم ليبحثوا عن واقع آخر ؟ أم يحلمون بالمجتمع المثال الذي تسوده المحبة والعدالة والمساواة ؟[2] لقد عجزوا عن التكيف مع مجتمعاتهم وسعوا إلى مجتمعات مثالية عاشت في خيالهم . فعندما افتقر بحث عن الغنى ، وفي حالة الجوع اصطاد الحيوانات ، وأكثر من الغارات فعاد موفور الرزق فإما أن ينفق على رفاقه ، وإما أن يدخر ما كسبه[3] ، ويمكن تفسير مثاليتهم بمثاليةٍ ماديةٍ يستطيع تحقيقها ومثالية معنوية لا حول له ولا قوة فيها ، ويقرُّ بعجزه عن مواجهة العبودية ويقف منفرداً إزاءها .فالمجتمع يقف في مواجهته ويشعر أنه ليس جزءاً من المجتمع بل هو مقابل للمجتمع .فإذا فشل الصعاليك واللصوص في تحقيق المثالية التي دعوا لها أصابهم اليأس والإحباط وتمنوا الموت أو الانسحاب والهروب من مجتمعهم إلى مجتمع آخر يحققوا فيه غاياتهم كقول تأبط شرا[4] :

قليلُ ادّخار الزّادِ إلا تـَعِلـــــــةً   فقدْ نشَزَ الشرْسُوفَ والتصَقَ المِعى

وقال عروة بن الورد[5] :

فللموتُ خيرٌ للفتى مِن قُعُودِه   عَديماً وَمَن مَوْلَى تدبُّ أقاربــُــــه

وتبرز الحكمة وتنوع الأساليب وخصوصاً الأسلوب الخطابي والقسم ، ونتيجة تجاربهم وواقعيتهم التي صقلت مواهبهم فقد أطلقت ألسنتهم بالحكمة .

---

[1] انظر ، الجندي ، **في تاريخ الأدب الجاهلي** ، ص 448 - 455 .

وانظر ، الحاج حسن ، **أدب العرب في العصر الجاهلي** ، ص 219 .

وانظر ، حفني ، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، ص 175 .

[2] انظر ، القيسي وآخرون ، **تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام** ، ص 157 .

[3] انظر ، خفاجي ، **الحياة الأدبية قبل ظهور الإسلام** ، ص 308 - 312 .

[4] تأبط شرا ، **الديوان** ، ص 115 .

[5] عروة ، **الديوان** ، ص 72 .

الشرْسُوف : غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف (**اللسان**، مادة شرسف) .

تعلــــــة :حرارة الحلق الهائجة (**اللسان** ،مادة تعل)

ويفضل الموت إذا لم يحقق الغنى الذي هو منتهى غايته ، يقول عروة[1] :

ثنالوا المُنى أو تبلغُوا بنفوسِكُم إلى مُستراح مِنْ عناءٍ مُبرَّحِ

وقد يصيب عروة هدفه ويحقق الغنى لكن قبل فرحته بتحقيق أمنيته يأتي من يحول بينه وبين غناه ، فيتنازل ويؤثر غيره على نفسه [2]:

إذا قلتُ قد جَاء الغِنىَ حال دونَهُ أبَو صِبْيَةٍ يَشْكوُ المفاقِرَ أعجَفُ

وبالرغم من جوع الشنفرى وفقره ، فهو أبيٌّ عفيف النفس ليس جشعاً [3] :

وَإنْ مُدَتِ الأيدي إلى الزّادِ لم أكُن بأعْجَلِهم إذ أجشَعُ القومِ أعْجَلُ

كما أنه يفضل التراب على أن لا يمد يده للناس يستجدي طعامه منهم [4] :

وَأستَفُ تُربَ الأرضِ كي لا يُرى لهُ عليّ من الطّول امروءٌ مُتطَوّلُ

فلماذا يفضل الشنفرى الموت على حياة الفقر والبؤس ؟ ولماذا يهرب من انتمائه الإنساني إلى التوافق مع مجتمع آخر ؟ ويعتزل قومه ، لينأى في مكان بعيد عنهم ، إنه يتحدى بقوته وإرادته العقبات التي تحول بينه وبين سعادته ولذلك يقول الشنفرى [5] :

وفي الأرْضِ مَنْأى للكريم عن الأذى وفيها لمَنْ خافَ القِلى مُتَـعزّلُ

لعَمْرِكَ ما بَالأرض ضيقٌ على امرئٍ سَرَى رَاغباً أو راهباً وهو يَعْقُلُ

وعند فقره تزداد معاناته حتى يرى أن الأرض على اتساعها تضيق به يقول الأهتم[6] :

لعَمركَ ما ضَاقتْ بِلادٌ بأهْلِها ولكنّ أخلاقَ الرجّالِ تَضيقُ

---

[1] عروة ، الديوان ، ص 52 .

[2] المصدر نفسه ، ص 50 .

[3] الشنفرى ، الديوان ، ص 109 .

[4] المصدر نفسه ، ص 69 .

[5] المصدر نفسه ، ص 108 .

[6] ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 425 .

فالرجولة له غير الذكوره ، لأن الرجولة هي إباء الضيم ورفض الذل ، وما دام يؤمن بقدرته ويخاف القلى والكراهية بينه وبين محيطه ، ويتسم بالعقل والإبداع ، فإنه لا يعدم الانتصار على عقبات الحياة ويحافظ على حرمة جواره ، ويغض طرفه حتى تأوي جارته إلى بيتها وهذه الصفات هي سر إعجاب الرسول صلى الله عليه وسلم بشعر عنترة لأنه كان يدعو إلى مكارم الأخلاق ، يقول عروة في هذا الشأن [1] :

وإنْ جَارتِي ألوتْ رياحٌ بَبيتها	تَغافلتُ حتى يَسْتُرَ البَيتَ جَانِبهُ

وكان مالك بن الريب أشد إحساساً بالاغتراب والوحشة حين يستشعر قلقاً يتهدد حياته ، أو عندما يهاجمه الإحساس بدنو اجله ، فيقول الشعر معبراً عما يختلج نفسه من لوعةٍ وأسى ، لاغترابه عن وطنه وأهله وبعده عن ذويه وأصحابه ، يقول[2] :

ولمّا تراءتْ عَنْد مرو مَنيتــــي	وَخَلّ بها جسمي وحَانتَ وَفَاتِيا
اقولُ لأصْحابي ارْفعوني فإنـــّــه	يَقرّ بعيني أنْ سُهَيلٌ بدا ليـــا
فيا صاحبيّ رحلي دَنا الموتُ فانِزلا	برابيةٍ إنّي مُقيمٌ لياليــــــا

فالحوار الذي يجري بين الشاعر ورفاقه يوضح مدى القلق الذي يعيشه في اغترابه سواء المكاني في خراسان ، واغترابه النفسي الذي لا يجد سوى رفاقه يبثهم شكواه وألمه[3] ، ويشعر بقرب انفصاله عنهم كما يشعر بغربة الموت ، فسهيل عندما ينظر إليه يهدئ روعه لأنه الخيط النفسي الذي يربطه بالوطن الأم ، ويزداد شعوراً بالضعف إذا لم يستطع الاعتماد على نفسه ، أو الوقوف على أقدامه ويتجه صوب وطنه ، كما يزداد وحشة بانفصاله عنهم حين يترك وحيداً بعيداً عن الأهل والوطن ، وقد ضاق ذرعاً بالبعد عن وطنه فكيف إذا اضيفت لها غربة الموت ، ويقول مالك أيضاً[4] :

خُذاني فجُرّاني بثوبي إليكمــــا	فقدَ كنتُ قبلَ اليوم صَعباً قِياديـا
غداةَ غَدٍ يَا لهفَ نفسِي على غدٍ	إذا أدْلجوُا عنّي وأصْبحتُ ثاويـا
يَعيدُ غريبِ الدار ثاوٍ بقفــــرَةٍ	يَدَ الدهرِ ، معروفاً بأن لا تدانيـا

---

[1] عروة ، **الديوان** ، ص 73 .

[2] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 304/22 _ 326 .

وانظر ، المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، ص 301 _ 306 .

[3] انظر ، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 211 .

[4] المرجع نفسه ، ص 301_ 306 .

فالغربة شعور بالضعف بعد قوة ، وبالوحدة بعد الأنس ، وبالنزوح بعد الإقامة ، فالشهادة والأجر في الغربة وطن ، وقطع الطرق واللصوصية في الوطن غربة . فصار ماله للوارث ، ولا يجد حصانه له ساقياً ، ويجره الرفاق بعد أن كان صعباً قياده ، فتحولت حياته إلى ضعفٍ ، و كان يخيف السبل ويقطع الطريق[1] ، ويذكر النسوة اللواتي يندبنه عندما سمعن بخبر وفاته ، وقد تعلقت به بناته قبل أن يخرج إلى خراسان ، وكأنهن يشعرن بفراقه وعدم عودته مرةً ثانية من غزاته ، فكان كثير الحنين حتى في ساعات دنو الأجل إلى الجزيرة ونجد ، وقد طلب من رفاقه أن يرفعوه لينظر إلى سهيل الذي يذكره بموطنه وهي نظرة الأمل باللقاء أو اليأس من الحياة .

ك - الفردية والتحلل من الشخصية القبلية في شعر الصعاليك واللصوص :

كانت ظاهرة الصعلكة واللصوصية خروج على القبيلة ورفض التقاليد التي تجعل من الفقير وابن الأمة دون غيره في النظام الاجتماعي ، الذي لا ينظر إلى الإنسان إلا من خلال ثروته ولونه دون اعتبار لإنسانيته أو النظر لما يمتاز به من مزايا وصفات، وإزاء هذا التمييز يشعر بالمرارة ليأسه من تغيير الواقع أو إصلاح الناس ومفاهيم المجتمع ، ويحاول أن يكون بطلاً ليعوّض عن فقره أو سواد لونه ، فيخلع على الحيوان إنسانية الإنسان ليقيم معه حوارا مع الغول ومع الذئب وإن لم يكن من الواقع فمن خياله[2] .

ولا يمكن اعتبار الصعاليك واللصوص ذوات متمردة على مألوف القبيلة وعاداتها وتقاليدها ؛ لأن التمرد لا يمكن أن يستمر إلا في ظروفٍ ووضع تاريخي ومقدمات له ، وكثير من الصعاليك واللصوص لم تكن تهمهم العودة إلى القبيلة ، ولا يهمهم الانتماء بالولاء أو الاستجارة إلى قبيلةٍ أخرى لأن الاستجارة شعورٌ بالدونية[3] ، فكان منهم صورةٌ متمردة ناقمة بسبب الفقر وسوء المكانة الاجتماعية ، وصورةٌ فردية تحسُّ تخلخل البنية الاقتصادية ، والتفاوت في الرزق ، كما تحسُّ الظلم في البنية الاجتماعية وغياب العدالة ، فتحمل هم التناقض ، وتسعى لإعادة التوازن كعروة بن الورد .

---

[1] انظر، السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 211 .

[2] انظر، خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص 270 .

[3] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 288 .

ومن هذه الطبقة عاشت طبقة محرومة تنظر إلى الواقع فلا تستطيع التأثير فيه ، أو إصلاحه أو تغييره ، وترى أن التمرد على هذا الواقع لا يجدي نفعاً بل هو مزيدٌ من الألم والمعاناة فقبلت الواقع دون محاولة تغيير[1] . وكان عدم التنازل عن الذات والإسراف في عشق الحرية وراء اغتراب الصعاليك واللصوص عن مجتمعهم وقبائلهم ، ورفض استلاب المجتمع لإنسانية الإنسان الفرد . فالرفض المزدوج هو محاولة للسيطرة على الطبيعة من خلال العمل وإخضاعها لهم بدلاً من الخضوع لها ، و كانت البداية في تقديم الولاء والطاعة للطبيعة والانضواء تحت لوائها . يقول السمهري[2] :

ألم ترَ أنّي وابنَ أبيضَ قد خفتْ	بنا الأرضُ إلاّ أنْ نَوْمَ القــيافيا
طريدين من حَيَّيْن شتّى، أشَدّنا	مــخافتُنا حتى عَلَلْنا التّصافيا
وما لمثلهُ في أمر حزمٍ ونــجدةٍ	ولا لامــني مِرَّتي و احــتيِاليا

ويعيش الشاعر بين القمع الذي تتعرض له الطبيعة كانحباس المطر مما ينعكس على الفرد والجماعة ، والقهر الذي يتعرض له بفعل الرقابة الاجتماعية ، وما تمارسه الأعراف والتقاليد من حظر[3] ، فعناصر الطبيعة من أسباب اغتراب الجاهلي لطبيعة العلاقة العدائية التي يعجز عن تذليلها . ولاميّة الشنفرى التي يغلب عليها طابع الجوع والفقر ، تعبير عن حالة اللا تكيُّف مع الحياة ، وتنمية لمفهوم الرفض حيث الذات في وجه المجتمع ، وتظهر الفرديةَ والبطولة في وجه تحدي الطبيعة وتحدي القبيلة ، لأن الحياة ميدان الصراع بسبب الجوع والفقر ، ويعد تكريس الطبقية وتمركز الثروة في أيدي قلة من الناس ، وكذلك التقسيم الطبقي بمثابة قانون تتحطم عليه كل محاولات التحرر ، كما أن النزعات الفردية رد فعل نفسي على الشعور باللا أمن واضطهاد الأعراق ، والشعور بالإحباط والإخفاق في الإصلاح أو التغيير أو في إثبات الذات .

فعبّرت فئة الصعاليك واللصوص عن انسلاخها عن الواقع بخروجها عن الانتماء الذي يلزمها بحياة القبيلة والانقياد لأوضاعها وأعرافها التي تشبه القوالب الجاهزة ، فالخروج على النظام منه ما كان لأسبابٍ مادية، ومنه ما كان لأسبابٍ معنويةٍ كعجز القبيلة عن تأمين الحياة

---

[1] انظر، عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، ص 343 .

[2] الملوحي ، **أشعار اللصوص وأخبارهم** ، ص 47 .

[3] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 244 .

الكريمة لهم ، ويفتقد لعدم التكيف مع نظامها الذي يفتقر إلى العدالة والمساواة ، إذ تقرب بعض الفئات وتعمل على إبعاد الآخرين للاختلاف في الرأي أو الفكر أو للاختلاف في اللون أو العرق أو الفقر أو الغنى [1] ، و يميل الفرد إلى إثبات الذات والتحرر والانطلاق حين لا يتفق مع قانون التسلط والإكراه ،عند إنكار الذات الفردية أو التنكر لأفرادها عندما لا يكونون على وفاق معها .

ويصور يزيد بن مفرغ معاناته ومطاردته وما ذاق من ألوان التعذيب والتنكيل في السجن بعد أن خرج على السلطة وخالف ميولها وسياستها في ظل الأمويين فقال[2] :

أصابَ عَذابي اللونَ فاللونُ شاحبٌ	كما الرأسُ من هول المنيّةِ أشيبُ
وأطعِمتُ ما أنْ لا يَحلُّ لآكـــــلٍ	وصَلّيتُ شَرْقاً بيتِ مَكةَ مَــغربُ
فلو أن لحمي إذ هوى لعبتْ بـــه	كرامُ الملوكِ أو أســـودٌ وأذؤبُ
لهوّنَ وَجدي أو لزادتْ بصيرتـي	ولكنّما أودى بـلحــــمِي أكلبُ

في ظل هذه الظروف تزيد معاناتهم كما يزداد شعورهم بالأسى خصوصاً إذا كانوا بحاجةٍ إلى نصرة قبائلهم وافتقدوا أسباب الحياة الكريمة ، وفي الخروج على القبيلة أو الدولة انكفاء قسريٌ لنظامها والتطلع إلى بناء كيان آخر اجتماعي أو سياسي متوازن ومتداخل ضد الحياة القبلية دون التفريط بها لانعدام البديل [3] ، فهناك إحساسُ بالتمزّق بين الانتماء للقبيلة والخروج عليها ، وإيجاد بديلٍ يكون له فيه ذاته وشخصيته المستقلة ودوره الاجتماعي ولتكون له إنسانيته ، و ينتهي الحوار مع القبيلة لفرض الرأي في قبول الواقع الطبقي والعنصري . ومرحلة الانفصال هي محاولة إيجاد توافق وانسجام مع طرفٍ آخر غير طرف القبيلة تتشابه معه في الظروف والأهداف .

يتصل الحديث عن الذات بالبطولة والفروسية ، كما يتصل بالحديث عن المغامرة والصحراء والجوع والفقر ، وعلاقة الشعراء الصعاليك واللصوص بالمرأة والطبيعة كل ذلك إثبات للذات أمام تحدي الطبيعة والقبيلة ، التي تتمثل بمشكلة الفقر والفراغ التي لم يجد لها حلا ، وفي شعره غيابٌ للقبيلة والمكان والاستقرار ، وظهرت الصحراء بديلاً عن وطن القبيلة الأمن

---

[1] انظر ، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي** ، ص 151 .

[2] سلوم ، **شعر ابن مفرغ الحميري** ، ص 79 .

[3] انظر ، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 244 .

المستقر [1] ، وتبدّل المجتمع الإنساني بمجتمعٍ حيواني أرقى أنساً من توحش الإنسان بسبب ما أحاق به من ظلم وجوع وحرمان . ووصف ابن مفرغ علاقته بالسلطة وكأنها علاقة عداوة وقال ابن مفرغ [2] :

أصبحتُ لا مِن بني قيسٍ فتنصُرني	**قيسُ العراق ولم تغضبْ لنا مُضرُ**
ولم تكلّم قريشٌ في حليفـــــــــــهمُ	**إذا غابَ ناصرهُ بالشّام واحتضروا**

والارتباط بالمكان نموذجٌ حيٌّ لواقعية شعرهم ، ولا تلغي الرابطة القبلية الذات الفردية، فالعاجز هو الذي يسلم زمام أمره إلى غيره لينقل قدراته ويوجهها حسب ميوله وأهوائه ومصالحه ، ويتألم من الأوضاع التي ينحدر إليها مجتمعه ، و ترتبط المرأة بالقبيلة بمجموعة القيم المتماثلة فالمرأة رمز للقبيلة وقد تكون امرأة حقيقية بصفتها وطبيعتها ،لكن الوحدة في القصيدة شبيهه بعلاقة الإنسان الفرد بسائر القبيلة ، فالاغتراب والتوحد له مردودٌ أمني يتجاوز حدود الفرد إلى المجموع كوحدة أجزاء القصيدة [3] .

واختلفت أساليبهم فمنهم من اكتفى بالشكوى والنقد والهجاء ، ومنهم من استخدم الكسب بالسطو وقطع الطرق وانتهاب الأثرياء [4] ، وكثيراً من الصعاليك واللصوص لا يتورعون عن القتل فاتخذوا الصعلكة حرفة للحصول على الرزق ، فإذا كان قد تمرّد على نظام القبيلة وتوجيه السادة كما تمرد على سيادة الدولة، وتعرض للنفي أو السجن أو لجأ إلى الصحراء ، أو انظم إلى جماعة الشذاذ والخلعاء فقد تمرد على نظام القصيدة فاختفت المقدمات والإطلال واكتفى بالمقطوعات بدلاً من القصائد .

[1] انظر، عبد الرحمن ، **الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً** ، ص 251 .

[2] سلوم ، **شعر ابن مفرغ الحميري** ، ص 45 .

[3] المرجع نفسه ، ص 234 .

[4] انظر، عطوان ، **الشعراء الصعاليك في العصر العباسي** ، ص 67 .

واستخدم الحوار و العتاب واللوم بينهما كجسر لنقل أفكارهم وطرحها والدفاع عنها أو إبداء الرأي حولها كما ظهر الاختلاف في وجهات النظر ، فالمرأة كسلطة القبيلة هي المؤثرة والمتأثرة ، تقوم بدور القبيلة في التوجيه واللوم[1] وتحاول سلب الحرية للحد من جرائمه أو مغامراته والاقتصاد في أمواله ، وقد تكون اللائمة غير موجودة ، لكن يشعر أنه بحاجةٍ لها ليبدي أفكاره أثناء الحوار ، فهي تسأل عن شحوب لونه واعتلال صحته و يجيب عليها و هو يخاطبها **بأقلي علي اللوم ، والفتى غير خالدٍ ، والمنايا ثغر كل ثنيةٍ** ، لأن الحياة بالنسبة إليه قد تساوت مع الموت ، يقول سعد بن ناشب[2] :

إذا هَمَّ ألقى بينَ عَينيهِ عَزمَـــهُ	**وأعرَضَ عن ذِكرِ العواقبِ جانِباً**
ولمْ يَستشرْ في رأيهِ غيرَ نفسِه	**ولَمْ يرضَ إلاّ قائمَ السَّيفِ صاحِبَا**

فمن لم يستطع أن يحيا بجسده فإنه يحيا بذكره ، فالخصال الحميدة تخلد الذكر ، والإيمان المطلق بالموت سبب الإسراف في الأنفاق والبذل والعطاء ، فإن لم يكسب غنى فليكسب حمداً . وتحاول الزوجة العاذلة تحقيق وجوده بانخراطه في سبيل الجماعة و تريد سلبه ذلك الوجود[3] ، وكأنها تضحي بالمال وبالذكر الحسن والمجد ومعالي الأمور في سبيل أن يبقى زوجها معافى ، كما تحاول أن تثنيه عن عزمه وتؤيّد ما تقوله بالأدلة والحجج ، فالحياة صراعٌ فإما أن يندثر ، وإما أن يثبت والبقاء للأقوى ويشبهها بالحمام الذي ينوح على فراخه دون أمل برجوعها .

وكذلك يحاول كل من الصعاليك واللصوص إثبات ذاته ، بمجابهة المخاطر والموت والسعي وراء مثل أعلى أوجدته قيم المجتمع ، وتحاول العاذلة أن تحد من تفرده وحريته ، عندما ترسم إطاراً أو قالباً لا تريد منه أن يخرج عنه كما هي أنظمة القبيلة وأنظمة القصيدة ، وفي الوقت الذي تحرص عليه من المغامرة والمخاطرة بنفسه ، تدعوه إلى أن يكون غنياً ، وذا شأن في قومه[4] .

---

[1] انظر، خليف ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، ص 197 .

[2] المرزوقي ، **شرح الحماسة** ، 73/1 .

[3] انظر، خليف ، **دراسات في الشعر الجاهلي** ، ص 197 .

[4] المرجع نفسه ، ص 197 .

فالفجوة بين الطموح والواقع هي من أسباب الاغتراب ، فإذا كانت المرأة سبباً في عذله ولومه بسبب خروجه على قبيلته ، فإنها سببٌ في اغترابه للبحث عن الرزق ، وهي التي تسعى لتقترن بالقادرين على جذب المال ، ويحاول أن يوفق بين المخاطرة وحيازة الثروة ، يقول الأحيمر السعدي[1] :

تُعَيِّرُني الإعدامَ والبَدوُ مُعرِضٌ وَسَيفِي بأموالِ التُّجار زَعِيمُ

ويدور الحوار بين الزوج والزوجة أو بين الرجل والمرأة ويحاول كل طرف أن يؤكد رأيه بالأدلة والحجج والبراهين فيقول سعد بن ناشب[2] :

تُفنِّدُني فيما تَرى مِن شَراستــــي وشدة نَفسي أمُ سعدٍ وما تــدري
فَقلتُ لها إنَّ الكريم وإن حَــــلا ليُلفى على حالٍ أمرٌ من الصَّــبر
وفِي اللِّين ضَعفٌ والشَّراسةُ هَيبَــةٌ وَمَن لم يُهَبْ يُحمَل على مَركبٍ وعر
وما بي على من لانَ لي من فظاظةٍ وَلكنني فظٌّ أبيٌّ على القســر

لم يعد الشعراء الصعاليك على وفاقٍ مع قبائلهم ، مما ترتب عليه ضعف الإحساس بالعصبية القبلية في نفوسهم ، فلم يعد الشاعر لسان عشيرته أو المفاخر بمآثرها ، كذلك لم يعد صحيفتها اليومية . وظهرت الذات الفردية أو الأنا الفردية بدلاً من ضمير الجماعة " نحن " ، فالشاعر يتحدث عن مذكراته الشخصية ثم عن جماعة الرفاق ، وهي الجماعة المذهبية التي انتقل وتحوّل إليها بعد تنازله وتخليه عن القبيلة أو تخليها عنه ، فتخلصوا من الشخصية القبلية في شعرهم كما تخلصوا منها في حياتهم ، فخرج من قيود القبيلة طائعاً مختاراً ومتخلياً ومتنازلاً عن جميع الروابط القبلية لينضم إلى مجموعة الرفاق الذين ألقى إليهم حريته ليعيش مغترباً بينهم بإرادته .

---

[1] ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص 535 .

[2] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 665.

ل – التلقائية وغياب الصنعة:

كان شعرهم صورة صادقة لحياتهم وصدى نفسيًا لعمق مشاعرهم المنبعث من اللاشعور ، ومن مظاهر سرعة حياتهم انعدام المقدمات في قصائدهم ، وخفوت الصنعة الفنية، فلا نلمح أثرا للتجويد والصنعة ، فلم يفرغ لفنه وهو يعيش بين كرّ وفر ، وفقر وجوع ، وكثرت التفسيرات حول عدم وجود المقدمة الطللية ، فكان وجودها من أسباب ملء أوقات الفراغ ، وحتى لا تستحيل الصحراء فراغاً بارداً لا إحساس بالوجود فيه ، وبعضهم كان يرى أن بناء الأطلال ليس عاطفة خاصة ولا تجربة وجدانية ، بل لحظة حزينة أملاها على الشاعر شعور الجماعة ، وانتفت بانتفاء الجماعة ، وبالحنين للاستقرار والمقام الثابت [1] .

ولا يخلو شعر الصعاليك من الصور الفنية أو التجسيم أو المقابلات أو البديع ، فيجعل من الدهر جبّاراً لا يزال يقرع المرء بنوائبه حتى يصير مُجرباً بصيراً ، كما يستخدم الكناية في إشرافه على الهلاك بفراغ وطابه ، وظهر التقسيم حين يكون بين خيارين إما أسرٌ ومنة في إطلاقه وإما قتلٌ والقتلُ أهون من المنة ، يقول تأبط شرا[2] :

فذاكَ قريعُ الدّهر مَا عاشَ حُوّلٌ ... إذا سُدَّ منه منخرٌ جاشَ منخـرُ

أقولُ لِلحيانِ وَقد صَفِرتْ لهم ... وطابي ، ويَومي ضَيّقُ الجِحر مُعوَر

هُما خِطتا إمّا إسَارٌ وَمِنـة ... وإمّا دَمٌ والقتلُ بالحُرّ أجـدَرُ

و يجعل من المنايا إنساناً لفعل السيف ضاحكاً في عظام أعدائه سروراً بما حصدت من أرواح ، ولا يبرق حد السيف إلا بعد انجلاء الدم عنه ، يقول تأبط شرا[3] :

إذا هَزّه في عظم قـرْنٍ تهَللتْ ... نواجذُ أفواهِ المَنايا الضَواحِكِ

---

[1] انظر ، القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 381 .

[2] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 1/ 76 .

[3] المصدر نفسه ، 98/1 .

ويرسم لوحة فنية فيها الحركة واللون والصوت ، معتمداً على خبرته ومهارته في إخراجها فالمنية كالناقةِ يسوقها إلى الإنسان دليلٌ بارعٌ يخترق الحواجز والحراس من الأحابيش ، يقول أبو الطمحان [1] :

لو كنتَ في ريمانَ يحرسُ بابَه أراجيلُ أحبوشٍ وأغضفُ آلفُ

إذن لأتتني حيثُ كنتُ مَنيتي يَخُبُّ بها هادٍ بأمري قائفُ

ولا يخلو شعر الصعاليك من البديع الذي جاء بصورةٍ عفويةٍ كالمقابلة والطباق والجناس فتظهر المقابلة بين قليل التشكي و كثير الهوى ، كما يظهر الجناس بين كلمتي الهوى والنوى والطباق بين قليل وكثير ، يقول تأبط شرا[2] :

قليلَ التّشكي للمهمّ يُصيبُه كثيرُ الهوى شتّى النوى والمسالكِ

كما يقول تأبط شراً [3] :

يَرى الوحشةَ الإنسَ الأنيسَ ويَهتدِي بحيثُ اهتدتْ أمّ النّجومِ الشّوابكِ

فيطابق بين الوحشة والأنس ، كما يجانس بين الأنس والأنيس ومن الأبيات التي يظهر فيها البديع قول ابن الحر [4] :

لعلَ القَنا تُدني الغِنى فنحيا كِراماً نَجتدي ونُوَمُ

فالجناس واضح بين القنا والغنى ، وقال عروة بن الورد [5] :

ألمْ ترَ أنّ الفقر يُزري بأهلِهِ وأنّ الغِنى فيهِ العُلى و التّجمُّلُ

---

[1] الأصفهاني ، الأغاني ، 132/11 .
و انظر ، خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص 310 .
[2] المرزوقي ، شرح الحماسة ، 94/1
[3] المصدر نفسه ، 98/1 .
[4] عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ، ص 106 .
[5] المرجع نفسه ، ص106 .

ويقابل بين فعل الفقر وأثره في حياة الناس والسخرية منهم ،وفعل الغنى وما فيه من رفعة وعُلى وفي بيت آخر قال عروة [1] :

المالُ فيهِ مَهابَةٌ وتَجِلةٌ   والفقرُ فيهِ مَذلةٌ وخُضُوعُ

فهو يقابل بين أثر المال في حياة الإنسان والرفعة والمهابة ، والفقر وأثره في نفس الإنسان من ذل وخضوع .

[1] عروة ، الديوان ، ص 88 .

الفصل الرابع

نصوص شعرية دراسة تطبيقية

تمهيد

أولاً : دوافع القتل عند القتال الكلابي : دراسة فنية .

ثانياً : أبو خراش في حوار مع زوجه : دراسة فنية .

ثالثاً : غربة السجن عند جحدر : دراسة فنية .

نصوص شعرية دراسة تطبيقية

تمهيد :

لقد تعددت أسباب الاغتراب في العصر الأموي، فإذا كان الفقر والجوع والظلم وعقدة اللون من أسباب اغتراب الصعاليك ،فإن الخروج على الدولة وقطع السبل والقتل من أسباب اغتراب الشعراء اللصوص في العصر الأموي.فالقتال الكلابي كان ممن اغترب وتجاوز كل القيم والتقاليد والأعراف ، فأساء إلى ابن عمه بعد أن نهاه عن الكلام مع أخته، ولم يرتدع فتعدى على ابن عمه وقتله ، وقتل سجانه هبار بن إسماعيل بمساعدة رجل كان له ثأر عنده وقد وفر له السلاح والراحلة للهرب ، واغترب في سلوكه حين قتل الأمة التي أراد عمّه الإفضاء إليها حتى لا تلحق العار بنسبه [1] .

اما ابو خراش فقد جرد من المرأة محاوراً له، وتراه عقبة في طريق سعادتها ،فهو لا يوفر لها أسباب الحياة ، ووسائل الرفاهية والزينة. وإذا اغتنى فتحاول منعه من الإنفاق، ولم تقف عند هذا الحد ،بل تعيره أنه غير كفء لها لمكانته الاجتماعية ،وبعد أن قدمت احتجاجاتها رد عليها بأسلوب يتسم بالغلظة حيناً وباللين والرفق حيناً آخر.

وأما جحدر فكان له موعد مع السجن بسبب قطع السبل وسلب الناس،وألقي القبض عليه وسجن في أكثر من مكان ، ولا خلاص له مما هو فيه إلا بالقصاص أو أن يلقى حتفه. إلا أن الحجاج اشترط أن ينازل أسدا جائعا، فإن صرع الأسد فاز بحريته واخرج من السجن ، أو أن يصرعه الأسد ويلقى حتفه ،فكان بين أمرين أحلاهما مُرّ [2].

ومما ساعد على تمرد الصعاليك واللصوص الفوضى السياسية ، وكان دخول السجن قد زاد من غربتهم النفسية والمكانية ، ولم يكن تمردهم في كثير من الأحيان إلا ضرباً من الثورة على قيود المجتمع وقوانينه واستئثار بعض فئاته بالأموال [3].

---

[1] الأصفهاني ، **الأغاني** ، 23 /320 .

[2] البرزة ، **الأسر والسجن في الشعر العربي** ، ص 96 .

[3] المرجع نفسه ، ص 96 .

أولاً : دوافع القتل عند القتال الكلابي :- دراسة فنية .

قال القتال الكلابي - حين قتل ابن هبار وفر من السجن - مقطوعات شعرية وقد وردت بروايات مختلفة [1] :

تركتُ ابن هبَّار لدى البابِ مُسنَداً	وأصبحَ دوني شَـابةٌ وأرُومُ
بسيفِ امرئ لا أخبرُ النَّاسَ باسمهِ	ولو أجْهشَتْ نفسي إليَّ هُمومُ
ودوني من الدَّهنا بساطٌ كأنَّهُ	إذا أنجابَ ضوءُ الصبْحِ عنه أديمُ

كما قال في مصرع ابن عمه [2] :

نشَدْتُ زياداً والمقامةُ بَيننا	وذكَّرتُهُ أرْحامَ سعْرٍ وهيْثَمِ
ولَّما دعاني لم أجِبْهُ لأنَّني	خَشِيتُ عليهِ وَقْعَةً مِنْ مُصَمَمِ
فلمّا أعادَ الصوتَ لم أكُ عاجزاً	ولا وَكِلاً في كلِّ دهياءَ صَيْلَمِ
فلمّا رأيتُ أنَّـهُ غيرُ مُنْتَهٍ	أمَلْتُ له كفِّي بلدنٍ مُقَوَّمِ
ولمّا رأيتُ أنَّني قد قتلتُهُ	ندِمتُ عليه أيَّ ساعةِ مَنْدَمِ

وقال في رواية أخرى للقصيدة [3] :

نهيتُ زياداً و المهامةُ بيننا	وَذكرتُه باللهِ حَوْلاً مُجرَّمَا
فلَّما رأيتُ أنَّـهُ غير منتهٍ	ومولايَ لا يزدادُ إلا تقدُّما
أملتُ له كَفّي بأبيضَ صارمٍ	حُسام إذا ما صادفَ العَظْمَ صَمَّما
بكفِّ امرئ لم تَخدمِ الحيَّ أمُّهُ	أخي نجدَاتٍ لم يكن مُتهَضّما

---

(1) القتال الكلابي ، الديوان ، ص 87 .

انظر ، الأصفهاني ، الأغاني ، 23/319 -345 .

(2) القتال الكلابي ، الديوان ، ص 89 .

(3) المصدر نفسه ، ص 90 .

انظر ، الأصفهاني ، الأغاني ، 23/319 -345 .

تشكل حياة الصعاليك واللصوص حكايات وقصصا، ومادة غزيرة بما فيها من روح قصصية وإثارة وانفعال وتسلسل في الإحداث ، وبما تشتمل علية من عناصر قصصية فالبطل في القصة هو الصعلوك نفسه ، ويقابله خصمه في هذا الصراع . وقد يكون أكثر من طرف في القصة. والأحداث تاريخية واقعية أو خيالية تجري أحداثها في واقعه أو في خياله الواسع ففيها عنصر المكان المتمثل بالسجن أو الصحراء ، والزمان دجى الليل واختيار الفرصة ، والإعداد المسبق لتنفيذ المهمة ، والحوار بينه وبين السجان الذي منعه حريته، أو بينه وبين ابن عمه الذي ناشده بالله وبالرحم وبالقربى لكنه لم يستمع لمناشدته،وتتأزم القصة وتبلغ ذروتها ويزداد عنصر التشويق لوضع نهاية مأساوية لأحداث القصة وحل العقدة سلبا بقتل السجان وقتل ابن عمه زيادا.

فلم تقتصر اللصوصية على تامين ضرورات الحياة بل رافق ذلك القتل والاعتداء على الأعراض والثأر للشاعر، والخروج على كل الأعراف والقوانين ، وعالجت كل مقطوعة من المقطوعات موضوعا محددا ولم تعالج غيره ، وكانت حكايات واقعية وليست من نسج الخيال . استعان بخياله عندما عاش بعيدا عن واقعه البائس ، وانتقل إلى مجتمع اللصوص أو الرفاق ، أو المجتمع الحيواني الذي يرى فيه أنسًا ووفاء أكثر من مجتمعه الذي تمرد عليه ؛ لأن مجتمعه عاجز عن تلبية رغباته، أو مجتمعه الذي طرده لكثرة جناياته .فانعدم التوافق و الانسجام بينهما ؛ عندما وجد نفسه يقابل المجتمع لا فرداً منه .

فهذا القتال الكلابي كان يتحدث إلى ابنة عم له وأخوها غائب ، فلما قدم رأى القتال يتحدث إليها فنهاه ، وحلف لئن رآه ثانية ليقتلنه، فلما كان بعد ذلك رآه عندها، فأخذ السيف وتبعه وهرب القتال من وجهه ، وناشده الله والرحم فلم يصده ذلك حتى كاد يلحق به ،فوجد القتال رمحاً مركوزا فأخذه وعطف على ابن عمه فقتله وفر هاربا وقال :

نَشَدْتُ زياداً والمقامة بيننا	وذكرّتُهُ أرحَامَ سعْر وَهيْثم
ولمّا دعاني لم أجبْهُ لأنني	خَشيتُ عليه وَقْعَةَ مِنْ مُصَمم

إلا أن زياداً حاول إدراكه ولم ينته ، فكان بين أن يُقتل وبين أن يَقتل،فلم يكن بطل القصة في موقف الضعف فالدراما القصصية تجعل منه بطلا وإلا لما كان يروي القصة أو يذكر أحداثها ، فما كان منه إلا أن مال عليه وأرداه قتيلاً وحزن على ما اقترفه من جرم ، وما تلته

من أحداث و طـرد وحوادث قتل ولم تتوقف على هذه الحادثة [1]. فلم يكن عاجزا عن قتله ، ولا وكلاً أو جباناً ، لذا كثرت الجنايات وكثر الثأر ،كما كثر التمرد على القبيلة أو الدولة ونظامها ،فإذا كانت الدوافع قد أجبرته على قتل ابن عمه ، وكان التجاوز على الأعراف والأخلاق سببا في الصراع . فان هذا الصراع لن ينتهي عند هذا الحد ، بل له ما وراءه من أحداث وثارات لا تتوقف على الطرفين المشاركين، بل تمتد إلى أفراد القبيلتين أو بطون القبيلة الواحدة ،فالدم لا يغسل إلا بالدم وممن ؟.

فليس من الطرفين المتقابلين وإنما من أشراف القبيلة، ولن تنتهي بقتيل واحد بل بقتلى كثيرين. مما يضطر القبيلة إلى خوض حروب مستمرة، وغارات وثارات، وقد تلجأ إحدى القبيلتين او الطرف الضعيف إلى الغربة أو الرحيل او الهجرة إلى موطن آخر ، او طلب الحماية والجوار مع قبيلة أخرى أو تلجأ القبيلة إلى إصلاح ذات البين عند تدخل طرف خارج أو محايد ودفع الديات . وحتى قبول الديات تصير عاراً وسُبّة إذ إن الإبل التي تؤخذ كديات تصبح مثاراً للسخرية والازدراء ، فيقول :

فلمّا أعادَ الصوتَ لم أكُ عاجزاً	ولا وَكِلاً في كلِّ دهياءَ صَيْلمُ
ولمّا رأيتُ أنّي قـــــد قتلتُه	نــدِمتُ عليه أيَّ ساعةِ مَندَمِ

وهذه القصة أو الحادثة تلح على الشاعر في قصيدة أخرى وتشغل فكره وتحرك مشاعره وأحاسيسه . ويذكر الحوار الذي جرى بينهما من مناشدة ابن عمه بالله وصلة القربى ،ويذكره ويستحلفه بالله أن يكفّ عن ملاحقته [2] ، إلا أن تجاوُزه على عرضه والتمادي في الإساءة إليه والاستهانة بكل الأعراف والقواعد والقوانين ،لا يمكن معها إلا أن يكفه على ما أقدم عليه ، أو يكون ضعفاً وهواناً .

نهَيتُ زياداً و المهامة بيننـــا	وَذكرتُه بالله حَوْلاً مــــُجـرَّمــا
فلمّا رأيتُ أنه غيـــر منتـهِ	ومولاي لا يــــزداد إلا تقدُّما
أمَلْتُ له كَفّي بأبيضَ صـــارمٍ	حُسام إذا ما صادفَ العَظمَ صَمَّما
بكفّ امرئ لمَ تخدمُ الحيَّ أمُّهُ	أخي نجداتٍ لم يكن مُتهَضَّمـــا

[1] انظر ، الأصفهاني ، الأغاني ، 23/319 - 345 .

[2] المصدر نفسه ، 23/319 - 345 .

صيلم : و الصيلم الداهية و الاصطلام الاستئصال و الصيلم الأمر المستأصل (اللسان ، مادة صلم) .

وَكَــلا : وَكَــل بالتحريك عاجز كثير الاتكال على غيره (اللسان ، مادة وكل) .

وهو يذكر الحوار الذي جرى بينه وبين ابن عمه ويستحلف بالله أن يكف عن ملاحقته، إلا انه لا يزداد إلا تماديا وإصرارا على أخذ الحق منه . فكانت النتيجة أن مال عليه بسلاحه وذكر انه سيف صارم والمقطوعة السابقة ذكرت أنه أخذ رمحا مركوزا وقتله به .فالمقطوعة ترد بأكثر من رواية وقد يحذف منها أو يضاف إليها وقد تنسب إلى أكثر من شاعر . وكلا الطرفين لن يعذره المجتمع في تقصيره سواء إن صبر ابن عمه على الإساءة لعرضه لأنه جبن وهوان ، أو إن استسلم زيادا للهزيمة فلن يكون معذورا بل جبانا وضعيفا . فأحكام المجتمع وأعرافه مطلقة غير قابلة للنقض أو الاعتراض .

وتمادى القتال الكلابي في إجرامه وقتل هبار بن إسماعيل كما قتل الجارية التي حاول عمه الزواج منها ، ولم يكتف بذلك. فقيل انه نبش قبرها وشق بطنها ليثبت أنها ليست حاملا من عمه . فكما أن الضعف والجبن عار ، فان الزواج من الإماء عار أيضا ويحاول أن يبرئ نسب عمه أو القبيلة عامة من هذا العار .

أنا الذي انتشلتُها انتشالاً ... ثم دعوتُ غِلمة أزوالا

فصدّقوا وكذّبوا ما قالا

وما قتل هبار بن إسماعيل إلا تمرد على كل الأعراف والقوانين . فالسجان الذي يكلف بتنفيذ العقوبات يقتل بأيدي السجين الذي ساعده مصعب بن عبد الرحمن بن عوف حين أعطاه سيفا وهيأ له راحلة للهرب للثأر لمصعب عند ابن هبار .

وهناك عناصر القصة من شخصيات وحوار ، وموضوع للقصة وما فيها من إثارة وتشويق . فالشخصيات تتكون من بطل القصة وهو الطرف الرئيس ، والشخصيات الأخرى هم ضحايا القصة كالسجان ، والجارية ، أو ابن عمه . والموضوع أسباب القتل ودواعيه ، والإبداع في صياغة هذه الأحداث شعراً .فظهر الحوار والدراما ،والإجابة عن الأسئلة حول أسباب القتل ، وطريقة توفر السلاح وأدواته ، ووقت ومكان تنفيذ الجريمة أو أداة الهرب [1].

تركتُ ابن هبَّار لدى البابِ مُسنَداً ... وأصبح دوني شابةٌ وأرُوم

بسيفِ امرئ لا أخبرُ النَّاسَ باسمهِ ... ولو أجهشَتْ نفسي إليَّ همومُ

ودوني من الدَّهْنا بساطٌ كأنَّهُ ... إذا انجابَ ضوءُ الصبْحِ عنهُ أديمُ

[1] انظر ، الأصفهاني ، **الأغاني** ، 23/319 -345 .

فالشاعر يعمد إلى التكرار" لما دعاني ، لما أعاد . لما رأيت انه غير منته ، لما رأيت أنني "، كما أن الشاعر عمد إلى الترادف لم أك عاجزاً ، ولا وكلا . وذكرته أرحام ، وذكرته بالله .

أملتُ له كفّي بأبيضَ صارمٍ ... حُسام إذا ما صادفَ العَظمَ صَمَّما

فلما رأيتُ انه غيرُ مُنْتَهٍ ... أملتُ له كفّي بِلَدنٍ مُقوَّمِ

فذكر الأبيض والصارم والحسام . واللدن و قد تكون صفة للسيف لرقته وحدته وجودة حديده وصقله ، إلا أن اللدن والخطي والرمح والمثقف دلالة على الرمح ، وقليل ما استخدم الرمح في حديث الصعاليك ؛ لأن الرمح سلاح الفرسان ، بينما كانوا يعتمدون على عَدوهم ولم يستخدموا الخيل لقلة الخصب ، وصعوبة حركتها في الصحراء المعروفة بكثرة رمالها. والسلاح كان موضوعاً من موضوعات الصعاليك، إذ كان رفيقه في حله وترحاله يلازمه ملازمة السوار للمعصم، وملازمة الثياب للجسم، ولعل تسمية القتال بهذا الاسم لكثرة قتلاه وكثرة جناياته ، وما المطاردة والسجن إلا وسائل تاديبية للخارجين على القانون، أو من طردتهم قبائلهم أو كثرت جناياتهم .

فإذا كان لا يتردد عن قتل أبن عمه ، ولم يتردد عن الإساءة لأقاربه ، فكيف لا يثأر من سجانه الذي قيد حريته ومنعه من الانطلاق ؟ وكيف لا يقتل الجارية التي تُشين نسب قبيلته ؟ وكيف يخالف نظرة المجتمع لأبناء الجواري؟.فهناك من خلق بطبعه شريراً ، وهناك من جعلته الظروف قاسياً متمردا، لسوء أوضاعه الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية . قال القتال الكلابي[1] :

أنا الذي انتشلتُها انتِشَالاً ... ثُمّ دعوتُ غِلمةً أزوالاً

فصَدّقوا وكذّبوا ما قالا

[1] انظر الأصفهاني ، الأغاني ، 23/ 318- 343 .

فأول غربة اجتماعية خذلان الأصدقاء وانعدام الناصر بالدلالة الاجتماعية ، فالموت يدعو للشجاعة وهو قدر وحتم ، ومن مظاهر الاغتراب غياب بكاء الصعاليك في الجاهلية فلا نجد التفجع على الأبناء أو الأزواج أو القتلى إلا ما كان إشارات عابرة عند الندم أو الحيرة والقلق من المصير الإنساني فهو يشعر بالندم لمقتل ابن عمه ، وأم السليك تتساءل عن مصير ابنها بعد أن طالت غيبته وقالت :

أمريضٌ لم تعُدْ　　　　أم عدوٌ خَتَلك

بينما برز عنصر البكاء عند مالك ابن الريب خصوصاً عند بناته وزوجه وخالاته وحصانه الذي لم يجد له ساقيا .

فمنهُنّ أمّي وابنَتايَ وَخَالتِي　　　　وباكيةٌ أخْرى تُهيجُ البَواكيا

والأبيات سهلة بسيطة واضحة تخلو من التكلف والتعقيد ، ذات موضوع واحد ،هو الحديث مع ابن عمه ، وقتل السجان أو مقتل الجارية . وكل مقطوعة مستقلة لا تتجاوز ستة أبيات ، وخلوها من التعقيد أو المبالغة لقرب الشاعر من الحضارة ، فلم يعش إلا غربة السجن وغربة المطاردة لحين القبض عليه .

فكما خرج الصعاليك واللصوص على قبائلهم كان الخروج على مقدمة القصيدة بإغفال الاستهلال بالمقدمة الطللية وذكر المرأة ، وبدأ التخلص من المقدمات . ورفض القبول بالتقليد للمقدمة كما رفضوا القبول بالانصياع إلى القوانين والأعراف والتقاليد . ولم يعد الشعر قصائد طويلة بل مقطوعات تعبر عن فكرة أو ظاهرة ذات موضوع واحد فيه وحدة المشاعر . ومما زاد في ترابط هذه الموضوعات اعتماد الأسلوب الحواري والأسلوب القصصي فيعبر الشاعر عن تجربة شعرية ولكل تجربة مدى معين يناسب فكرتها وموضوعها ،وتقوم القصيدة على وحدة موضوعية في بنائها ووحدة في الجو النفسي وتتجانس الصياغة الفنية بحيث تنفي وحدة البيت كبديل لوحدة الموضوع [1] .

---

[1] بكار ، يوسف حسين ، **بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث** ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط2 ، 1982 ، ص271، 299 .

ثانياً : أبو خراش في حوار مع زوجه : - دراسة فنية .

وقال أبو خراش في قصيدة يحاور زوجته التي أكثرت من لومه[1] :

لقد علمتْ أمُّ الأدَيْبِـرَ أنَّنـــــي ... أقولُ لها هَدِّي ولا تَذْخَري لحْمي

فإنَّ غداً إن لا نجد بـــعضَ زادِنا ... نُفِئْ لكِ زادا أو نُعَدِّكِ بالأزْمِ

إذا ،هي حَنَّتْ للهوى حَنَّ جَوْفُها ... كَجوْفِ البعير قلبُها غيرُ ذي عَزمِ

فلا وأبيكِ الخير لا تُجِدِـــــــينَه ... جَميلَ الغِنى ولا صبورًا على العُدْمِ

ولا بَطلا إذا الكماةُ تَزيَّنــــــوا ... لدَى غمَرات الموت بالحالك القَدْمِ

أبَعْدَ بلائي ضَلَّتِ البيتَ مِن عَمىً ... تُحِبُّ فِراقي أو يَحِلُّ لها شَتْمِي

وانّي لأثوي الجُوعَ حتى يَملَّني ... فيَذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابي ولا جِرْمي

وأغتبِقُ الماءَ القَراحَ فأنتـــهي ... إذا الزادُ أمسَى للمزلَّج ذا طعْمِ

أرُدّ شُجاعَ البَطن قد تَعلمينَـــــه ... وأوثِرُ غيري من عِيالِكِ بالطُّعْمِ

مخافة أن أحيا بَرغمٍ وذِلَّــــــةٍ ... وللموتُ خيرٌ من حَياةٍ على رَغْمِ

رأت رجلا قد لوّحتْه مَخامِـــصٌ ... وطافت برَنّان المَعَدَّيْن ذي شَحْمِ

غِذيٍّ لِقاحٍ لا يزال كأنَّــــــــه ... حَمِيتٌ بَدْبغٍ عَظْمُه غيرُ ذي حَجْمِ

تقولُ فلولا أنتَ أنكَحتُ سَيِـــّدا ... أزَفُّ إليه أو حُمِلتُ على قَرْمِ

لعَمري لقد مُلِّكْتِ أمْرَكِ حِقْـــبَةً ... زمانًا فهلاَّ مِسْتِ في العَقْمِ والرَّقْمِ

فجاءتْ كخاصي العَيْر لم تَحْلَ جاجةً ... ولا عاجةً منها تلوحُ على وَشْمِ

أفاطِمَ إنّي أسبقُ الحَتْفَ مُقبِــلاً ... وأتركُ قِرْني في المَزاحِف يَستدمِي

وليلةِ دَجْنٍ من جُمادَى سَرَيْتُـــها ... إذا ما استهَلّتْ وهي ساجية تَهْمِي

وشَوْطٍ فِضاحٍ قد شَهِدتُ مُشايحاً ... لأدرِكَ ذَحْلا أو أشيفَ على غُنْمِ

إذا ابتَلّتْ الإقدامُ وَالتَفَّ تَحتَـها ... غُثاءٌ كأجوازِ المُقرَّنةِ الدُّهْمِ

ونَعْلٍ كأشلاءِ السُّماني نَبَذْتُهــــا ... خلافَ نَدَى من آخِرِ اللّيل أو رِهَمِ

إذا لم ينازِعْ جاهلُ القوم ذا النُّهَى ... وبَلَّدَت الأعلامُ باللّيل كالأكْمِ

---

[1] ديوان الهذليين ، دار الكتب والوثائق القومية ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ، ط 3 ، 2003 1- 3 ، ص 125 .

ترن : ترني ، تقال للئيم وابن الأمة (اللسان ، مادة ترن) .

رهم : المطر الخفيف (اللسان ، مادة رهم) .

العقم : المِرط الأحمر ، وقيل كل ثوب أحمر أو ضرب من الوشي ، والواحدة عقمه (اللسان ، مادة عقم) .

الرقم : ضرب مخطط من الوشي ، وقيل من الخز ، أو النقش و الوشي (اللسان ، مادة رقم) .

تراها صِغارا يَحْسِر الطَرْفُ دونَها	ولو كانَ طَوْدًا فوقه فِرَقُ العُصْمِ
وانّي لأهدِي القومَ في ليلةِ الدُجَى	وأرمِي إذا ما قيلَ :هلْ مِن فتىً يَرمِي

وقصيدة أبي خراش من القصائد التي تبرز عناصر القصة ، والحوار والعذل واللوم ، وقد جرى الحوار بينه وبين زوجته وقد أكثرت من لومه ، وضاق بها ذرعاً لقلة صبرها على الجوع ، وكثرة الشكوى من الغربة ومحاولة كفه عن الإنفاق وقد استخدم كنيتها مصغرة تحقيراً أو استخفافا لموقفها فاخذ يقول أبو خراش :

لقد علمتْ أمُ الأدَيــــبْرَ أنّنــي	أقولُ لها هَـدِّي ولا تَذْخَري لحْمــي
فإنَ غداً إن لا نجِد بعـضَ زادنـا	نُفِئْ لـــــكِ زادا أو نُسعَدّكِ بالأزْمِ
إذا هي حَنّتْ للهوى حَنّ جَوْفُها	كَجوْف البعير قَلْبُها غيرُ ذي عَــزمِ
فلا وأبـــــيكِ الخير لا تجِديّنه	جَميلَ الغِنَى ولا صبورا على العُــدْمِ

فالحوار بينه وبين زوجته اللائمة العاذلة التي تحاول الاقتصاد في الإنفاق إلى درجة البخل ، وهو يطلب منها أن تقدم العطاء والهدايا ، ولا توفر مما يأتي به، فإذا انتهى رزق اليوم فإن غداً لناظره قريب ليهيئ لك رزقا آخر، ويذكر بعض صفاتها أيضاً ، فهي لا تصبر على الغربة ، وتكثر الحنين إلى الأهل والديار ، ويشبه كثرة حنينها إلى ديار الأهل بحنين الإبل إلى أوطانها وقد قيل في ملازمة الإبل إلى أوطانها ، وملازمة العرب للعناية بالشعر وهو ديوانهم ،" لن تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين "[1] . وليست هذه من السلبيات التي تؤخذ على الزوجة وإنما لون من ألوان العتاب بين الزوجين لجلاء ما يشوب العلاقة من كدر . وينتقل إلى ذكر من تفضله عليه فإن أصاب غنى فإنكِ لا تجدينه جميل الغنى ولا تجدينه صبوراً إذا افتقر ، كما لا تجدينه بطلاً إذا تزين الكماة بلون الدم في ساحات الوغى .

وينتقل من اللوم إلى التقريع والتوبيخ بعد أن فضلت غيره عليه بالرغم من أعماله وصفاته كصبره على الجوع والاكتفاء بالماء القراح ، وإيثار أبنائها على نفسه حيث نسب الأبناء لأمهم وكأنه في طرف يقابل بقية الأسرة ، ويعاني مما يعانيه ولا يجد إلا السخرية والازدراء .

أبَعْدَ بلائي ضَلّتِ البيتَ مِن عَمًى	تُحِبُ فِراقي أو يَحِلُ لها شَتْمِي
وانّي لأثوي الجُوعَ حتى يَمَلّني	فيَذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابي ولا جِرْمي

[1] القيرواني ، ابن رشيق ، أبو علي الحسن ، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، ط2 ، 30/1 .

وَاغتَبِقُ الماءَ القراحَ فانتهــي	إذا الزادُ أمسَى للمزَ لّجِ ذا طعْم
ارُدّ شُجاعَ البَطْنِ قد تعلمينــهُ	واوثِرُ غيري من عِيالِكِ بالطُّعْم
رأتْ رجلا قد لوّحتْه مَخامِصُ	وطافتْ برِنّان المَعَدّيْنِ ذي شَحْمٍ
غِذيٍّ لِقاحٍ لا يـــــــزال كأنّه	حَمِيتٌ بَدْبغٍ عَظمُه غيرُ ذي حَجْم

أبعد كل هذا الذي أقدمه وما اتصف به من صفات فأصبر على الجوع واغتبق الماء القراح وأوثر عيالك بالطعام خوف أن ألام ، أو يصيبني الذل والهوان ، أبعد هذه التضحية وهذه الأخلاق التي لا تجدها عند غيري تفضل فراقي ويحل لها شتمي ؟فإذا كانت بهذه الصفات فكيف يصبر عليها ؟ وإذا كانت على الحقيقة فهو صبور ،أما إذا كان يجرد منها محاورا فليثبت ذاته وصفاته ويعد حجته برهاناً على حسن أخلاقه ، وذماً للعاذلة التي تزدريه بالرغم من فضائله . وكأنه هو السبب الذي حال بينها وبين أن تتزوج رجلاً ميسوراً فرضيت بفقره وهوانه . فهل يصبر على بلائه وشتيمته أو يرد الكيل بمثله ؟ فالحرب لا تقتصر على ميادين القتال بل هناك ميادين الكلام ولم يعجز عن الرد على سوء تصرفها .

تقولُ فلولا أنتَ أنكَحتُ سَيّدًا	أزَفُّ إليه أو حُمِلتُ على قَرْمِ
لعَمري لقد مُلّكتِ أمرَكِ حِقْبةً	زمانا فهلاّ مِسْتِ في العَقْم والرَّقْم

فإذا كانت تترفع عنه وتتعالى عليه وتشعر بغربتها عنه فيتساءل لماذا لم تختاري رجلاً ماجداً وقد عشت حقبة طويلة قبل اقتراننا؟ ولمَ لم تختالي بالجواهر والحلي التي كنت تحلمين بها ولكن جئت خالية الوفاض من الزينة وعطل من أدواتها . فبدلاً من اللوم والعتاب والحوار الهادي انقلب ا لعتاب إلى لون من ألوان الهجوم والسخرية والازدراء . واظهر من صفات الرجولة أو الصفات الايجابية التي يتحلى بها .

فجاءتْ كخاصِي العَيْرِ لم تُحْلَ جاجةً ولا عاجة منها تلوحُ على وَشْم

فتحدث عنها بضمير الغائب وهي حاضرة ماديا أمامه أو معنوياً في خياله ، وفيه نوع من الإنكار والتعالي عليها . ويرق في البيت الذي يليه ويناديها باسمها وفيه انتقال من ضمير الغائب إلى ضمير الخطاب و التفات بين الضميرين وبين أسلوب التوبيخ والتقريع وبين أسلوب الهدوء والعتاب .

أفاطِمَ إنّي أسبق الحَتْفَ مُقبلاً وأتركُ قِرْني في المَزاحِفِ يَستدمي

فهو الذي يسرع إلى ساح الوغى عندما يفر الأعداء ويترك الخصم ينزف في ساح الوغى وفي ميدان المعركة ، ويسهب في سرد بطولاته في الليالي المظلمة وعند نزول المطر ليصيب غنيمة أو يدفع الثأر، ويصبر على سوء حالته إذا يرمي بنعله في الليلة الممطرة بعد تلفها وجعلها كأشلاء السماني وهذا وصف ذكر عند تأبط شرا أو الشنفرى . وفي ليلة لا يهتدي بها إلا ذوي النهى الذي لا يحتاج إلى دليل لشدة ظلام الليل وكثرة أمطاره ،وانعدام الرؤية وسط الظلام حتى تحسب الجبل أكمة. فهو شجاع بالرغم من قسوة الظروف والطبيعة وسوء حالته وبؤسه، ويكثر من (واو رب) دلالة الكثرة أو المبالغة ويستخدم أما لاقترانها بفعل زمن المستقبل ، ويصف الطبيعة وظواهرها والواقع المؤلم ويهرب إلى الماضي ويسترجع الذكريات كما عمد إلى المقابلة بين الأكم والطود ، والجاهل وذوي النهى فهو خبير بدروب الصحراء بالرغم من شدة الظلام وسقوط المطر. فالشاعر بين اتجاهين اتجاه يقول : يُطلق اللسان بما يمليه عليه واتجاه أخر يبتعد عن الشعر فلا يبحث عن نمط شعري رائج يقلده بل يشق طريقه بنفسه فراح يقول أبو خراش[1] :

وليلةِ دَجْنٍ من جُمادى سَرَيْتُـهـا ... إذا ما استهَلت وهي ساجية تهـمِي

وشَوْطٍ فِضاحٍ قد شَهدت مُشايحاً ... لأدركَ ذحْلا أو أشيفَ علــى غُنْم

إذا ابتلّتْ الأقدامُ وَالتفَّ تحتـهـا ... غُثاءٌ كأجواز المُـقرَّنةِ الدُهْم

ونعْلٍ كأشْلاءِ السُّماني نَبذتـُـها ... خلافَ نَدًى مـن آخِر الليل أو رهَم

إذا لم ينازِعْ جاهلُ القوم ذا النُّهَى ... وبَلّـدَت الأعلامُ باللّيل كالأكَمِ

تراها صِغارا يَحْسِر الطَّرْفُ دونها ... ولـو كانَ طوْدا فوقه فِرَقُ العُصْمِ

وانّي لأهدِي القومَ في ليلة الدُّجَى ... وأرمِي إذا ما قيل :هل مِن فَتىً يَرمِي

---

[1] زراقط ، عبد المجيد ، **دراسات في مفهوم الشعر ونقده** ، دار الحق ـ بيروت ، ط1 ،1998 ، ص98 .

ويظهر من خلال هذه الأبيات الصفات الايجابية التي يتحلى بها من شجاعة ومعرفة بالصحراء . في وقت شدة الظلام وانهمار الأمطار . حتى لا تبدو الأشياء العظيمة سوى خيال ، وقد يخرج ليبحث عن غنيمة أو دفعاً لثأر . واختفت العاذلة في هذه الأبيات، وكأن القصيدة ذكرت لإثبات ذاته وذكر صفاته . كما يظهر تأثره بغيره من شعراء عصره "هل من فتى يرمي" كما في قول طرفة بن العبد[1] :

إذا القومُ قالوا مَن فتى ؟ خِلتُ أنني   عُنيتُ فلمْ أكسلْ ولم أتبلدِ

فالمقطوعة فيها العتاب واللوم بين الطرفين المتجاورين كما فيها الروح القصصية والإثارة وتسلسل الإحداث ، فيبدأ الحوار هادئاً ثم تشتد وطأته ليصل إلى درجة الشتيمة والتقريع . وتخف حدته إلى أن تصل إلى درجة غياب الذات وتعداد المناقب .

كما يتحدث عن فلسفته وفلسفة الصعاليك في الحياة كالصبر على الجوع ، وإيثار الغير وعدم قبول الذل والإهانة ، ويفضل الموت على الحياة الذليلة . وكما ينتقل بين ذكر صفات المحاور وأخلاقه، ينتقل لذكر صفاته من كرم وشجاعة ومعرفة بدروب الصحراء. كذلك يختار أسلوب الالتفات بين ضمائر الغائب إلى ضمائر الخطاب ويرق حيناً ويقسو حيناً آخر . فالمرأة حين تشتمه وتفضل غيره عليه وتتجاوز أسلوب الحوار يرد عليها باللغة وقساوتها وأؤثر عيالك بالطعم وكأن الأبناء في الطرف المقابل ولم ينسبهم إلى نفسه وكعادة الإنسان والطبيعة البشرية التي تنسب ما هو ايجابي إلى نفسها وتتخلى عن كل ما هو سلبي في ساعات الغضب وحين يشعر بقوة حجته وهزيمة الخصم يخاطب الأخر بلغة الرقة والترخيم .....افاطم ....

والذي أثار مشاعره وأحاسيسه حين جعلت منه عقبة في طريق سعادتها . وكأنه منعها من الزواج من غيره لتزف لرجل ماجد فلم يكسوها الحلي والجواهر أو يوفر لها أسباب الزينة والحياة الكريمة، فلا ذبلة ولا جاجة (الخرز الردئ) ولا وشم ولا تزوجت من سيد قوم ليوفر لها أسباب الحياة ، فهي كخاصي العير الذي لم يوفر جاجة ولا عاجة . ويوازن بين حنينها لبلادها وغربتها، وبين حنين الإبل والشوق لأوطانها. وبين التضحية من اجل سعادتها، وإنكارها لفضله وما قام به.

---

[1] طرفة بن العبد ، **الديوان** ، ص 27 .

فالنص لغة قبل كل شيء يتحول إلى ظاهرة انفاعلية بعد اختيار البناء والتراكيب والعبارات. وبطولة الشاعر تتمثل في امتلاكه المرأة ومعاناته للوصول لها ويرسخ صفة التحمل والصبر على الشدائد، واستخدام أسلوب التجريد وهو أسلوب يحمل بعداً نفسياً وشعوراً يعكس توتر الذات الشاعرة .إذ إن أسلوب التجريد يجسد انشطار ذات الشاعر إلى شطرين شطر مخاطِب وشطر مخاطب وحاول خلق التناسق من خلال المتناقضات[1] .

ويتحدث الشاعر عن تجربة آنية بلهجة غاضبة وبأسلوب تهكمي وحاول أن يزاوج بين طبيعة التجربة وطبيعة الأداء الفني. فاغتراب المرأة تجربة مرتبطة بالماضي لكنها متجسدة في الحاضر . والشاعر يقف في مواجهة موقفها السلبي لإعادة التوازن النفسي فالمعاناة النفسية ناتجة عن علاقة الشاعر المضطربة بزوجه، مما دعاه إلى انتقاء بعض الكلمات التي تعبر عن العنف ومن خلال لهجة العتاب بينه وبين زوجه حاول أن يعيد الانسجام والتوحد من خلال التناقض كما يعيد الانسجام في بنية القصيدة [2].

واستخدم أسلوب الكناية تذخري لحمي وتوفره بمعنى لا تغمضه حقه في التضحية والبذل وتزيّن بالحالك الفدم . فالدم زينة الأبطال في ساحات الوغى إذ يلون ثيابهم وسيوفهم. واغتبق الماء القراح ـ يكتفي بالماء ليوفر لغيره الطعام . ويصبر على الجوع حتى لا يمد يده للغير تكرماً، في حين ينال البخيل الطعام كما يناله الذليل.

وخاصي العير ـ كناية عن صفة البذاءة فلم يترك شيأ بذيئاً إلا أتاه . "و العقم والرقم "كناية عن ضربين من الوشي والزينة . ويظهر تنوع الأساليب بين أسلوب خبري أو إنشائي يعتمد القسم (**لعمري**) ، والنداء (**أفاطم)**. وأكثر من واو رب وليلة دجن ، وشوط. وفعل للكثرة والمبالغة.

---

[1] انظر ربابعة ، موسى ، **قراءة النص الشعري الجاهلي** ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، الأردن ـ اربد 2002 ، ص51 ، 65 .

[2] المرجع نفسه ، ص 94 - 96 .

وكثر ذكر الجوع والفقر الذي كان من خصائص موضوعاتهم التي لا تكاد تخلو منها قصيدة ، وهي من أسباب غربتهم الاقتصادية إما للطبيعة الجغرافية التي يعيشون فيها ، أو لسوء علاقاتهم مع قبائلهم ومحيطهم الاجتماعي وتشردهم والعجز عن التكيف مع مجتمعاتهم .

وإنّي لأثوي الجُوعَ حتى يَمــلّني فيَذهبَ لم يَدْنسْ ثيابي ولا جِرْمي

مَخافةَ أن أحيا بَرغْمٍ و ذِلــــةٍ وللموتُ خيرٌ من حَياةٍ على رَغْـمِ

كما أن القصيدة تخلو من الاستهلال بالمقدمة الطللية أو ذكر المرأة وإنما جاء ذكر المرأة سلبا في ثنايا القصيدة ولم تمثل الجانب الايجابي في اللوم والعتاب خوف تأيمها أو يتم أولادها ، أو تحاول أن تكفه عن البذل والعطاء . فجاء دورها سلبياً تتجاوز فيه أسلوب الحوار إلى أسلوب الجدال ، فهو الذي لا يوفر لها وسائل العيش الكريم والزينة والحلية، ولو تزوجت رجلاً ماجدا لنالت بغيتها من نعيم الحياة.

وأين موقفها من موقف امرأة هدبة بن الخشرم ، التي كانت تحثه على الصبر ومغالبة القيد والسجن وجدعت انفها حتى لا تصلح لزوج غيره ، لقد كانت تغالب الدهر مع زوجها ، بينما لائمة أبي خراش تعين الدهر على زوجها .

تقولُ فلولا أنتَ أنكَحِتُ سَيّدا أزَفُ إليه أو حُمِلتُ على قرْمِ

فكان كلا الزوجين يعيش الاغتراب لعدم الانسجام والتوافق الاجتماعي ، و عجزهما عن التكيف مع محيطهما الاجتماعي .فالزوجة ترى أنه لا يحقق لها أسباب الحياة الكريمة وتكثر من لومه لوقوفه بينها وبين سعادتها .في أن تتزوج سيدا قرما ماجداً ،وتميس في العقم والرَّقم ولا تعيش لجانبه لتخلو حياتها من جاجة وعاجه ووشم .

وعاش أبو خراش الاغتراب حين تمادت الزوجة في ذمه والاستهزاء به بالرغم من معرفتها بأخلاقه و تضحيته وصفاته، ولكنه إنكار للجميل .فقد جاع ليشبعوا ، وضحى ليسعدوا فكان جزاءه السخرية والازدراء . فالاغتراب انفصال عن الواقع وإنكار له وسعي للماضي. فكراهية الوقع أمل في استعادة الماضي لما فيه من انسجام وتوافق ، وإحساس بالحرية والسعادة التي فقدت، وانطلاق من قيود الواقع وماديته إلى حرية الخيال وذكريات الماضي ،واجترار الأمل المفقود بالسعادة .

عاشت زوجة أبي خراش الغربة مرتين مرة بانفصالها عن ماضيها ، والغربة عن الأهل في البعد المكاني والنفسي ، ومرة بالاغتراب عن الزوج للعجز عن التكيف والصبر على الحياة التي يعيشها . وكعادة الشعراء الصعاليك فلم تكن المرأة في مستهل قصائدهم بل في حشوها ، وكانت العلاقة معها كالعلاقة مع القبيلة بين مد وجزر تصفو حيناً وتتكدر حيناً [1].

ويصيب العلاقة بينهما الفتور وقد تصل إلى حد القطيعة . فالعلاقة بين الطرفين التي تقوم على المحبة تقلل من تأثير الآلام التي يعانون منها، ويتداخل الألم في الحب كتداخل الماء في البنية والدم بالكائن الحي ، فسرعان ما ينتهي العتاب متجها إلى بارقة أمل بالدفء العاطفي ودوام العلاقة. وتكون التجربة ذات بعدين [2].

بُعد الانفصال والتشرد والقطيعة ، والبعد الثاني قهر الانفصال وتحقيق الوحدة والانسجام . وهذا الاغتراب في التجربة يقترب من الغربة عن الوطن والأهل، وبعد الحوار وجلاء النفوس مما علق بها والإفضاء بمكنونها ، تبرز صفة السماحة التي حطمت الحواجز وأعادت الوحدة بدلاً من التنافر والصراع .

---

[1] سلامي ، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري ، ص 162 .

[2] السويدي ، الاغتراب في الشعر الأموي ، ص 128- 130.

ثالثاً : غربة السجن عند جحدر : - دراسة فنية .

وقال جحدر بن معاوية بن جعدة العكلي[1] :

يا جُمْلَ إنَّكِ لو شَهِدتِ كَريهَتِي ... في يَوْمِ هَوْلٍ مُسْدِفٍ وعَجاجِ

وَتَقدُّمِي للَيثِ أرْسُفُ مُوثقـاً ... كَيْما أكابِرَهُ على الأحْراجِ

جَهْمٍ كأنَّ جَبِينَهُ طَبَقُ الرَّحا ... لمَّا بَدا مُثعجِّرَ الأثباجِ

شَثْنٌ بَراثِنُهُ كأنَّ نُيُوبَهُ ... زُرْقُ المَعابِلِ أو شَباةُ زِجاجِ

وكأنَّما خِيطتْ عليه عبَاءَةٌ ... بَرْقاءُ أو خَلَقٌ مِن الدِّيباجِ

يَسْمُو بناظِرَتَيْنِ تَحْسِبُ فِيهِما ... لمَّا أجالَهُما شُعاعَ سِراجِ

وله إذا وَطِئَ المِهادَ تَنَقُّضٌ ... ولِثِنْيِ طَفْطَفِهِ نَقِيقُ دَجاجِ

أقبَلْتُ أرْسُفُ في الحَدِيدِ مُكبَّلاً ... للمَوْتِ ، نَفْسِي عندَ ذاكَ أُناجِي

والنَّاسُ منهم شامِتٌ وعِصابَةٌ ... عَبَراتُهُمْ بي في الحُلُوقِ شَواجِي

قِرْنانِ مُحْتَضِرانِ قد مَحضَتْهُما ... أمُّ المَنِيَّةِ غيرَ ذاتِ نِتاجِ

لمَّا نَزَلْتُ بِحِصْنِ أزْبَرَ مُهْصِرٍ ... للقِرْنِ أرْواحَ العِدَى مَجَّاجِ

نازَلْتُه إنَّ النِّزالَ سَجِيَّتي ... إنِّي لَمِنْ سَلَفِي على مِنْهاجِ

وعلِمتُ أنِّي إنْ أبَيْتُ نِزالَهُ ... أنِّي مِن الحجاجِ لستُ بِناجِ

فَفَلَقْتُ هامَتَهُ فَخَرَّ كأنَّهُ ... أُطُمٌ هَوَى مُتَقوِّضُ الأبْراجِ

ثُمَّ انثَنَيْتُ وفي قَمِيصِي شاهِدٌ ... مِمَّا جَرَى مِن شاخِبِ الأوْداجِ

ولَبَأْسُكَ ابنَ أبي عَقِيلٍ فَوْقَهُ ... وفَضَلْتَهُ بِخَلائِقٍ أزْواجِ

ولَئِنْ قَذَفْتَ بيَ المَنِيَّةَ عامِداً ... أنِّي لخَيْرِكَ بَعْدَ ذلكَ راجِي

عَلِمَ النِّساءُ بأنَّنِي ذو صَوْلَةٍ ... في ساعَةِ الإلْجامِ والإسْراجِ

---

[1] البصري ، الحماسة البصرية ، 3 / 1508 .

الأثباج : ثبج وثباج وثبوج ما بين الكاهل إلى الظهر ، (اللسان ، مادة ثبج) .

شاخب : شخب الشخب و الشُخب ما خرج من الضلع من اللبن ، (اللسان مادة شخب) .

الأوداج : ودج والأوداج ما أحاط بالحلق من العروق ، (اللسان ، مادة ودج)

طفطف : أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع أي الخاصرة ، (اللسان ، مادة طفطف) .

اشترط الحجاج على جحدر العكلي مواجهة الأسد ومصارعته منفردا مقيدا أو البقاء في السجن[1] ، وكلا الأسدين يقف في مواجهة الموت، فإما الموت اليومي واستمرار المعاناة ساعة بعد ساعة ، وإما مواجهة المصير المحتوم . ولكنها مواجهة غير عادلة إذ كان الشاعر مقيدا يرسف بالحديد مثقلاً بالقيود ، بينما الأسد مطلقا يدفعه الجوع والحاجات العضوية للنيل من خصمه .

وعلى غير عادة الشعراء الصعاليك واللصوص استهل الشاعر مقطوعته بذكر المرأة التي كانت غائبة في كثير من مقطوعاتهم[2] . إلا أن ذكرها جاء لوداعها ، أو لتشهد مواجهته مع الأسد فكان ذكرها لإبراز شجاعته وما يلاقيه من عقبات وظلم . والمواجهة بين الشاعر ومجتمعة أو بين الشاعر والأسد مواجهة بين من يملك الحرية وبين من يسعى إليها و لا يملكها . وفرق واضح بين نفسية من يملك ومن لا يملك ، فكانت ردة الفعل للخلاص من القيود والوصول إلى الحرية ، وكلاهما يبغي تحقيق أمله أما لتلبية حاجة عضوية كالحصول على الطعام ، وإما لتحقيق هدف نبيل أو معنوي يتمثل بالحرية .

فكيف ينظر الشاعر للأسد في هذا الموقف ؟ أنه يصوره بالقوة والضخامة والعبوس ، والتهيؤ والاستعداد للمواجهة ، فعيناه تبرقان كالشعاع ونيوبه العريضة كنصل السيف وحادة كحد السيف وصوت عظامه كنقيق الدجاج وَشعره كعباءة من الديباج . ولا يكتفي بوصف مظهره بل يصف إحساسه بما يخفيه من عداوة وشراسة سيما وانه يلبي حاجة عضوية منعت عنه ، والشاعر يلبي حاجة معنوية[3] للوصول إلى حريته التي صادرها المجتمع وقيدها بالسجن .

وبالمقابل فانه يصف منظره الخارجي وإحساسه بالقلق من المواجهة فهو مقيد بالحديد ومكبل الأطراف ، ويشعر أن المواجهة غير متكافئة بين طرف مقيد يدفعه حب الحرية والانطلاق لما هو فيه ، وبين طليق تدفعه غريزة عضوية لالتهام فريسته [4] ، ولم تكن هذه المواجهة تقتصر على الطرفين في ميدان الصراع ، بل هناك جمهور النظارة الذي يراقب ساحة الصراع ، بين طرف شامت ساخر يثبطه في إقدامه وتضحيته ، وطرف يحس بإحساس الشاعر وعبراتهم تغص

---

(1) السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 113 .

(2) سلامي ، **الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري** ، ص 295 - 299 .

(3) البرزة ، **الأسر والسجن في شعر العرب** ، ص 295 – 299 .

(4) المرجع نفسه ، ص 296 .

في الحلوق فحينا يشعرون بيأس المواجهة وحينا بالأمل والخلاص من قيود الحرية ، والعبرات تملأ المآقي و الشعور بالخوف والقلق والاضطراب يسيطر على النفوس ، ودموع الفرح في وداع القيد والسجن لنيل الحرية .

مواجهة بين خصمين دعتهما المنية فإما الحياة بلا منّ ولا قيد ،وإما مواجهة الموت في نفس راضية كرها للحياة مع القيود[1] . فهذه المنازلة التي يصفها قبل حدوثها والاستعداد النفسي لها ، ولحظات الترقب والقلق والاضطراب ، وإصرار كل طرف على تحقيق هدفه فكانت من اشد اللحظات بما تحمل من حس بالخوف وما تحمل من إثارة وتشويق وانفعال وقلق ، وتسلسل في الأحداث ، وما فيها من حوار مع النفس ودراما داخلية أو منولوج داخلي يدفعه للتضحية أو يدفعه لليأس من الحياة .

نازَلتُه إنَّ النِّزالَ سَجِيَّـتِي	إنّي لمِنْ سَلَفِي على مِنْهاجِ .
وعلمت أنّي إنْ أبَيْتُ نِزالَهُ	أنّي مِن الحجاج لسْت بناجِ

وكانت النتيجة التي تمناها عندما خر الأسد صريعا. وفلق هامته فكان كالبناء المنهار . والشاهد على جرأته وشجاعته تدفق الدم من أوداج الأسد التي لونت قميص الشاعر . وبالرغم من الفوز على الأسد وفلق هامته فانه يرجو الحجاج ليفك قيده ويطلق سراحه ، فجعله الحجاج من المقربين له وأثنى عليه وخلع عليه حلة [2]. وكما بدأ قصيدته بمخاطبة جمل فقد أنهى قصيدته بذكر النساء ، التي تعلم بما عهدت عنه من شدة صولته في ساحات الوغى .

يا جُمْلَ إنّكِ لو شَهِدْتِ كَرِيهَتِي	في يَوْم هَوْلٍ مُسْدِفٍ وعَجاجِ
عَلِمَ النّساءُ بأنّني ذو صَـــوْلَةٍ	في ساعَةِ الإلْجامِ والإسْرَاجِ

فقد كانت المرأة وراء إقدامه في ساحة المواجهة ، ودافعا له لنيل حريته ، بعد طول مكثه في السجن . علماً بأن اللصوص لم يبدأوا قصائدهم بذكر الأطلال أو النساء ؛ لبعدهم وتشردهم ، وذكروا النساء شوقاً وحنيناً إلى الاستقرار ؛ لانقطاع الصلة بينهم وبين أسرهم كانقطاع الصلة بين العذريين خوف الرقيب والقيود الاجتماعية ، بينما كان السجن ومطاردة الدولة لهم سبباً في فرارهم من وجه العدالة .

---

[1] السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 113- 120 .

[2] البرزة ، **الأسر والسجن في شعر العرب** ، ص 98 .

فالقصيدة ذات قافية مجلجلة" وقوية كما أنها تتحلل من الشخصية القبلية فلم يكن أية أشارة للقبيلة ، بل ركزت على ذات الشاعر أو تتحدث عن مذكراته الشخصية التي يذكر فيها معاناته في السجن وغربته المكانية ، وزادت غربته النفسية حينما فرض عليه مواجهة الأسد [1] فكان بين الصمود إمام جبروت الأسد ، أو التخاذل إمامه . ومع صعوبة لحظات المواجهة فتبقى أقل وطأة من الصبر الدائم على المعاناة .

فالشاعر بين موتين ؛ موت يلقى المنية بين نيوب الأسد في المواجهة غير المتكافئة ، أو موت في المصابرة على معاناة السجن ، فكلا الجانبين يحمل طابع الموت [2]، لكن الموت في نزال الأسد فيه الكرامة والشجاعة وإباء الذل ، والموت في غياهب السجن فيه فقدان الحرية والكرامة .

قِرْنانِ مُحْتَضِرانِ قد مَحضتهُما	**أمُّ المنِيَّةِ غيرَ ذاتِ نِتاجِ**
ولئِنْ قَذَفْتَ بيَ المَنِيَّةَ عامــِداً	**أنّي لخَيْرِكَ بَعْدَ ذلكَ راجي**

أما ظاهرة التكرار في الأبيات فقد برزت بشكل واضح .

أنّي مِن الحجاجِ لستُ بِناجِ

أنّي لخَيْرِكَ بَعْدَ ذلكَ راجي

وكذلك في قوله :

أقبَلت أرْسُفُ في الحَديدِ مُكبَّلاً

وتَقَدُّمِي للَيْثِ أرْسُفُ مُوثَقاً

وما التكرار في هذه الأبيات إلا لإثبات ذاته ، وتوكيد شجاعته، حين يسيطر عليه القلق والخوف من بطش الحجاج ، إلا انه يميل إلى الرقة في أسلوب رجاء ليفك قيده ، ولم يقتصر التكرار على ما ذكر بل يؤكد بطولته في قوله :

نازَلْتُه إنَّ النِّزالَ سَجِيَّتِي	**إنّي لمِنْ سَلَفِي على مِنْهاجِ**
فَفَــــلَقْت هامَتَهُ فخَرَّ كأنَّهُ	**أطمٌ هَوَى مُتَقَوِّضُ الأبْراجِ**

---

[1] السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 114 .

[2] البرزة ، **الأسر والسجن في شعر العرب** ، ص 95 .

وعمد جحدر إلى أسلوب التقسيم فجعل من نفسه طرفا في مقابلة الأسد ، وجعل الناس حوله بين شامت بقوته ، وبين قلق على مصيره حيث الدموع شواجي في حلقه .

والنّاسُ منهم شامِتٌ وعِصابَةٌ　　　عَبَراتُهُمْ بي في الحُلوقِ شَواجي

ولا تخلو القصيدة من الصور والألوان والتشبيهات وبروز عنصر الصوت والحركة حين يستحضر صورة الأسد قبل المواجهة[1] ، فجبينه كطبق الرحى ، وجلده كعباءة نسجت من الحرير والديباج ، كما أن سقوطه مضرجاً بدمائه كالأطم وهو البناء الشامخ ، ويبدو ناظراه كالشعاع في السراج ، في حين أن حركته وصوت طفطفته كنقيق الدجاج .

جَهْم كأنَّ جَبينَهُ طَبَقُ الرَّحــا　　　لمَّا بَدا مُتَعجِّرَ الأثبـــاجِ

وكأنَّما خِيطَتْ عليه عبَـــاءَةٌ　　　بَرْقاءُ أو خَلَقٌ مِن الدِّيباجِ

فَفَلقْت هامَتَهُ فخَرَّ كأنّــــــهُ　　　أطمٌ هَوَى مُتَقوِّضُ الأبْراجِ

يَسْمُو بناظِرَتَيْنِ تَحْسِبُ فيهما　　　لمَّا أجالهُما شُعاعَ سِراجِ

وله إذا وَطِئَ المِهادَ تنقُّـــضٌ　　　ولِلِثْني طَفْطفِهِ نَقيقُ دَجاجِ

ودلالات الألفاظ ذات وقع خاص بالنفس "ففلقت هامته" فيها معنى القوة والإصرار والثقة بالنفس فلم يجرح جسده أو يصيب أطرافه ، بل أصاب رأسه وقابله وجها لوجه[2] . في حين كان الشاعر يرسف في الحديد كناية عن ثقل القيود وبطء الحركة ، وكثرة العقبات التي تقف بينه وبين حريته . والمنازلة بينهما كمن دعيا إلى وليمة ولكن ليحتضرا فيها ، و يلون ثياب الشاعر شاخب الأوداج كناية عن اندفاع الدم الذي لون قميصه ويغيب عن هذه الأبيات وصف السلاح وُيستبدل بفعل الشاعر وشدة ضربته .

---

[1] السويدي ، **الاغتراب في الشعر الأموي** ، ص 116- 120 .

[2] المرجع نفسه ، ص 116 .

الخاتمة

كان الاغتراب عند الصعاليك واللصوص تمردا على القبيلة والتقاليد والأعراف ، والغربة التي تتمثل في طرد القبيلة لأفرادها عند سوء تصرفاتهم وكثرة جناياتهم وعدم الخضوع لنظامها وإساءة جوارها . ويتمثل الخروج على القبيلة برفض نظامها وقيمها وأعرافها وتقاليدها ويرى الصعاليك واللصوص بأن خروجهم يحقق انسجاما أو تكاملا مع مجتمع آخر كمجتمع الرفاق المذهبي ، أو المجتمع البديل عن المجتمع الإنساني .

فالخروج نوع من التمرد والثورة بعد فشل القبيلة في تحقيق طموحاتهم وأفكارهم وآرائهم التي تعارض النظام القبلي العاجز عن تحقيق مآربهم فيسعون للثأر حين تقبل القبيلة بالدية ، ولا يرعون حرمة الجوار فتزداد غاراتهم و يسخطون على القبيلة حين تناصر غير أبنائها ، ولا تلبي نداء المظلومين منهم في حين تجير الأفراد الشذاذ وتوفر لهم الحماية كنوع من الشرف والوجاهة وتعاقب شذاذها بالطرد .

فالخروج على القبائل بحث عن الذات واسترداد للحرية بعد مصادرتها .والاغتراب فقدان للهوية وعجز عن التكيف وهروب من الواقع ، لذلك فهو بحث عن معادل موضوعي بعد الاختلال الاقتصادي ، وتخلخل البنية الاجتماعية ، وعدم تلبية الطموحات .

ونجم الاختلال الاقتصادي عن الطبقية والصراع بين طبقة الفقراء وطبقة الأغنياء وكثرت الإتاوات وفرضت الضرائب و المغارم وساء توزيع الثروة ، ونتيجة للتضاد الجغرافي بين بيئة فقيرة صحراوية تنعدم فيها سبل الحياة لقلة الأمطار وشح الموارد ونفوق المواشي كثر التنقل والارتحال خلف الماء والكلأ ، إلى بيئة خصبة تتمتع بالماء والخصب ، وما يتبع الخصب من تمركز الثروة في أيدي قلة من المتنفذين .

ولم يكن الوضع الاجتماعي أسعد حالا فنشأت الطبقية والتميز العنصري بين أبناء الصرحاء وأبناء العبيد ، ويرى ابن الحدادية ما يراه المجتمع بأنه لا يساوي عنزا جرباء بسبب هذه الطبقية ، وكرد فعل للعصبية القبلية ظهرت حركة الشعوبية التي تقلل من شأن العرب ، وتعتز بأمجاد غير العرب ، وجعلت البنية الاجتماعية المضطربة المجتمع العربي ميدانا

للصراعات فكثرت الفتن و الاضطرابات و على رأسها قتل الخلفاء والصراع على الخلافة والطموح بالمناصب السياسية ، و كانت حركة الصعاليك واللصوص عبارة عن حركة فردية ثم ما لبثت أن تحولت إلى عمل جماعي منظم ، فإذا كان عروة بن الورد يسعى إلى أعماله الإنسانية ورعاية الفقراء و المحتاجين ، فإن ابن الحر إضافة إلى أعماله الإنسانية كان يسعى لطموح سياسي لنيل المناصب السياسية بعد أن جمع الشذاذ والخلعاء حوله ، وبدلاً من الإغارة على القوافل التجارية والقبائل أصبح يغير على بيت المال ويقسم غنائمه على المحتاجين .

وإذا كانت أهداف الصعاليك في الجاهلية رفع الظلم ودفع الجوع والفقر عن أنفسهم إضافة إلى النواحي الإنسانية ، فإن أهداف الصعاليك واللصوص في العصر الأموي والعباسي تجاوزت هذه الأهداف المعلنة إلى أهداف سرية كتغيير الخلافة أو إصلاحها أو المشاركة في بنائها . وتبعا لتغيير الأهداف فقد تغيرت الوسائل . من السطو والسلب والنهب على المستوى الفردي ، إلى العمل الجماعي المنظم ، كما كانت هناك وسائل إعلامية كالشكوى والتظلم والمدح والتكسب فإذا ما حققت هذه الحملات بغيتها انقلبت إلى هجاء مقذع بينما حرمت فئات أخرى و لكف الألسن عن التشهير والتعريض زاد العطاء لهذه الفئات . حيث صار هناك نوع آخر وهو الغزل السياسي الذي فيه تعرض لنساء علية القوم كوسيلة للضغط على أصحاب النفوذ لإسكات المُحتجين بزيادة العطاء وكف ألسنتهم .

ونتيجة زيادة هذه الوسائل قال أبو دلف لأبي الشمقمق حين ألح عليه في الاستجداء وكثرة الحيل إما لسداد دين أو لإطعام الجياع أو لشراء أرض أو لإيواء الصغار رد أبو دلف : " أما تفنى هذه الأرضون التي بجانب أرضك " . فكانت الوسائل في العصر الجاهلي تعتمد على قوة السلاح والسطو ، وكان العصر الأموي استمرار للعصبية القبلية بينما اعتمدت الحيلة والتسول والاستجداء ، في العصر العباسي بعد تحضر الحياة والاستقرار في المدن .

فكان شعر الرفض تحدياً للنظام القبلي أو الخلافة أو السلطة نتيجة لعدم التوازن في المجتمع سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية والسياسية ، أو ما يسمى شعر الفروسية الذي خلا من المقدمات والنسيب . و هناك نوعان من الصعلكة نوع اعتمد على قوته وتحلل من الشخصية القبلية لإبراز الذات ونيل الحقوق ، وآخر اعتمد على العصبية القبلية أو السلطة المتنفذة للوصول إلى حقوقه ، والفارق كبير بين من يشق طريقه بذاته لاسترداد حريته التي

سلبها منه المجتمع ولم يوفر له الحياة الكريمة أو يناصره ، وبين من رضي الإقامة في ظل قبيلته ليكون كفردٍ في قطيع .

ولم يستسلم كثير منهم لما يجدونه من تحدٍ وقهر في مجتمعاتهم فالعبودية وسواد اللون والمطاردة وكذلك امتناع المرأة عن الزواج منه والأسر كل ذلك لم يفتّ في عزيمتهم وبقيت نظرتهم الإنسانية وإيثارهم للغير تعويضاً عن الظلم الذي لحق بهم . فخلفاء بني أمية اثنوا على عروة فقال عبد الملك "من زعم أن حاتما أكرم الناس فقد ظلم عروة ". كما أثنى عليه معاوية بقوله :"لو كان لعروة ولد لأحببت أن أتزوج إليهم".

وشعر عروة بالغربة لزواجه من الإماء ، وتفضيل والده لأخيه عليه وشعوره بضعف نهد قبيلة أخواله وكذلك دور والده في حرب داحس والغبراء فهذه الأسباب مجتمعة جعلت منه نفسا أبية ، ذات نزعة إنسانية تعويضاً عن شعوره بالنقص ، فنُصِّبَ زعيما للصعاليك بعد إقامته على خدمتهم واللجوء إليه أيام الشدة ، وإذا أعجب بعض الخلفاء بأخلاقه وسلوكه فإن هناك من كان يعجب بشعرهم لما فيه من إنسانية ورقة في موضوعات الغزل والرثاء ، فخلق البعد عن القبيلة والأسرة والزوجة فيهم مشاعر الشوق والحنين إلى الاستقرار .

فمالك بن الريب لبعده عن وطنه لا يبكيه إلا سيفه وحصانة وأمه وخالاته وبناته. و أقرب ما تكون مشاعرهم في الحنين إلى الأهل لمشاعر العذريين الذين حالت بينهم وبين محبوباتهم أو زوجاتهم قيود المجتمع وأعراف القبيلة والقمع الاجتماعي ، ليخرجوا من عزلتهم التي فرضها عليهم المجتمع ويختفي الشعور بالعُزلة والانقسام ولو نسبت مقطوعاتهم لبعض العذريين دون معرفة قائلها ومناسبتها لعدت من الغزل العذري . و السليك يتبع الممنعة ويرغب عن ذات البذل فيقول[1] :

يَعافُ وِصَالَ ذاتِ البذلِ قلبي   وَيتّبعُ المُمنعَةِ النَّوارا

ويقول عنترة[2] :

وَلَولا الهَوى ما ذَلَّ مثلي لمثلهم   ولا خَضَعَتْ أسْدُ الفلا للثعالبِ

---

[1] المبرد ، **الكامل في اللغة والأدب** ، ص 65 .

[2] عبده ، **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** ، 289 .

ويقول الشنفرى وكأنه يعيش في بيئة حضارية أبياتا في المرأة يسعد بقربها[1] :

فَبِتنا كأن البيتَ حُجّرَ فـــوقنا	برَيحـــانةٍ ريحت عِشاء وظلت
بريحانةٍ من بطن حِلية نورّتْ	ولها أرَجٌ ما حولها غيرَ مسنتْ

وعندما سأل الخليفة عبد الملك بن مروان ليلى الأخيلية عن سر أعجاب توبة بها ، أجابت كسر أعجاب الرعية بك. وقد شاع في حينها الغزل بالزوجات يقول توبة بن الحمير[2] :

فإنْ تمنعوا ليلى وحسنَ حديثِها	فلن تمنعوا مني البُكا والقوافِيا
فَهَلا منعتُم إذ منعتُم حديثَـــــــها	خَيالاً يُوافيني على النأي هادِيا

والصورة المقابلة للسرقة صورة العنف والتحدي فالشنفرى ألى على نفسه أن يقتل مائة ممن استعبدوه ويقول : " إما إني لن أدعكم حتى اقتل منكم مائة رجل " بعد أن عرف ظروف استعباده ، وبعد أن لطمته الفتاة التي عمل في خدمة والدها عندما سأله من أنا ؟ و أخبره حكايته . وغاية التطرف كان في الثأر من قاتل والده في الأشهر الحرم التي يُحرم فيها القتال وفي منى وقت الحجيج . وكان يصنع نبْله بيده ويُعرف بها من قرون وعظام الحيوانات ، واختار المجتمع الحيواني الذي يرى فيه وفاءً وأنسا أكثر من المجتمع الإنساني الذي ينتمي إليه . ويأنف أن يدفن بأيدٍ بشرية ليكون قوتا لرفاقه من ضباع وطيور .

فالصور المتقابلة واضحة في حياة الصعاليك والبيئة والظروف غذّت هذه الفوارق حتى فناتهم كانت بين متمردة وخاملة . ومنهم من لجأ إلى الهجاء كفضالة بن شريك بعد منع العطاء عنه عندما طلب مساعدة ابن الزبير حين شكا إليه طول السفر وقد دبرت ناقته وأصابها الإعياء فرد عليه أرقعها إن هي دبرت ، فقال له ابن فضالة : جئتك مستحملا لا مستشيرا ولعن الله ناقة حملتني إليك . فقال ابن الزبير: إن وصاحبها بمعنى نعم وصاحبها . كما هجا فضالة عاصم بن الخطاب حين قصّر في إكرامه فقال" والله لأطوقنك طوقاً لا يبلى " فقال فضالة في عاصم[3] :

ألا أيّها البَاغِي القِرى لستَ واجـداً	قِراكَ إذا ما بتّ في دارِ عاصمِ
إذا جئته تبغي القــــــرى باتَ نائماً	بَطيناً وأمسى ضيفُه غيرَ نائمِ

---

(1) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، 108/2 .

(2) الأصفهاني ، الأغاني ، 132/4 .

(3) عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ، ص 24 .

ومن أهم النتائج التي حققتها الدراسة أن الاغتراب كان نتيجة الشعور بالظلم والعجز عن التكيف مع المجتمعات ويكون اختيارياً طوعياً وبإرادة الإنسان بينما الغربة كانت لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية وبدأت حركات الصعلكة واللصوصية بشكل فردي ثم تحولت إلى أعمال جماعية منظمة فظهرت الصعلكة في العصر الجاهلي إما رفضاً للنظام القبلي وقيوده أو خلع القبيلة لأفرادها المتمردين لكثرة جناياتهم ولم يكن خروجهم بدافع الغنى والغنائم وإنما لدفع الموت عن أنفسهم ، وفي العصر الأموي كانت الصعلكة واللصوصية استمراراً للعصر الجاهلي من سلب ونهب وقطع الطرق ومعارضة الدولة والإغارة على بيت المال .

أما في العصر العباسي فاختلفت الأساليب والوسائل والأهداف بسبب تحضر المجتمع واستقراره ولجأ العيارون والشطار والطفيليون إلى أسباب الحيلة و الخداع والتسول وألعاب الخفة بدلاً من السطو والنهب والإغارة ، واعتمد قسمٌ منهم على زيارة القصور ومدح الخلفاء والشكوى من أجل تحصيل أرزاقهم ، وانقسم الصعاليك واللصوص والعيارون والشطار الى فئتين : فئة متمردة ثائرةٌ على الأعراف والتقاليد والأنظمة ومنها الفئة التي كانت ذات نزعةٍ إنسانية تؤثر الآخرين على نفسها وتقوم على خدمتهم كعروة بن الورد ، وهناك فئة أخرى ذات طموحات سياسية كعبيد الله بن الحر الجعفي الذي رفض الانضمام تحت أي قيادة وجمع حوله كل الخلعاء والشذاذ وأصبح هدفه الإغارة على بيت المال والإنفاق على رفاقه كما كانت له أهداف ومطامع شخصية .

أما العيارون والشطار فهم حركات شعبية تطالب بالعدالة و رفع الظلم وتأمين القوت ولا يطلبون المستحيل يسطون ويسرقون وينهبون ليدفعوا الموت عن أنفسهم ويرون في السلطة نظام لصوصي لاحتكاره قوت الشعب وتمركز الثورة في يد الفئة الحاكمة والتجار تعطي من تشاء وتحرم من تشاء ، فليس من نهب أو سلب قوت يومه أو ما يستر به جسمه لصاً وإنما اللصوص الذين يحرمون أبناء الشعب من قوته .

المصادر و المراجع

1. القران الكريم .
2. ابن الأثير ، الإمام مجد الدين بن المبارك بن محمد (606 هـ) ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، حرف الضاد .
3. احمد ، محمد فتوح ، الشعر الأموي ، دار المعارف –القاهرة .
4. إسماعيل بن يسار، ديوانه شاعر ودراسة ، يوسف بكار ، دار الأندلس- بيروت ط1 ،1991 .
5. الأصفهاني ، أبو الفرج (356 هـ) ، الأغاني ، شرح عبد الستار احمد فراج ، دار الثقافة بيروت ، 1960 .
6. بدوي ، عبده ، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، 1988 .
7. البزرة ، احمد مختار ، الأسر والسجن في الشعر العربي ، مؤسسة علوم القران ط1 ، 1985.
8. بشير ، آمال محمد ، الاغتراب وعلاقته بمفهوم الذات ، رسالة دكتوراه جامعة عين شمس قسم الصحة النفسية ، 1989 .
9. البصري ، الحسن ، صدر الدين ابن أبي الفرج بن الحسن البصري (ت 659) ، الحماسة البصرية ، تحقيق وشرح ودراسة سليمان جمال ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط1، 1999 .
10. البغدادي ، عبد القادر بن عمر ، (1093هـ) ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، مطبعة بولاق ، د . ت .
11. بكار ، يوسف حسين ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط2 ، 1982 .
12. تأبط شرا ، الديوان، إعداد وتقديم طلال حرب دار صادر ، ط1، 1996.
13. تأبط شرا وأخباره ، الديوان ، جمع وتحقيق وشرح : علي ذو الفقار شاكر ، ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1984.
14. توبة بن الحمير(55 هـ) ، الديوان، شرحه خليل إبراهيم العطية ، دار صادر بيروت ، ط1، 1988.

15. التوحيدي ، أبو حيان (ت 414 هـ) .
1- الإشارات الإلهية ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة - بيروت ، 1973 .
2- الامتاع والمؤانسة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد واحمد الزين ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .
16. الجبوري ، يحيى ، جمع وتحقيق شعر هدبة بن الخشرم العذري (57 هـ) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، 1976.
17. الجندي ، علي ، تاريخ الأدب الجاهلي ،دار الفكر العربي ، القاهرة . د.ت.
18. حاوي ، خليل ، موسوعة الشعر العربي ، شركة خياط للكتب والنشر ، بيروت ، 1994
19. حسين ، الحاج حسن، أدب العرب في العصر الجاهلي، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت - لبنان ، ط1، 1984.
20. حفني ، عبد الحليم ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، الهيئة العامة للكتاب ، 1987.
21. الحوفي ، احمد محمد ، أدب السياسة في العصر الأموي ، ط4 ، دار النهضة – مصر .د.ت.
22. خشروم ، عبد الرزاق ، الغربة في الشعر الجاهلي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1982 .
23. خفاجي ، محمد عبد المنعم .
1- الشعر الجاهلي ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ، ط2 ، 1973.
2- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ،دار الجيل- بيروت .
24. الخطيب ، عبدالله ، الحضارة والاغتراب ،الينبوع للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1998 .
25. ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (681 هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، حققه إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
26. خليف ، يوسف .
1- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، 1986 .
2- في الشعر العباسي نحو منهج جديد ،
3- دراسات في الشعر الجاهلي ، مكتبة غريب – القاهرة .د.ت .

27. خليفة ، عبد اللطيف محمد ، سكيولوجية الاغتراب ، دار غريب ـ القاهرة د ت

28. دراوشـــه ، صلاح الدين احمد ، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي ، مكتبة الفجر ـ الأردن ، ط1 ، 2001.

29. أبو دهبل الجمحي ، وهب بن زمعة بن أسيد (126 هـ) ، الديوان، تحقيق عبد العظيم عبد المحسن ، رواية أبي عمرو الشيباني ، النجف ، 1972 .

30. الراعي النميري ، عبيد بن حصين (97 هـ) ، ديوانه ، تحقيق رينهرت فايبرت ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، بيروت ، 1980 .

31. ديوان الهذليين ، 1- 3 مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، 2003

32. ربابعة ، موسى ، قراءة النص الشعري الجاهلي ، دار الكندي للنشر والتوزيع الأردن ـ اربد 2002 .

33. رجب ، محمود ، الاغتراب سيرة مصطلح ، دار المعارف ، مصر ، ط4 - 1993.

34. زراقط ، عبد المجيد ، دراسات في مفهوم الشعر ونقده ، دار الحق ـ بيروت ، ط1 ، 1998 .

35. الزركلي ، خير الدين ، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب والمستعربة والمستشرقين ، دار العلم للملايين ـ بيروت ،ط14 ، 1999.

36. زكي ، احمد كمال ، شعر الهذليين في العصر الجاهلي و الإسلامي ، دار الكتاب العربي القاهرة ، 1969.

37. زيدان ، عبد القادر عبد الحميد ، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية ط1- 2003 .

38. الزير ، محمد بن حسن ، الحياة والموت في الشعر الأموي .د.ت

39. السكيت ، أبي يوسف يعقوب بن إسحاق (244 هـ) ، شعر عروة بن ورد العبسي، تحقيق محمد فؤاد نعناع ، مكتبة دار العروبة - الكويت ، ط1 ، 1995.

40. سلامي ، سميرة ، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، دار الينابيع ، ط1 ، 2000.

41. سلوم ، داود ، شعر ابن مفرغ الحميري ، (69 هـ) جمع وتحقيق ،نشر وتوزيع مكتبة الأندلس شارع المتنبي بغداد ، مطبعة الأيمان بغداد ، 1968 .

42. السليك بن السلكة ، السليك بن عمرو بن الحارث من تميم (ق 6 م) ، الديوان ، قدم له وشرحه ، سعدي الضناوي ، الناشر دار الكتاب العرب ، ط1، 1994 .

43. السويدي ، فاطمة محمد حميد ، الاغتراب في الشعر الأموي ، مدبولي ، ط1-1997.

44. أبـو سويلم ، أنور عليان ، الإبل في الشعر الجاهلي ، دار العلوم ، 1983.

45. الشايب ، احمد ، تاريخ الشعر السياسي ، دار القلم بيروت ، ط5 ، 1976 .

46. ابـن الشـجري ، أبـو السـعادات ، هبـة الله ، علـي بـن حمـزة ، (532 هـ) ، الحماسـة ، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، (1345 هـ) .

47. شحادة ، عبد العزيز محمد ، الزمن في الشعر الجاهلي ، 1995 .

48. الشـعراوي ، ناهـد احمـد ، دروس ونصـوص فـي الأدب الجـاهلي والإسلامي والأمـوي ، 1993 .

49. الضبي ، المفضل بن محمد بن يعلي ، المفضليات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بيروت لبنان ، ط 6 ، 1942 .

50. ضـيف ، شوقي .

1- العصر الجاهلي ، دار المعارف - بمصر . ط3 ، 1960.

2- العصر الإسلامي ، دار المعارف - بمصر، ط 4 ، 1963 .

3- العصر العباسي الأول ، دار المعارف - بمصر ، ط2 ، 1966 .

51. طرفـة بن العبـد ، الـديوان ، شـرح الأعلـم الشـنتمري ، ، تحقيـق دريـة الخطيـب ، لطيـف الصقال ، 1975 .

52. عامر بن الطفيل العمري ، الديوان ، شرح أبي بكر محمد القاسـم الانباري (305 هـ) ، قراءة علـي أبـي العباس ثعلب ، تحقيق محمود الدليمي ، دار الشؤون الثقافيـة - بغــــداد ، ط1 ،2001 .

53. عبـد الحميد ، سعد زغلول ، فـي تـاريخ العرب قبل الإسلام ، دار النهضـة العربيـة ، بيروت ، ط 1976.

54. عبدالرحمن ، عفيف .

1- الأدب الجـاهلي فـي آثـار الدارسين قديماً وحديثاً، دار الفكـر للنشـر والتوزيع ، 1985.

2- معجـم الشـعراء الجـاهليين والمخضـرمين ، دار العلـوم للطباعـة والنشر ، 1983.

3- معجم الشعراء العباسيين ، دار صادر ، بيروت ط1، 2000.

55. ابـن عبـد ربـه ، أحمـد بـن محمـد ، (328 هـ) ، العقـد الفريـد ، تحقيـق أحمـد أمـين ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1982 .

56. عبد المولى ، محمد أحمد ، العيّارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1986 .

57. الإمام عبده ، محمد ، نهج البلاغة ، اختاره الشريف الرضي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، 14/4.

58. عبيد ، احمد محمد ، شعر الشنفرى الأزدي ، تحقيق ودراسة : احمد محمد عبيد ، المجمع الثقافي – أبو ظبي ، 2000.

59. عروة بن الورد (ت 616 هـ) ، الديوان ، شرحه عمر فاروق الطباع ، دار الأرقم بن أبي الأرقم. د.ت.

60. العشماوي ، محمد زكي ، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، دار النهضة العربية – بيروت ،1981 .

61. عطوان ، حسين .

1- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ، دار المعارف –مصر.

2- الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ،دار الجيل ، بيروت ، ط4 ، 1997.

3- الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، دار الجيل- بيروت ، ط1 ، 1974.

62. العكوك ، علي بن جبلة ، بن مسلم بن عبد الرحمن الانباري (305 هـ) ، شعر علي بن جبلة المعروف بالعكوك ، تحقيق ودراسة احمد ناصيف الجنابي ، مطبعة الآداب النجف الأشرف العراق ، 1971 .

63. عنترة بن شداد ، الديوان ، شرح يوسف عيد ، دار الجيل - بيروت ، ط1، 1992.

64. عيسى فوزي ، أمين فوزي ، في الأدب العباسي ، دار المعرفة الجامعية ، 2003

65. فرحات ، يوسف شكري ، ديوان الصعاليك ، دار الجيل بيروت ، ط1، 1992.

66. فهمي ، ماهر حسن ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ،1970 .

67. فهمي ، عزيز ، المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول ، تحقيق وتقديم ، محمد قنديل البقلي ، دار المعارف بمصر.

68. القالي ، أبو علي إسماعيل القاسم ، الامالي ، دار الجيل- بيروت ،دار الأفاق الجديد، ط2-1987.

69. القتال الكلابي، عبيد بن مجيب المضرحي (ت 70 هـ) ، الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، 1961 .

70. ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، الشعر والشعراء(ت 276هـ)، دار أحياء العلوم – بيروت ، ط 1 ، 1984 .

71. الفوال ، أنطوان ، شرح ديواني ليلى الأخيلية وتوبة بن الحمير وقصة حبهما ، قدم لهما و شرحهما ، دار الفكر العربي بيروت ، ط1 ، 2003 .

72. القيرواني ، ابن رشيق ، أبو علي الحسن ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، ط2 ، 1972 .

73. القيسي ، نوري حمودي .

1- الطبيعة في الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد –بيروت ، ط1 ، 1970.

2- شعراء أمويون ، مكتبة النهضة العربية ، ط1 ،1985.

74. قيس بن الخطيم ، الديوان ، تحقيق ناصر الدين الأسد .

75. كحالة ، عمر رضا ، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، مؤسسة الرسالة.

76. ابن ماجه ، شرح سنن ابن ماجه ، 1613 ، 116/1 .

77. المبرد ، محمد بن يزيد ، (285 هـ) ، الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف ، بيروت ، د. ت .

78. المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين (421 هـ) ، شرح ديوان الحماسة / المجلد الأول ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1 ، 1991 .

79. مروة ، محمد رضا ، الصعاليك في الشعر الجاهلي أخبارهم وأشعارهم ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط 1 ، 1990 .

80. مسلم ، صحيح مسلم ، دار التحرير ، القاهرة ، 1383 .

81. الملوحي ، عبد المعين ، أشعار اللصوص وأخبارهم ، دار الحضارة الجديدة –بيروت ، 1993.

82. ابن منظور جمال الدين بن مكرم (717 هـ) ، لسان العرب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف .

83. الميداني ، أبو فضل احمد بن محمد بن احمد بن إبراهيم (518 هـ) ، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الجزء الأول ، الجزء الثاني ، الجزء الثالث ، الجزء الرابع ، دار الجيل ، بيروت، ط2 ، 1987.

84. النجار ، محمد رجب ، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ، عالم المعرفة ، 1981.

85. جرنبارم ، جوستاف ، شـــعراء عباسيون ، ترجمها وأعاد تحقيقها وراجعها إحسان عباس ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ، 1959 .

86. أبو نواس ، أبو علي الحسن بن هاني (ت 811 م) ، الديوان ، حققه وقدم له فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، لبنان ، بيروت.

87. الهليس، عمرو سعيد ، شعر الوقائع القرن الثاني الهجري ط1، 2002.

88. وانظر، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد37 ، السنة الثالثة عشر لسنة 1989 ، تحت عنوان النزعة الذاتية في الشعر الجاهلي ، دكتور عبد الغني زيتوني ، حلب .

ABSTRACT

Shdifat , FATHI , Alienation in The Poetry of AL-Sa'liik and Robbers Till the End of Abbasi First Era , Supervisor Prof . Dr . Mahmoud Darabseh .

AL-sa'liik and robbers led an unstable and a disorganized life since they passed through pre-sa'laka and sa'laka life. They lived in two types of societies :the tribe society and the society of state and authority. Their life fluctuated a lot. It ranged between challenge, mutiny, recalcitrance and submission and giving in. They lived between gaining freedom and giving it up to lead a secure and a stable life.

Mutiny and rebellion against the fossilized values, rites and laws of the trible or the state emerged among the-sa'liik when their outlooks were not achieved. Mutiny and disobedience were inevitable when AL-Sa'liik tried to get back their freedom. There were three phases of sa'liik. The first phase was giving in their freedom to lead a normal life. The second was the phase of tyranny, dictatorship and despotism. The third was getting back freedom., along with giving up freedom, there was a lack of adaptation. AL-sa'liik were divided into two parties: those rejecting the system, the routine, the conventions and the rites and those who submitted and lived in disgrace and humiliation.

The recalcitrant categories included the repudiated (Khulaãa) whose tribes disavowed due to their misconduct and crimes, and the fugitive who evaded authority and were chased by tribes or authority. They faced either death or prison. Another category was the poor who rebelled against their tribes because of tyranny, poverty and hunger that resulted from hierarchy, segregation and discrimination. The sluggish and indolent who were satisfied with the life of slavery and submissiveness can be added to the previous categories. Those were war captives and sons of female slaves who were disgraced by their mothers. The sa'liik's goals and methods ranged from personal goals like those of Shanfara, human goals like those of Orwah Ibn Al-Ward and political ambitions like those of Ibn AL-Hurr AL-Jafi.

They differed in their ways of realizing their ambitions. Some use burglary, spoliation, robbery, assaulting and violence to do so. Others resorted to complaint or laudation that sought the contentment of the lauded. This laudation turned into satire and defaming if not rewarded.

Poverty and hunger resulting from hierarchy and the sense of inferiority because their social status drived Al-sa'liik to alienation. Color complex with which some were born is another drive. A salve was a slave

by birth and heredity and so was the master. Alienation and estrangement were due to lack of belongingness to society and lack of adaptation.

It was a compulsory estrangement dictated by the economic. social and political circumstances. Or it was caused by a woman who mocked a man because of his colour or poverty, so he emigrates seeking wealth It was an alienation of political dissent aiming at change and reform ,or taking part in authority, getting a political position ,taking part in authority, getting a political position or taking part in conquests. So it was the alienation of being far from home and one's own people, or looking for livelihood and wealth.

Alienation was voluntary because of inability to adapt resulting in lack of belongingness and compatibility. It was preferring loneliness, isolation and self effacement. It was a feeling of anxiety, disturbance and contradiction in which AL-Sa'liik and robbers lived because of the discrepancies between their dark reality and their ambition, external and internal inconsistency, the contrariety between the genuine and the fake existence and the incompatibility between belongingness and lack of belongingness.

Their life was like that of the one who lives in two communities simultaneously. The tribe community in which they experience incompatibility and inconsistency and that of Sa'liik's and robbers' in which they try to be effective partners and take the decisions that will help them realize their ambitions and give them the opportunity to speak their minds and express themselves.

The member of AL-Sa'liik rejects the society that dictates its laws on him and rob him his freedom. Instead of giving up freedom for the sake of a society that provides him with security and stability his freedom was robbed .His right to rebel against this situation was denied, and he was considered to be an outlaw. A concrete example on this is AL-Shanfara's mother and younger brother who were taken captives. His younger brother was obliged to be a shepered and when he cast a look at his master's daughter he was rejected and slapped. The tribal rites were high barriers that he is not allowed to overcome. His father was killed and his mother was taken as a captive and he didn't have the right to average just for being born for a female slave. His black complexion was a disgrace and a sham. Asking for the rights of downtrodden class was considered to be an overstepping of the bounds of all the rites the laws and the rules that enslaved him, it was mutiny and rebellion.

Some rebelled through action and behaviors. Others practiced disobedience through verbal complaint and protesting asking for support from their enemy. An example is Muhrez Al Mukaãber who defamed Bani Odai who didn't give him back his camels as did Al-Maziniaun. Some of AL-Sa'liik with a humanistic trend believed that it is their duty to do justice to the poor.

Contradiction among AL-Sa'liik behaviors is a clear characteristic. Once you find them, so revotionary and a recalcitrant over all the restrictions and the rites that they were called the poets of rejection. On the other hand you find them highly sensitive, affectionate with highly refined human feelings where they remember in their exile how they parted from their beloved and how hardly they concealed their tears, feelings and pain so that their companions won't see them, but tears disclosed and revealed all these their sufferings.

Some of AL-Sa'liik consider themselves to be part of the tribe that gives them protection and security. They are members in a herd and known through the tribe and attributed to their masters. So the member of AL-Sa'liik was a fake personality that gives in its responsibility and evades its duties and blames the tribe or the group to which he belongs. He sees his community as a collaborative one not that of a conflict that results from

individual property. Others see that individual property is a positive aspect that leads to competition.

The platonic love poets complained from remoteness and lack of communication and meeting with their beloved in fear of the informants and denounces and social suppression. AL-Sa'liik poets were chased and exiled. This increased their longing for stability. Their flirtation was directed towards their wives instead of being directed towards their beloved because the husband and the wife were members of AL-Sa'liik and they both suffered from farness and remoteness. But the platonic love poets invented this type of poetry so their relationship with their society tended to be positive and peaceful since they concealed their feelings and accepted loneliness and isolation that resulted in submission and accepting reality. So they evaded challenge and revolt. Where as AL-Sa'liik poets chose violence and recalcitrance and rejected the life of slavery and disgrace to keep their dignity and pride. They preferred to part away from the woman who refused to marry them because of their colour, poverty and their bad image in society. They felt they were strangers and downtrodden so they complained from being far from the tribe that represented for them security and stability. Their relationships with women got worse as a result of their tribal status. The woman represented their existence despite blaming and rejecting them. It was the community suppression that prevented them to be together. But this will prevent her image or phantasm from visiting him as Ja'far Bin Olba pictured his yearning, desire and loyalty to his wife in spite of his prison .